الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر . باتنة .

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية و العلوم الإسلامية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة التاريخ و علم الآثار

الصراع الإسلامي الصليبي على الجبهة الجنوبية

(بيت المقدس . مصر)

(559 –589 هـ /1164 . 1193م)

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط.

إعداد الطالبة

رحمة رواق

إشراف

الدكتور: كمال بن مارس

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د محمد فرقاني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
د.كمال بن مارس	أستاذ محاضر– أ–	جامعة قالمة	مشرفا و مقررا
أ.د مسعود مزهودي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	عضو مناقش
د. باقة رشيد	أستاذ محاضر–أ–	جامعة باتنة	عضو مناقش

السنة الجامعية: 1433–1434هـ/2012–2013 م

بســـــــــــــــــم اللّه الرحمن الرحيم

﴿ و الّذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُم سُبُلَنَا و إنّ الله لَمَعَ المحْسِنِيْن ﴾

سورة العنكبوت

الآية - 69 –

شكر و تقدير

انطلاقا من قول النبي صلى الله عليه و سلم:" لا يشكر الله من لا يشكر الناس" يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر و عظيم الامتنان و العرفان إلى من سعدت بالتتلمذ على يده، لمن منحني من فكره الرشيد و رأيه السديد ما أعانني على إخراج هذه الرسالة إلى حيز النور ، فهو الذي تبنى الفكرة و بتوجيهاته السامية و إرشاداته الحكيمة استطعت أن أخطو خطوة ثابتة في كتابة موضوع الرسالة ، فكل الشكر و الوفاء و التقدير إلى أستاذي الجليل الدكتور كمال بن مارس الذي سعدت بإشرافه على رسالتي و إكمال مشواري العلمي بتوجيهاته و توصياته الكريمة ،حيث لم يبخل علي بوقته و جهده ، فضلا عن تزويدي بعشرات الكتب من مكتبته الخاصة ، فجزاه الله خير الجزاء و جعل ذلك في ميزان حسناته .

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور محمد فرقاني و الدكتور مسعود مزهودي و الدكتور باقة رشيد لتفضلهم بقبول مناقشة الرسالة .

و في الأخير أتقدم بالشكر و التقدير لكل من ساعدني من قريب أو بعيد لإكمال دراستي العلمية خاصة أسرتي التي يعود لها كل الفضل في دعمي و تشجيعي على البحث العلمي.

رحمة

الإهداء

إلى من حفتني بدعائها ليل نهار و حملتني وهنا على وهن،صاحبة التضحية و العطاء و أصل العز و الشرف و الحياء

أمـــي.

إلى الذي غرس البذور و قدم لها الرعاية و طال انتظاره للحظة الحصاد فكان دوما المحفز الأول لي على إتمام دراستي الجامعية و الدراسات العليا

أبي.

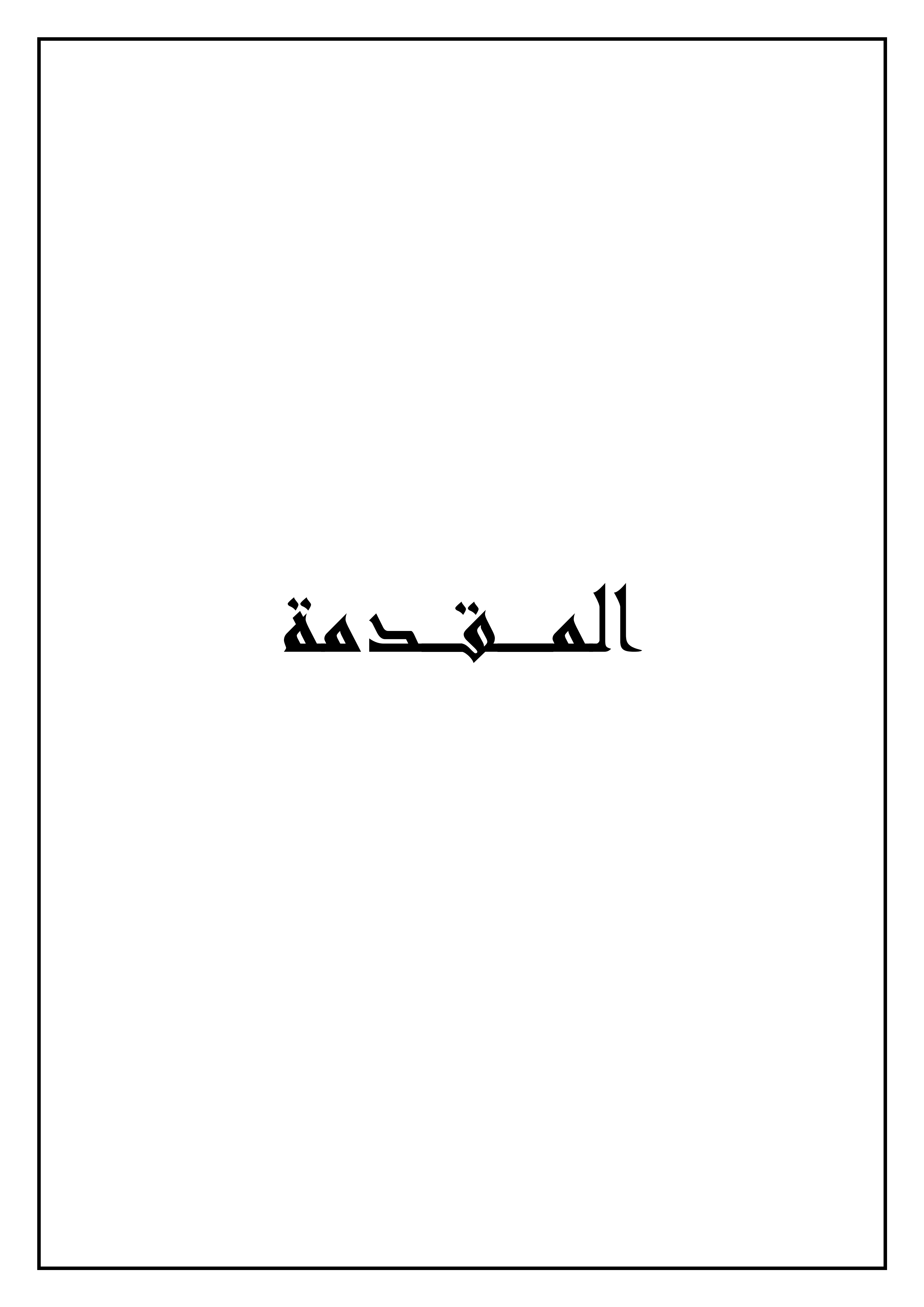
إلى من أحاطوني بالحب و العون و الدعاء إخوتي و أخواتي

أمال ، كريمة، سمية، يونس،وليد.

إلى زوجي، رفيق الدرب الذي طالما شجعني لإتمام دراستي

و إخراج هذا العمل إلى النور.

رحمـــة



المقدمة

الحمد لله حمدا يوافي نعمه و يليق بجلال وجهه و عظيم سلطانه فهو ولي كل توفيق و ملهم كل خير و الهادي إلى كل حق و الصلاة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين و سيد الخلق أجمعين و بعد:

فقد ظل الصراع بين الشرق و الغرب طوال العصور القديمة صراعا حضاريا المنتصر فيه من يثبت تفوقه الحضاري و العسكري على الطرف الآخر مثل ما حدث في حروب الإسكندر و غيرها ،غير أنه و بدخول زمن العصور الوسطى و بداية عهد الحروب الصليبية اصطبغ الصراع بين الشرق و الغرب بصيغة دينية ،فوفدت أفواج الصليبيين في أواخر القرن 5هـ/11م إلى بلاد الشام بفعل دعوات البابا أوربان الثاني لتحرير القبر المقدس بفلسطين .

و بعد استقرار هذه الجماعات الفرنجية على أرض بلاد الشام و تأسيس الإمارات الصليبية (الرها – أنطاكية – طرابلس) تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية سنة 493هـ/1100 م في قلب العالم الإسلامي و سعت إلى تثبيت كيانها في وجود قيادات إسلامية متفرقة و ضعيفة لم يكن همها الدفاع عن البلاد الإسلامية بقدر ما كان همها أولا المحافظة على ممتلكاتها و سلطاتها ،و من أبرز هؤلاء نجد أمراء القبائل العربية في شيزر و طرابلس الذين سمحوا للقوات الصليبية الزاحفة إلى بيت المقدس بالمرور مقابل الحفاظ على إماراتهم، و مثال ذلك ما قام به بنو عمار أمراء طرابلس فلم يكتفوا بذلك بل أرسلوا بعض الأدلاء مع المجموعات المتقدمة من الجيش الصليبي لإرشادهم للطريق .

لقد تمكن الملك الصليبي بلدوين الأول من إيصال المملكة اللاتينية إلى أوسع حدودها في عهده،كما قام في آخر حياته بحملة إلى شبه جزيرة سيناء سنة 511هـ/1118م لإخضاعها إلى سلطة الصليبيين و بذلك شكلت المنطقة الممتدة من بيروت شمالا حتى شواطئ سيناء جنوبا و من صحراء البلقاء حتى سواحل البحر الشامي غربا جبهة عسكرية عمل على تحصينها بسلسلة من القلاع و الحصون التي شيدت لتكون عينا للصليبيين في مناطق نفوذهم .

و من هنا يمكن القول أن توالي الملوك اللاتين الأقوياء (بلدوين الأول ثم بلدوين الثاني ثم فولك الأنجوي و حتى الملك عموري الأول) و تشييدهم للمعاقل و التحصينات الحربية القوية على حدود مملكتهم إضافة إلى انتهاجهم سياسة التحالف مع أمراء دمشق المجاورين لهم حصّن الجبهة الجنوبية و أبعدها عن الصراع الإسلامي لمدة تزيد عن الستين عاما (493-559هـ/1100-1164م) رغم وقوعها في قلب العالم الإسلامي.

و يعود سبب اختيارنا لموضوع الصراع الإسلامي الصليبي على الجبهة الجنوبية (بيت المقدس – مصر) للأهمية الكبيرة التي يكتسبها هذا الموضوع في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب عامة و تاريخ الحروب الصليبية خاصة، و من أهم دوافع اختياري له هي إبراز أهمية الجبهة الجنوبية و هي المنطقة المحصورة بين إمارة دمشق و مصر في الصراع الإسلامي- الصليبي زمن الحروب الصليبية ، أي اعتبارها جبهة عسكرية لوحدها و دراستها دراسة مستقلة تبرز مدى أهميتها في قلب موازين القوى لصالح الطرف المسيطر عليها.

كذلك أردت من خلال هذه الدراسة إثبات الأطماع المادية التي قدم من أجلها أغلب المشاركين في الحروب الصليبية من خلال تبيين الموارد الاقتصادية الهامة التي تمتعت بها الجبهة الجنوبية و التي استولى عليها الصليبيون بعد غزوهم للمنطقة ، و نذكر خاصة المنظمات الدينية التي لبست ثوب الورع و التقوى لكسب ثروات طائلة من الشرق و من تبرعات الغرب الأوربي .

و من أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع هو دراسة و تمحيص الأسباب الحقيقية التي أخرت القوى الإسلامية التي بدأت مرحلة الجهاد المبكر (عماد الدين زنكي و السنوات الأولى من حكم نور الدين محمود) لتوجيه الجهاد و المقاومة الإسلامية إلى مملكة بيت المقدس الصليبية و الاكتفاء فقط بالجهاد في الإمارات الشمالية (الرها – أنطاكية – طرابلس) حتى سنة 559هـ/1164م، و كذلك إبراز التهديد الإسلامي الوحيد الذي تمكن من نقل الصراع في تلك الفترة المبكرة إلى الجبهة الجنوبية و المتمثل في أمير الموصل مودود الذي شن حملتين على مملكة بيت المقدس (505هـ/1111م)،(507هـ/1113م)،غير أن مقتله على يد الإسماعيلية (الحشاشين) قد أوقف أي تهديد إسلامي على المنطقة.

و قد قادنا البحث في موضوع الجبهة الجنوبية إلى تساؤلات عديدة منها :

أين تتمركز الجبهة الجنوبية ؟و فيما تكمن أهميتها في الصراع الإسلامي- الصليبي؟ وكيف كان التوسع الصليبي في الجبهة الجنوبية ؟ و ما هي الطرق و الأساليب التي تمكن من خلالها الصليبيون من إحكام سيطرتهم عليها برغم النقص البشري الذي كانت تعاني منه المملكة اللاتينية ؟ و ما هي الأهمية التي اكتسبها انتصار نور الدين في معركة حارم 559هـ/1164م شمالا في توجيه الصراع نحو جنوب بلاد الشام ؟ و إلى أي مدى تمكنت القوة الإسلامية (نور الدين و صلاح الدين) من استرجاع الأراضي الإسلامية المسلوبة؟ و ما هي الأهمية الإستراتيجية التي شغلتها الجبهة و التي قلبت موازين القوى في الصراع؟ وأخيرا إلى أي مدى عاد بناء الحصون و القلاع على الصليبيين بالنفع في مقاومة الهجمات الإسلامية ؟

أما الدراسات السابقة التي تعرضت للجبهة الجنوبية من الناحية التاريخية (الأحداث التاريخية) فهي كثيرة و تتضمن كل الكتابات التي اهتمت بالمملكة اللاتينية و شبه جزيرة سيناء ، غير أن الجديد في هذه الدراسة هو أنها تتعرض لهذه المنطقة باعتبارها حيز جغرافي واحد له أهمية عسكرية و حربية كبرى في الصراع الإسلامي- الصليبي ، و ما مدى أهمية تفطن القادة المسلمين و على رأسهم نور الدين محمود و من بعده صلاح الدين لأهميتها في قلب موازين القوى خاصة بعد ضم دمشق إلى الدولة النورية و كسر الحاجز الذي كان يحمي المملكة اللاتينية لزمن طويل من أيدي المقاومة الإسلامية .

و أما الجديد في هذه الدراسة هو أنها لا تتناول الحروب الصليبية كحادث تاريخي عسكري فحسب بل تناولت مدى تأثير العامل الطوبوغرافي للمنطقة (الجبهة الجنوبية) في صنع ذلك الحدث العسكري ،و مدى تأثير هذا العامل على التوزيع الديمغرافي في المنطقة و تأثيرات ذلك على الأحداث العسكرية و التاريخية ،فهذه الدراسة تعد محاولة لولوج باب الطوبوغرافيا التاريخية (la topographie historique) في دراسة الجبهة الجنوبية ،إذ حاولنا أن نتبع الوصف الطوبوغرافي للمنطقة كأسلوب للكتابة التاريخية و الالتزام به إذ كنا ننطلق من الموضع المكاني دون الالتزام بالتسلسل التاريخي للأحداث مدعمين ذلك بالوصف العسكري للمعارك و مدى تأثير الوضع الطوبوغرافي في حدوثه بذلك الشكل.

و يعتبر موضوع الجبهة الجنوبية و الصراع الإسلامي- الصليبي عليها من المواضيع الهامة التي تفتقر إلى دراسات أكاديمية و تمحيص ،خاصة في القسم الجنوبي منها و نعني شبه جزيرة سيناء التي قد أهملتها أغلب الدراسات المتخصصة في الحروب الصليبية و ألغت دورها و وجودها على ساحة الصراع بل و مرت عليها في كثير من الأحيان دون ذكر ،غير أن صلاح الدين و من قبله القائد شيركوه الذي قاد الحملات النورية على مصر قد اهتموا كثيرا بسيناء و طرقها خاصة الوسطى منها لاجتناب الخطر الصليبي على الساحل و تحقيق نصر تكتيكي على العدو لمعرفة الطرق و المعابر المختصرة في سيناء للوصول إلى مصر ،كما شيد صلاح الدين العديد من الحصون بها لإحكام السيطرة على هذه الصحراء التي تعتبر بوابة مصر الشرقية ،و من بين الدراسات التي اهتمت بشبه جزيرة سيناء نجد تاريخ سيناء القديم و الحديث لنعوم شقير و كتاب شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى للدكتور أحمد رمضان أحمد.

و قد التزمت بمنهج الوصف التحليلي للأحداث التاريخية و العسكرية و ذلك من خلال جمع المعلومات و الروايات التاريخية المتنوعة من مصادر و مراجع عربية و أجنية و دراستها و تحليلها و مقارنتها بما يخدم موضوع الدراسة و إنجازها بشكل علمي و موضوعي.

على ضوء المادة العلمية التي تحصلنا عليها أمكننا جمع الموضوع و لم شتاته في ثلاث فصول رئيسية و خاتمة ، تناول الفصل الأولى دراسة موقع و أهمية الجبهة في الصراع – الإسلامي الصليبي ،حيث عرفنا بموقعها و جغرافيتها و توصلنا إلى أن هذه الجبهة هي وحدة متماسكة و متصلة جغرافيا قبل أن تكون متصلة حضاريا و عسكريا و تاريخيا ،كما حاولنا إبراز الأهمية الدينية و الاقتصادية التي تكتسيها الجبهة و التي جعلت منها قبلة لمختلف الهجرات عبر أطوار التاريخ ،فقد كانت مهد الديانات السماوية المتعاقبة كما انبعث من أرجائها مجد الإسلام و قد سكن بالجبهة الجنوبية أصناف مختلفة من العناصر السكانية سواء العربية أو الأعجمية ،و لتسهيل الدراسة العسكرية الطوبوغرافية لهذه الجبهة كان من الجدير بنا تخصيص مبحث لأهم الطرق و المسالك فيها و التي كان لها دور كبير في حسم الصراع للطرف الذي أحسن استغلالها و كان خبيرا بها .

و قد خصصنا الفصل الثاني لدراسة التوسع الصليبي في جبهة بيت المقدس مصر بداية بالتوسع في بيت المقدس و الساحل و تأسيس أهم المدن الصليبية مرورا بإقليم الجليل و السواد وصولا إلى إقليم المنخفضات الشرقية الذي مثل أهم إقليم حيوي سعى الصليبيون طوال فترة وجودهم في بلاد الشام لتثبيت وجودهم فيه معتمدين الدراسة الطوبوغرافية و العسكرية لتاريخ المنطقة.

أما الفصل الثالث فقد تعرض لفترة الصراع بين الطرفين الإسلامي و الصليبي في عهد القائدين نور الدين و صلاح الدين ،و قد حاولنا في هذا الجزء إبراز أهمية معركة حارم التي انتصر فيها نور الدين على التحالف الصليبي– البيزنطي و حول الصراع من الجبهة الشمالية إلى الجبهة الجنوبية ثم وجه حملاته إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه،كما تعرضنا لحملاته على بيت المقدس و التي كان الغرض منها فتح الطريق أمام الحملات العسكرية الموجهة لمصر، و في الأخير تطرقنا إلى أعمال صلاح الدين التي توجت بنصر حطين 583هـ/1187م،و أردنا أن تكون خاتمة هذه الدراسة دراسة لأهم القلاع والحصون في الجبهة الجنوبية و شبه جزيرة سيناء حتى تتضح أهمية هذه التحصينات و دورها الفعال في حماية الوجود الصليبي.

أما فيما يخص الصعوبات التي واجهتنا أثناء بحثنا في هذا الموضوع فهي لا تتعدى تلك التي اعتاد الباحث مواجهتها و من بينها صعوبة البحث عن المصادر و المراجع المتخصصة في طبوغرافية الجبهة الجنوبية في العصور الوسطى، كذلك الخلط الموجود في بعض المصادر فيما يخص المواقع الجغرافية و تسمياتها و سنوات الأحداث التاريخية و المعارك ، ما يوجب على الباحث التمحيص أكثر في المادة العلمية الموجودة في المصادر ،هذا من جهة و من جهة

أخرى فقد واجهت صعوبات في جانب تحرير الموضوع باعتباره دراسة جديدة تهتم بالجانب الطوبوغرافي و تهمل جانب التسلسل الزمني الذي يعتبر الطريقة المألوفة لدى أغلب الباحثين.

و لدراسة الموضوع استعنت بجملة من المصادر و المراجع التاريخية و الجغرافية و العسكرية حتى يتسنى لنا الفهم العميق للموضوع و جمع شتاته و من أهم المصادر المستخدمة:

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت:630هـ/1233م).

ولد سنة 555هـ/1160م في جزيرة ابن عمر، و هاجر مع أسرته سنة 576هـ/1180م إلى الموصل و شاهد حروب الصليبيين مع جيش الموصل بعد سنة (584هـ/1188م)،و لهذا اعتمد على ما سمعه و نقله من الحوادث قبل سنة 584هـ/1188م أما بعدها فيعد ابن الأثير مصدرا معاصرا لأحداث الغزو الصليبي ،و قد امتاز ابن الأثير بحسن الإطلاع و النظرة الشاملة للأحداث التاريخية المتعلقة بهذا الغزو، و قد جاءت معرفته و اطلاعه بشكل تفصيلات وقائعية على مستوى عال اقترنت بالتسلسل الزمني الذي امتاز بالدقة في تصوير الغزو و نتائجه.

و قد أفدت من الدرجة الأولى من كتابه الكامل في التاريخ الذي يعتبر من أهم و أبرز المصادر في التاريخ الإسلامي عامة و تاريخ الدولة الأتابكية و الصلاحية خاصة ،و قد تميزت كتابته بالرؤية الدقيقة الفاحصة للأحداث التاريخية التي عاصرها ،و قد تناول هذا الكتاب الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة و حتى أحداث 628هـ/1230م، و هو مرتب على نظام الحوليات ،و قد أفادت منه الدراسة خاصة من خلال ما احتواه الجزءان التاسع و العاشر من معلومات حول أحداث الحروب الصليبية و سيطرة الصليبيين على مدن الجبهة الجنوبية ،و قد ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل أغلب الأحداث التاريخية زمن الدراسة (559-589هـ/1164-1193م)،كما استعنت به في أغلب فصول الدراسة خاصة الفصل الثاني و الثالث حيث أنه دوّن أغلب الحوادث المهمة عن أحوال الدولة النورية و التي لم يكن ابن القلانسي المعاصر لها و الأكثر قربا منها قد دونها.

كما يلاحظ عليه أنه كان ميالا للأتابكة لأنه عاش مع عائلته في كنفهم و عاصر سقوط دولتهم في حلب و الموصل على يد صلاح الدين،لذلك تذكر بعض الآراء أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في كثير من المرات و قد لوحظ ذلك في كلامه عن الوحشة التي حدثت بين نور الدين و صلاح الدين و الذي أظهر هذا الأخير بمظهر الخادم الخائن لسيده.

أما كتابه الثاني "الباهر في الدولة الأتابكية " فقد احتوى على مادة تاريخية قيمة تبين سياسة الدولة النورية تجاه المملكة اللاتينية، و قد قدم فيها ابن الأثير وصفا مفصلا لأحداث معركة حارم ،كما أنه عرض بشكل مفصل للعلاقات النورية – الفاطمية ، و يعد بحق مصدرنا الأساسي في هذا الجانب ،إلا أن رواياته مطابقة في الكثير من الأحيان لما ورد في الكامل ،كما أن ابن الأثير تجنب في كتابه الباهر الحديث عن الصراع النوري- الصلاحي.

أما ابن القلانسي: أبو يعلى بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت: 555هـ/1160م).

نشأ في أسرة دمشقية امتازت بالثقافة الدينية و الأدبية ،كذلك كان كاتبا و أديبا،تولى رئاسة ديوان دمشق مرتين فجمع بين كتابة الإنشا (ديوان الرسائل) و كتابة الحساب (ديوان الخراج) فأتيح له أن يطلع على محفوظات الدولة في دمشق ،و أن يتعرف على الكثير من الأمور السياسية خلال حكم الأتابكة من أبناء طغتكين لدمشق ،و يعد كتابه "تاريخ دمشق" أو المعروف بإسم "ذيل تاريخ دمشق " من الكتب القيمة التي تعالج فترة هامة في تاريخ المسلمين و هي فترة الحروب الصليبية،و تعود أهمية هذا المصدر لكون مؤلفه كان معاصرا للأحداث و شاهد عيان عليها فزودنا بالمعلومات التي جمعها إما عن القوى الإسلامية أو مملكة بيت المقدس ،كما قدم ابن القلانسي إشارات قيمة عن سياسة نور الدين محمود الداخلية و الخارجية خاصة بعد عام 539هـ /1154م و هو عام إخضاع دمشق للسيادة النورية ،كما أفدنا منه خاصة في الفصل الثالث من الدراسة حيث أمدنا بمادة تاريخية مفصلة عن العلاقات النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية.

ابن العديم: كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: 660هـ/1261م)
ولد ابن العديم سنة 588هـ/1192م ،و هو من أسرة عريقة في حلب نشأ فيها و تعلم في مدارسها على يد العديد من العلماء و رافق أباه في بعض رحلاته إلى دمشق و بيت المقدس و العراق و الحجاز ،و جالس العلماء، و من هنا جاءت أهمية كتابه "زبدة الحلب في تاريخ حلب" فقد أعتبر من أهم المصادر المستخدمة لسرد وقائع معركة حارم التي كان نصر نور الدين فيها بداية لاتجاه الصراع الإسلامي- الصليبي نحو الجبهة الجنوبية .

أبو شامة :الحافظ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: 665هـ/1267م)
ولد بدمشق 599هـ/1267م ،و عرف بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ،تفقه في المذهب الشافعي و هو مؤلف "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية" الذي حفظ فيه أبو شامة كثيرا من روايات البرق الشامي للعماد الأصفهاني التي فقدت أغلب أجزائه ،و روايات أبي طيء الشيعي،و الكتب و المناشير التي كان يصدرها القاضي الفاضل بتوقيع نور الدين ،و ما نقله عن ابن الأثير في باهره و ابن القلانسي في ذيله، و قد تناول

أبو شامة في مصنفه أحداث الفترة الممتدة من سنة 540هـ/1145م ، و حتى سنة 597هـ/1200م ،و قد زودنا أبو شامة بمعلومات قيمة عن الصراع في الجبهة الجنوبية فكتاب الروضتين يعتبر بحق موسوعة شاملة لأحداث و تفاصيل عهدي نور الدين و صلاح الدين .

و من بين مؤرخي العصر الأيوبي نجد ابن واصل:جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله (ت:697هـ/1297م)، ولد بحماة سنة 604هـ/1208م ،و تلقى بها علومه الأولى ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق و حلب و بيت المقدس و الكرك و القاهرة و بغداد و مكة و المدينة ،و نبغ في علوم كثيرة و له مصنفات عدة ،أقام بمصر مدة طويلة فعاصر الحملات الصليبية المتأخرة و سقوط الدولة الأيوبية .

و يعد كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب المصدر الأول لدراسة تاريخ بني أيوب لما فيه من تفاصيل عنهم قلما توجد كاملة في كتاب آخر،و هو كتاب حولي أرخ فيه مؤلفه للحوادث المهمة حتى سنة 682هـ/1262م،اعتمد ابن واصل على من سبقه من المؤرخين المعاصرين فنقل العديد من روايات القاضي الفاضل وابن شداد وابن الأثير ، و قد أفادت الدراسة خاصة من هذا الكتاب في الفصل الثالث الذي أمدنا فيه هذا المصدر بأبرز و أهم المعلومات عن جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين و فتوحاته و انتصاراته.

و مما يؤخذ على ابن واصل أنه لم يميز بين "الفتح" و "الاستيلاء" فكان يصف دخول نور الدين لبعض المدن الإسلامية التي احتلها الصليبيون بأنه استيلاء.

كما تحدث بهاء الدين يوسف ابن شداد (ت: 632هـ/1234م) في كتابه "النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية" عن سيرة صلاح الدين و أهم منجزاته ، و يعد هذا الكتاب من أهم المصادر التي أرخت لحياة الملك صلاح الدين و جهاده ضد الصليبيين ،ذلك أن مصنفه التحق بخدمة صلاح الدين منذ سنة 584هـ/1188م و كان ملازما له ،و من هنا تأتي أهمية هذا المصنف كون كاتبه كان شاهد عيان على الأحداث و مشاركا بها و قد تناول ابن شداد الأحداث التي بدأت منذ سنة 558هـ/1162م و أنهاه سنة 589هـ/1193م و هي سنة وفاة صلاح الدين يعد هذا الكتاب من أهم المصادر التي أرخت لحياة الملك الناصر صلاح الدين و جهاده ضد الصليبيين منذ بداية تأسيسه للدولة الأيوبية و حتى استرداده لبيت المقدس كما ذكر بنود صلح الرملة و تفاصيل الحملة الصليبية الثالثة ،و قد كان أسلوبه سليم و دقيق و خالي من الأساليب البلاغية .

كما يعد كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي لكاتبه العماد الأصفهاني أبو عبد الله محمد بن محمد (ت:597هـ/1200م) من أهم الكتب لدراسة تاريخ الحروب الصليبية في عصر صلاح الدين ،فقد تناول الأحداث من سنة(583-589هـ/1187-1193م) ،و تأتي أهمية هذا المصنف كون مؤلفه كان معاصرا و شاهد عيان على أحداث تلك الفترة و كان ملازما لصلاح الدين خاصة بعد نصر حطين و ما وقع بعده من عمليات استرداد و قد أفدنا منه كثيرا خاصة في صراع صلاح الدين مع الصليبيين و جهوده في محاربة الصليبيين و استرداد الجبهة منهم

و قد تميز أسلوبه بالإسراف في المحسنات اللفظية و الصياغة البديعية التي تضطر الباحث في كثير من الأحيان لاستعانة بالقواميس،و التي أذهبت الكثير من دقة سرده للوقائع التاريخية،غير أن تأليفه يحوي الكثير من الروايات التاريخية الممتازة التي تستحق العناية.

و يعد ابن شاهنشاه الأيوبي (ت: 616هـ/1220م) من مؤرخي البيت الأيوبي و كتابه مضمار الحقائق و سر الخلائق هو رواية لشاهد عيان تميز بالدقة في وصف الأحداث ،و قد استعنا به خاصة في وصف استعدادات الحصار و الحملات المتتالية التي قام بها صلاح الدين على إقليم المنخفضات الشرقية و بخاصة قلعة الكرك.

و باعتبار الدراسة التي قمنا بها على الجبهة الجنوبية دراسة جغرافية طبوغرافية أكثر منها تاريخية فقد استعنا بكم كبير من المصادر الجغرافية و الرحلات خاصة في الفصل الأول و التي زودتنا بالمعلومات عن طبيعة الجبهة زمن الحروب الصليبية و من أهمها:

"معجم البلدان" لياقوت الحموي بن عبد الله (ت: 732هـ/1332م) و هو بمثابة موسوعة جغرافية قائمة بذاتها نظرا لوفرة المادة التي أوردها،فتجد فيه عن البلدان و الأقاليم و المدن و الجبال و الأنهار و كتاب معجم البلدان مرتب وفق الحروف الأبجدية ،و لا غنى عنه للباحث في التاريخ و الجغرافيا و الأدب و تاريخ البلدان خاصة في تحقيق أسماء المدن و البلدان و القلاع و القرى و الحصون التي تناولنها الدراسة ،إضافة إلى أن ياقوت كان يورد أثناء تعريفة بالبلدان معلومات اقتصادية هامة أفادتنا كثيرا في الفصل الأول من الدراسة.

إضافة إلى أبو الفداء (ت: 732هـ/1332م)و كتابه "تقويم البلدان" الذي يعتبر من أهم المصادر الجغرافية التي اتسمت بالدقة في تحديد الأطوال و المسافات و قد كانت له أهمية كبيرة خاصة في تحديد جغرافية الجبهة ، و كتاب "البلدان" لليعقوبي (ت:192هـ/905م) و كتاب "المسالك و الممالك" للإصطخري (ت:350هـ/960م) و "كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي (ت: 387هـ/960م) كتاب المسالك و الممالك لإبن

حوقل (ت: 356هـ/966م) و كذا كتاب ابن خرداذبة (ت: 300هـ/912م) المسمى" المسالك و الممالك" و الذي أفادنا في معرفة أهم طرق التجارة التي استخدمها يهود الرذانية ، و كتاب آثار البلاد و أخبار العباد للقزويني (ت:682هـ/1283م) و غيرهم من المصادر الجغرافية.

أما كتب الرحالة فقد زودتنا بمعلومات هامة في أغلب مجالات دراسة الموضوع منها الطرق و المسالك المجال الاقتصادي خاصة المحاصيل و الزراعات المتنوعة في الجبهة الجنوبية و كذلك التوزيع الديموغرافي للسكان و أهم طوائفهم و أجناسهم كما لم يغفلوا الجانب التاريخي و العسكري و حتى الطوبوغرافي و من أهم الرحالة الذين استعنا بهم في موضوعنا :

الرحالة ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسي (ت: 614هـ/1217م) و قد سجل ابن جبير كل ما شاهده في بلاد الشام في كتابه "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير من خلال زيارته لتلك البلاد سنة 580هـ/1184م ،و ابن جبير رحالة أندلسي معاصر لزمن صلاح الدين أفادتنا رحلته في وصف بعض الطرق منها طريق دمشق – صور– الساحل التي مر بها بنفسه أثناء عودته إلى بلاده ،كما وصف لنا استعدادات صلاح الدين في دمشق لحصار حصن الكرك الذي لطالما هدد طريق الحجاج بين بلاد الشام و الحجاز ،و قد اندهش ابن جبير لما لاحظه في بلاد الشام من تبادل تجاري بين المسلمين و الصليبيين برغم الحروب الطاحنة التي تشتعل نيرانها بينهم .

ناصر خسرو (ت: 480هـ/1087م) و رحلته سفر نامة ،ولد سنة 394هـ/1003م،وفي عهد السلاجقة خدم حاكم خراسان و تولى أمر خزانته في مرو مدة طويلة ،قام برحلته المشهورة و هي رحلة تقع حوادثها بين سنة (437 هـ – 444هـ/1045–1052 م)،بدأها من مرو في خراسان ،مارا بأذريبيجان و أرمينية و الشام و فلسطين و مصر و الحجاز و نجد و جنوبي العراق ثم عاد إلى إيران منتهيا إلى مدينة بلخ في خراسان و وصل ناصر خسرو فلسطين سنة 438هـ/1046م حيث زار بيت المقدس و مدن :عكا و قيسارية و الرملة و طبرية،و قد زودنا ناصر خسرو بمعلومات هامة عن النشاط الاقتصادي الذي يمارسه سكان الجبهة الجنوبية خاصة الزراعة و الزراعة ، و التي لم يذكرها سواه ،كما ذكر في رحلته بعض الطرق التي مر عليها و التي أفادتنا خاصة في الفصل الأول من الدراسة.

إضافة إلى هذه المصادر السابقة الذكر فقد استفدنا من عدد من المصادر الأخرى من بينها على سبيل المثال لا الحصر ابن خلدون (ت:808هـ/1405م) و كتابه "العبر و ديوان المبتدأ و الخبر" و ابن تغري بردي (ت: 874هـ

/1469م) و كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة" و المقريزي (ت: 745هـ/1442م)و كتابه "السلوك في معرفة دول الملوك" و "المنتظم في تاريخ الأمم و الملوك" لابن الجوزي(ت: 597هـ/1202م)و كتاب "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة" لابن شداد الحلبي (684هـ/1285م)و كتاب" المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء (ت:732هـ/1331م) و كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" إضافة إلى جملة من المصادر الأخرى.

كما استعنا في هذه الدراسة بمجموعة من المصادر اللاتينية المعربة و التي تعبر عن وجهة النظر الصليبية في هذا الصراع القائم بين الطرفين (الإسلامي و الصليبي)و يأتي على رأس هذه المصادر كتاب المؤرخ الفرنجي الكبير وليام الصوري "الحروب الصليبية"بأجزائه الأربعة و الذي أستخدم في كل مراحل البحث خاصة فيما يتعلق بوصف المعارك و تشييد الصليبيين للقلاع و غيرها من الأعمال،أما مؤلفو الحوليات من أمثال فوشيه الشارتري و ريموندا جيل و بطرس توديبور فقد كتب أصحابها على أحداث الحملة الصليبية الأولى و سيطرة الصليبيين على بيت المقدس.

كما اطلعنا على جملة من المراجع المختلفة، من بينها مراجع الحروب الصليبية العامة التي على رأسها ما كتبه المؤرخ الكبير سعيد عبد الفتاح عاشور "الحركة الصليبية" و "أضواء جديدة على الحروب الصليبية" و " تاريخ أوربا في لعصور الوسطى" و كتاب محمد مؤنس عوض "في الصراع الإسلامي الصليبي (السياسة الخارجية للدولة النورية)" ،إضافة إلى ما كتبه محمد كرد على "خطط الشام" و كتب محمود الحويري "الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرن الثاني عشر الميلادي" و "بناء الجبهة الإسلامية المتحدة"، و "ماهية الحروب الصليبية" لقاسم عبده قاسم ،وغيرها التي أفادتنا في كل فصول الدراسة خاصة في تفاصيل الأحداث التاريخية التي مر بها الصراع الإسلامي- الصليبي على الجبهة الجنوبية .

إضافة إلى كتابي محمد جمال الدين سرور"تاريخ الدولة الفاطمية" و أيمن فؤاد السيد "الدولة الفاطمية تفسير جديد" اللذان أفادا في دراسة موقف الدولة الفاطمية من الوجود الصليبي في الجبهة الجنوبية ،و أهم الحملات التي شنها الوزير الأفضل على المملكة اللاتينية قبل أن يتوجه الصراع الإسلامي – الصليبي إلى الجبهة الجنوبية.

كما استعنا في الفصل الأخير خاصة بجملة من الكتب اهتمت بالصراع الإسلامي – الصليبي على عهد نور الدين و صلاح الدين و من أهمها: حسين مؤنس "نور الدين محمود زنكي" و محمد فريد أبو حديد "صلاح الدين الأيوبي و عصره" أحمد الشامي "صلاح الدين الأيوبي و الصليبيون"،إضافة إلى كتب الجغرافيا الحديثة و الرحلات و التي لم يكن من غنى عنها في الفصل الأول لدراسة جغرافية الجبهة الجنوبية إلى جانب المصادر الجغرافية .

كما استعنت بجملة من المراجع الأجنبية المعربة لعل أهمها كتاب الحروب الصليبية لصاحبه ستيفن رنسيمان بأجزائه الأربعة و الذي كانت له أهمية خاصة في جميع مراحل البحث لأنه تعرض لدراسة الجبهة بطريقة تخدم المنهج الذي استعمل في الدراسة (الطوبوغرافيا التاريخية)، إلا أنه و بطبيعة الحال كان كغيره من المؤرخين المستشرقين الذين يسعون دائما في كتاباتهم للميل إلى الجانب الصليبي و الانحياز لصفه و تبرير تصرفاته ،و قد سار على وتيرته في ذلك أغلب الغربيين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية منهم أنتوني بردج و كتابه "تاريخ الحروب الصليبية" و جوناثان رايلي سميث الذي كتب عن الحملة الصليبية الأولى كتاب عنوانه "الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية" ،و كذا كتاب "الإسبتارية" ،و كتاب "الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية" لكلود كاهن ،إضافة إلى كتاب "تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى" لهايد و الذي أفادتنا دراسته كثيرا في معرفة الوضع الاقتصادي للجبهة الجنوبية خاصة العلاقات التجارية المختلفة بين الطرفين الإسلامي و الصليبي.

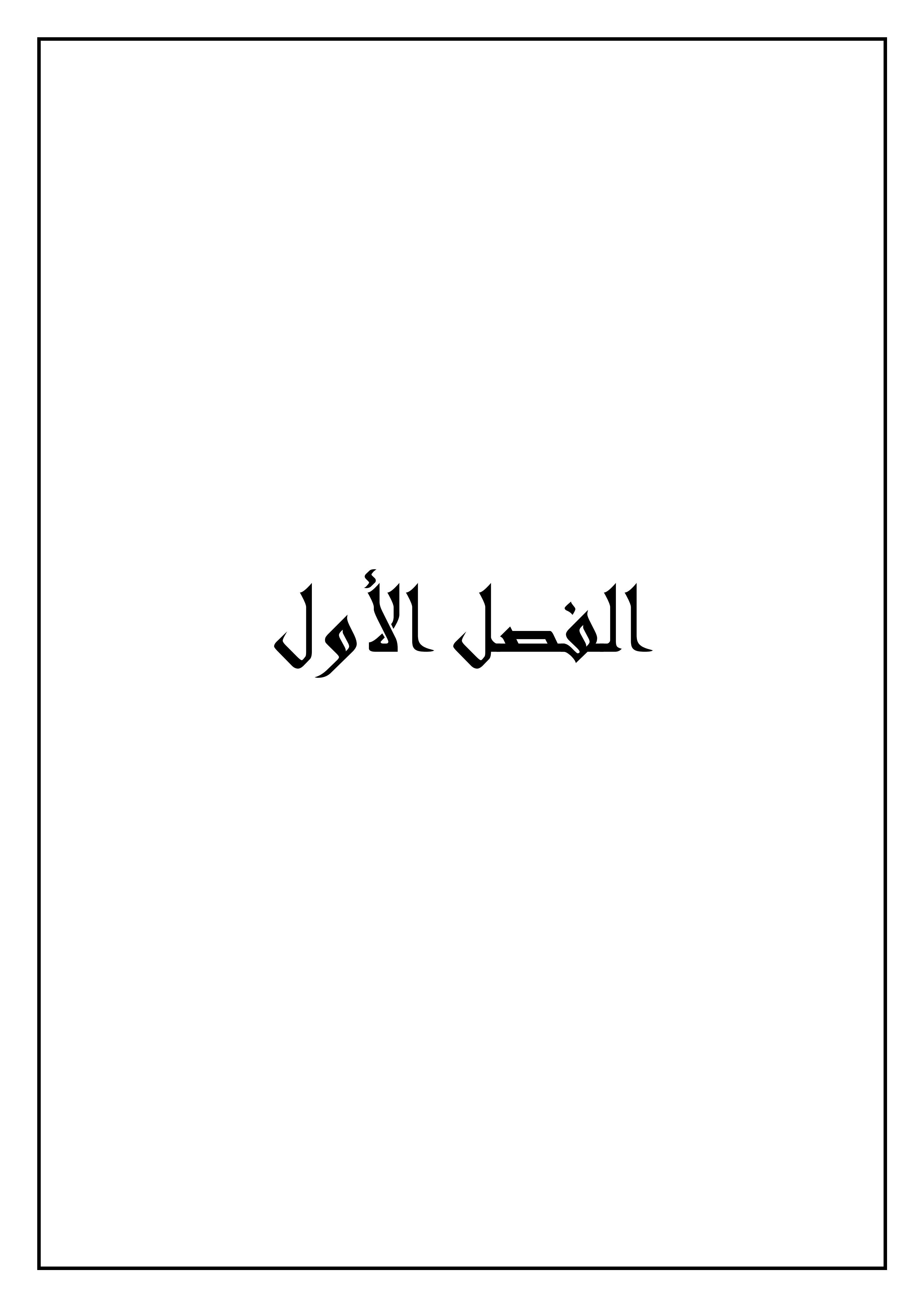
أما كتاب سميل "فن الحرب عند الصليبيين " فيعتبر من أهم كتب فن الحرب و الذي ساعد البحث في دراسة طرائق القتال و فن ترتيب المعارك و الجيوش و كذا وصف المعارك خاصة معركة تل الجزر و كذا وصف الحصون و إدراج أهم الأحداث التي مرت على تاريخ ذلك لحصن،كما استعنت في هذا المجال (التحصينات) بما كتبته مرفت عثمان في كتابها "التحصينات الحربية و طرائق القتال".

و بالنسبة للمراجع الأجنبية فقد اطلعنا على ما تيسر منها و يأتي في مقدمتها René Grousset, "l'épopée des croisades" و Archer,The Crusades " و هما من أهم مؤلفات الحروب الصليبية الشاملة و قد أفادا الدراسة خاصة في الأحداث التاريخية العامة ،إضافة إلى كتاب

Nicolle and Adam hook, crusader castles in the holy land (1097-1192)

و كتاب Ronni Ellenblum, cuisader castles and Modern History اللذان استعنا بهما في دراستنا للقلاع و الحصون.

و في الأخير أرغب إلى من يعثر لي على خطأ أن ينبهني إليه فأشكر سعيه و أثني عليه ،أو يعذرني فإن أعقل الناس أعذرهم للناس ،و لا أقول إن كل خطأ سهو جرى به القلم بل أعترف أن ما أجهل أكثر مما أعلم ،،و ما تمام العلم إلا لله وحده الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.



الفصل الأول

الفصل الأول: موقع الجبهة الجنوبية و أهميتها في الصراع الإسلامي الصليبي.

المبحث الأول: الموقع الجغرافي للجبهة الجنوبية.

1. -الإطار الجغرافي للجبهة الجنوبية
2. جغرافية الجبهة الجنوبية و طبيعة مناخها

المبحث الثاني: الأهمية الدينية للجبهة الجنوبية بالنسبة للصليبيين.

المبحث الثالث: الأهمية الاقتصادية للجبهة الجنوبية.

1. الزراعة
2. الصناعة
3. التجارة (الداخلية – الخارجية)

المبحث الرابع: العناصر السكانية في الجبهة الجنوبية و موقفها من الصراع.

1. -المجتمع الإسلامي.
2. – المجتمع المسيحي.
3. – اليهود

المبحث الخامس: أهم الطرق و المسالك التجارية و العسكرية في الجبهة الجنوبية.

المبحث الأول: الموقع الجغرافي للجبهة الجنوبية[1]

1/ الإطار الجغرافي للجبهة الجنوبية :

امتدت حدود الجبهة الجنوبية على أطراف مملكة بيت المقدس الصليبية (493 هـ/1100م) و شبه جزيرة سيناء المصرية ، حيث وصلت حدودها الشمالية إلى جبال الجليل[2] و مدينة بيروت [3] و امتدت جنوبا حتى وصلت العقبة[4] مرورا ببئر السبع[5] و بحر القلزم[6] (البحر الأحمر)،هذا الأخير الذي امتد على حدود شبه جزيرة سيناء مكونا

---

(1) أنظر الخريطة رقم (1).

(2) **جبال الجليل**: تسمى في العصور الوسطى بجبل عاملة نسبة إلى قوم عاملة الذين نزلوا بها و هم من عرب اليمن، و هي من أعمال صيدا و بيروت من ساحل دمشق، تتصل بجبال لبنان، و تنتشر بها القرى و تكثر بها الثمار و بخاصة الزيتون و قد ذكر ابن جبير في كتابه الرحلة منطقة الجليل التي مر بها أثناء عبوره على طريق دمشق– صور، و يذكر أن عليه حصني شفيق أرنون و تبنين و غيرها من القلاع الصليبية . **أنظر** : المقدسي، أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم مطبعة بريل، ط2،ليدن ،1909، ص 162.ابن جبير، الرحلة، تقديم: محمد مصطفى زيادة، مركز ودود للمخطوطات ،(ت.د)، ص 209– 210– 211. ياقوت الحموي، معجم البلدان،م2 دار صادر، بيروت، 1977، ص 157، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، تحقيق، يحي عبارة ج2،دار صادر، (د،ت)، ص 127، أبو الفداء ، تقويم البلدان، دار صادر،بيروت، (د،ت)، ص 288،القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج4،دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ص 86. رضا السيد حسن ، الصليبيون و أثارهم فير جبل عامل، دار مصباح الفكر، بيروت، ص 14– 23.

(3) **بيروت**: ثغر من ثغور الشام على ساحل البحر الشامي، ومعنى بيروت بالعبرانية «الآبار»، وهي بقرب مصب نهر الك لب "Lycus " أخذها الفرنج عام 503هـ/ 1109م و استرجعها صلاح الدين سنة 583هـ/ 1187م، **أنظر**، الأعلاق الخطيرة،ج2، ص 147، أمين واصف بك، معجم الخريطة التاريخية للممالیك الإسلامية، تحقيق ، أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية ،(د،ت) ص 39 .

(4)أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مؤسسة روزا ليوسف، القاهرة، 1977، ص 31.

(5) أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية ،ترجمة.أحمد غسان سبانو – نبيل الجيرودي ،مراجعة: سهيل زكار ،دار قتيبة ،دمشق،1985م ، ص 118.

(6) **بحر القلزم** : و هو البحر الأحمر الحالي، وكلمة قلزم تعني مضيق، و سمي البحر بهذا الاسم نسبة إلى مدينة القلزم، أسمها القديم كليسما "Clysma"، و خليج القزم يعرف في كتب اليونان باسم هيروبوليت Heroopolie، و قد خربت هذه المدينة في القرن 5هـ/ 11م ، و على أنقاضها أنشأت مدينة السويس الحالية في القرن 6هـ/ 12م و سمي الخليج بخليج السويس. **أنظر**: ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : جمال الدين الشيال،ج 2 ،(د.م.ن) (د.ت)، ص 127، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 117، المقريزي، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق، محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، ج3، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة1997، ص 50،595.أمين واصف بك، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، ص 95.

خليج العقبة[1]و خليج السويس[2] و حد الجبهة من الشرق بحيرة طبرية [3] و الحولة[4]و نهر الأردن[5]إلى صرخد [6] إلى الكرك[7]و الشوبك[8]على حدود البلقاء [9]وصولا إلى أيلة [10]،و لم تتجاوز حدود الجبهة الجنوبية وادي الأردن شرقا[11]

---

(1) **خليج العقبة**: يحد سيناء الجنوبية من الشرق طوله من رأس محمد إلى قلعة العقبة نحو ما يقارب مئة و ثمانون كيلومترا ،و عرضه ما بين اثنا عشرة كيلومترا إلى اثنان و ثلاثون كيلومترا و فيه ثلاثة جزر،جزيرة تيران ،جزيرة سنافر و جزيرة فرعون . **أنظر**:نعوم بك شقير ،تاريخ سيناء القديم و الحديث و جغرافيتها ، تقديم :محمد إبراهيم أبو سليم ،دار الجيل ،ط1،بيروت،1991م ،ص61.

(2) **خليج السويس**: يحد سيناء الجنوبية من الغرب و طوله من سيناء إلى رأس محمد نحو مئتان و سبعون كيلومترا و عرضه من ثمانية عشر كيلومترا إلى اثنتان و ثلاثون كيلومترا ، **أنظر** : نعوم شقير ،المرجع السابق، ص15.

(3) **بحيرة طبرية** : تقع إلى جنوب الجولان ،بينها و بين دمشق مسيرة ثلاثة أيام ، سميت نسبة إلى مدينة طبرية المطلة عليها ، و يبيلغ طول البحيرة ثمانية عشرة كيلومترا و عرضها أربعة عشرا كيلومترا ، تصب فيها جبال لبنان الشرقية و ماؤها عذب يخرج منها نهر الأردن المعروف بالشريعة ، **أنظر**:المقدسي ،أحسن التقاسيم ،ص 161،القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد ،دار صادر ، بيروت، (د.ت) ،ص 217، أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص243، القلقشندي ، صبح الأعشى ،ج4،ص 83-151، أمين واصف بيك ، المرجع السابق، ص76.

(4) **بحيرة الحولة (بحيرة بانياس)**: و هي غلى مرحلة و نصف من دمشق ،من جهة الجنوب الغربي بجانب جبل الثلج (حرمون) تصب فيها عدة أنهار و يخرج منها نهر الأردن و يصب في بحيرة طبرية ،**أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص83-104.

(5) **نهر الأردن**: سمي عند العرب "بالشريعة " منبعه بحيرة طبرية التي تصب فيها مياه جبال لبنان الشرقية و يمر نحو الجنوب شاقا المنخفضات الشرقية (الغور) و عليه قرى كثيرة منها بيسان و أريحا ، و يجتمع مع نهر اليرموك فيصيران نهرا واحدا يصب في البحر الميت (البحيرة المنتنة). **أنظر**: ياقوت الحموي،معجم البلدان ،ج1،ص147-148، العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (المسالك و الأثار و الأقاليم)،تحقيق: عبد اله بن يحي السريحي،ج 1،دار الكتب الوطنية ،أبو ظبي ، 2003،ص118،أمين واصف بيك، المرجع السابق،ص 8،عبد الرحمان حميدة،جغرافية الوطن العربي،دار الفكر،ط 2،دمشق، ص 304، ناجي علوش، الوطن العربي ، الجغرافية الطبيعية و البشرية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1986 ، ص63 .

(6) **صرخد**: من بلاد حوران، و يحرفها أهلها الآن و يقولون صلخد، و هي قلعة حصينة محدثة بنيت في قبل نور الدين زنكي بقليل على جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها . **أنظر**:ياقوت الحموي،معجم البلدان ،ج 3،ص401،أبو الفداء ،تقويم البلدان،ص 259،القلقشندي،صبح الأعشى،ج4،ص106،أمين واصف بيك، معجم الخريطة التاريخية،ص71.

(7) **الكرك**: قلعة حصينة في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها ، بين أيلة و بحر القلزم و بيت المقدس، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج4،ص453،القلقشندي،صبح الأعشى ،ج4،ص155.

(8) **الشوبك**: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان و أيلة و القلزم قرب الكرك و هي على جبل الشراة .**أنظر**: ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج 3، ص370، القلقشندي،صبح الأعشى،ج4،ص156.

(9) **البلقاء**: بين الشام و وادي القرى،كانت من أعمال دمشق،فيها قرى و مزارع كثيرة، **أنظر**: ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج1،ص489، القزويني،آثار البلاد و أخبار العباد،ص156.

(10) **أيلة**: على خليج العقبة،يجتمع بها حجيج الشام و مصر ممن جاء بطريق البحر (بحر القلزم) ، و هي مدينة صغيرة اشتق اسمها من إيلياء ، و هي مدينة اليهود الذين جعل الله منهم القردة لما عصوا أمره بصيد السمك يوم السبت ، فيها قلعة شيدها أحمد بن طولون صاحب مصر ، و خليج أيلة أو العقبة يعرف في كتب اليونان بإسم إلانيتيك،**أنظر**: ياقوت الحموي،معجم البلدان،،ج1، ص292

(11) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي،ص31.

و حدها من الغرب البحر الشامي الذي يمتد على سواحل مملكة بيت المقدس و سيناء مشكلا ما يشبه نصف قوس ،من بيروت و صيدا [1] شمالا مرورا بالسواحل الفلسطينية التي تنتهي حدودها عند رفح [2]، لتبدأ حدود سيناء بمدينة العريش[3]، و هذا ما يؤكده أبو الفداء [4]«الحد الشمالي لديار مصر بحر الروم من رفح إلى ممتدا على الجفار [5] إلى الفرما[6] إلى الطينية إلى بحيرة تنيس [7] و يذكر نعوم شقير [8] «أن ساحل سيناء طول شاطئه من رفح إلى بور سعيد مئتي كيلومترا، و طوله على خط مستقيم نحو مئة و ستون كيلومترا».

وقد ظلت صور [9] وعسقلان [10] بيد المسلمين (الفاطميين) تهددان التواجد الصليبي بالجبهة الجنوبية ، حتى استولى الفرنج على صور عام 518 هـ/1124م ،وقد صمدت حتى هذا الوقت لوقوعها على شبه جزيرة حصينة[11]،أما

---

(1) **صيدا**:مدينة على ساحل بحر الشام شرقي صور،و هي إحدى المدن الفينيقية القديمة،كان لها في القرن السابع عشر قبل الميلاد شهرة كبيرة في التجارة ،**أنظر**: ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج3،ص401،ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ج2،ص146،أمين واصف بك، المرجع السابق،75.

(2) **رفح**:مدينة في طريق مصر بعد الداروم بينها و بين عسقلان يومان و هي على مرحلة من غزة (ثمانية عشر يوما)، **أنظر**:ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج3 ، ص54،أبو الفداء،تقويم البلدان،ص109.

(3) **العريش**: مدينة بين فلسطين ومصر على ساحل البحر الشامي،متفرقة المباني الغالب عليها الرمل،**أنظر**:ابن حوقل، المسالك والممالك ، مطبعة بريل، ليدن، 1872، ص95، القزويني،آثار البلاد وأخبار العباد،ص221 ،أبو الفداء،تقويم البلدان ،ص109، المقريزي،الخطط المقريزية ،ج1،ص589.

(4) تقويم البلدان،ص29.

(5) **الجفار**: الجفر هي البئر القريبة القعر الواسعة، و الجفار أرض بين فلسطين و مصر مسيرة سبعة أيام، و كلها رمال متصلة، **أنظر**: االإصطخري ، المسالك و الممالك ، مطبعة بريل، ليدن، 1879، ص 26-27،ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 144، القزويني، آثار البلاد، ص 179. المقريزي، الخطط، ج1، ص 591.

(6) **الفرما**: مدينة شرقي مصر، تبعد عن ساحل بحر الشام بقدر ثلاثة كيلومترات،كان لها ميناء عامر، و يصل إليها فرع من النيل و تعرف اليوم بتل الفرما، و كانت في زمن الفراعنة حصن مصر من جهة الشرق، لذلك وقع بها جملة من الوقائع الحربية في جميع أزمنة التاريخ المصري ، **أنظر**: الاصطخري، المسالك و الممالك ،ص 26، أبو الفداء، تقويم البلدان ص 106.المقريزي، الخطط ،ج1، ص 591، أمين واصف بك،معجم الخريطة التاريخية، ص 88.

(7) **بحيرة تنيس**: و هي بحيرة بأرض مصر، متصلة ببحر الروم من جهتها الشمالية، و ببحيرة دمياط جهتها الغربية و يصب فيها فرع النيل الشرقي، و حينما يزيد ماء النيل يبعد الماء المالح من حول البحيرة بحيث يصبح ماء البحر عذبا حتى مسافة معينة و يكون ماؤها مالحا أغلب السنة. **أنظر**: الإصطخري، المسالك و الممالك ص 26، ابن حوقل، المسالك،ص 101- 102، ناصر خسرو، سفر نامة، ص40، القزويني، آثار البلاد أخبار العباد، ص 176.

(8) نعوم شقير،المرجع السابق،ص10.

(9) **صور**: مدينة حصينة على ساحل بحر الشام، بناؤها عظيم وهي آخر ثغور فلسطين من الشمال ،كانت في أيام الفينيقيين من أشهر مدن الدنيا، **أنظر**: اليعقوبي، البلدان، دار صادر، بيروت (د،ت)، ص55، القزويني، آثار البلاد، ص217، الفلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص153، أمين واصف بك، المرجع السابق، ص74.

(10) **عسقلان**: مدينة على ساحل بحر الشام،من أعمال فلسطين، بينها و بين غزة تسعة عشرة كيلومتراً، ولما استرجعها صلاح الدين من الفرنج 587م/1191م خربها مخافة استيلائهم عليها وهي على هذا الخراب إلى الآن. **أنظر**: القزويني، آثار البلاد، ص 222، أمين واصف بك، المرجع السابق، ص80.

(11) إضافة إلى موقعها الحصين، فقد ظلت صور ممتنعة عن الصليبيين فترة طويلة لاعتمادها على الخلافة الفاطمية في مصر، و التي حرصت على إمدادها بالمؤن والذخيرة، و لما أحس أهل صور بعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم أمام الغارات المتكررة للصليبيين، اتجهوا نحو طاعة طغتكين أتابك دمشق طالبين =

عسقلان فقد بقيت تمثل الخط الهجومي الأول للدولة الفاطمية،، حتى تمكن منها الفرنج عام 548هـ/1153م [1].

و الساحل بكامله من بيروت حتى بورسعيد من أكثر السواحل استقامة في العالم [2]، فلا يوجد فيه خليج عميق، أو أي خليج آخر مهم ،كما تواجد الشعاب و الرؤوس الجبلية وحتى الرمال الناعمة التي كانت تميز غالبية سواحل الجبهة الجنوبية، جعل رسو السفن فيها غير آمن، و لم يكن الإرساء ميسر إلا في بعض المدن مثل صيدا و صور و صرفند ويافا[3] و عكا و حتى عسقلان و غزة[4] و الداروم والتي كانت موانئها ممهدة[5].

أما فيما يخص سواحل سيناء فقد كانت أسوء حالا من سواحل المملكة الصليبية، لكونها شواطئ رملية ومعرضة للرياح الشمالية الغربية التي تشتد في غالب الأحيان حتى يستحيل على السفن الاقتراب منها لشدة هياج الأمواج، و ليس في هذا الشاطئ ما يصلح لأن يكون ميناء للسفن إلا خليجا صغيرا [6] بين العريش و الشيخ زويد يدعى"جرف الحصتين" عند بئر المصيدة، فإنه إن اعتنى به صلح لأن يكون ميناء للسفن الصغيرة[7]

=حمايته بوصفه أكبر قوة إسلامية قريبة منهم، مقابل الدخول في طاعته و كان ذلك منذ 505هـ/ 1111م. **أنظر**، ابن القلاسني، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار،دار حسان للطباعة و النشر، ط 1، دمشق، 1983، ص 287- 288، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ،ج9، مراجعة و تصحيح : محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية، ط 4، بيروت، 2003، ص145، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 245، صابر محمد دياب، سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1973،ص 268.

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 245.

(2) فيليب حتي، تاريخ سورية و لبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد – عبد الكريم رافق، مراجعة: جبرائيل جبور، دار الثقافة، ط 3، بيروت، (د،ت)، ص32،أنظر الخريطة رقم(2).

(3) لقد كان ميناء يافا من الموانئ التي يصعب على السفن الرسو فيه، خاصة عند اشتداد الرياح و العواصف، غير أنه وباعتباره الميناء الطبيعي لبيت المقدس، خاصة في الفترة الأولى من الاستيطان الصليبي، قام جودفري بتحصين يافا وإصلاح ميناءها، فبدأت الأساطير الصليبية (المدن الإيطالية) بالتوافد عليها حاملة معها البضائع و الحجاج. **أنظر**: إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا ودورها في الصراع الإسلامي الصليبي، دار المعرفة الجامعية، (د،م،ن)، 2007، ص49-73.

(4) **غزة** : مدينة شهيرة بالشام على مقربة من حدود مصر، بها قلعة صغيرة و برها ممتد إلى صحراء سيناء، **أنظر**: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 239، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 98، أمين واصف بك، المرجع السابق، ص 85.

(5) كمال بن مارس، الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية (من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة) ، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة ، 2003، ص9.

(6) نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، ص 10.

(7) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، ص 5.

2 / جغرافية الجبهة الجنوبية و طبيعة مناخها:

أ / جغرافية الجبهة الجنوبية:

امتدت الجبهة الجنوبية على مساحة واسعة، حيث ضمت الجزء الجنوبي لبلاد الشام إضافة إلى صحراء سيناء المصرية، و بهذا أصبح من الصعب على الدارس تحديد جغرافية للمنطقة خاصة مع وجود تباين كبير و اختلاف في طبيعة الجبهة بين سهول و جبال، هضاب و صحراء [1]. و قد كانت الجبهة الجنوبية متصلة فيما بينها عبر التاريخ حيث أن شبه جزيرة سيناء كانت تضم إليها منطقة النجب، هذه الأخيرة التي كانت تدخل في حدود مصر خلال تاريخها الطويل، و منطقة النجب هي المنطقة المشتملة على نصف فلسطين الجنوبي حسب الاصطلاح السياسي الحديث، و التي تبدو في الخرائط [2]على شكل مثلث قاعدته تمتد من الشمال من البحر الميت [3] إلى البحر الشامي ،على خط الخليل- غزة تقريبا، و يقع ضلعاه الآخران على خط الحدود الفلسطينية الأردنية من الشرق و الفلسطينية المصرية من الغرب و يكاد يتلقي هذان الضلعان عند خليج العقبة[4].

و من هنا يمكن القول أن الجبهة الجنوبية متصلة جغرافيا و تاريخيا مع بعضها البعض، يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام:

(1) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص 15.

(2) أنظر الخريطة رقم (2).

(3) **البحر الميت** : و يعرف ببحيرة زغر أو بحيرة لوط، و تسمى في كتب الجغرافيين العرب بالبحيرة المنتنة، يصب فيها نهر الأردن المسمى بالشريعة ، يقع البحر الميت في غور الأردن و هو أخفض منخفض على سطح الأرض حيث يهبط هـ ذا البحر إلى حوالي أربعمائة متر دون سطح البحر، و ترتفع ملو حته إلى حد انعدام الحياة فيه. **أنظر**: الاصطخري، المسالك و الممالك، ص 31، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج 2، ص 155، القزويني ، آثار البلاد و أخبار العباد، ص 141، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 39، القلقشندي ، صبح الأعشى، ج4، ص 83، عبد الرحمان حميدة، جغرافية الوطن العربي ، ص 300.

(4) المقدسي، أحسن التقاسم ، ص 179، أحم رمضان أحمد، سيناء في العصور الوسطى ص 9.

القسم الأول: السهل الساحلي

وهو شريط ساحلي ضيق [1]، يمتد من خليج الإسكندرية شمالا إلى شبه جزيرة سيناء جنوبا [2]، يتكئ على سلسلة من الجبال الواقعة غربه، و يبلغ طوله من جبل الكرمل إلى شبه جزيرة سيناء حوالي 470 كم و من رأس الكرمل حتى طرابلس 173 كم، أي أن طول السهل الساحلي في الجبهة الجنوبية ما يقارب 550 كم[3].

و تمتاز سواحل الجبهة الجنوبية بأنها إنكسارية قليلة التعاريج [4]، و ينقطع امتداد السهل الساحلي في نقطتين الأولى إلى الجنوب من مصب نهر الكلب فيصل الجبل بالبحر، وقد أفاد السكان من هذه الميزة فائدة عظيمة إذ أعط تهم موقعا استراتيجيا هاما حيث شكل ذلك مانعا طبيعيا أمام القوات المعادية السالكة لهذا السهل، و النقطة الثانية عند جبل الكرمل[5]، حيث يتميز السهل بالخصوبة و خاصة سهل فلسطين جنوبا و منطقة الساحل عند لبنان شمالا[6].

و يضيق هذا السهل في الشمال و يتسع في الجنوب، و يتراوح عرضه من (3- 20 كم) فيبلغ أقصى اتساعه عند عسقلان 20 كم و كذلك عند صور و صيدا، و يتخذ السهل الساحلي شكل سهول متعددة في فلسطين "سهل عكا" و السهل الجنوبي، لذلك كانت الطريق الطبيعي لتبادل التجارة[7]، و تنتشر الكثبان الرملية على الساحل[8] و يليها يليها أرض صلبة يقطعها عديد من الوديان الصغيرة، و لا يوجد بهذا السهل ما يعوق العمليات العسكرية سوى لسان التل الذي يخرج من سلسلة تلال يهوذا، و ينتهي عند حيفا غرب البحر أن يوجد جبل الكرمل و يمتد السهل إلى الداخل من البحر شمال حيفا اتجاه الجنوب الشرقي حتى بحيرة طبرية فيما يعرف بمرج ابن عامر [9]

---

(1) عبد الرحمان حميدة، جغرافية الوطن العربي، ص 276.

(2) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 15.

(3) عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 276. ناجي علوش، الجغرافيۃ البشرية و الطبيعية، ص 21.

(4) ناجي علوش، المرجع السابق، ص 21.

(5) **جبل الكرمل**: هو جبل مشرف على حيفا و عليه حصن سمي باسمه على سواحل بحر الشام، و كان يعرف بمسجد سعد الدولة، و الكرمل قرية في آخر حدود الخليل من ناحية فلسطين، **أنظر**: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج4، ص 456.

(6) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص 15.

(7) فيلب حتى، المرجع السابق، ج1، ص 31، ناجي علوش، المرجع السابق ص 22.

(8) المقدسي، أحسن التقاسيم، في معرفة الأقاليم، ص 186.

(9) كمال بن مارس، الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية، ص 8.

أما شبه جزيرة سيناء[1]، فيمتد السهل الساحلي شمالها، و هو سهل كبير يتدرج في الانحدار من هضبة التيه [2] التيه[2] نحو الشمال حتى البحر الشامي و يغطي هذا السهل كثبان رملية و التي تعتبر خزّانات طبيعية لمياه الأمطار التي تسقط في

الشتاء و تسمى هذه المنطقة [3] ببلاد العريش، و التي تتخللها بقاع صالحة للزراعة، مساحتها بالتقريب نحو ثمانية ألاف كيلومتر مربع، و حدها من الجنوب الفاصل بينها و بين بلاد التيه جبل المغارة، و لقد أطلق مؤرخو العرب [4] على معظم معظم بلاد العريش اسم الجفار لكثرة الجفار بأرضها و هي الآبار الواسعة [5]، و موارد المياه قليلة لأن في المنطقة اللهم إلا إلا عدد قليل من الآبار المتناثرة، و تنصرف مياه هذا السهل في وادي العريش و روافده العديدة التي تتفرع من هضبة العجمة، ثم يهبط السهل من مستوى أربعمائة متر حيث تغذيه وادي قرية من الشرق و وادي اليرموك من الغرب، ثم يهبط الوادي إلى مستوى مئتي متر و يشق طريقه في منطقة كثبان رملية حتى ينتهي شرقي العريش [6].

القسم الثاني: السلسلة الغربية.

تقع إلى الشرق من السهل الساحلي و تمتد من جبل الأمانوس شمالا حتى جبل سيناء في الجنوب، مكونا سلسلة من المرتفعات التي تشكل عائقا أمام الاتصال بين البحر و داخل الجبهة الجنوبية و يمكن عبور هذا العائق في عدة مواضع خاصة عند تصدع مرج ابن عامر شرقي عكا و حيفا [7]، و لا يمكن اختراق هذا الحاجز بصورة حقيقية إلا في الطرف الجنوبي للجبهة عند برزخ السويس الذي يجري الاتصال بواسطته مع بحر القلزم (البحر الأحمر)، أو مع الصحراء العربية[8].

---

(1) أنظر الخريطة رقم (3).

(2) **التيه**: و هو تيه بني إسرائيل و يسمى في المراجع الحديث صحراء النقب و هو بين أيلة و مصر و بحر القلزم (البحر الأحمر)، و هو الموضع الذي ضلّ فيه موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لما امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة، فحبسهم المولى عز وجل في هذا التيه أربعين سنة و التيه سهل عظيم مقفر جامد التربة تتخلله بعض الجبال و تغطيه طبقة رقيقة من فتات الصوان. **أنظر**: ابن حوقل، المسالك، ص 104، الإصطخري، المسالك، ص 26، القزويني، آثار البلاد، ص 174، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 109، المقريزي، الخطط، ج1، ص 596، نعوم شقير المرجع السابق، ص 9.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 7.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2،ص 144، القزويني ،آثار البلاد، ص 179.

(5) نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث، ص 24.

(6) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 6.

(7) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص 15.

(8) فيلب حتى، المرجع السابق، ج1، ص 32.

والسلسلة الغربية مؤلفة من صخور رسوبية في الشمال و بازلتية في الجنوب، و ترتفع إلى 1500م قرب صلنفة[1]، و أهم جبال السلسلة الواقعة في الجبهة الجنوبية هي المرتفعات الواقعة جنوب الشام و المسماة الجليل الأعلى، و هي الحدود الشمالية للجبهة –كما ذكرنا آنفا–، و تبلغ مرتفعات الجليل الأعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفد [2] حيث تبلغ 1200م، و هي أعلى قمة في فلسطين و يرتفع الجليل الأدنى إلى 562م عند جبل طابور قرب الناصرة[*][3] و تعتبر جبال الجليل قسم منعزل من جبال لبنان و يتراوح عرضها ما بين 40 و 65كم و يبلغ متوسط ارتفاعها نحو 750م[4].

و تشهد السلسلة الغربية أعظم انقطاع لها في مرج ابن عامر «Esdroelon» الذي يجتاز فلسطين بكاملها فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة [5]و اليهودية في الجنوب، و أعلى ارتفاع في تلال السامرة جبل عيبال و هو الجبل الشمالي و ارتفاعه يصل إلى 937 م و جبل جريزيم 868 م، و هو جبل السامريين المقدس، و تنتقل من هذه التلال بصورة تدريجية لا يشعر بها إلى هضبة اليهودية الكلسية المتراصة و الوعرة التي تبلغ ذروتها جنوبي حبرون [6] حبرون[6] حيث يرتفع جبل جتة إلى 1142م عن سطح البحر[7].

و تستمر السلسلة الغربية في الامتداد إلى داخل شبه جزيرة سيناء، حيث نجد كتلة عظيمة من الجبال تفصل بلاد التيه عن جنوب سيناء، تعرف بجبال التيه، و تمتد هذه الكتلة الصخرية من خليج السويس إلى خليج العقبة في شكل قوس عظيم كثير الامتداد جنوبا [8] و أشهر جبال التيه، جبال الراحة و هي التي تقع في طرف السلسلة الغربي، و هي

---

(1) عبد الرحمان حميدة، جغرافية الوطن العربي، ص 276.

(2) **صفد** :مدينة بجبال الجليل، شرقي عكا، لها قلعة حصينة ذات بساتين تشرف على بحيرة طبرية يحُف بها جبال و أودية، بنـها الفرنج سنة 495هـ/1101م، **أنظر** : القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 150، أمين واصف بك ،معجم الخريطة التاريخية، ص 71.

(*) **الناصرة**: بلدة صغيرة بقرب طبرية على 20كم منها، و منها اشتق اسم النصارى ، **أنظر**: القزويني آثار البلاد، ص 277. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 277.

(3) فيلب حتي، المرجع السابق، ج1، ص 39-40، ناجي علوش، المرجع السابق، ص 20.

(4) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 12.

(5) **مدينة السامرة**: مدين في أرض يهوذا(Judée بفلسطين، آثارها موجودة الآن في قرية صغيرة اسمها سبسطية"" « Sebaste»عند نابلس،واسمها بالعبرية(سوميرون). **أنظر**: أمين بك واصف، معجم الخريطة التاريخية، ص 63.

(6) **حبرون (جبرون)**: قرية بضواحي بيت المقدس و قد غلب عليها اسم الخليل لتواجد قبر إبراهيم الخليل عليه السلام فيها، تقع بين جبال كثيفة الأشجار و سهلها زيتون و تين و هي بين بيت لحم و بيت المقدس بتسع كيلومترات. **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 212. أبو الفداء، تقويم البلدان،ص 241، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 102.

(7) فيلب حتي، المرجع السابق، ج1، ص 39-40.

(8)أحمدرمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص7-8

تطل على رأس خليج السويس و جبال"خشم الطرف"، و هي في طرفها الشرقي تطل على خليج العقبة،وجبال العجة في وسط السلسلة عند تحديب قوسها،و هذه الجبال وعرة جدا.

القسم الثالث: السهل الداخلي

يقع إلى الشرق من سلسلة الجبال الغربية، و هو عبارة عن حوض طويل ضيق يحتل مكانا متوسطا في الجبهة الجنوبية ففي شمال الشام يمثل سهل العمق و البقاع[1]، و يمتد جنوبا من بحيرة طبرية و وادي الأردن حتى البحر الميت، ثم وادي عربة[2] حتى خليج العقبة هو التفرع الشرقي للبحر الأحمر[3]، و تسمى هذه المنطقة عند مؤرخي العرب بالغور[4].

و تعتبر منطقة الغور من أغرب المظاهر على سطح الأرض و خاصة في قسمها الجنوبي حيث يرتفع سطح هذا الحوض المتصدع عند الحولة (بحيرة بانياس) إلى 28م عن البحر، و عند بحيرة طبرية ينخفض 208م عن سطح البحر، و أما عند البحر الميت فانه يبلغ 390م تحت سطح البحر، و لا يوجد مثل هذا الانخفاض الملموس في أي مكان آخر[5].

كما تتميز هذه المنطقة بوجود الزلازل و البراكين، فالهضبة الواقعة جنوبي دمشق و وادي الأردن والبحر الميت تعتبر منطقة زلازل و تدل التصدعات التي حدثت للقلاع الصليبية الباقية، و كذا خراب سدوم و عمورة الشهير في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الميت على ذلك[6]

---

(1) نعوم شقير، المرجع السابق، ص36.

(2) **البقاع**: يمتد بين جبل لبنان الشرقي و الغربي و يرتفع عند بعلبك حيث ينقسم قسم تتصرف مياهه في نهر العاصي شمالا و قسم في نهر الليطاني جنوبا، و يعرف سهل البقاع في الكتاب المقدس (النصارى) بوادي لبنان و في كتب العرب بمرج الروم .**انظر**: أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 16، أمين واصف بك، المرجع السابق، ص 32. عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق،ص 292-293.

(3) **وادي عربة** : يقع ببلاد الشام، و يمتد من البحر الميت إلى خليج العقبة في المنطقة المعروفة بالمنخفضات الشرقية، و يعتبر وادي عربة امتداد لوادي الأردن، **أنظر**: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج4، ص 96- 97. عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 257.

(4) فيلب حتي، المرجع السابق، ج1، ص 40-41.

(5) **الغور**: غور الأردن و هو أعمق منخفض على سطح الأرض إذ يهبط إلى 400م دون سطح البحر عند البحر الميت و قعره إلى 800م، و هو يمتد من بحيرة طبرية على بيسان حتى ينهي عند البحر الميت، فيه قرى و ضياع و العيون و الأنهار و الأودية، هو امتداد لسهل البقاع. **أنظر**: الإصطخري، المسالك و الممالك ص 29، ابن شداد. الأعلاق الخطيرة، ج2، ص 157، ، عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 301-313.

(6) فيلب حتي، المرجع السابق،ص 41.

(7) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص 16.

القسم الرابع: السلسلة الشرقية.

تقع شرقي السهل الداخلي (المنخفض الأوسط) [1]، و هي على خلاف السلسلة الغربية، أي مرتفعة بالجنوب و أقل ارتفاعا في الشمال وتكاد السلسلتان الشرقية و الغربية تتلامسان في الشمال عند نهر العاصي [2]، تبدأ حدود الجبال الشرقية بالتقريب حمص أين يتقابل جبل لبنان الشرقي بجبل لبنان الغربي على طول واحد و ارتفاع واحد تقريبا، ثم تنحدر انحدارا سريعا من هضبة حوران [3] و منطقة التلال التي تجاورها في الغرب و هي مرتفعات حرمون (الجولان)، ومن هناك تستمر في شرقي الأردن إلى تلال جلعاد هضبة مؤاب المرتفعة في جبل سعير جنوبي البحر الميت [4]، حتى تصبح تلالا في منطقة بئر السبع[5] .

وجبال لبنان الشرقية عبارة عن كتلة مرتفعة مستطيلة يبلغ طلها 170 كم تقريبا، تتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي كنظيرتها الغربية، ويبلغ طولها ما بين 20 و 25 كم، و هي أعرض في الشمال منها في الجنوب [6]، و أعلى قممه في الجبهة الجنوبية موجودة في هضبة حوران أين يوجد جبل عجلون [7] 1260م، و جبل جلعاد 1035م، وترتفع السلسلة الشرقية في الجنوب قرب الكرك الى ارتفاع 1150م فوق سطح البحر[8].

وتعتبر هضبة حوران الواقعة جنوبي دمشق أهم جزء في السلسلة الشرقية ،يحدها من الشمال الشرقي منطقة اللجا في الجنوب الشرقي المنطقة الجبلية المعروفة بجبل حوران و ترتفع هذه الكتلة الجبلية في شرقي حوران إلى ما بين 1220م و 1524م، و تقوم بين حوران و البادية(الشام)، و يمتاز سطح هضبة حوران بأنه بركاني في قسمه الأعظم

---

(1) ناجي علوش، المرجع السابق، ص 19.

(2) عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 293، ناجي علوش، المرجع السابق، ص 20.

(3) **حوران** : كورة واسعة من أعمال دمشق في جنوبها الشرقي، ذات قرى كثيرة و مزارع، **أنظر**، البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، تحقيق و تعليق: علي محمد البجاوي، م1، دار الجبل، ط1، بيروت، 1992، ص 435.

(4) فيلب حتي، المرجع السابق،ج1، ص 43-44.

(5) ناجي علوش، المرجع السابق، ص 19.

(6) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 19.

(7) **جبل عجلون**: عرف في العصور الوسطى بجبل عوف و هو شرقي بيسان، يشرف على غور الأردن من الغرب و صحراء البلقاء من الشرق،كان ينزله قوم من بني عوف من جرم قضاعة فعرف بهم كانوا عصاه لا يدخلون تحت طاعة حتى بني عليهم عز الدين أسامة بن منقد أحد أكابر أمراء صلاح الدين سنة 580هـ/1184م هذا الحصن وهو حصين.على صغره، **أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 86- 105- 106، أبو الفداء،تقويم البلدان، ص 245.

(8) فيلب حتي، المرجع السابق،ج1، ص 45-46.

و فيه صخور بازلتية و تربته غنية ما يساعدها على أن تكون الإقليم الأول في إنتاج الحبوب في الجبهة الجنوبية، و تبدأ الأراضي البركانية في التلال جنوبي دمشق ممتدة غربا حتى تشمل الجولان(1).

وتظهر لنا المنازعات المستمرة للسيطرة على هذا الإقليم أهميته الخاصة من الناحية الاقتصادية، فبإستلاء الصليبين على بيت المقدس 493هـ/1099م أدركوا للوهلة الأولى أن عليهم التوسع شرقا لحيازة أقاليم أخرى أكثر خصوبة من الأراضي المقدسة و التي يغلب عليها الجدب و الجفاف، و هنا بدأ الصراع بين حكام دمشق و الملوك اللاتين على منطقة حوران لما تدره على مالكها من محصول زراعي وافر لخصوبة تربتها البركانية ،وأخيرا انتهى الأمر بأن تظل منطقة حوران و الجولان و الكثير من أراضي السواد، أراضي مقاسمات تخضع للسياسة المشتركة الإسلامية و الصليبية و كان ذلك سنة 502هـ/ 1108م، و لم تحصن هذه المنطقة.(2)

القسم الخامس: بلاد الطور (طور سيناء).

تقع بلاد الطور بين شطري بحر القلزم(البحر الأحمر) (3)، فهو يمثل شبه الجزيرة نفسها، و قد حدد الجغرافيون مساحته على وجه التقريب نحو 16020 كم^2، و طور سيناء بلاد جبلية وعرة تتراكم فيها الجبال بعضها فوق بعض، و هذه الجبال تعلو في الوسط و تنحدر تدريجيا إلى الشرق و الغرب فتسير منها الأودية إلى خليج العقبة وخليج السويس(4) و تقتحم الجبال الشرقية خليج العقبة حتى تكاد تغوص فيه فلا تترك إلا طريق ضيقا على شاطئه، أما الجبال الغربية فإنها تنحصر عن خليج السويس في أكثر اتجاهاته فتترك وراءها ثلاثة سهول رملية عظيمة و هي من الشمال إلى الجنوب:

سهل الراحة : و يقع بين جبال الراحة و خليج السويس.

(1) نفسه،ج1، ص 45-46.

(2) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 263، ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة : السيد البار العريني، ج 2، دار الثقافة، بيروت، 1997، ص 157 ، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 247.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 8.

(4) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 22.

سهل المرخاء: و يبدأ من ميناء أبو رديس و يمتد جنوبا إلى رأس محمد مسافة 144كم تقريبا وعرضه عند مدينة الطور نحو 23 كم، و هو معروف في التوراة «ببرية سين»، حيث تذمر بنو إسرائيل من الجوع فأرسل لهم المولى عز وجل المن و السلوى[1].

سهل البقاع: يبدأ حيث ينتهي سهل المرخاء، و يمتد جنوبا إلى رأس محمد مسافة 144كم و عرضه عند مدينة الطور نحو 23 كم[2]. أما جبال بلاد الطور، فأهمها جبل طور سيناء [3]، و إليه تنسب الجزيرة كلها، وهو واقع على نحو 60 كم إلى الشمال الشرقي من مدينة الطور، و في تقاليد رهبان سيناء أنه الجبل المعروف في التوراة بجبل "حوريب" أو جبل سيناء، أو جبل الله، و يذكر أبو الفداء [4]:«أن جبال الطور داخلة في بحر القلزم، حتى يصير بين الطور و بر مصر البحر».

وجبل الطور مؤلف من عدة قمم تدعى جبالا أهامها:

جبل موسى : يعلو نحو 2244م عن سطح البحر و يذكر العمري في كتابه مسالك الأبصار[5] أنه في أعلى الجبل بنيت كنيسة للرهبان بالحجر الأسود[6]، كما بني بعد ذلك فيها جامع صغير، و يمكن أن ترى من قمة جبل موسى معظم بلاد بلاد الطور و جانبا من خليج العقبة.

جبل المناجاة: يقع شمالي جبل موسى، و يظن بدو سيناء أنه الجبل الذي ناجى الله عليه موسى و من ذلك اسمه، و هو يعلو نحو 1828م عن سطح البحر، و في جهته الغربية واد صغير يدعى وادي الدير و قد سمي بهذا الاسم لقيام دير طور سيناء المشهور على جنبه.

---

(1) ابن كثير، البداية و النهاية، تحقيق: جودة محمد جودة و محمد حسيني الشعراوي، ج 1، دار ابن الهيثم، ط 1، القاهرة، 2006، ص 268. ابن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة : سهيل زكار و خليل شحادة، ج2، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ،2000، ص 97.

(2) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 29، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 8.

(3) **جبل طور سيناء**: و هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، نزلت على موسى في الألواح، و المعجزات المتتابعة: **أنظر**: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج4، ص 300. ابن خلدون، العبر، ج2، ص 94.

(4) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 107.

(5) العمري، مسالك الأبصار،ج1، ص 463.

(6) القزويني، آثار البلاد ، ص 197.

جبل الصفصافة: وهو إلى الشمال الغربي من جبل موسى يعلو نحو 2060م، و غيرها من الجبال الأخرى[1].

../المناخ:

اختلف مناخ الجبهة الجنوبية من منطقة إلى أخرى ، فهو متباين بين الحار و البارد و الجاف و الممطر، فنجد مناخ البحر المتوسط يسود المناطق الساحلية [2] و كلما اتجهنا إلى الداخل تزيد الحرارة و تقل الأمطار هذا و تقع الجبهة بين منطقتي الرياح التجارية الجافة التي تهب خاصة على الجزء الجنوبي من بلاد الشام، و منطقة الرياح الغربية المحملة بالرطوبة و التي تهب على الجزء الشمالي نقصد هنا المناطق الساحلية عامة مسببة الأمطار، أما في فصل الصيف فتسود الرياح التجارية الجافة التي تجعل الهواء حارا[3].

كما تكون الرياح الغربية القادمة من الشمال و السائدة في منطقة الساحل الشامي مصحوبة أحيانا بالعواصف و مملوءة بالرطوبة، فتصادف السلسلة الغربية خاصة جبال الجليل و منطقة التلال الوسطى في فلسطين فترتفع، و بارتفاع الهواء فإنه يتمدد و تسقط بعض محتوياته بشكل أمطار،فدمشق مثلا لا يصيبها إلا القليل من المطر، و من هنا يمكن القول أن العوامل المؤثرة على المناخ في الجبهة الجنوبية هي: درجة القرب من البحر و التضاريس و الارتفاع و البعد عن الصحراء و عمل التأثيرات التي مصدرها البحر الشامي و الصحراء الكبرى[4]

و بمعنى آخر فإن غلبة الصحراء على الجزء الأكبر من الجبهة و وجود سلاسل جبلية في جوار الساحل الطويل و التي تمتد بموازاة البحر و ترتفع إلى ما يقارب 4000م في بعض المناطق، بينما تنخفض إلى مستوى الهضاب في أحيان أخرى، فتحجز الجبال إلى الداخل (المناطق الداخلية) عن البحر و الصحراء تدفع بتأثيراتها في الجبال و الهضاب [5]و من من هنا يمكن القول أن درجة الحرارة تعتدل في الساحل بتأثير البحر[6]، و يكثر هطول الأمطار في المنطقة خاصة في المدة المدة الممتدة من شهر أكتوبر إلى شهر أفريل، ولكن تكون أكثر غزارة فوق المرتفعات، و تكون ثلجية بدء من ارتفاع 1500متر، أما في الداخل فتكون التهاطلات ضعيفة كما تكون الفروقات الحرارية اليومية و الفصلية محسوسة [7] و ذلك

---

(1) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 29-30.

(2) ناجي علوش، المرجع السابق، ص 54.

(3) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص 18.

(4) فليب حتي،المرجع السابق ،ج1، ص 48.

(5) ناجي علوش، المرجع السابق ، ص 53.

(6) فيلب حتي، المرجع السابق،ج1، ص 50.

(7) عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 277، ناجي علوش، المرجع السابق، ص 54.

ذلك لأن الحاجز الجبلي المزدوج قد عمل على منع وصول الرياح البحرية المبردة إلى الداخل، أضف إلى ذلك الرياح المحملة بالغبار و القادمة من بادية الشام، فتصبح بذلك حرارة المدن الداخلية مثل دمشق و القدس شديدة و تصل إلى مستويات عالية[1].

بالنسبة لمنطقة شرق الأردن فهي لا تختلف كثيرا عن المناطق الداخلية الأخرى، فنتيجة ارتفاع درجة الحرارة المفرط لا يصيبها إلى النذر القليل من المطر[2] و تسود الظروف المناخية الصحراوية صحراء النقب و لاسيما صدر خليج العقبة، أما البحر الميت فيسود المناخ المداري بجواره[3]

ومرتفعات شرقي الأردن و حران معرضة للرياح المحملة بالرطوبة، بسبب انخفاض تلال السامرة و الجليل، فتتجمع في المنطقة رطوبة كافية لأجل المراعي[4]، و يتمركز في هذه المرتفعات أكثر من 95% من سكان المنطقة ، حيث تكون مقادير الأمطار كافية لقيام زراعة شجرية، بل و حتى لقيام الغابات في جبال عجلون[5]. و إنتاج القمح في هضبة حوران حوران التي كانت و لا تزال مخزن قمح سورية.

على العموم يمكن القول أن الفصول الأربعة تأخذ حكمها في بلاد الشام عامة و المناخ فيه معتدل، غير أن المناطق الجنوبية (جنوب الشام). تكون فيها درجة الحرارة أكثر ارتفاعا من الشمال لقربها من الصحراء العربية جنوبا و بادية الشام شرقا[6].

أما بالنسبة لمناخ شبه جزيرة سيناء فمناخها قاس، يمتاز بشتاء متقلب ممطر نوعا ما و معتدل كلما اقتربنا من البحر الشامي، أما صيفه فمستقر و حار و نادر الأمطار، و سماؤه صافية فيما عدا بعض السحب المنخفضة في الصباح. أما فصلا الربيع و الخريف فالطقس فيها متقلب، كما يتميز بهبوب رياح الخماسين الحارة خاصة في الربيع، و تكثر الأمطار في شمال سيناء على الساحل و تنقص كلما اتجهنا إلى الداخل، و يتميز القسم الجنوبي من سيناء (بلاد

(1) فيلب حتي، المرجع السابق،ج1، ص 50.
(2) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص 18.
(3) عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 302.
(4) فيلب حتي، المرجع السابق،ج1، ص 52.
(5) عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 315.
(6) محمد كرد علي، خطط الشام، ج1، المطبعة الحديثة، دمشق، 1925، ص 53.

الطور) بمناخ المناطق الساحلية المطلة على بحر القلزم(البحر الأحمر) يميل إلى الدفء، أما المناطق الداخلية التي تصل إلى ارتفاعات كبيرة فيغطي قممها الجليد طوال شهور الشتاء، و مناخها قليل التغيير على مدار السنة(1)

و في الأخير يمكن القول أن جغرافية الجبهة الجنوبية و مناخها قد أثر تأثيرا كبيرا على توزيع السكان فيها، فنجد المناطق الساحلية السهلية والتي ميزها المناخ المتوسطي قد جذبت إليها أغلب سكان المملكة اللاتينية من الفرنج ،خاصة و أنهم قد اعتادوا مثل هذا المناخ في بلادهم (غرب أوربا)، كما تمركز التجار الايطاليون بجالياتهم المختلفة على أغلب المدن الساحلية، خاصة صور و عكا، أكبر و أهم موانئ المملكة، و الممهدة طبيعيا، فهي تسمح برسو آمن حتى للسفن التجارية العملاقة.

أما سواحل سيناء، فقد ثبت أن أغلب سكانها قد تمركزوا بالمناطق الشمالية القريبة من الساحل، لاعتدال المناخ فيها و توفر المياه و كذا انتعاش حركة التجارة المارة عبرها، و قد دل على ذلك تلك المخلفات و الآثار الباقية للمدن و القرى المندثرة أو التي لا تزال مأهولة بالسكان و الواقعة على طول ساحل شبه جزيرة سيناء.

و فيما يخص المناطق الداخلية و المرتفعات فقد كان عدد الفرنج فيها قليلا مقارنة مع المسلمين الذين كانوا يسكنون هذه المناطق قبل الغزو الصليبي للجبهة، و يبدو أن العرب قد تمركزوا بالمناطق الداخلية الشرقية لطبيعة هذه القبائل التي ألفت المناخ الحار، فقد استقرت بعض القبائل العربية بالمناطق الشبه الصحراوية و الصحراوية قصد السيطرة على تجارة القوافل و لملاءمتها لطبيعة البدو، أما البعض الآخر فقد أتجه إلى الاستقرار حول الأراضي الخصبة و على ضفاف الأنهار.أدوا على المرتفعات و قد كانت أعدادهم قليلة في الجبهة الجنوبية مقارنة مع شمال الشام ،وذلك لبعدها عن أوطانهم واختلاف مناخها (مناخ حار) عن بلادهم.

---

(1) نعوم شقير، سيناء، ص 85-86، أحمد رمضان، شبه جزيرة سيناء، ص 7-11.

المبحث الثاني: الأهمية الدينيــة للجبهة الجنوبية بالنسبة للصليبيــن

لقد اكتست الجبهة الجنوبية (فلسطين و سناء) أهمية دينية كبيرة على امتداد العصور، فقامت بها اليهودية و النصرانية و انبعث من أرجائها مجد الإسلام، فأصبحت مهوى أفئدة الشعوب المسيحية، و مجاز حجاج المسلمين إلى الأماكن الطاهرة الحجازية [1]، و محط تقديس و تعظيم أصحاب الديانات السماوية،و الفرق المختلفة خاصة و أنه تعاقب على زيارتها و سكناها الأنبياء و الرسل«موسى و عيسى و محمد» خاتم الأنبياء و الرسل- عليهم السلام[2].

و قد برزت الأهمية الدينية لمنطقة فلسطين و سيناء خاصة زمن العصور الوسطى، و التي فيها تحول فيها الصراع بين الشرق و الغرب من صراع حضاري كما كان عليه الحال في حروب الرومان و الفرس و حروب الإسكندر الأكبر و حتى الحروب البونيقية (264 - 146قبل الميلاد)، إلى صراع ديني بين ديانتين (الإسلام و المسيحية)، اعتبرت فيه كل ديانة الأماكن المقدسة من حقها و يجب أن تضع يدها عليها، و قد اشتد الصراع و احتدم خاصة زمن الحروب الصليبية أين حمل الغرب شعار الصليب و وجه حملاته إلى المشرق الإسلامي بغرض استرجاع الأماكن المقدسة في فلسطين.

و من هنا كان لزاما علينا أن نطرح العديد من التساؤلات أهمها. ما هي المكانة الدينية التي تكتسبها الجبهة عامة و فلسطين خاصة، و التي دفعت بالبابوية إلى إرسال حملات صليبية متتالية للاستيلاء و السيطرة عليها؟ و كيف تنامت هذه المشاعر الدينية حتى وصلت حد الحج المسلح أو ما يسمى بالحرب الصليبية؟

و هنا يمكن القول، أن فلسطين قد كانت مهدا للديانة المسيحية فيها عاش المسيح عليه السلام ، و منها انطلق المبشرون إلى جميع أنحاء العالم[3]، أما شبه جزيرة سيناء فقد كانت ملجأ المسحيين الأوائل الذين فروا بدينهم من تعذيب و اضطهاد الأباطرة الرومان الوثنيين، فوجدوا في صحراء سيناء ضالتهم المنشودة فهاجروا إليها و أقاموا في أماكنها المقدسة منذ القرن الثاني الميلادي[4].

---

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، ج1، ص 55.

(2) السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ج1،تحقيق: أحمد رمضان أحمد، دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة، 2005، ص 5.

(3) ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 63.

(4) أحمد رمضان، شبه جزيرة سيناء، ص 22.

وطوال فترة الاضطهاد الروماني للمسحيين في فلسطين مصر، ازدادت حركة الرهبنة [1] "Monachisme" و كان المسيحيون الأوائل يتجهون إلى صحراء سيناء، و أول راهب عرف في التاريخ كان اسمه القديس أنطوان الذي توفي 356م[2]، ثم جاء بعده الراهب المشهور باخوميوس (290- 345م) و هو من أصل سوري، و أول من دعا إلى الرهبنة الجماعية" Cénobitisme" بدل الرهبة الفردية" L'ermitisme"، وقد انتشر نظام باخميوس (الرهبنة الجماعية) في صحراء سيناء و الشام و حتى آسيا الصغرى [3]،ثم انتقلت الرهبنة إلى غرب أوربا مع بداية القرن الثالث الميلادي[4].

و مع بداية القرن الرابع الميلادي و اعتلاء قسطنطين [5] عرش الإمبراطورية [306-337م]، أوقف الاضطهاد الذي لحق بالمسيحية، و عمل على إتباع سياسة متوازنة تجاه القوى الديني المختلفة [6] و قد تجسد ذلك في إعلانه عن مرسوم ميلان 313م، الذي يقضي بمنح المسيحيين الحرية في الدعوة و الترخيص لديانتهم، مساواتها بغيرها من ديانات الإمبراطورية[7].

بعد ذلك توجهت والدة قسطنطين هيلانة " Helana" إلى فلسطين من أجل الكشف عن رفات السيد المسيح- كما يعتقد المسيحيون- و الحصول على كافة متعلقاته، و حسب زعمهم فقد عثرت على خشبة الصلب، و دعم ابنها اكتشافها ببناء كنسية القبر المقدس هناك، منذ ذلك الحين صار الحج [8] إلى تلك البقاع تقليدا قائما لدى

---

(1) **الرهبنة** : هي حركة زهد و تقشف و تصوف و اعتزال عن الدنيا الفانية و الباعث لها هو الشعور بالنفور الذي يمتلك المرء لما للحياة من فسا د، فيذهب به الحال إلى رد فعل سلبي يدفعه إلى الحياة الدينية من خلال الإقبال على الصلاة و التأمل و النسك و التفكير، وقد كان النساك يعيشون عيشة قاسية منعزلة في جهات صحراوية حيث يقضون أيامهم و لياليهم في الصلاة و الصيام و التأمل، **أنظر** : ل.ج.شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة :محمد الدين حفى ناصف، مراجعة: علي أدهم، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص 90. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى (النظم و الحضارة) ،ج2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959، ص 26.

(2) ل، ج، شيني ، تاريخ العالم العربي، ص 90.

(3) مانع بن حماد الجهيني، الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب و الأحزاب المعاصرة ،م 2، دار الندوة العالمية للطباعة و النشر و التوزيع، ط 4، الرياض، (د.ت)، ص 568، عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص 26.

(4) من القرن الثالث إلى القرن الخامس الميلادي ظهرت في أوربا رهبنة متزمتة، رغم أنها جماعية حتى نهاية القرن الخامس أين ظهرت رهبنة معتدلة أتى بها الراهب بندكتين Bendictus (480- 543م) سن فيها لائحة لحياة الرهبنة تنهاهم عن العزلة و أمرهم بالعيش كأعضاء في مجتمع متعاون، **أنظر**: شيني، المرجع السابق، ص 91-92.

(5) يعتقد الكثيرون أن قسطنطين اعتنق المسيحية، و قد بقي جدل كبير في هذا الموضوع. **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 18.

(6) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،ط1، القاهرة، 2000، ص 15.

(7) مانع بن حماد الجهني، المرجع السابق، م2، ص 568.

(8) **الحج (المسيحي)**: و هو الرغبة في الوقوف بالأراضي التي و قف عليها في وقت من الأوقات القديسون، و مشاهدة الأماكن و المواضع التي ولدوا بها و قضوا نحبهم فيها، للشعور بتلك الصلة الروحية بينهم، لم يكن الحج أبدا من أركان الديانة المسيحية (التثليث، التجسد و الصلب و القيامة)، غير أن الجذب=

المسيحيين و قد حرصوا على أن يقتفوا اثر القدسية هيلانة ST. Helana في ذهابها إلى هناك و زيارة كنيسة القيامة [1].

و يبدو أن زيارة بيت المقدس أو الحج إلى كنيسة القيامة و الأماكن المقدسة في فلسطين، كان مرتبطا بزيارة طور سيناء و ما شملته سيناء من مقدسات، فنجد أن القدسية هيلانة لما بنت كنيسة القيامة عام 336م في فلسطين [2]، أمرت ببناء برجين عند طور سيناء في المكان الذي بني عليه الدير الحالي لحماية الرهبان من غارات البدو و ذلك بالقرب من كنيسة العليقة التقليدية التي يعتقدون أن الله عز و جل كلم عندها موسى عليه السلام، و لعل القدسية هيلانة هي التي بنت أيضا كنيسة العليقة الباقية داخل سور الدير إلى الآن[3].

غير أن رحلة القديسة هيلانة لم تكن الرحلة الأولى التي قام بها المسيحيون لزيارة الأماكن المقدسة، فقد بدأت رحلات الحج في الأيام الأولى للمسيحية [4]، غير أن الملاحظ أنه خلال القرنيين الأول الثاني ميلادي لم يكن الحج إلى المدينة المقدسة أمرا ميسورا، بل كان نادرا فالتفكير المسيحي في الزمن المبكر كان ينزع إلى تأليه المسيح، و إلى عالميته، لا إلى بشريته. و لم تشجع السلطات الرومانية الارتحال إلى فلسطين، بل إن مدينة بيت المقدس ذاتها، التي دمرها "تيتوس"القائد الروماني عام 70م و ذلك خلال ثورة اليهود، ظلت خرابا و أطلالا حتى أعاد بناءها الإمبراطور هادريان (117- 138م)فأصبحت المدينة المعروفة باسم ايلياء[5].

و لم يحل القرن الثالث الميلادي، حتى صار الكهف الذي ولد فيه المسيح بيت لحم [6] مكانا معروفا للمسحيين، و صار في وسع المسيحيين أن يرتحلوا إلى هذا الموضع و إلى جبل الزيتون [7]، و خلال هذه الفترة المبكرة وجدت إشارات

=العاطفي نحو الأرض التي شهدت قصة المسيح و مولد المسيحية ظل يشد الناس من إتباع هذا الدين بشكل متصاعد مع مرور الزمن .**أنظر**: ستيفن رنسيمان المرجع السابق ، ج1، ص 62، قاسم عبده قاسم ،ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، القاهرة، 1993،ص23، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 14.

(1) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 15.

(2) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 22.

(3) أحمد رمضان، شبه جزيرة سيناء، ص 22.

(4) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 23.

(5) رسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 62- 63، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 15.

(6) **بيت لحم**: قرية قريبة من بيت المقدس، فيها و لد عيسى عليه السلام، و توجد بها كنيسة المهد، **أنظر**: الإصطخري، المسالك و الممالك، ص 28، القزويني، آثار البلاد، ص 159. رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 25.

(7) المقريزي، الخطط، ج2، ص 740، رنسيمان، المرجع السابق،ج1، ص 63، أشرف صالح محمد السيد، حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، الفسطاط التاريخية، القاهرة، 2007،ص 2.

عن عدد من الأشخاص ذهبوا إلى فلسطين للحج و من أمثلتهم الأسقف فرميليان " Fermilian of cacsates Mazaca" و الذي زار القدس في وقت مبكر من القرن الثالث الميلادي، و كان أسقف قيصرية بآسيا الصغرى[1].

و هكذا كان المسيحيون، و منذ وقت مبكر يزرون القدس و فلسطين لأنهم رغبوا في اقتفاء آثار خطوات المسيح عليه السلام و حوارييه و خطوات الأنبياء، و كذا رؤية الأماكن التي تجسد فيها المسيح، و قد سعوا إلى استعادة أفضل ذكريات العهد القديم و العهد الجديد[2] بأن يروا بأنفسهم تلك المواقع المرتبطة بذكريات المسيحية مثل الموضع الذي و لد فيه المسيح عليه السلام و الأماكن التي تنقل فيها في أرجاء فلسطين للتبشير بالدين الجديد و قد ورث المسيحيون عن اليهود تقديرا كبير لمدينة بيت المقدس[3].

و بانتصار الصليب في القرن الرابع الميلادي نمت شعيرة الحج إلى الأراضي المقدسة [4]في فلسطين و سيناء، خاصة بعد أن بنا الإمبراطور قسطنطين كنيسة القيامة في بيت المقدس في مكان صلب المسيح- حسب اعتقادهم - ذلك عام 336م، و بنت القدسية هيلانة برجين عند طور سيناء في المكان الذي يعتقدون أن السيدة العذراء قد مرت به و معها السيد المسيح عليه السلام. هربا من اضطهاد الحاكم الروماني في بيت المقدس [5]، فأجتمع حول البرجين جماعة من النساك و الرهبان ليأمنوا من اعتداءات البدو، فضلا على أن طبيعة المكان الصحراوية جعلت منه أنسب مكان للسياحة الروحية[6].

ولم يلبث الحجاج أن أخذوا يهرعون إلى الموضع الذي شهد أعمال هيلانة، و ليس بوسعنا تقدير عدد هؤلاء الحجاج، لأن معظمهم لم يتركوا سجلا لرحلتهم، غير أنه حدث سنة 333 م و قبل أن تتم حفريات هيلانة أن مسافرا دون خبر رحلته على امتداد الطريق من بوردو إلى فلسطين [7] و كذلك عثر على وصف لرحلة قامت بها القدسية سيلفيا (إيثيريا) إلى بيت المقدس و سيناء، و في نهاية القرن الرابع الميلادي استقر بفلسطين أحد كبار آباء العالم المسيحي

---

(1) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 63، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 15.

(2) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق ، ص 24.

(3) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 14.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 63.

(5) يعتقد المسيحيون أن السيدة العذراء قد خرجت من بيت لحم مع الطفل يسوع و بصحبتها ابن عمها يوسف النجار إلى مصر، هربا من الحاكم الروماني هيرودوس، و ذلك أن المجوس قد تبأوا بظهور نبي جديد يولد في بيت لحم في فلسطين فأمر بقتل جميع الصبية الذين في المدينة ،غير أن ملاك الرب قد ظهر إلى يوسف النجار وقال له «قم و خد الصبي و أمه و أهرب إلى مصر» ففعل، **أنظر**: أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 50.

(6) نعوم شقير، المرجع السابق ص 489.

(7) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 64.

اللاتيني و هو القديس جيروم S.T.Jérôme و في خلوته في بيت لحم كان يستقبل مواكب المسافرين المتزايدة من المسيحيين الذين جاءوا إليه يسدون واجب الاحترام بعد زيارتهم للأماكن المقدسة(1).

ولم يستهل القرن الخامس حتى صار في بيت المقدس و حولها نحو مائتي دير لغرض استقبال الحجاج (2)، و من الملاحظ هنا أن عملية الحج في البداية اقتصرت على العامة ثم أولئك الذين انحدروا من الطبقة الوسطى، ثم قام بالحج العديد من الملوك و الكونتات و الأساقفة و حتى النساء أيضا، و هو أمر لم يعهد من قبل(3).

و شهد منتصف القرن الخامس ذروة الميل المبكر لزيارة بيت المقدس و سيناء، فالإمبراطورة إدوسيا وهي (ابنة فيلسوف وثني)، استقر بها المقام في بيت المقدس، بعد أن افتقرت حياتها للسعادة في البلاط الملكي و جاء في صحبتها عدد كبير من الارستقراطية البيزنطية(4).

و في عصر الإمبراطور جستنيان (527- 565م)، أقيم دير لرهبان سيناء على سفح جبل من جبال طور سيناء، و كان ذلك سنة 545م و قد نقش تاريخ الإنشاء و اسم المنشأ على لوح من الرخام ما يزال موجدا فوق دير سانت كاترين(5) الحالي، و يبدو أن اعتداءات بدو الصحراء المستمرة على الرهبان في سيناء، هي التي دفعتهم بهم للإستنجاد بالإمبراطور الروماني الذي بنا لهم الدير، و بعث لهم من يحرسهم فيه(6).

و مع بداية القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي، بدأت حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى،و دخلت بلاد الشام بما فيها فلسطين، ومصر بما فيها سيناء تحت السيادة الإسلامية العربية، و قد اتسمت سياسة المسلمين عامة

---

(1) رنسيمان، الحروب الصليبية،ج 1، ص 64 ،ل.ج.شيني،المرجع السابق،ص 90،قاسم عبده قاسم،المرجع السابق، ص24 ،محمد مؤنس عوض،الحروب الصليبية،ص16، محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 25،

(2) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 65.

(3) محمد مؤنس عوض ،الحروب الصليبية،ص25.

(4) رنسيمان، المرجع السابق،ج1،ص65.

(5) **دير سانت كاترين (دير طور سيناء)**:و هو أشهر بناء أو أثر قائم حتى الآن بشبه جزيرة سيناء، بني سنة 545م و هو معقل رهبان سيناء، يقع الدير على سفح قمة جبال طور سيناء على فروع وادي الشيخ، على ارتفاع 1527م عن سطح البحر، و قد بنى الدير على اسم القديسة كاترين التي يعتقد رهبان الدير أن الملائكة قديما، قد حملت جثتها (القديسة كاترين) من محل استشهادها في الإسكندرية سنة 307م و نزلت بها على رأس هذا الجبل، و لكن لم يبق من جثة القديسة إلا الجمجمة و عظم اليدين، و هما محفوظان في صندوق خاص في هيكل الكنيسة بالدير حتى اليوم، **أنظر** :القزويني، آثار البلاد، ص 197، نعوم شقير، المرجع السابق ص 32-33، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى،54- 59.

(6) نعوم شقير، المرجع السابق ،ص 492.

بالتسامح الديني تجاه أماكن المسحيين المقدسة [1]، و قد ثبت ذلك من خلال ما جاء في العهدة العمرية لسكان إيلياء (بيت المقدس) عام 15هـ/ 636م و التي تقضي باحترام الحرية الدينية للمسحيين و الإبقاء على مقدساتهم [2]. و قد استمر مفعول هذه العهدة جاريا رغم تداول الدول الإسلامية على حكم فلسطين، أما طور سيناء في العصر الإسلامي، فقد كانت له مكانة مرموقة، و ليس أدل من ذلك أن الرسول صلى الله عليه و سلم قد حرص منذ وطئت أقدامه الكريمة حدود سيناء في أيلة عند زيارته لتبوك [3]، أن يعطي رهبانها عهدا بعدم التعرض لهم و لأديرتهم بشيء.و قد عرف هذا العهد عند رهبان سيناء بالعهدة النبوية[4].

لقد شهد الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة في الجهة الجنوبية نشاطا من خلال توطد العلاقات بين الدولة العباسية خلال[5] عهد الرشيد (170-194هـ/786-809م) و شارلمان (162- 198هـ/778-813م)، ففي نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أهتم شارلمان كثيرا برفاهية الأماكن المقدسة، و قد لقي ذلك ترحيبا كبيرا من الخليفة الرشيد، الذي بذل لشارلمان كل التشجيع لإنشاء مؤسسات في بيت المقدس لإرسال الصدقات لكنيسة القيامة،وقد سعى هارون الرشيد من خلال ذلك لكسب حليف ضد بيزنطا العدو التقليدي للمسلمين، غير أن ما جرى من انهيار إمبراطورية شارلمان زمن خلفائه و نهوض الإمبراطورية البيزنطية جعل تدخل الفرنج قصير الأمد، ولم يعد له من ذكرى سوى ما أنشأه شارلمان من فنادق، و فيما كان يؤدى من الشعائر اللاتينية في كنيسة القيامة[6].

كما لم يجد المسيحيون في جنوب الشام و مصر في سلطة الفاطميين ما يضايقهم فقد وردت أسماء عدد كبير من

---

(1) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 16.

(2) الطبري، تاريخ الرسل و الملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ج3، دار المعارف،ط2،القاهرة،(د.ت)، ص 608، الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص 235-242. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 347- 348، ابن كثير، البداية و النهاية، ج 7، ص 242، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب،تحقيق:عبد الحميد ترجيني،عماد علي حمزة،ج 19،دار الكتب العلمية ،ط 1،بيروت،2004،ص109، السيوطي ، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ،ج2 ،ص 194.

(3) **تبوك** : تقع بين الحجاز و الشام، و هي من بادية الشام، و تبوك على البر بمحاذاة مدين القديمة (شرقها)، و تبوك حصن ينسب إلى النبي صلى الله عليه و سلم موضعه بين وادي القرى و الشام، و كانت به آخر غزوات الرسول (ص)، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 13، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 86- 87.

(4) و يعتز رهبان سيناء بصورة عهد قديم منسوب إلى محمد صلى الله عليه و سلم و يزعم رهبان الدير أن النبي هو من كتب هلهم و توجد مجوعة من نسخ هذا الخطاب بعضها في الدير و البعض الآخر بوكالة الدير بالقاهرة، **أنظر**: أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 27- 28.

(5) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 16.

(6) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 49.

الحجاج المسحيين الذين زاروا الجبهة خلال القرن الثالث الهجري /العاشر ميلادي [1]، خاصة و أن الأدير الكلونية [2]قد قامت بإنشاء تنظيمات و بيوت ضيافة لخدمة حركة الحج في الأماكن المقدسة[3]، و من أبرز الشخصيات هيلدا Hilda كونتيسة سوابيا التي قامت برحلة الحج عام 969م، و القديس كونراد، أسقف كونستاسن، و القديس يوحنا أسقف بارما Parma، و قد صاحب هؤلاء عدد كبير من الرجال و النساء الفقراء[4].

غير أن زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386- 411هـ/ 996- 1020م) قد ساده الاضطهاد لأهل الذمة بما فيهم المسيحيين، فلم تكد تستقر له الأمور في مصر، حتى نبذ سياسة التسامح الديني التي سار عليها أسلافه (المعز و العزيز)، و أخذ ينكل بأهل الذمة من المسيحيين و يهود و أرغمهم منذ عام 395هـ/1005م على ارتداء زي خاص، و بعد 3 سنوات اتسع نطاق الاضطهاد حد أن أمر الحاكم بهدم بعض الكنائس في القاهرة و هدم كنيسة القيامة (الضريح المقدس) [5]، و كان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير في إذكاء الدعوة الصليبية التي أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس، و يذكر أن في سنة 405هـ/1014م بلغ عدد ما تعرض للحريق و النهب من الكنائس نحو ثلاثين ألف كنيسة[6]، و قد أورد المقريزي[7] أنه « لما كثرت إهانات الحاكم للنصارى و تضيقه عليهم تظاهر كثير

---

(1) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 23.

(2) **الأديرة الكلونية**: أسس و ليم الأول (وليم التقي) William the pious، كونت أقطانيا، دير كلوني"Cluny"، بدلا من الأديرة البندكتية، التي قد بدأت في طور الانحطاط و كان ذلك سنة 298هـ/910م، فقامت بإصلاح أوضاع الأديرة في أوربا، و أحدثت نهضة دينية كبيرة عملت على ازدهار حركة الحج، و إقامة شبكة كبيرة تهتم بالحجاج و شؤونهم، و يعلق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على صحوة دير كلوني و اهتمامه بالحج إلى الأرض المقدسة، و أثر ذلك كله في قيام الحروب الصليبية، **أنظر**: هانس ابراهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة :عماد الدين غانم،(د.م.ن)، 1985، ص 47، عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ص 29-31، نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط 2، دمشق، ص 242،19،241. مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 17، قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق، ص 29.

(3) كانت الأماكن المقدسة التي يوجه إليها الحج المسيحي تسمى المراكز المسيحية الكبرى مثل: روما حيث قبر بطرس، و مزار القديس ميخائيل في مونت جورجانو و القديس جون في اسبانيا و القدس و بيت لحم في فلسطين و قد كانت القدس ذات جاذبية طاغية للحجاج، **أنظر** :قاسم عبد قاسم، المرجع السابق، ص 27.

(4) مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099- 1187م)، مكتبة مدبولي: ط1، القاهرة، 1992، ص 23.

(5) تم هدم كنيسة القيامة عام 398هـ/ 1007م، ما أدى إلى الإضرار بتجارة الفاطميين مع البيزنطيين، حيث قطع الإمبراطور باس لي الثاني سنة 406هـ/ 1015م جميع العلاقات التجارية مع الفاطميين، **أنظر**: أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية ، ط1 ،القاهرة، 1992، ص 102.

(6) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، ج2،القاهرة، 1971، ص 94- 95، ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 58، هانس ماير، الحروب الصليبية، ص 48، محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص 82- 83، أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي و الفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص 248. أيمن فؤاد السيد، المرجع السابق، ص 102.

(7) اتعاظ الحنفا، ، ج2، ص 94.

منهم بالإسلام»، و يبدو أنهم قاموا بذلك للنجاة بأرواحهم من القتل.

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد فأصدر قبيل اختفائه سنة 411هـ/1020م عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى و اليهود، ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس و الأديرة و سمح للمسحيين بتجديد الكنائس و منحهم الآمان[1].

و بعد الحاكم بأمر الله انعقدت معاهدة سنة 418هـ/1027م أجازت للإمبراطور قسطنطين الثامن أن يتولى عمارة كنيسة القيامة، وقد جرى بناء الكنيسة فعلا على عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع (434- 447هـ/1042-1055م)، و من مظاهر تحسن العلاقات بين الطرفين استمرار حركة الحج و ذلك من خلال الثغور الإسلامية[2] التي عدت من المنافذ التي استخدمها الحجاج للوصول إلى الأماكن المقدسة[3].

إن المتتبع لفترة اضطهاد الحاكم بأمر الله للمسحيين، يجد أن الفئات الأخرى من أهل الذمة خاصة اليهود و حتى المسلمين السُنيين قد مسهم الاضطهاد، من هنا يمكن القول أن زمن الحاكم لم يكن إلا مرحلة استثنائية قصيرة، إذ ما قورنت بسماحة الإسلام مع أهل الذمة ، و مع دخول القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، زاد تعداد الحجاج،خاصة مع تطور الفكر الديني في الغرب الأوروبي، فقد أصبح الحج يعتبر من أركان التكفير و التوبة عند الكنيسة[4]، و ظهر ما يعرف بحج التوبة الذي يكفر به الفرد الكاثوليكي عن ذنب مساوي لهذه الرحلة، هذا ما جعل رحلات الحج التكفيرية تزداد من غرب أوربا إلى بيت المقدس [5]، التي كانت تحتل الرحلة إليها مكانة سامية مرموقة بين رحلات الحج المسيحية الأخرى[6].

(1) جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص 83.

(2) **الثغور**: جمع ثغر،و هو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو، و ثغور الشام كانت آذنة و طرسوس و ما معهما، و هي واقعة ببلاد الأرمن، و ذلك أن هارون الرشيد في سنة 170هـ عزل الثغور كلها من الجزيرة و قيسرين و جعلها حيزا واحدا سماها "العواصم"، و مقتضى ذلك أن تكون الثغور و العواصم اسما على مسمى واحد و قد حدها من الغرب سواحل الروم، **أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 130-131.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج 1، ص 60، جمال الدين سرور ، المرجع السابق، ص 83، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس، ص23-24.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 71، قاسم عبد القاسم، المرجع السابق، ص 27،محمد مؤنس عوض،الرحالة الأوربيون،ص23.

(5) هانس ماير، المرجع السابق، ص 47.

(6) قاسم عبده القاسم، المرجع السابق، ص 27.

فلقد توجهت موجات الحجيج إلى بيت المقدس عام 425هـ/ 1033م بمناسبة الذكرى الألفية لآلام المسيح –حسب اعتقادهم–[1] رغم الصعوبات التي قد تظهر في بعض الأحيان في رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة بالجبهة الجنوبية، فقد كان عددهم يزداد باستمرار فنجد الأسقف سيجفريد " SiegFried" و هو "رئيس أساقفة ماينز"، حج في عام [457- 458هـ/1064- 1065م] إلى الديار المقدسة على رأس مجموعة من الحجاج قارب عددهم السبعة ألاف من الرجال و النساء، و كانوا منظمين تنظيما جيدا، و وُجدت عناصر مسلحة تقوم بحراستهم (حمايتهم) [2].

و يبدو هنا أن هذه العناصر المسلحة، كانت متواجدة بسبب المشكلات الأمنية الناجمة عن توغل السلاجقة في بلاد الشام في منصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي 447هـ/ 1071م، فقد تركت الحاميات السلجوقية آثارها السلبية على الحجاج الكاثوليك المسافرين عبر الآناظول [3]، بيد أن ازدياد الحجاج المستمر كان هو الآخر يقلق الدوائر الإسلامية في آسيا الصغرى و فلسطين، خاصة و أن الدخل الذي يحرزه المسلمون من ذلك يعد زهيدا، لأن الفقر كان من السمات النموذجية للحاج المسيحي[4].

و بلا شك أن استمرار تدفق الحجاج إلى الأماكن المقدسة قد أدى إلى نمو رغبة المسيحيين في امتلاكها، فلولا تردد الحجاج على الدوام و على مدى قرون لزيارة منشأ المسيحية، لما خطر على بال أحد أن يزحف لانتزاعها من أيدي المسلمين، و هنا بدأ يظهر مفهوم الحج المسحي و ذلك في أواخر القرن 5هـ/11م و أصبح حجا مسلحا ذي امتيازات روحية خاصة تقترن بغفران خاص، و عليه فإن الحملات الصليبية هي تطور محكم لفكرة الحج[5].

غير أن المشكلة المطروحة هنا هي تناقض فكرة الحج المسلح مع تعاليم المسيح عليه السلام المسالمة و البعيدة عن العنف و الملاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية قد بررت ذلك بأن الحرب أو تسليح الحج هو شر لابد منه، و على هذا الأساس كان يسمح بالحرب فقط في حال الدفاع و استعادة أملاك مسلوبة، و بهذه الإمكانية الثانية بررت الكنيسة موقفها و جعلت الممنوع مباحا[6].

---

(1) هانس ماير، المرجع السابق، ص 46.

(2) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص 25، هانس ماير، الحروب الصليبية، ص48.

(3) قاسم عبد القاسم، المرجع السابق، ص 30-31.

(4) هانس ماير، المرجع السابق، ص 48.

(5) نفسه، المرجع السابق، ص 49، مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 26.

(6) رنسيمان، المرجع السابق، ص 125- 126. هانس ماير، المرجع السابق، ص 49.

وقد جاء خطاب البابا أوريان الثاني [1] (481-493هـ/1088-1099م)، في كليرمونت الفرنسية 07 ذي الحجة 489هـ/ 27 نوفمبر 1095م، ليحول فكرة الحج الرائجة شعبيا إلى حرب ضد المسلمين حتى تمد البابوية – سيطرتها و نفوذها على الكنائس الشرقية الأوثودكسية [2]، تحت ستار أخذ الأراضي المقدسة من الكفار (المسلمين) و حماية المسيحيين الشرقيين الذين ساءت حالتهم[3].

و علي أية حال، فقد أثرت فكرة الحجاج المسلحين في إيقاظ حمية الفرسان، و بوجه خاص الذين هُيئوا تدريجيا من أجل حرب دينية، و من أجل الكفاح لصالح الكنيسة و القتال ضد الكفار (المسلمين) على أيدي رجال حركة تجديد الكنيسة الكلونية، سواء كان ذلك في الشرق أو في الأندلس[4].

كما أن التأثير الكبير للكنيسة على الأفراد في الغرب الأوربي، ضخم الميولات الدينية لديهم، و جعل الناس تتخلى عن حريتها مقابل الحصول على الغفران، فقد كان الفلاح الجاهل و الأمي و الذي اعتاد العوز و الذي لم ير شيئا أبعد من كوخه، و كان يرى كل هذا عقاب السماء الذي نزل عليه بسبب خطايا مجهولة [5] مستعدا و مقتنعا بضرورة تنفيذ أوامر الكنيسة لتحقيق رضى الرب و العيش بسلام، و لا يهمه أمر الأراضي المقدسة، أو المسيحيين الشرقيين الذين يضطهدون في الشرق[6].

و يظهر لنا جليا أن هذا الفكر كان منتشرا في أوربا العصور الوسطى ، و كانت الأفكار الكنسية و الدينية الشائعة في الفكر الأوروبي و المسيطرة على عقول العامة، فقد صرح البابا جريجوري السابع (466- 478هـ/ 1073 – 1085م) بأن الخدمة العسكرية المفروضة في النظام الإقطاعي يمكن أن تؤدى في سبيل الكنيسة [7]، و هذا ما يفسر الاستعداد المسبق للمجتمع في غرب أوربا للقيام بمثل هذه الحركة الدينية العظيمة و التي قلبت أحوال الشرق الإسلامي.

---

(1)René Grousset , l'épopée des croisades, librairie Académique Perrin, Paris, 1995.p.6.
رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 160، أرنست باكر، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العربي، دار النهضة العربية، ط2، بيروت، ص 23، جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى فكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 10.

(2) هانس ماير، المرجع السابق، ص 49. فيلب حتي، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 123.

(3) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق و الغرب، ترجمة : فيليب صابر سيق، مراجعة :أحمد خاكي، دار الثقافة، ط 2، القاهرة، (د.ت)،ص 10.

(4) هانس ماير، المرجع السابق، ص 50.

(5) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، (د.ت)، ص 17.

(6) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 7.

(7) كلود كاهن، الشرق و الغرب زمن الحرب الصليبية، ترجمة: ترجمة أحمد الشيخ،سينا للنشر،ط1،القاهرة،1995، ص 77.

و من هنا فقد فسر مفكرو العصر الوسيط المسيحيين تلك الحملات المسلحة التي قام بها الحجاج القادمون من غرب أوربا و التي أطلق عليها في العصور المتأخرة مصطلح الحروب الصليبية، إما حروبا مقدسة تهدف إلى أغراض مقدسة بتوجيه من الله أوكل هذه المهمة إلى البابا خليفته على الأرض، و إما رحلة للحج إلى الأماكن المقدسة وراء البحار لغفران الخطايا[1] أو الحصول على ما يعرف في العصور بالوسطى "بالغفران الكنسي"، و قد كان يطلق على كل قائم بهذه الرحلة «الحاج الفقير»، أما الحملة المسلحة لأغراض الهجوم و الدفاع فكان يطلق عليها الحج الجماعي الحملة الصليبية[2].

غير أن المتفحص لأحداث الحملات الصليبية يرى ما قام به أولئك الحجاج الذين ذهبوا إلى الشرق لأغراض مقدسة و لغفران الخطايا حاملين معهم شارة الصليب ليمنعوا اضطهاد المسحيين الشرقيين، نجدهم لم يتوانوا عن ذبح سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس في أبيديهم في شعبان 493/ جوان 1099م ، بل قد فعلوا أكثر من ذلك عندما اقتحموا القسطنطينية سنة 601هـ/1204م و هو ذلك البلد المسيحي الآمن و لم يتورعوا عن نهب كنائسها و الاعتداء على أهليها المسيحيين و هم إخوانهم في الدين[3].

على أية حال،لا نزاع في أن أعداد الحجاج القادمين إلى تلك المواضع المقدسة قد تزايد بصورة مضاعفة و ملحوظة خلال عهد السيادة الصليبية على أجزاء من المنطقة العربية ، و أصبح الحاج المسيحي لا يعاني من متاعب الطريق عبر الأناضول ،خاصة لما جُندت الأساطيل الايطالية لحمل رحالات الحج عبر البحر الشامي[4].

و قد كان الحج الجماعي زمن الحروب الصليبية يبدأ بوصول الحاج إلى ميناء عكا، فيشق طريقه إلى جبل الكرمل[5]، و بالقرب منه توجد كنيسة العذراء و دير القديسة مرجريت البيزنطي و كان الحاج يمر بعدة كنائس في طريقه جنوبا عبر قيسارية ثم يافا، و بوصول الحاج إلى المدينة المقدسة تكون و جهته إلى أهم المزارات المقدسة و هي الضريح

---

(1) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 7-8، جوناثان ريلي سميث، المرجع السابق، ص 10، سعيد عبد الفتاح عاشوراء، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964، ص 9.

(2) 8عزير سوريال عطية، المرجع السابق، ص 7.

(3) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 10، إسمت غنيم ،الحملة الصليبية الرابعة، و مسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف القاهرة، 1982، ص 92- 97-98-99.

(4) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس، ص 27.

(5) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط 1، القاهرة، 2001، 248.

المقدس، ثم يأتي بعده مكان صلب السيد المسيح عليه السلام، و كنيسة القديسة هيلانة، و كذلك كانوا يزورون مراكز قيادة الهيئات الدينية الحربية الكبرى و التي كانت متمركزة بالمدينة المقدسة و حتى بالمسجد الأقصى[1].

و من الأماكن المقدسة التي يزورها الحجاج أيضا، القبر المزعوم للملك داوود، و كنيسة هبوط الروح، و كنيسة العشاء الرباني على جبل صهيون، و كان ينهي جولته الدينية بالتوجه نحو الشرق صوب نهر الشريعة (نهر الأردن)، و هو المكان الذي عمد فيه المسيح عليه السلام –حسب اعتقادهم- و كان الحاج يستحم فيه، و تعد هذه العملية من أهم شعائر الحج، و الواقع أن قليلا من الحجاج كانت لديهم الجرأة لزيارة قبر القديسة كاترين-شهيدة الإسكندرية، لوعرة الطريق[2].

المبحث الثالث: الأهمية الاقتصاديـــة للجبهة الجنوبية.

(1) و قد حول الداوية المسجد الأقصى إلى مقر لهم، و هو يعرف عندهم بمعبد سليمان، و قد أضاف االداوية إليه أبنية جديدة في الداخل و الخارج لتناسب لحاجاتهم الحياتية اليومية، و اتخذوا من الاقبية تحت أرض المسجد إسطبلا لخيولهم الكثيرة، أنظر: مصطفى الحيا ري، القدس، زمن الفاطميين و الفرنجة ، مكتبة عمان، عمان 1998، ص 47، حسن عبد الوهاب حسين، مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحرب الصليبية ، دار المعرفة الجامعية، (د.م.ن)، 1997، ص 59.

(2) يوشع سراور، المرجع السابق، ص 253- 254- 255.

يمكن اعتبار الأهمية الاقتصادية التي تحتلها الجبهة الجنوبية من أهم العوامل التي جعلت منها قبلة للعديد من حركات الهجرة و انتقال الشعوب [1]، و قد كانت هجرات القبائل العربية إلى جنوب بلاد الشام و سيناء منذ الألف الثاني قبل الميلاد من أبرز و أهم التوسعات التي حدثت تحت ضغط العامل الاقتصادي، فقد تميزت أراضي الصحراء العربية بالجفاف المطرد و تدهور خصوبة تربتها على عكس أراضي الشام الخصبة و الوافرة و الإنتاج[2].

و رغم الستار الديني الذي سعى من خلاله رجال الدين إلى تبرير غزواتهم للشرق [3]، فقد برزت أهمية العامل الاقتصادي في توجيه جموع الفرنج إليها من الوهلة الأولى، و ذلك في خطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت 489هـ/ 1095م[4]، و الذي يذكر فيه «أرض كنعان التي تفيض لبنا و عسلا »، و يقارنها بأرض الغرب الأوربي لاسيما فرنسا حيث يذكر أنها ضاقت بسكانها، و هذا ما يؤكد لنا عمق الدافع الاقتصادي منذ اللحظات الأولى لميلاد المشروع الصليبي[5].

من هنا يمكن أن نفسر ظاهرة الإقبال المنقطع النظير الذي لقيته الحملة الصليبية الأولى 490هـ/ 1096م من عامة الناس و المعدومين و الفقراء، هؤلاء كانوا يفكرون في أرض كنعان التي تفيض لبنا و عسلا، و ما سيجنونه من ثروات و خير الشرق [6]، و هذا ما يؤكده المستشرق ريلي سميث [7] «من أن رسالة البابا أوبان الثاني في كليرمونت لم يفهمها تماما هؤلاء الذين استجابوا لها، فكثيرون منهم كانت تحدوهم الرغبة في تحقيق المكسب المادي».

و يمكن اعتبار المدن الايطالية جنوة و بيزا و البندقية، أهم عنصر سعى للكسب المادي من هذه الحملات التي شنها الغرب الأوربي على الشرق، فقد اعتبرتها فرصة سائحة لتضع يدها على تجارة الشرق [8]، و تلغي دور المسلمين

---

(1) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص 7.

(2) نورمان، ف،كانتور، التاريخ الوسيط: قصة حضارة : البداية و النهاية، ترجمة و تعليق، قاسم عبده قاسم، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ،ط5، القاهرة، 1997 ،ص 195- 196-197.

(3) أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص 6.

(4) و قد ذكر القس فوشيه الشارتري، أن البابا ذكر في خطابه "أن الجهلاء (المسلمين) يتكالبون على ملذات هذا العالم التي حرم منها الفرنج في بلادهم " **أنظر**: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة : زياد العسلي، دار الشروق للنشر و التوزيع، ط1، عمان، 1990، ص 33.

(5) محمد مؤنس عوض، ، الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 23.

(6) عاشور، أضواء جديدة، ص 11، مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 11.

(7) جوناثان ريلي سميث، ، الحملة الصليبية الأولى فكرة الحروب الصليبية، ص 10.

(1) كانت بلاد الشام واجهة غرب آسيا التجارية و نافذتها المطلة على أوربا، فخطوط التجارة و قوافلها الثرية تتجه من شرق و وسط آسيا إلى غربها، حتى تصل موانئ بلاد الشام ،و منها تصدر السلع التجارية المختلفة إلى مراكز الاستهلاك في أوربا **أنظر**: مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 23.

و اليهود[1] كوسطاء تجاريين، و من خلال ذلك يتم تحويل ثروات الشرق إلى أوربا، كما لم تتورع المدن الإيطالية عن طلب امتيازات ضخمة قبل المساهمة في أي مشروع توسع [2]، و من هنا يمكن القول أن الايطاليين لم يساهموا في الحملات الصليبية إلا لتحقيق مكاسبهم الاقتصادية، و لم تكن الزاوية الدينية تمثل نفس الأهمية، فقد رفعوا شعار يقول «نحن بنادقة أولا ثم مسيحيين بعد ذلك»[3].

من هنا كان علينا تحديد الأهمية الاقتصادية التي تكتسبها الجبهة الجنوبية، و التي جعلتها محط صراع بين المسلمين و الصليبين، و ذلك في مجال (الزراعة– الصناعة– التجارة الداخلية و الخارجية).

1/ الزراعـــــة

تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية 493هـ/1100م في منطقة تعد من أقدم المناطق في العالم المعمور، و قد نقل سكانها من حياة البداوة إلى حياة الزراعة و الاستقرار شيئا فشيئا و تدخلت السلطات الحاكمة المتداولة على المنطقة في نظم الضرائب و تحديد نوع المحاصيل الزراعية، بيد أن نوعية التربة الزراعية و الظروف المناخية ظلت ثابتة[4].

فبلاد الشام عامة تميزت بخصوبة أراضيها الزراعية نتيجة وفرة مياه الأمطار، و وجود العديد من الأنهار و البحيرات و الجداول الصغيرة التي ساعدت على إنعاش العمليات الزراعية في المملكة اللاتينية، أما شبه جزيرة سيناء فقد كانت عكس ذلك، حيث عرف الطابع العام لتربتها بالجدب و الجفاف في أغلب المصادر تسمى صحراء سيناء، لغلبة الرمال على سطحها[5].

(2) لعب يهود الراذانية دورا كبيرا في الوساطة التجارية بين الغرب و الشرق، فقد كانوا يتكلمون أغلب اللغات كالعربية و الفارسية و الرومية و الإفرنجية و الأندلسية و الصقلية، و يسافرون من المشرق إلى المغرب و من المغرب إلى المشرق برا و بحرا، يجلبون من المغرب الخدم و الجواري و الغلمان و الديباج و الجلود و السيوف و يعبرون البحر الرومي فيخرجون بالفرما أين يحملون تجارتهم برا إلى القلزم فيركبون البحر الأحمر(القلزم) إلى بلاد الحجاز ثم يمضون إلى السند الهند و الصين فيحملون منها المسك و العود و الكافور، ما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعون إلى القلزم . **أنظر**: ابن خرداذبة، المسالك و الممالك ،مطبعة بريل، ليدن، 1889، ص 153-154

(3) عاشور، أضواء جديدة، ص 12.

(4) مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 24.

(5) يوشع سراور، المرجع السابق، ص 423.

(1) حاتم عبد الرحمان الطحاوي ، الاقتصادي الصليبي في بلاد الشام ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، القاهرة، ص 187.

غير أننا لا ننكر أن إقليم فلسطين يدخل في مجموعة الأراضي الشبه صحراوية [1] فتربته خفيفة و فقيرة، و لاسيما حول بيت المقدس ، فقد سعى ملوك بيت المقدس و من الوهلة الأولى لمد نفوذهم إلى إقليم الجليل الخصب و من ثمة شرقي الأردن، الذي لولاه ما تمكنت المملكة الصليبية من أن تطعم نفسها[2].

كما تميزت المناطق الجنوبية للمملكة الصليبية و الواقعة على الخط الممتد من غزة غربا، عبر حبرون في الوسط إلى القمة الشمالية للبحر الميت في الشرق، أي المنطقة المتاخمة لحدود سيناء الشمالية بجدبها التام، وطابعها الصحراوي ، غير أن الاستقرار السكاني الذي امتد على أطراف الطرق التجارية و الحربية المارة بالمنطقة، و انتشار الآبار و العيون و الصهاريج لجمع المياه، جعل الاستقرار في هذه المناطق أمرا ممكنا[3]، و قد ذكر الإصطخري[4]« أنه ليس ببيت المقدس ماء جاري سوى عيون[5] لا تتسع للزروع»، و يذكر الرحالة ناصر خسرو[6] الذي مر في رحلته بجنوب فلسطين أنه ليس ليس ببيت المقدس ماء غير الأمطار و بها عيون»

و قد قسم محمد كردي علي في خطط الشام فلسطين باعتبار الزراعة إلى أربعة أقسام:

السواحل كساحل غزة و يافا و هي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحارة، و وادي الأردن و عربة و هي تتناسب و مزروعات المنطقة الحارة ، أما الناصرة و نابلس و الخليل (حبرون) و مرج ابن عامر فهي تتناسب و مزروعات المنطقة المعتدلة، و السهول الداخلية و هي تناسب زراعة القمح و الشعير و السمسم[7].

(2) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج 2، ص 19، علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، القاهرة، 1996، ص 30.

(3) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص .

(4) يوشع براور، المرجع السابق، ص 423.

(5) المسالك و الممالك، ص 28.

(6) ذكر القلقشندي «أن شرب أهل القدس من ماء المطر الجمع بصهاريج المسجد الأقصى، و كذلك عين سلوان و ليس ماؤها بالكثير»، و كانت عين سلوان في الطريق بين بيت المقدس و بيت لحم ويقال أنها العين التي أبرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى ، فقد لجأ إليها الصليبيون أثناء حصارهم لبيت المقدس **أنظر**: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 171، السيوطي، إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ،ج1 ،ص 211- 212، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 101، أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة و النشر، جدة، (د.ت)، ص 175.

(7) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 14.

(1) محمد كرد علي ، خطط الشام، ج4، ص 139.

و باستقرار الصليبيين في بيت المقدس أدركوا أن هذه البلاد وفيرة الخيرات، مما كان له أثره في إذكاء التيار الاقتصادي، ليحل محل التيار الديني الذي بدأ في الفتور، و بعبارة أخرى فإن المصالح الاقتصادية غدت تدريجيا الفيصل في تحريك جموع الصليبيين نحو الشرق(1).

هذا و قد أحدث الاحتلال الصليبي للجبهة الجنوبية خللا في الممتلكات الزراعية للسكان الشوام في المناطق التي تم غزوها، حيث حصل الصليبيون على نصيب الأسد في الأراضي الزراعية نتيجة موت أو هروب كل ملاك الأراضي المسلمين الكبار تقريبا، و اغتصاب الأمراء الصليبين لأراضي الفلاحين المسلمين الزراعية(2).

كما سعى الصليبيون منذ استيطانهم لأراضي الجبهة إنشاء مستوطنات قروية (3) صغيرة في أراضيهم بقصد زيادة إيرادات إقطاعتهم لجذب المستوطنين، فتبرعوا بالأرض ، و بنوا المساكن اللازمة لاستقرارهم، وكانت أولى المنح الخاصة بالقرى تلك التي منحها تنكرد أمير الجليل (493-495هـ/1101/1099م) سنة 1101م إلى كنائس جبل طابور(4) و هي عبارة عن عدة قرى هجرها سكانها المسلمين، و بعد ذلك في عام 501هـ/ 1107م، قام الملك بلدوين الأول (494- 512هـ/ 1100- 1118م) بتأكيد المنحة السابقة و أضاف إليها عدة قرى أخرى ليبلغ المجموع ثلاث عشرة قرية.

و يبدو أن الكوميونات (5)التجارية الايطالية لم يكن لها أية مصلحة حقيقة في تلك الضياع الزراعية المنتشرة خارج منطقة أحيائهم في المدن، كما أن أملاك الكنيسة كانت في العادة تنتشر حول المراكز الكنيسة التقليدية مثل القدس و جبل طابور و بيت لحم، و من ثمة فإن المستوطنات الزراعية الصليبية في المملكة اللاتينية كانت بالقرب من المدن

---

(2) محمد صالح منصور، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، دار الكتب الوطنية، ط1، بنغازي ،1996، ص 205، 206.

(3) حاتم عبد الرحمان الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص 188-189.

(4) كانت القرية في الريف عبارة عن وحدة عرقية أو دينية، و لم توجد قرية سكن فيها أجناس مختلفة جنب إلى جنب، أنظر: هانس ماير ، المرجع السابق، ص 15.

(5) حاتم عبد الرحمان الطحاوي،، المرجع السابق، ص 188- 189.

(6) **الكوميونات**: أصلها لاتيني"Communitas" و حتى نهاية القرن الحادي عشر كانت تعني مجموعات رجال الكنيسة، و في القرن 12م أصبح يطبق على الكنسيين و الإقطاعيين و البرجوازيين الذين يسعون للحصول على الحكم الذاتي داخل المدن الصليبية و شراء الامتيازات و المعاهدات بالمال، و الولاء = =واجب على الأعضاء للأسياد. **أنظر**: عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، القاهرة، 2007،ص 20.

الساحلية و المراكز الكنسية، و قد بلغ عدد هذه المستوطنات كما حددها براور «ألف و مائتين قرية في القرنيين الثاني عشر و الثالث عشر[1]»

في الحقيقة إن تنوع تضاريس الجبهة الجنوبية بين السهول و الجبال و السواحل و الصحراء و البحيرات و الوديان، قد ساهم في تنوع المحاصيل الزراعية تبعا لاختلاف التربة، و لعمليات الري، و نتيجة للحروب المتكررة مع المسلمين اختفت بعض الزراعات و حلت محلها زراعات القمح و الشعير[2].

و قد انتشرت زراعة القمح في المناطق الشمالية و الشمالية الشرقية للجبهة الجنوبية [3]، حيث جادت الحقول في الجليل و شرقي نهر الأردن و طبرية و مرج ابن عامر بمحصولات وافرة من القمح، و على الرغم من قلة المياه حول بيت المقدس، فقد زرع الصليبيون القمح و الشعير في الأراضي الصخرية حول المدينة [4]، كما قام الصليبين بزراعة القمح و الشعير بكثافة في أراضي نابلس و وادي عربة، وكذلك كانت بيسان غنية بالحبوب [5]، و الغلال التي تركها خلفهم الصليبيون لدى هجوم صلاح الدين على المدينة سنة 579هـ/ 1184م[6].

على أن حوران كانت هي المتصدرة لجميع مدن الشام في إنتاج الحبوب، فقد كان مخزن الشام على عهد الرومان لوفرة حبوبها[7] و يعود السر في ذلك إلى عناصر التربة التي تتألف من مواد بركانية سوداء منحلة، وهي غنية بالمواد المغذية المغذية للنبات ، و تموّن حوران فلسطين و لبنان بالقمح[8].

كما اشتهرت أرض السواد و التي كانت تمتد عند بحيرة طبرية و في منطقة الجولان أيضا بزراعة الحبوب [9]، وقد كانت تمثل مخازن الغلال الكبرى بالنسبة للملكة الصليبية و لمسلمي مدينة دمشق أيضا لخصوبتها الشديدة و ملاءمتها لزراعة القمح و الشعير، كما زرعت الحبوب أيضا حول عسقلان و غزة و قلعة[1] الشوبك[2].

---

(1) يوشع بيلور، المرجع السابق، ص 424- 425.

(2) حاتم عبد الرحمان الطحاوي، المرجع السابق، ص 204.

(3) بيلور، المرجع السابق، ص 428.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 19، حاتم عبد الرحمان الطحاوي، المرجع السابق، ص 204.

(5) الطحاوي، المرجع السابق، ص 205.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص 124، ابن شداد، النوادر السلطانية و المحا سن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق، جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1994، ص 107.

(7) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 131.

(8) فيلب حتي، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 45.

(1) بيلور، المرجع السابق، ص 428.

إضافة إلى المناطق الشرقية من المملكة اللاتينية، فقد انتشرت مزارع القمح الكثيفة و الواسعة في الجزء الغربي من فلسطين و كان أجود أنواع القمح في الأرض المنخفضة الواقعة بين السهل الساحلي و السلاسل الرئيسية لجبال مدينة القدس، خاصة مدينة قيسارية(3) .

على أية حال يمكن القول أن الحبوب كانت تمثل المصدر الأساسي لغذاء سكان المملكة الصليبية، و باعتبار إقليم الجليل و السواد كانا يمثلان مناطق مقسمات (4) و إقليم فلسطين في مجمله يعتبر إقليما قاحلا و مع تلك الزيادة المطردة في السكان و الحاجة المستمرة إلى تخزين الحبوب كإجراء احطياتي لازم لمواجهة الهجمات الإسلامية المضادة، فلو لا مساعدة إقليم ما وراء نهر الأردن لما تيسر للملكة الصليبية أن تطعم نفسها. و قد حدث ذلك بالفعل عام 581هـ/1185م عندما شح محصول إقليم شرق الأردن ما حتم على الصليبيين استيراد القمح من المناطق الخاضعة للمسلمين لسد حاجتهم(5).

كما أنه في العقود الأخيرة من حياة الفرنج في الشرق، تقلصت الأراضي الواقعة تحت سلطتهم، بفعل حركة الاستيراد التي قام بها حكام المسلمين، فلم تشتمل على غير المدن الواقعة على الساحل ما حتم على الصليبيين دائما استيراد القمح من المناطق الإسلامية(6)

بالإضافة إلى القمح و الشعير فقد انتشرت بجنوب الشام زراعات مختلفة، أهمها زراعة الفواكه و أشجار الزيتون و الكروم و التين، وكانت الأشجار المثمرة الغالبة الزراعة في المنطقة (7) و قد ذكر الاصطخري(8) «أن منطقة بيت المقدس سهلها زيتون و تين و جمُيز و عنب ، وسائر الفواكه و الأشجار منتشرة على كامل سطح جبالها ».

---

(2) الطحاوي، المرجع السابق، ص 205.

(3) وليام الصوري، الحروب الصليبية ، ترجمة: حسن حبشي، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، 1992، ص 317.

(4) يوشع برلور، المرجع السابق، ص 428.

(5) لقد ظلت منطقة الجولان و الكثير من أراضي السواد التي تقع عند بحيرة طبرية أراضي مقاسمات، تخضع للسيادة المشتركة الإسلامية و الصليبية، و لم تحّصن المنطقة باتفاق الطرفين لتسهيل مرور التجارة، و قد قسمت هذه الأراضي أثلاثا، للأتراك الثلث و للصليبين الثلث و للفلاحين الثلث المتبقي، و كان هذا الاتفاق بين صاحب دمشق و الصليبين عام 502هـ/1108م. **أنظر** :ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 263، يوشع برلور، الاستيطان الصليبي، ص 32- 62- 63.

(6) الطحاوي، المرجع السابق، ص 205، علي السيد علي، المرجع السابق، ص 30.

(7) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 30.

(1) فيلب حتي، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 53.

(2) المسالك و الممالك، ص 28.

و قد انتشرت بإقليم الساحل الذي يمتد من العقبة حتى بيروت و يدخل مرج ابن عامر و شمالي بحيرة الحولة أشجار الليمون و البرتقال و الموز و الرمان [1] ، ويذكر ابن بطوطة أن صيدا و بيروت كانتا تنتجان فواكه كثيرة يُحمل منها إلى بلاد مصر، هذا في شمال الجبهة الجنوبية أما في المناطق الجنوبية من الساحل [2]، فيذكر الرحالة ناصر خسرو[3] «أن الطريق من قيسارية إلى الرملة به كثير من أشجار الزيتون و التين».

أما إقليم الجبال و الذي تدخل فيه جبال الكرك و الصلت و عجلون و غيرها، فهي تجود بالزيتون و الكروم و التين و اللوز و كثير من الأشجار المثمرة و البلوط و الأرز [4]، و غالبيتها تُسقى على المطر، و منها ما هو على سقي الأنهار و هو قليل[5].

وتدخل في إقليم السهول، سهل الكرك و البلقاء و حوران و الجولان و الغوطة، و السهول المرتفعة في فلسطين، و تجود في هذا الإقليم الأشجار المثمرة و الخضر و التوت و اللوز في الأرض البعلية و الصفصاف[6].

أما سيناء، فهي كما هو معروف عنها صحراء قاحلة، فيما عدا بعض الواحات و المدن الساحلية ذات المناخ الصحراوي (منطقة العريش) ، و من أهم مدنها و أخصبها نجد الفرما [7] و قد و صفها المقريزي في كتابه الخطط «بها النخيل العجيب الذي يثمر حين ينقطع البسر و الرطب من سائر الدنيا »، و هذا حال المدن و الواحات الأخرى في سيناء[8].

و يمكن اعتبار الزيتون أشهر منتجات فلسطين قبل و بعد الغزو الصليبي لها، و حتى بعد بناء المستوطنات الزراعية، فزراعته لا تتطلب جهدا كبيرا و يعطي الشيء الكثير، و ثماره كانت و لا تزال تشكل أحد مصادر الغذاء

(3) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 140.

(4) ابن بطوطة، الرحلة، ص 36-37.

(5) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 13.

(6) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 140، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص 19.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج4، ص 86،

(8) محمد كرد علي، الخطط ، ج4، ص 140.

(9) الاصطخري ،المسالك و الممالك، ص26. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 106، المقريزي، الخطط، ج1، ص 591.

(10) الخطط، ج1، ص 592.

الرئيسية للطبقة الدنيا، خاصة زيت الزيتون الذي يستعمل للغذاء و زيتا لتنوير المصابيح، و حتى لصنع المراهم و الروائح الزكية[1].

و تعتبر مزارع الزيتون الأكثر انتشارا في بلاد الشام [2]، حيث تركزت حول مدينة القدس [3] و في وادي عربة و حول مدينة عكا و طبرية و بجوار حصن الكرك[4] و الشوبك[5].

و تتصدر نابلس المدن الأخرى في المملكة الصليبية من حيث وفرة أشجار الزيتون و نوعيتها الجيدة [6]، و يذكر الرحالة ابن بطوطة «نابلس مدينة عظيمة و هي من أكثر بلاد الشام زيتونا، و منها يحمل الزيت إلى دمشق و مصر[7]»

كما اشتهرت أراضي جنوب الشام بزراعة الكروم [8]، الأمر الذي حافظ عليه الصليبيون لإمدادهم بالنبيذ، فقاموا بزراعة العديد من مزارع الكروم في المناطق المجاورة لمدينة بيت المقدس، و في سهل و قرى عكا و بالقرب من طرابلس، بيروت و صيدا و صور، كذلك وجدت مزارع الكروم [9] بجوار قلعة الشوبك [10] و في منطقة أريحا سبسطية، و حتى عسقلان و طبرية و وادي عربة[11].

أما الأشجار المثمرة، فقد و جد الصليبيون النخيل في المدن الداخلية و حتى الساحلية، غير أنه لم يتوفر بكثرة فيذكر المقدسي أن أريحا و بيسان كانتا تنتجان التمور [12]،و كذلك وجد النخيل حول بيت المقدس و في حيفا و يافا[13].

---

(1) فيلب حتي، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 53.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 87، الطحاوي، المرجع السابق، ص 207.

(3) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 14.

(4) الطحاوي، المرجع السابق، ص 207.

(5) محمد كرد علي، خطط ، ج4، ص 150.

(6) نفسه، خطط ، ج4، ص 148.

(7) الرحلة، ص 35.

(8) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، ، أسواق الشام، ص38.

(9) الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص 207.

(10) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 317.

(11) الطحاوي، المرجع السابق، ص 207.

(1) المقدسي ، أحسن التقاسم، ص 180.

(2) الطحاوي، المرجع السابق، ص 207.

كما اشتهرت الشوبك بكثرة أشجار المشمش و الرمان و غيرها من الفواكه و يذكر الرحالة ناصر خسرو أن أشجار التين كانت[1] «في بيت المقدس و في الرملة أين يوجد صنف من التين ليس أحسن منه في أي مكان »، إضافة إلى أشجار الخوخ و التوت و التفاح و السفرجل و الجوز و البندق و الأجاص و العناب و غيرها و التي كانت تنتشر في أغلب مدن الشام[2].

كما عرف الصليبيون الموز و أسموه تفاح الجنة، و كان بأريحا الكثير من الموز و كذلك ببيت المقدس [3]، و قد شوهدت فواكه فلسطين النادرة مثل الليمون الحلو و الرمان على موائد الأغنياء في إيطاليا[4].

و قد قام الصليبيون بزراعة البقوليات كالفول و العدس و الفاصوليا و البازلاء و الحمص في وادي جزريل [5]، و يذكر القلقشندي [6] «وجود القثاء و الباذنجان و اللفت و الملوخيا و الجزر و القرنبيط و البسلة »، وأنشرت زراعة الخضروات خاصة بإقليم الجليل، و كانت صفد و الناصرة من أهم البلاد التي تخصصت في زراعتها[7].

و من أهم مزروعات الشام أيضا قصب السكر الذي لم يكن معروفا في أوربا قبل الحروب الصليبية، فلما أتى الصليبيون إلى الشام تذوقوه لأول مرة، و كان ذلك خلال حصار أنطاكية 490هـ/1097م، و قد تعلم الصليبيون من السكان المحلين طريقة استخراج السكر من القصب[8].

و نظرا لاحتياج زراعات قصب السكر إلى المياه الغزيرة ، فقد ركز الصليبيون زراعته في سهل مدينة صور حيث مياه قناة رأس العين، و كذلك وادي نهر الأردن و طبرية و أريحا [9] و صيدا التي كان يزرع فيها قصب السكر بوفرة [10]، و بيروت[1]، و سهول الكرك و الشوبك و غور الأردن[2].

---

(3) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 13.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 87.

(5) المقدسي ، أحسن التقاسم، ص 180. محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 147.

(6) محمد محمود الحويري، الأوضاع الحضارية لبلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، 1979،ص134.

(7) الطحاوي، المرجع السابق، ص 205.

(8) صبح الأعشى ، ج4، ص 84.

(9) الطحاوي، المرجع السابق، ص 206.

(10) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق، ص 38، الطحاوي، المرجع السابق، ص 206، الحويري، المرجع السابق، ص 134،كرد علي،المرجع السابق،ج1،ص54.

(1) المقدسي ، أحسن التقاسم، ص 180، الطحاوي، المرجع السابق، ص 206.

(2) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 10.

كما تذكر المصادر الإسلامية وجود زراعات القصب بالقرب من عسقلان و يافا و الرملة، حيث اختبأ بداخلها الملك بلدوين الأول بعد الهزيمة من الجيش المصري سنة 496هـ/ 1102م[3]، و قد استخدم سكر الشرق الفرنجي في الغرب الأوربي في العلاج و على الموائد الشهية بدلا من عسل النحل الذي كان شائع الاستعمال قبيل الحرب الصليبية، و إهداء قطعة من السكر في ذلك الوقت يعني مدى الحب للمهدي إليه[4].

و إلى جانب هذه المحاصيل اشتهرت بلاد الشام منذ القديم بزراعة القطن [5]، و قد اهتم الصليبين بزراعته للأهمية التي يكتسيها في صناعة المنسوجات، و كانت زراعته تتمركز بالقرب من صور[6]،كما زرع السمسم، في مساحات واسعة في بلاد الشام خاصة نابلس و المدن الساحلية و قد استخرج منه زيت السمسم اللازم للطعام[7].

كما كانت أرض الشام تجود بالزعفران، الذي كان يدخل في الأطعمة و الأشربة، و قد انتشرت مزارع الزعفران بسهول الجبهة الجنوبية و في مناطق التخوم بين المملكة اللاتينية و إمارة دمشق[8].

و باستقرار الصليبين في بلاد الشام و تأسيس المملكة اللاتينية (494هـ/1100م) اكتشفوا وجود العديد من المحاصيل الزراعية التي لم يكونوا يعرفون عنها شيئا فتعلموا أساليب زراعتها و نقلوها إلى مواطنهم الأصلية في قارة أوربا و منها: الذرة، الأرز، السمسم، الخروب، الليمون، البطيخ، الخوخ، المشمش ، الكرز، البلح، وكذلك قصب السكر[9].

2/ الصناعة

لقد تواجدت ببلاد الشام العديد من الصناعات منذ ما قبل الغزو الصليبي لها، و اختلفت هذه الصناعات ما بين التي تعتمد المنتجات الزراعية، كصناعات المنسوجات و السكر و الصابون و النبيذ و التي تعتمد على مواد أخرى كصناعات الأقمشة الحريرية، و صناعات الزجاج و المعادن، و الخزف[1].

(3) محمد كرد علي، الخطط ، ج4، ص 147.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 87.
(5) ابن القلاسني،، تاريخ دمشق، ص 231، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 68، الطحاوي، المرجع السابق، ص 206.
(6) الحويري، المرجع السابق، ص 133-134.
(7) المقدسي ، أحسن التقاسم، ص 180.
(8) الطحاوي، المرجع السابق، ص 206.
(9) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق، ص 38، الطحاوي، المرجع السابق، ص 206.
(10) محمد كرد علي، خطط ، ج4، ص 151.
(11) الطحاوي، المرجع السابق، ص 208.

و الواقع أن هذه الصناعات قد قامت زمن الحروب الصليبية على أكتاف الصُناع و الحرفيين من الشوام و اليهود، و حتى الايطاليين الذين استوطن عدد كبير منهم المدن الساحلية، و كان لكل طائفة منهم شارع خاص بهم حسب نوع الحرفة[2]، أما الحرفيين الوطنيين فقد ذكر الرحالة ناصر خسرو عند مروره ببيت المقدس أن لكل جماعة منهم سوق خاصة[3]حسب نوع الحرفة، و قد استمر هذا التقليد حتى بعد الحروب الصليبية.

و يمكن القول أن الفترة الصليبية شهدت ازدهار و تطور صناعات و فنون مختلفة، لكون هذه الصناعات تمثل مادة هامة في مواد التجارة، و من أهم الصناعات التي ازدهرت ، صناعة المنسوجات خاصة منسوجات القطن و الحرير التي كانت تحتاج إلى مهارة فنية عالية، و قد انتشرت في طبرية، و صور التي صنعت بها أنواع الأصواف ذات اللون الرمادي و الأزرق[4].

كما تطورت صناعة المنسوجات القطنية و الكتانية ، و ازدادت نسبة المبيعات منها في أسواق المدن نتيجة لتوافقها مع مناخ الشام، و على الرغم من وجود العديد من صناعات الملابس القطنية و الكتانية في معظم مدن المملكة اللاتينية، فإن ملابس الكتان المصنوعة في نابلس حازت شهرة عالمية[5].

و قد كان جزء من إنتاج المملكة اللاتينية من القطن و الحرير يصدر كمادة خام، و الجزء المتبقي يصنع محليا[6]، حيث حظيت المنسوجات الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية و الفضية شهرة عريضة، وكانت تصنع في مدينة عكا و بيروت[7].

و اشتهرت مدينة صور بصناعة نوع الأقمشة يعرف باسم «زندادو أو صندل»، وهي أقمشة بيضاء ثمينة تصدر إلى جهات بعيدة، و كانت الأقمشة الحريرية الخارجة من مصنعها تباع أيضا في الغرب الأوربي. كما كانت الأقمشة التي

---

(1) الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص 210.

(2) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق، ص 28-41.

(3) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 14.

(4) الحويري، المرجع السابق، ص 135-136، عبد الحافظ عبد الخالق البنا، المرجع السابق، ص 41-42، الطحاوي، المرجع السابق، ص 211.

(5) المقدسي ، أحسن التقاسم، ص 180، الطحاوي، المرجع السابق، ص 211.

(1) ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة :أحمد محمد رضا، مراجعة و تقديم، : عز الدين فودة، ج 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د،م،ن)، 1985، ص 189- 190.

(2) الحويري، المرجع السابق، ص 135-136، البنا، المرجع السابق، ص 43.

يصنعها النساجون السوريون في حي البنادقة مطلوبة كثيرا، حتى ليقال أن السفن البندقية كثيرا ما كانت تنتظر الانتهاء من صنعها لتشحنها إلى أوربا[1].

أما الصباغة فقد كنت مزدهرة ازدهار صناعة النسيج، خاصة مع توفر مواد الصباغة الموجودة في المملكة اللاتينية، فنجد النيلة[2] في وادي الأردن، و يلقي شاطئ صور الأرجوان المعروف بإنتاجه منذ القديم [3].

و قد احتكر اليهود هذه الصناعة، خاصة في مدن حبرون و بيت المقدس و بيت لحم و الرملة و عسقلان، غير أن تركزهم كان ببيت المقدس لشرائهم احتكار الملك الصليبي لعمليات الصباغة، و إستأجارهم مكانا لمباشرة أعمالهم بشكل مكثف[4].

كما ازدهرت صناعة الزجاج في المملكة الصليبية، و حازت المدن الساحلية شهرة فائقة في مجال هذه الصناعات، خاصة صور التي كان يقصدها عدد كبير من الجنسيات لشراء مصنوعاتها الزجاجية الفاخرة، و يعود ذلك إلى جودة المواد الأولية التي صنع منها الزجاج (البوتاس المستخلص من الرماد) [5]، و كذلك الرمال الناعمة الموجودة على الساحل و الأنهار ، و بالطبع إلى مهارة الصناع الشوام الذين توارثوا المهنة عن آبائهم[6].

إضافة إلى صور، فقد أتقنت المدن الشامية الأخرى في المملكة الصليبية الصناعات الزجاجية مثل حبرون و عكا، فقد برع الصناع في إنتاج أكواب و كاسات و أواني زجاجية مزينة برسوم على جدارها و قد قلد الصناع البنادقة الشاميين في صناعة الزجاج [7] و المرايا [8] حتى نجحوا في صناعة المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدني، لتحل محل المرايا البندقية الرديئة و التي كانت تصنع من البرونز الصلب المصقول[9].

و من الصناعات الزراعية التي انتشرت في المملكة الصليبية صناعة السكر و هي من الصناعات القديمة في بلاد الشام و فلسطين، و يعد السكر من أهم المنتجات الشامية التي أدهشت الصليبيين، ما جعلهم يوجهون اهتمامهم نحو

(3) هايد، المرجع السابق، ج1، ص 190، البنا، المرجع السابق، ص 43.
(4) المقدسي، أحسن التقاسم، ص 180، علي السيد علي، المرجع السابق، ص 12.
(5) هايد، المرجع السابق، ج1، ص 190- 191
(6) الطحاوي، المرجع السابق، ص 212.
(7) هايد، المرجع السابق، ج1،ص 191، البنا، المرجع السابق، ص 44-45.
(8) وليام المصري، تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 23، الطحاوي، المرجع السابق، ص 213.
(1) البنا، المرجع السابق، ص 45.
(2) المقدسي، أحسن التقاسم، ص 180.
(3) الطحاوي،المرجع السابق، ص 213.

زراعة قصب السكر، و كان يعمل في القديم على ضفاف الأردن و لا تزال معامله إلى اليوم في جنوبي الغور تدعى مطاحن السكر، و كان يصنع السكر في عكا و يافا [1]، و طبرية و حتى أريحا [2] و يذكر المقدسي أن السكر صنع حتى حتى في صور[3].

و قد استخدم الصليبيون السكر كغذاء للسكان، كما قدم أيضا في المستشفيات للمساهمة في علاج المرضى، كما كان السكر من أهم المنتجات التي تم تصديرها إلى الغرب الأوربي، الذي اعتمد على المستعمرات الصليبية في إمداده بالسكر طوال القرنيين الثاني عشر و الثالث عشر[4].

كما اهتم الصليبيون باستخراج زيت الزيتون، حيث تركزت معاصر الزيتون في القرى المحيطة بالمدن خاصة حول بيت المقدس و نابلس و طبرية و وادي عربة، و قاموا باستثماره بشكل جيد، عن طريق تصديره إلى المدن الإسلامية الداخلية أو إلى مدن أوربا[5]، و قبل الغزو الصليبي يذكر الرحالة خسرو [6]«أن أرباب عائلات بيت المقدس يملك الواحد الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون و يحفظونها في الآبار و الأحواض و يصدرونها إلى أطراف العالم »

و كانت صناعة الصابون في جنوب الشام ترتبط بعمليات استخراج زيت الزيتون منذ ما قبل الغزو الصليبي [7]، و قد كانت من أنجح الصناعات الزراعية القديمة، و أهم مراكز إنتاجه صور و بيت المقدس و عكا و حيفا و نابلس، و أحسن صابون و أشهره حتى اليوم الصابون النابلسي و السر في جودته و إتقانه[8].

و قد كانت المناطق الجبلية المجاورة لمدينة بيت المقدس من أهم مناطق بلاد الشام في استخراج بعض خامات الصابون و بخاصة مادة البوتاس، الذي اشتغل بإخراجه كثير من أبناء القبائل العربية التي استوطنت هذه المناطق حتى أواخر العصور الوسطى[9].

و بالإضافة إلى الصناعات الزراعية ازدهرت أعمال أخرى مثل الدباغة واستخراج الملح و صناعة الحصير [1] وصنع الجبن و يعتبر الجبن الكركي (المصنوع في الكرك) من أشهر الأجبان في المملكة اللاتينية و بلاد الشام عامة و كان

---

(4) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 157، البنا، المرجع السابق، ص 44.
(5) الطحاوي، المرجع السابق، ص 214.
(6) أحسن التقاسم، ص 180.
(7) الطحاوي، المرجع السابق، ص 214.
(8) نفسه ، ص 214.
(9) سفر نامة، ص 14.
(10) الطحاوي، المرجع السابق، ص 214.
(11) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 157-159.
(1) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 12.

يصدر منه إلى مصر[2]كما اهتم الصليبيون بتطوير صناعة الورق، و قد انتشرت هذه الصناعة خاصة في إقليم الجليل[3].

و كانت الصناعات المعدنية، الحديدية و النحاسية من الصناعات التي ازدهرت في المملكة الصليبية، فقد كان معدن الحديد يوجد بكثرة بالقرب من بيروت [4] و يذكر المقدسي [5] «أنه بجبال لبنان يوجد الحديد »، و كانت الصناعات الحديدية تشمل الأسلحة الآلات الحديدية المستخدمة في الأغراض المنزلية، و أماكن وجود آثار الصناعات النحاسية في قيسارية و بيت المقدس.

و اشتهرت صناعة الرخام في الرملة قبل الغزو الصليبي و قد كانت تصنع منه أنواع كثيرة[6] و يذكر ناصر خسرو ذلك[7] «و رأيت أنواعا و ألوانا من الرخام بمدينة الرملة، و كان منه الململع و الأخضر و الأسود و الأبيض، من كل لون»، و كان هذا الرخام يستخدم في تزيين كثير من الأبنية (الحمامات و المساجد...) [8].

و ثمة صناعة هامة ازدهرت في الموانئ الصليبية في بلاد الشام، نتيجة النشاط التجاري الصليبي و هي صناعة السفن، و كانت أهم دار لصناعة السفن بمدينة عكا، و قد تقدمت صناعة السفن إلى حد كبير، خاصة لتواجد الخشب، حيث كانت هناك سفن سعتها من 500 إلى 800 طن، و كانت تحمل طاقما من 800 بحار و راكب إلى ألف بخلاف البضائع[9].

و يتبين لنا مما سبق أن الصليبيين لم يقوموا بإيجاد صناعات جديدة مرتبطة بالغزو، و ذلك نتيجة لارتفاع مستوى الصناعات الشامية عن صناعات أوربا، و كان ما فعله الصليبيون هو تحسين بعض الصناعات اللازمة لحركة التجارة، لكن بعد انتصارات صلاح الدين في حطين 583هـ/1187م تقلص النشاط الصناعي للمستعمرات الصليبية نتيجة سقوط العديد من مدن الشام في يده الأمر الذي دعا الصليبين إلى النزوح للمدن الساحلية، و الاهتمام بالنشاط التجاري على حساب النشاطين الزراعي و الصناعي[10].

3/ التجـــارة

---

(2) البنا، المرجع السابق، ص 48.

(3) كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 158.

(4) الحويري، المرجع السابق، ص 136، البنا، المرجع السابق، ص 48.

(5) البنا، المرجع السابق، ص 47.

(6) أحسن التقاسم، ص 184.

(7) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 11.

(8) سفر نامة، ص 13.

(9) المقدسي، أحسن التقاسم، ص 180، علي السيد علي، المرجع السابق، ص 11.

(10) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 165، البنا، المرجع السابق، ص 48.

(1) الطحاوي، المرجع السابق، ص 216- 217.

لقد حظيت الجبهة الجنوبية بأهمية تجارية بالغة في العالم، فموقعها المتوسط لقارتي آسيا و أفريقيا، جعل طرق التجارة العالمية تمر بها، إضافة إلى امتداد شريطها الساحلي المطل على البحر الشامي من بيروت حتى شواطئ سيناء، ما فتح لها أبواب التجارة مع مصر و المغرب الإسلامي من جهة ، و قارة أوربا من جهة أخرى، دون أن ننسى تجارة بحر القلزم (البحر الأحمر) القادمة من مراكز التجارة الكبرى في آسيا[1].

كما أن طبيعة سكان المنطقة (جنوب الشام و سيناء)، و الميالة للتجارة منذ قديم الأزمان، كان لها دور في ترسخ النشاط التجاري فيهم- فقد كان البدو [2] يسيطرون على تجارة القوافل التي ازدهرت لتوفر الأسواق و مرور الطرق التجارية بالجبهة وكانت الدولة الفاطمية بأسطولها القوي قد نهضت بالتجارة الخارجية على سواحل الشام و مصر و دعمت المدن الساحلية بأساطيل تجارية و عسكرية[3].

غير أنه، مع بداية القرن السادس الهجري و الثاني عشر الميلادي بدأ الوهن يتسلل إلى جسد الفاطميين و فقدوا ميزتهم التجارية، و سيطرتهم على التجارة شرقي حض البحر المتوسط ، و اقتصر نشاط البحرية الفاطمية على تزويد الموانئ و المرافئ الساحلية في الشام بالمؤن و الإمدادات، خاصة بعد استيلاء البيزنطيين على جزيرتي كريت و قبرص في القرن الرابع الهجري و العاشر الميلادي ما قلص من نفوذ الفواطم و أعاق نشاطهم البحري و التجاري[4].
و هكذا أدى الضعف الذي تعرضت له الدولة الفاطمية التي عجزها عن صد هجمات الصليبيين التي وجهت إلى مدنها الساحلية ببلاد الشام و بدأت تسقط الواحدة تلوى الأخرى[5].

على أن الأهمية التجارية للجبهة الجنوبية زمن الحروب الصليبية كانت موضع اختلاف بين المؤرخين، فبعضهم يمدح هذه الفترة و يرى أن الحروب الصليبية لعبت دورا مهما في النشاط التجاري بالمنطقة، بينما يرى الآخرون عكس ذلك، و اعتبروا أن الحروب الصليبية لم تكن لها تأثير على النشاط الاقتصادي، و أن تطور هذا النشاط كان سيحدث حتى لو لم تحدث هذه الحروب [6]، بسبب تحول كثير من بلاد غرب أوربا كجنوه و بيزا و غيرهما إلى النشاط التجاري

(2) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 233.

(3) البدو هم أفضل من كيف الحياة البشرية طبقا لأحوال الصحراء الطبيعية. وقد امتهنوا التجارة و نقلوا السلع من صحراء العرب أين تأتي سلع آسيا إلى الشمال (بلاد الشام) ، ثم العكس ، و قد ذكر الله تعالى ذلك «رحلة الشتاء و الصيف»سورة قريش الآية، **أنظر**: فيلب حتي، العرب تاريخ موجز ،دار العلم للملايين، بيروت، 1991، ص 16.

(4) أرشيبالد.ر. لويس، القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط (500- 1100م) ترجمة :أحمد محمد عيسى ، مراجعة :محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت)، ص 317

(5) صابر محمد دياب، سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ص 260.

(1) صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 260.

(2) يوشع براور، المرجع السابق، ص 467.

و انفتاح أسواق التجارة في الشرق أمامهم خاصة بعد ضعف السيطرة البحرية الإسلامية على البحر المتوسط منذ بداية القرن5هـ/11م[1].

و على الرغم من تضارب الآراء في هذا الأمر فقد تحددت بعض الخطوط العامة للتطور الاقتصادي، و كذلك أصبح بمقدورنا التعرف على ملامح دور المملكة في حركة النشاط التجاري[2].

على أية حال، يمكن القول أن فترة الحروب الصليبية شهدت نشاطا واسعا، شمل الشرق الإسلامي و الغرب الأوربي معا. و ساهم الايطاليون بنصيب وافر في هذا النشاط التجاري، الأمر الذي أدى إلى فتح أسواق جديدة أمام منتجات بلاد الشام التقليدية، الطبيعية و الصناعية، و ازدهار حرف مهنية و صناعات معينة لمواجهة حاجة الأسواق المتزايدة لها و خاصة الأسواق الأوروبية[3].

كما شكلت الحروب الصليبية نفسه عاملا مساعدا في زيادة التعامل التجاري بين المسلمين و الفرنج في بلاد الشام، فعلى إثر إقامة الفرنج في بلاد الشام أتيحت لهم الفرصة لتزداد معرفتهم بمنتجات الشرق و سلعه، مما أدى إلى تزايد ملحوظ في إقبالهم عليها، بل و تطلع الكثيرون من أبناء الغرب الأوربي للحصول على هذه السلع[4].

لقد ارتكز الوضع الاقتصادي للملكة الصليبية في المقام الأول على دعامة أساسية هامة هي التجارة لذا حرص الملوك الصليبيين الأوائل على تطوير التجارة و الاهتمام بها لتصل إلى وضع جيد، و بذلوا جهودا ضخمة في سبيل تحقيق هذا الهدف[5].

على أن المملكة اللاتينية عند قيامها (494هـ/1100 م) لم يكن لها سوى منفذ واحد على البحر، و هو ميناء يافا[6]، و لما كانت هذه الإمارة محاطة بأعداء من الداخل فقد صار لزما على جودفري البويوني أن يقوي البصلة بين بيت المقدس و العالم الخارجي و خاصة الغرب الأوربي عن طريق البحر[7].

(3) أرشيبالد، القوى البحرية، ص 349، عزيز سوريال عطية،، المرجع السابق، ص 3.

(4) يوشع براور، المرجع السابق، ص 467

(5) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص 349، البنا، المرجع السابق، ص 37.

(6) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 31.

(1) البنا، المرجع السابق، ص 19.

(2) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج 1، ص 434، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 206، إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا و دورها في الصراع الإسلامي الصليبي، ص 49-73.

(3) الحويري، المرجع السابق، ص 104.

فكان أول ما قام به جودفري في أوائل عام 494هـ/1100 م تحصين ميناء يافا بمساعدة أسطول بيزا التجاري، و بذلك أصبحت يافا مركزا تجاريا هاما، قصدتها السفن التجارية من جميع موانئ ايطاليا، يجبذها الأمل في التجارة مع الدولة الجديدة و اللحاق بالبيازنة و اقتسام الفرص و الأرباح معها(1).

و يبدو أن قرب يافا أيضا من بيت المقدس، زاد من حركة النشاط التجاري بها، فقد شهد ميناؤها وصول العديد من السفن التي تحمل الحجاج و التجار أيضا، و قد كان ميناء المدينة يتسع في 504هـ/1110 م لستين سفينة، هي عدد سفن الأسطول العسكري الذي وصل بقيادة سيجوار " Siguards" النرويجي مع الآلاف من المحاربين الانجليز و النرويجيين للمساعدة في غزو بيروت و صور(2).

و قد اتخذ الصليبيون من يافا مركزا لشن الغرات المستمرة على ممتلكات الفاطميين الساحلية، ونظرا لعجز الدولة الفاطمية عن حماية ممتلكاتها، فقد دب اليأس في قلوب أهل المدن الإسلامية الأمر الذي أدى بحكام عسقلان و قيسارية و عكا لإعلان تبعيتهم للدولة الفرنجية(3).

و لم يمر النصف الأول من القرن السادس هجري/ الثاني عشر الميلادي حتى تمكنت قوات الصليبيين بمساعدة أساطيل المدن الايطالية من السيطرة على كامل الساحل الشامي، و كان للملكة اللاتينية معظمه، خاصة بعد استيلائهم على صور 518هـ/ 1124م و عسقلان 543هـ/1148م، و قد كانت الأساطيل الايطالية لجنوة و بيزا و البندقية تهتم قبل الاستيلاء على أي مكان، أن تشترط ثمنا لمساعدتها، كالتنازل لها عن بعض الممتلكات و الحقوق داخل المدن الساحلية و في ضواحيها(4).

و على هذا النحو، أدت حاجة الحكام الصليبين إلى المساعدات المادية و الحربية إلى إنشاء عدد كبير من المستوطنات التي تتكون من برجوازيين إيطاليين. ازداد نفوذهم في الشرق، كما حصلت هذه الكوميونات على امتيازات سخية إبان فترة الأزمات التي مرت بها المملكة الصليبية (5)، و يمكن القول أنه منذ عام 494هـ/ 1100م غدت المدن الايطالية مركز الوساطة الكبرى في التجارة بين الشرق و الغرب(6).

---

(4) ابن الأثير الكامل ، ج9، ص 43، رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 435، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 260.

(5) الطحاوي، المرجع السابق، ص 130.

(6) الحويري، المرجع السابق، ص 105.

(1) هايد، المرجع السابق، ج 1، ص 186، يوشع برلور، عالم الصليبيين، ترجمة: و تحقيق: قاسم عبدم قاسم و محمد خليفة حسن، دار المعارف، ط 1، القاهرة، 1981، ص 158، نواف عبد العزيز الحجة، رحالة الغرب الإسلامي و صورة المشرق العربي من القون السادس إلى القرن الثامن الهجري (12/14م)، الأهلية للنشر ، عمان، ط1، 2008، ص 286.

(2) هايد، المرجع السابق، ج1، ص 149- 150، البنا، الأسواق الصليبية، ص 35.

(3) أرشيبالد.، القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط، ص 393.

على العموم يمكن القول أن تجارة المدن الايطالية قد تمركزت في موانئ الجبهة الجنوبية، فقد اعتبر الميناء الصليبي بمثابة رأس الجسر الذي عبر منه التجار الايطاليون إلى المستعمرات الصليبية، فمنه تنطلق السلع و البضائع إلى الأسواق[1]، و رغم الامتيازات التي منحت للإيطاليين في المدن الداخلية مثل بيت المقدس، فإنهم فظلوا الإقامة في المدن الساحلية إذ أدركوا أن مصالحهم التجارية تتركز أساسا في الموانئ[2].

وقد كانت موانئ مملكة بيت المقدس تتلقى كميات كبيرة من منتجات وسط آسيا، و كان من هذه الموانئ ميناء عكا[3]، و يذكر ابن جبير[4]«أن عكا كانت قاعدة بلاد الإفرنج في الشام و مرسى سفنهم»، فميناء عكا كان هو الميناء الميناء الرئيسي للملكة الصليبية خاصة و للصليبيين عامة لعدة أسباب أهمها،شكل الساحل الشامي و الذي كان مستقيما و غير عميق باستثناء عكا، التي كانت تتمتع بخليجها الطبيعي الوحيد على طول ذلك الساحل، و يتضمن مخبأ من العواصف و رسوا مريحا في جميع الأحوال[5].

كما لا ننسى أن ميناء عكا كان يقع في نهاية طريق التجارة البري المار من آسيا الوسطى إلى سواحل المتوسط عبر بلاد الشام، و من هنا يمكن القول أن امتلاك عكا أصبح أمرا ضروريا لكل فاتح يريد السيطرة الجبهة الجنوبية[6].

و بعد فتح صلاح الدين بيت المقدس 583هـ/ 1187م ، أضحت عكا العاصمة السياسية و التجارية للملكة الصليبية، و الميناء الرئيسي للحجاج المسيحيين، و أصبحت معظم الرحالات التجارية للسفن الايطالية تتجه إلى ميناء عكا الذي فاقت أهميته التجارية موانئ صور و صيدا، التي تمتعت بأهمية إقليمية[7].

و يلي ميناء عكا، ميناء صور الذي كانت له أهمية كبيرة في النشاط التجاري للمملكة الصليبية، و يعود ذلك إلى أمرين، أولهما: الأهمية البالغة لمينائها و خليجها الذي يتوسط برجين عظيمين تدخله السفن عند الميناء [8]،و قد ذكر ابن جبير في رحلته هذا الميناء و استعجب من حصانته [9]« و في البحر مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في

---

(4) الطحاوي، المرجع السابق، ص 134.

(5) البنا، الأسواق ، ص 22.

(6) هايد، التجارة في الشرق الأدنى، ج1، ص186.

(7) الرحلة، ص 211، ابن بطوطة، الرحلة، ص 36.

(8) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 131، رنسيمان، المرجع السابق،ج4، ص 54، محمد علي، الخطط ، ج 4، ص 244، مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في بيت المقدس، ص 166.

(1) محمد الكرد علي، الخطط ، ج4، ص 244.،البنا، المرجع السابق ، 129.

(2) لمقدسي، أحسن التقاسم، ص 164، وليام المصري، الحروب الصليبية ، ج3، ص 26، ابن بطوطة، الرحلة، ص 36، ، نواف عبد العزيز الحجمة، المرجع السابق ، ص 286- 287، البنا، المرجع السابق ، 34.

(3) الرحلة، ص 212.

(4) نفسه، ص 212، الطحاوي، المرجع السابق ، 130.

البلاد البحرية أعجب منها ». كما يتميز ميناء صور بقسم داخلي ترسو فيه السفن المحلية الصغيرة و ميناء خارجي للسفن التجارية الكبرى، و بين المنائين يوجد برجان من الحجارة القوية تتوسطها سلسلة ضخمة لمنع دخول السفن الدخيلة.

أما الأمر الثاني فهو تواجد البنادقة في صور، و تدفق أعداد كبيرة منهم بموجب معاهدة عام 518هـ/ 1124م[1]، حيث امتلكوا الأراضي و البساتين و الحدائق حول المدينة و كثرة البنادقة في صور منذ أواسط القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي[2].

إضافة إلى الموانئ المهمة السابقة ظهر ميناء بيروت الذي حاول أن يأخذ مكانا في النشاط التجاري، غير أنه لم يمكن في حالة تسمح له بمنافسة عكا و صور أو حتى يافا، و مع ذلك فقد كان أقرب منهم إلى دمشق [3]، وقد استطاع الايطاليون تكوين جاليات تجارية في بيروت نتيجة الامتيازات التي منحها لهم الملوك و الأمراء الصليبيون، و قد تركز النشاط التجاري للايطاليين ببيروت في تصدير المنتجات المحلية للمدينة بالإضافة إلى سلع الشرق الأقصى، ذات الأهمية التصديرية من أسواق دمشق[4].

وقد كان لميناء حيفا بعض الأهمية، إذ تمر به القوافل القادمة من طبرية، و كانت كل الموانئ التي ذكرناها تتبع القسم الشمالي للمملكة ، أما القسم الجنوبي فلم يكن به أي مرفأ له اتساع كاف لإيواء السفن التجارية، و من هذه الموانئ قيسارية و عسقلان أما ميناء يافا فقد ظلت مقصد الكثير من الحجاج لقربه من بيت المقدس [5].

و باستيلاء الفرنج على المدن الساحلية لبلاد الشام و موانئها الهامة مثل: بيروت و صيدا و يافا و عسقلان و غيرها تأثرت أحوال المدن الداخلية التي كانت هذه الموانئ بمثابة منافذ بحرية لتجارتها بدرجة كبيرة، و تعطلت حركة المتاجر من بلاد الشام إلى خارجها لذلك كان لابد من أن تواصل حلقة التجارة دورتها القديمة [6].

---

(5) نصت هذه المعاهدة، على أنه إذا أسهم البنادقة إسهاما رئيسيا في الاستيلاء على صور أو عسقلان يصير ثلث المدينتين ملكا خالصا لهم، و يبقى الثلثان الآخران للملك، و كذلك يجب على كل مدينة تن بعي للملك أو إلى أحد باروناته أن يضع في أيدي الباندقة شارع و ميدان و حمام و فرن دون أن يدفعوا أي تعويض، و يخصص لهم في القدس حي يساوي مساحته مساحة حي الملك و إعفائهم من جميع الضرائب على المشتريات و المبيعات و رسم الدخول إلى الأرض التابعة للملك و أتباعه و الخروج منها، **انظر**: هايد، المرجع السابق، ج1، ص 156.

(6) البنا، المرجع السابق ،ص 34.

(7) هايد، المرجع السابق ،ص 186- 187.

(1) البنا، المرجع السابق ، ص 34.

(2) هايد، المرجع السابق ،ص 186- 187.

(3) علي السيد علي، العلاقات التجارية، ص160.

لذلك نجد أنه بعد سقوط بيت المقدس(493هـ/ 1099م) في أيدي الصليبيين أسرع الكثير من مشايخ العرب في الجهات الداخلية إلى عقد اتفاقيات ودية مع حكومة بيت المقدس ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم، إذ درجوا من قبل على أن يرسلوا الفائض من محاصيلهم إلى المدن الساحلية، لذلك طلبوا من جودفري أن يسمح لهم بمرور قوافلهم عبر أراضيه، فسمح لهم بذلك غير أنه بذل قصار جهده حتى يحوّل أكبر قدر من التجارة إلى ميناء يافا [1].

و في الوقت ذاته شجع جودفري الإيطاليين أن يمنعوا التجارة بين المدن الساحلية الإسلامية في الشام و مصر، وأن يجعلوا هذه المدن تعتمد في تجارتها على الصليبيين، و بهذا أخذت المملكة الصليبية كلها تندمج في وحدة اقتصادية شاملة بما صار لها من العلاقات عبر البحر مع أوربا، فكأن سياسة الصليبيين حققت عائدات عاجلة في الثروة و الرخاء للدولة الصليبية[2].

كما كسب التجار الايطاليون الكثير من تميز وضعهم داخل نسيج المستعمرات الصليبية في الشرق، فبالإضافة إلى خبراتهم التجارية و البحرية التي تمتعوا بها قبل الفترة الصليبية [3]، فإن وجودهم في موانئ الشام التي كانت تعد إحدى المحطات التجارية الأخيرة لطرق التجارة الكبرى من الشرق إلى الغرب قد زاد من استفادتهم التجارية و من الانتعاش الاقتصادي للموانئ الصليبية ، خاصة لوقوعها ضمن شبكة المواصلات البرية التي تربط الشرق الأدنى ببلاد الحجاز و بغداد و مصر[4].

و مع أن الصليبيين قد أسسوا مستوطناتهم و مناطق نفوذهم في أقاليم مزدهرة اقتصاديا، فإنهم لم يستطيعوا السيطرة على المراكز التجارية الرئيسية في بلاد الشام، فلم تصل مناطق نفوذهم إلى أبعد من المنخفض العميق الذي يفصل المناطق الساحلية عن المدن الإسلامية الداخلية الكبرى مثل: دمشق و بغداد و حلب، و في الجنوب كانت شبه جزيرة سيناء بمثابة الحد الفاصل بين المملكة الصليبية و مصر[5].

---

(4) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج 4، ص 437، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 208، الحويري، الأوضاع الحضارية ، ص 105، الطحاوي، المرجع السابق، ص 137.

(5) رنسيمان، المرجع السابق، ج1 ،ص 437.

(6) شهدت الخمسون سنة الأخيرة من القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي انتصار أساطيل غرب أوربا الايطالية على قوة المسلمين و البيزنطيين البحرية القديمة، التي انتقلت إلى مركز ثانوي، ومنذ بداية القرن 6هـ/ 12م أصبحت الأساطيل الايطالية سيدة الموقف و الآمر الناهي في ح وض المتوسط. و أهم الأساطيل القوية جنوة و بيزا و البندقية.**أنظر**: أرشيبالد، لويس، القوى البحرية و التجارية،ص 361-393،كرد علي،المرجع السابق،ج4،ص244.

(1)الطحاوي،المرجع السابق،ص136.

(2) يوشع برلور، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس،ص 467.

كما أن أبناء المدن الايطالية و رغم حصولهم على امتيازات تجارية سخية كالإعفاء التام في بعض الأحيان من الرسوم الجمركية و حرية التجارة المطلقة و حق إقامة المنشآت التجارية و غيرها في المدن التي خضعت للفرنج إلا أن كل هذه الأشياء كانت لا قيمة لها إلا إذا عقدوا الكثير من الاتفاقيات التجارية مع المسلمين الذين كانت لهم السيطرة على تجارتي الشرق الأدنى و الأقصى ، لذلك حرصوا على الاتصال بحكام المسلمين باستمرار و عقد اتفاقيات تجارية معهم[1].

لقد كانت السلع الشرقية التي تصل إلى موانئ الشام تأتي من الصين و الهند بحرا إلى شمال الخليج العربي [2]، ثم تنتقل هذه السلع برا إلى البصرة و منها إلى بغداد، ثم دمشق، و منها إلى موانئ الشام، كما كانت السلع الشرقية تأتي أيضا في السفن عبر المحيط الهندي إلى البحر الأحمر(القلزم)، ثم إلى سيناء حيث تنقلها القوافل التجارية إلى دمشق و موانئ الشام[3].

و بوصول السلع الشرقية إلى الجبهة الجنوبية كانت طرق التجارة الداخلية تلعب دورا هاما في تنشيط التجارة بها، كما كان للعلاقات التجارية المستمرة بين المسلمين و الصليبيين أثر كبير في إذكاء مثل هذا النشاط التجاري، و هكذا ساهمت هذه العوامل جميعا في إعطاء دفعة جديدة لتجارة المملكة اللاتينية[4].

و غالبا ما استغرب الكثيرون ما قام به التجار الصليبيون في عنفوان الحروب الصليبية من التعاقد مع المسلمين، و لكن الحقيقة أن التجارة و تنقل التجار كانت أمر شبه مقدس في زمن الحروب الصليبية و كان المس بها يُعد جناية كبرى، و كان العجز عن ضمان أمن الطرق و حماية التنقل داخل البلدان الإسلامية يعد إدانة لسوء تدبير الأمير، و لم تكن الحروب لتغير شيئا من ذلك[5].

و قد كانت التجارة تمر خلال الصفوف العسكرية بمقتضى اتفاق متبادل «و للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم و تجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، الاتفاق بينهم و الاعتدال في جميع

---

(3) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 32.

(4) كان في بلاد العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام و المحيط الهندي، أحدهما يسر شمالا من حضر موت إلى البحرين على الخليج الفارسي و من ثم صور، و الثاني يبدأ من حضر موت أيضا و يسير محاذيا للبحر الأحمر متجنبا صحراء نجد و هضاب الشاطئ الوعرة و على هذا الطريق تقع مكة، **أنظر**: أحمد أمين ، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي،ط10، بيروت،1969، ص 12.

(5) الطحاوي، المرجع السابق، ص 136.

(1) البنا، المرجع السابق، ص 19.

(2) كلود كاهن، المرجع السابق، ص 177.

الأحوال، و أهل الحروب منشغلون بحروبهم و الناس في عافية الدنيا لمن غلب [(1)]» ، و قد أكد الطرفان ذلك في صلح الرملة 22 شعبان 588/ 2 سبتمبر 1192 م حيث تصالح صلاح الدين و ريتشالد قلب الأسد على أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر بأمان[(2)].

و قد ذكر ابن جبير مقدار الضريبة التي كانت تفرض لما مر بحصن تبنين[(3)]«و الضريبة فيه دينار و قراط من الدنانير الصورية[(4)]، و لا اعتراض على التجار فيه» و يبدو هذا النوع من الضريبة يدفع فقط بالدنانير الصورية التي كانت متداولة في الشرق الأدنى زمن السيطرة الصليبية على بلاد الشام[(5)].

على آية حال، فقد فرضت طبيعة العلاقة التجارية بين الصليبين و المسلمين سك هذا النوع من النقود المقلدة على العملة الفاطمية فقد سعى الصليبيون من خلال ذلك تسهيل المعاملات التجارية بينهم و بين العرب، و تثبيت أقدامهم بالأراضي المقدسة،و دفع الفدية بها في حالة وقوع أحدهم في الأسر. وكان التعامل بهذه النقود المقلدة يتم في عقود بيع و شراء الأراضي.

و يخطئ من يتصور أن المسلمين و الصليبيين في الجبهة الجنوبية ، و طوال فترة الحروب الصليبية لم يعرفوا سوى حياة الحرب و القتال، أو أنهم عاشوا في عداء مستمر، ذلك أن الطبيعة البشرية فرضت عليهم أن يتقاتلوا حينا و يتهادنوا أحيان، وفي أوقات السلم كان يتم الاتصال الحضاري بينهم على نطاق واسع[(6)]، و في ذلك يقول الرحالة المغربي المعاصر

---

(3) ابن جبير، الرحلة، ص 201، محمد كرد علي، خطط الشام، ج 4، ص 246. الحويري، المرجع السابق، ص 110، محمد سامي أحمد أمطير، الحياة الاقتصادية في بيت المقدس و جوارها في فترة الحروب الصليبية (492-583هـ/1099-1187م)، ماجييستر غير منشورة ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2010 ، ص 114.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، ص 218، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 347،أبو شامة،كتاب الرو ضتين في أ خبار الدولتين النورية و الصلاحية،ج4، تعليق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، (د.ت)،ص 183، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، المطبعة الحسينية المصرية، ط1،القاهرة، (د.ت)،ص 82، الذهبي ، العبر في خبر من غبر، ج3، تحقيق ، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ، بيروت، د.ت ، ص 96، الحويري، المرجع السابق، ص 110.

(5) ابن جبير، الرحلة، ص 201،

(1) **الدينار الصوري** : و هو الدينار الذي ضربه الصليبيون تقليدا للدنانير الفاطمية ثم الأيوبية، و قدسمي نسبة إلى صور التي تمتعت بشهرة واسعة في تقليد الدنانير الإسلامية، وكان وزنه حوالي ثلثي وزن الدينار الفاطمي، الأصلي، وكانت تنقش عليها نفس الكتابات المسجلة على القود العربية الإسلامية، **أنظر**: رأفت محمد النبراوي، النقود الصليبية في الشام و مصر، مكتبة القاهرة، 2004، ص 26-27-34-35.

(2) نفسه، ص 25.

(3) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 5.

المعاصر ابن جبير [1]«و من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين و نصارى و ربما يلتقي الجمعان و يقع المصاف بينهم ، و رفاق المسلمين و النصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم».

وهكذا ،فعلى الرغم من عدم مرور الطرق التجارية البرية الرئيسية بين الشرق و الغرب في أراضي المملكة اللاتينية ، فإن قرب موانئها (التي سيطرت عليهم من بيروت حتى عسقلان) من دمشق التي تعتبر مستودع منتجات الشرق الأقصى و كذلك عدم تأثر القوافل التجارية بالأحداث السياسية و العسكرية، كل هذا جعل من موانئ الصليبيين مراكز اقتصادية هامة[2].

و من أهم الطرق التجارية البرية المارة عبر الجبهة الجنوبية نجد طريق مصر– الشام، و يمتد هذا الطريق التجاري من القاهرة مرورا ببلبيس ثم العريش ثم رفح فغزة ثم الرملة، اللّجون، طبرية وصولا إلى دمشق [3]، و يعتبر هذا الطريق من أهم و أقدم الطرق التجارية لذا فقد سعى الملك بلدوين(494- 512هـ/ 1100- 1118) منذ اعتلائه عرش المملكة الصليبية و توسيع حدود المملكة من ناحية النقب في الجنوب الشرقي و السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت حتى خليج العقبة و هي المنطقة المعروفة بوادي عربة [4]، لقطع الطريق البري و تهديد القوافل التجارية بين مصر و الشام و العراق و الحجاز[5].

و بسيطرة الملك بلدوين الأول على وادي عربة توج نصره بتشييد حصن الشوبك عام 510هـ/ 1116م، كما يسميه الفرنج حصن الموتنريال [6]،ليتمكن من خلاله من السيطرة على الطرق المتجهة من مصر إلى بلاد الشام، و ليحقق نفوذا للفرنجة على وادي عربة، لإحكام سيطرته على المنطقة، استولى في العام الموالي على أيلة الواقعة على خليج العقبة،و بنى بها قلعة، كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة، و بهذا تحكم الفرنج في طريق التجارة البري للقوافل بين مصر و الشام[7].

---

(4) ابن جبير، الرحلة، ص 36.

(5) الطحاوي، المرجع السابق، ص 136.

(6) ابن خرداذبة، المسالك و الممالك، ص 219،المقريزي، الخطط، ج1، ص 632، الطحاوي، المرجع السابق، ص 136.

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 257.

(2) الحويري، الأوضاع الحضارية ص 105-106.

(3) وليام المصري، الحروب الصليبية ، ج2،ص 317.

(4) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 257، الحويري، الأوضاع الحضارية ص 105-106.

و نظرا للأهمية الكبيرة التي يكتسبها هذا الطريق التجاري فقد شيد الملك فولك الأنجوي (526-539هـ/ 1131-1144م)، حصن الكرك عام 537هـ/1142م على تل البتراء[1]، لغرض تأمين مواقع الصليبيين شرقي البحر الميت، و إحكام السيطرة على طرق القوافل بين مصر و الشام و بلاد الحجاز، و قد كان لموقع حصن الكرك ما هيأ له السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر و غربي بلاد العرب إلى بلاد الشام، فضلا على أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الأردن[2].

إن الأهمية الكبيرة التي تمتع بها كل من حصني الكرك و الشوبك قد جعلت سيطرة الصليبيين عليهم تشكل شوكة في حلق التجارة الإسلامية، لذلك شيد صلاح الدين (569- 589هـ/ 1174- 1193م)، حصن عجلون 580هـ/ 1184م الذي يشرف على غور الأردن من الغرب و صحراء البلقاء من الشرق، و لهذا فقد كان موقعه شرق حصني الكرك و الشوبك، و قد انتقل الطريق التجاري بين مصر و الشام عبر قلعة عجلون أي إلى الشرق من الطريق السبق (المار عبر الكرك و الشوبك)[3].

و رغم ما قام به صلاح الدين إلا أن حصن الكرك ظل يمثل تهديدا كبيرا على القوافل التجارية، خاصة بعد تولي رينو دي شاتيون Renaud de chatillon، الذي يسميه العرب"أرناط" [4] مقاليد الأمور في الأردن 572هـ/ 1176م، فلم تكن منطقة سيطرته طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين فحسب بل الطريق البري الرئيسي بين شطري دولة صلاح الدين (مصر و الشام) أيضا[5].

---

(5) **البتراء** :موضع بقرب تبوك، فيه مسجد للرسول صلى الله عليه و سلم، **أنظر** : ياقوت الحموي، معجم البلدان،أمين واصف بك معجم الخريطة التاريخية ،ص 21.

(6) ألبير شاندور، صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة :سعيد أبو الحسن ، مراجعة و تحقيق : نديم مرعشلي ، ط لاس للدراسات، دمشق ، 1988، ص 178، ر،سي، سميل ، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (1079- 1193م)، ترجمة: محمد و ليد الجلاد ، طلاس للدراسات والترجمة و النشر ، ط 1 ، دمشق ، 1985، ص 51، رنسيمان، المرجع السابق، ج 1، ص 369-370-371، الحويري، المرجع السابق، ص 107، علي السيد علي، المرجع السابق، ص 16،

(1) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 245، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 105.

(2) **أرناط**: و هو أحد الأمراء الفرنسيين الذين قدموا إلى الشرق،كان شابا متحمسا لتحقيق نصره على المسلمين،وكان خلقه الغدر و عدم الوفاء بالعهد، ثم أصبح أميرا لأنطاكية، لكنه وقع أسيرا في زمن نو ر الدين لزمن طويل حتى سنة 582هـ/1186م، و عند خروجه تزوج من إتينت دي م يلي Etiennette De Millyو ريثة صاحب الأردن و استحوذ على إقطاعها مما مكنه من القيام بدور بارز في الحرب الصليبية بفلسطين **أنظر**: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 97، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص 142، عاشور الحركة الصليبية، ج2، ص 604، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 116.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص 142،، الحويري، المرجع السابق، ص 108،

لذا فقد أغار على قوافل الحجيج عدة مرات، و جعل يحصل الرسوم و يمنع القوافل التجارية من المرور، رغم المعاهدات التي أبرمت بين صلاح الدين و الصليبيين للسماح بمرور التجار و الحجاج على حدود الإمارة سالمين [1]، و لم يكتف أرناط بكل ما قام به بل ركبه الطيش و الغرور و عمل إلى غزو المدينة المنورة و طعن الإسلام و المسلمين في مقدساتهم و كان يرجو إلى جانب ذلك السيطرة على تجارة البحر الأحمر (القلزم) [2].

غير أن ، صلاح الدين تمكن من إحباط تلك المحاولة، و ظل حصن الكرك يهدد طريق الشام مصر التجاري حتى عام 584هـ/ 1188 عندما تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على الكرك و الشوبك بعد حصار طويل [3]، و أصبح الطريق التجاري (مصر- دمشق) يربط شطري دولة صلاح الدين.

على أن ما قام به أرناط الصليبي لا يؤخذ حكما عاما على جميع الصليبيين في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، فالواقع أن المدن بالشام عامة و المملكة اللاتينية خاصة قد ازدهرت و تمتعت بنشاط كبير في المجال التجاري، و لم يعق ذلك حتى حالات الحرب بين الطرفين [4]،و قد أكد الرحالة ابن جبير الذي زار الشرق عام 580هـ/ 1184م و صلاح الدين يحاصر الكرك [5] «و ضيق صلاح الدين على الحصن و طال حصاره، و اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع».

على أية حال بإضافة إلى طريق القاهرة- دمشق كان هنالك طريق تمتد من دمشق إلى موانئ الشام إما صور أو عكا، و كانت السلع و البضائع الشرقية عند وصولها إلى دمشق تقوم القوافل التجارية بحملها عبر الطرق البرية و قد سلك ابن جبير طريق دمشق - عكا عند عودته من رحلة الحج و الذي يبدأ من دمشق-بانياس- تبنين — عكا و يقول أنه طريق وعر لذا كانت تعتمد القوافل فيه على البغال أما الطريق الأخر فيبدأ من دمشق عبر أربد — الغور- طبرية — عكا و يذكر أن هذا الطريق كان منبسطا غير وعر و لذا اعتمدت فيه القوافل على الجمال [6].

---

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 130، أبو شامة، كتاب الروضتين، ج3، ص176، الحويري، المرجع السابق، ص 108.

(5) وكان ذلك عام 578هـ/ 1182، **أنظر** : البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتح تي النبراوي ، مكتبة الخانجي ،مصر، 1979، ص 289، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، ص 142، أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 3، ص 88-89-90، ابن واصل ، مفرج الكروب، ج 2، ص 127، أبي الفداء، المختصر ، ج3، ص 65-66، أحمد رمضان، سيناء، ص 116.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص 175، أبو شامة،الروضتين، ج4، ص 27-28 ، أبي الفداء، المختصر، ج3، ص 75، ألبير شاندور، المرجع السابق، ص 180.

(1) الحويري، المرجع السابق، ص 109.

(2) الرحلة، ص 201.

(3) نفسه، ص 209-2010-2011، الطحاوي، المرجع السابق، ص 137.

أما الطريق الواصل من دمشق إلى صور فقد كانت بانياس بمثابة نقطة الحدود فيه بين الأراضي الإسلامية و الممتلكات الصليبية و كانت تخرج القوافل من دمشق عبر بيت جن إلى بانياس إلى تورون و حصن هونين إلى مدينة صور[1]، و يبدو أن الفرنج قد شيدوا قلعة تبنين 499هـ/ 1105م للتحكم في الطريق بين صور و بانياس[2].

لقد كان إصدار عملة ذهبية (الدينار الصور) من أبرز نشاطات البنادقة في صور، و قد حصل البنادقة على هذا الامتياز عام 529هـ/ 1124م، و ذلك لأن مصالحهم التجارية اقتضت سك مثل هذه العملة لجذب تجار الشرق، و قد لقيت الدنانير التي سكها البنادقة و الصليبيون رواجا في الأسواق الإسلامية، و يعتبر هذا الانتشار الكبير الذي حضت به النقود الصليبية في بلاد الشام و حتى مصر من أهم التأثيرات الصليبية على المسلمين[3].

أما فيما يخص حركة التبادل التجاري بين الصليبيين و المسلمين فقد تحكمت بهما المدن الايطالية [4]، وقد كانت كانت المبادلات التجارية تتحدث أساسا عن الخشب و الحديد بالنسبة للاستيراد ،و الحرير و الخشب و المواد الاستهلاكية المتنوعة بالنسبة للتصدير[5].

غير أن بيع الخشب و الحديد و بالأحرى بيع الأسلحة للمسلمين كان محظورا في أغلب التشريعات آنذاك و كذلك عبر قرارات صريحة أصدراها البابوات و المجامع الكنسية، غير أن المصالح التجارية للايطاليين كانت فوق كل شيء، فقد كانت السلع المحظورة تحمل خفية تحت البضائع المسموح بها، و ربما حدث تمويه بصدد الاتجاه المعلن للسفر و قد ذكر البابا أوربان الثاني خطر التجارة على الصليبيين «أريدكم على الأخص أن ترتعوا شؤون الكنيسة و أن تحافظوا على شرائعها حتى لا تضرب هرطقات المتاجرة بالدين جذورها بينكم، و أعلموا أن البائعين و الشارين يلفحهم سوط الله [6]»

وقد نشطت التجارة في المدينة تنيس على ساحل سيناء. و كانت تشتهر بتصدير شيلان العمائم حتى إلى أوربا[7].

---

(4) الطحاوي، المرجع السابق، ص 137.

(5) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 15.

(6) البنا، المرجع السابق، ص 35.

(1) أرشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص 391.

(2) كلود كاهن، المرجع السابق، ص 170.

(3) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 33، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 170.

(4) أرشيبالد، لويس، المرجع السابق، ص 328.

أما إذا تحدثنا عن المنتجات المصدرة من الجبهة الجنوبية فقد كانت المملكة الصليبية تصدر إلى كثير من المدن الإسلامية في الشام، الزيت و الزبيب و النيلة و الحبوب و العسل و التمور و غيرها هي مواد قامت عليها كثير من الصناعات المختلفة[1].

و قد وجدت المنتجات التقليدية لبلاد الشام أسواقا رائجة في مناطق متعددة من العالم، خاصة أسواق أوربا زمن الحروب الصليبية فقد كان القطن و الكتان و الحرير و الصوف المنتج في بلاد الشام يصدر إلى أسواق أوربا في صورة مواد خام أو على هيئة منسوجات إضافة إلى زيت الزيتون و الصابون و غيرها من المنتجات الزراعية الهامة ذات الصبغة التجارية. دون أن ننسى السكر الذي وجد أسواقا رائجة في أوربا. و كان يصدر بكميات كبيرة، و كان معظم استهلاك أوربا من السكر في القرنيين 6- 7هـ/ 12- 13م من بلاد الشام[2].

و قد كان الزجاج الفاخر المصدر من مدينة صور يلقى رواجا تجاريا في أوربا لجودته، كما شوهدت فواكه فلسطين النادرة مثل: الليمون الحلو و الرمان على موائد الأغنياء في إيطاليا و من المؤكد أن عددا من التوابل و البهارات و الأعشاب الطبية، كانت من منتجات التصدير، و كان بلسم الأراضي المقدسة من أهم الصادرات، فقد وجد زيت البلسم رواجا في أوربا و استخدم للأغراض الكنسية و الطبية و عرف باسم بلسم الأراضي المقدسة[3].

و في الأخير يمكن القول أنه من الصعب الاعتقاد أن مشتريات المملكة اللاتينية لم تتجاوز مبيعاتها، رغم أن الجماعات الدينية كانت تسعى لتنمية المنتجات المدرة للأرباح مثل الزيت و السكر و الخمر- إضافة إلى تلك الثروات التي أرسلت (الأمراء و الباباوات) من أجل إنقاذ الأراضي المقدسة[4].

---

(5) علي السيد علي، المرجع السابق، ص 12.

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 4، ص 243، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 170، يوشع برلور، عالم الصليبيين، ص 227، هايد، المرجع السابق، ج1، ص 189، عبد الحافظ البنا، المرجع السابق، ص 39.

(2) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص 245، الحويري، المرجع السابق، ص 109 ، البنا، المرجع السابق، ص 39-40.

(3) كلود كاهن، المرجع السابق، ص 172.

المبحث الرابع: العناصر السكـــانية في الجبهة و موقفها من الصـــراع.

إن دراسة عناصر السكان و تحديد الحالة الديمغرافية للجبهة الجنوبية، منذ بداية توافد الحملات الصليبية على الشرق 490هـ/ 1096م، يحتم على الباحث تحديد الفئات السكانية القاطنة بجنوب الشام و سيناء و الهجرات المتتالية على المنطقة قبل الغزو الصليبي أولا ثم دراسة العناصر المتباينة الوافدة على بلاد الشام خاصة في الحملة الصليبية الأولى، و التي تمكنت من الاستقرار في المملكة اللاتينية ثانيا.

و يمكن القول أنه منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، حفلت مملكة بيت المقدس التي تأسست على أرض فلسطين عام (493هـ/ 1099م)بعناصر سكانية عديدة و متباينة قلما تجدها في منطقة أخرى، و يعود ذلك إلى طبيعة وموقعها الجغرافي الذي جعلها مقصدا لكثير من الهجرات عبر التاريخ من جهة ، و أهميتها الدينية[1] و الاقتصادية من جهة أخرى، و قد حاولت في المباحث السابقة إبراز هذه الأهمية ليتسنى لي الإلمام بخيوط الموضوع،و لإعطاء صورة واضحة عن أسباب تواجد هذه العناصر السكانية الغريبة عن المنطقة و القادمة من غرب أوربا للاستيطان في الشرق.

أما فيما يخص سيناء ، فلم يسكن سيناء منذ القديم إلا عدد محدود من القبائل المتبدية دأبهم هو الإغارة على بعضهم البعض، و يبدو أن السبب الحقيقي و راء ذلك هو ظروفها الطبيعية القاسية و التي لا تتلاءم إلا مع طبيعة البدو،

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق،ج1، ص 69، الحويري، المرجع السابق، ص 15.

فصحراء سيناء واقعة في المنطقة التي يقل فيها المطر لذلك غلب عليها الجدب و القحولة، فهي قليلة المياه قليلة الزرع قليلة السكان[1].

و من الصعب الحكم على أصول السكان في بلاد الشام قبل أن يعرف التاريخ، و تعيين أول من نزلها من القبائل قبل أن تبنى المدن و الحواضر، و أقدم ما عرف منها قبائل تعرف "بالعمو" ورد ذكرها في الآثار المصرية، و معناها الشعب باللغة السامية، ثم اختلطت بغيرها من القبائل و سمي هذا الخليط "بالروتان"، و لعل ذلك كان قبل الطوفان (سيدنا نوح عليه السلام)، و بعد الطوفان أمم كثيرة سكنت جنوب الشام بعضها من أصل سامي و بعضها لم يعرف عنه شيء[2].

و قد سكن بلاد الشام في العصور الوسطى بقايا الآراميين [3] الذين شكلوا أغلبية في المنطقة، و قد تمركز في الجبهة الجنوبية السوريان في الشرق و السامريون في الجنوب، و بقايا الأنباط في [4] الغرب، يليهم العرب الغساسنة [5] و المناذرة ، ثم قبائل إياد و ربيعة، و أخلاط من اليونان و الرومان على السواحل الغربية للجبهة[6].

و مع بداية الغزو الإفرنجي على بلاد الشام كان المجتمع الإسلامي يمثل السمة الغالبة على العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية، باستيطان الصليبيين في فلسطين و توافد الهجرات من غرب أوربا، تكوّن في جنوب الشام مجتمعان

---

(2) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 1.

(3) محمد كرد علي، المرجع السابق،ج1، ص 57.

(1) عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 293.

(2) **الأنباط**: نشأة دولة الأنباط حوالي 587 ق.م في المنطقة الشمالية الغربية لجزيرة العرب ثم توسعت شمال شرقي جزيرة سيناء/ و اتخذت من م دينة البتراء عاصمة لها و النبط من الشعوب العربية نزحوا من البوادي إلى أعالي الحجاز ثم سرعان ما استقروا و تحضروا و أقاموا قرى و مدن جنوب الشام، و عاصمتها البتراء تقع على بعد 80 كلم من البحر الميت، **أنظر** : مصطفى أبو ضبف أحمد، دراسات في تاريخ الدولة العربية، دار النشر المغربية، ط 1، الدار البيضاء، 1986، ص 50-74.

(3) **الغساسنة** : وهم من أزد، أسسوا ملكه م شرقي الأردن و حوران، و امتد سلطانهم ما بين الجولان و اليرموك، و قد كوّنوا إمارتهم في الشام كالتي كونها اللخميون في الحيرة، و ينسب بنو غسان إلى أزد اليمن ، و أول من ملك غسان، جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء، وكان ابتداء غسان عما يزيد عن 400 سنة قبل الإسلام، وكانوا عمالا للرومان على عرب الشام .**أنظر**: المسعودي، التنبيه و الإشراف ، مطبعة بريل ،ليدن، 1893، ص 186. أبي الفداء، المختصر، ج1، ص 95، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 7-18، مصطفى أبو ضيف أحمد، المرجع السابق، ص 53-82-83، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي ، ص 20-21 ، ابن كثير، البداية و النهاية، ج2، ص 147،**أنظر** : مراكز تموقع القبائل و الدول العربية قبل الإسلام ،الخريطة رقم (4).

(4) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي ، ص 95.

مجتمع إسلامي و مجتمع مسيحي [1]،إضافة إلى مجموعات من اليهود، كانت متمركزة في بعض المدن المقدسة على رأسها بيت المقدس و نابلس[2].

1/ المجتمع الإســلامي:

كما قلنا سابقا، أن المجتمع الإسلامي كان يمثل السمة الغالبة في العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية، حيث كان الإسلام يمثل عقيدة الحكام و أغلبية سكان جنوب الشام و سيناء، و مع توطن الفرنج في الشرق و تأسيس إمارات صليبية، على رأسها مملكة بيت المقدس [3]،طُرد المسلمون من أراضيهم و حل محلهم الصليبيون الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى و أصبحوا هم أسياد الأرض[4].

غير أن بعض الآلاف من الجنود و المنبوذين في المجتمع لم تغير من غالبية المجتمع الإسلامي في الجبهة الجنوبية رغم تمركز مملكة الفرنج فيها، يعود هذا لأن تلك الحملات القادمة من الغرب الأوربي كانت ما إن تؤدي مهمتها سواء أكانت الحج أو القيام بغارات لضم المزيد من الأراضي للصليبين، حتى تعد أدراجها إلى مواطنها المختلفة، لذا فقد ظل عدد الصليبين، محدودا في بلاد الشام عامة و المملكة الصليبية خاصة[5].

على أنه يمكن تقسيم المجتمع الإسلامي في الجبهة إلى قسمين، قسم يرجع إلى أصل عربي خالص، و القسم الآخر انحدر من أصول غير عربية دانت بالإسلام منذ أمد بعيد.

1/ العرب:

إن موطن العرب الأصلي هو بلاد الجزيرة، و قد ذهب بعض المؤرخين إلى أن العرب و من حولهم كانوا من أصل واحد و هو السامية، ثم تحضر من حولهم و تخلفوا هم، فقد تحضر سكان الفرات، و تحضر وادي النيل و ظل العرب

---

(5) الحويري، المرجع السابق، ص 15.

(6) يوشع برلور، الاستيطان الصليبي ، ص 69.

(7) يوشع برلور، الاستيطان الصليبي ، ص 77، الحويري، المرجع السابق، ص 15.

(8) مصطفى الحياوي، القدس زمن الفاطميين و الفرنجة ، ص 49،جلال حسين سلامة، التهجير القسري لسكان فلسطين في العهد الصليبي في الفترة الواقعة بين (492-551هـ/ 1099- 1156م)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث و الدراسات، العدد الثالث عشر، 2008، ص 6-7.

(1) ستفان رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 429، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 205، محمود الحويري ، المرجع السابق، ج1، ص15.

تغلب عليهم البداوة لما حاصرتهم جبالهم و بحارهم،و سواء صح هذا أم لم يصح، فقد تأخر العرب عمن حولهم في الحضارة و غلبت عليهم البداوة[1].

و إذا كانت الجزيرة موطن الساميين الأصليين فالهلال الخصيب الممتد من الخليج العربي إلى سيناء، و المشتمل على جنوب بلاد الشام، كان مقر مدينتهم الأولى [2]، فلم تتوقف هجرات القبائل العربية من بلاد العرب في الجنوب إلى بلاد الشام و مصر عبر العصور القديمة و ذلك نتيجة القرب الجغرافي بينهم و الذي ساعد على تنمية العلاقات و استمرارها[3].

كما اشتدت الحاجة في بلاد العرب إلى التوسع نتيجة لضآلة موارد العيش في البلاد الصحراوية و التي ازدادت قلة بعد تدمير ما أنشأته حمير من نظم للري [4]،و استمرت هجرات القبائل العربية إلى بلاد الشام خاصة لمزاولة النشاط التجاري ذلك أن بلاد العرب كانت منذ القديم طريقا تجاريا عظيما للقوافل، وقد أفادت هذه الطرق التجارية العرب إفادة كبيرة و فتحت لهم بابا للرزق، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق و يتاجر لنفسه، و منهم من كان يستخدم سائقا أو حارسا أو دليلا[5].

إضافة إلى ما سبق فقد حدثت هجرات القبائل العربية البدوية إلى الشام نتيجة انتظام الفصول الأربعة فيها ، فالقبائل كانت تقضي فصل الشتاء في بلاد العرب لاسيما في نجد [6]،و في فصل الربيع كانت تتحرك إلى الشمال بحثا عن المراعي و في تقدمها تصل إلى حدود الأقاليم المتحضرة خاصة الشام،إضافة إلى ذلك فقد انتقلت بعض القبائل

---

(2) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 4.

(3) فيلب حتي، العرب تاريخ العرب الموجز، ص 15.

(4) ابن خلدون، ديوان المبتدأ و الخبر، ج 1،ص 21، صبحي عبد المنعم محمد ، العلاقات بين مصر و الحجاز زمن الفاطميين و الأيوبيين، العربي للنشر و التوزيع، القاهرة، (د. ت)، ص 16.

(5) شيد ملوك حمير سدا لحفظ ماء العيون و الأمطار و الأودية، وقيل ضربته ملكتهم بلقيس، وتركت فيه خروقا على قدر ما يحتاجون إليه في سقيهم و سمي هذا السد بالعرم أو مأرب المشهور، فلما كفروا بالله و استكبروا أرسل عليهم المولى عز و جل سيل العرم ودمر السد وتفرق عرب الجنوب على أثرها قال الله= =تعالى « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » (سبأ، 16)، **انظر**: ابن خلدون، العبر، ج1، ص 57، أبو الفداء، المختصر، ج1، ص 95، ابن كثير، البداية و النهاية، ج2، ص 146، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج1، دار النهضة المصرية، القاهرة، 2001، ص 12،رنسيمان،المرجع السابق،ج2،ص30.

(1) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 12-13، الحويري، المرجع السابق، ص15.

(2) **نجد**: هو ببلاد العرب (شبه الجزيرة العربية) يمتد من اليمن جنوبا إلى أطراف العراق و الشام شمالا ، سمي نجدا لارتفاع أرضه ، **أنظر** : ياقوت الحموي، معجم البلدان ،ج5،ص 261- 262، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 78،سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين ط2،بيروت، 1967،ص 6.

العربية إلى جنوب الشام و سيناء هروبا من الحروب المستمرة فيما بينها، و على العموم يمكن القول أن هجرات العرب إلى الجبهة الجنوبية كانت إما بالتغلغل السلمي أو باستعمال القوة و في شكل موجات بشرية متتالية[1].

و يعود استيطان العرب للجبهة الجنوبية إلى القرن الثاني الميلاد [2]غير أن بعض المؤرخين يؤكدون أن دخول العرب للجبهة الجنوبية كان قبل ذلك بزمن بعيد و الدليل أن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين عام 3800 ق.م و صادف في سيناء حكومة عربية ، ثم حارب قبيلة معان العربية و أسر أميرها، وقد ظهر من آثار بابل ما يثبت ذلك، كما أن سرجون الثاني غزا عرب البادية (بادية الشام) الذين اعتدوا على بلاد السامرة و أخضع قبائلهم و منها ثمود و مدين و مساكنهم شرقي الأردن[3].

و مع موجة الفتوحات العربية في صدر الإسلام، اندفعت القبائل العربية و بطونها إلى الشام، حاملة معها الدماء العربية و اللغة العربية و الدين الإسلامي إلى تلك البلاد [4]. و أصبحت الغلبة للعنصر العربي و استطاعت القبائل القبائل العربية منذ أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي التأثير على بناء المجتمع في منطقة زمن الحروب الصليبية[5].

يمكن القول أن العرب الذين تواجدوا بجنوب الشام و سيناء قد انقسموا حسب طبيعة عيشهم إلى بدو و حضر[6]، و البدو هم سكان الصحراء ، عاشوا حياة التنقل و ألفوها يعيشون في بيوت من الشعر و يتنقلون مع أسرهم و أنعامهم في البوادي و الهضاب طلبا للمرعي، لاسيما جبال لبنان التي تزخر بالرعاة المتجولين من مكان إلى آخر

---

(3) الحويري، المرجع السابق ، ص 15، فاروق عمر فوزي، محسن محمد حسين، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط (13هـ- 923هـ /634م – 1517م) ، دار الشروق ،ط1، الأردن، 1999، ص 13.

(4) حسين العويدات، العرب النصارى (عرض تاريخي) ، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، دمشق، 1992، ص 36،أنظر الخريطة رقم (5).

(5) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج1، ص 59- 60.

(1) الحويري، المرجع السابق ، ص15، حسن العويدات، المرجع السابق، ص 17.

(2) أحمد رمضان أحمد،المجتمع الإسلامي ، ص 38.

(3) اتفق أغلب المؤرخين و النسابيين على أن عرب الجنوب (القحطانيين) قد مثلوا الحضر ،أما البدو فقد كانوا عرب الشمال (العدنانيون)، و قد استقر القحطانيون في بلاد الشام و مصر (سيناء) قبل الإسلام و احتلطوا بالناس و اشتغلوا بالزراعة و غيرها من الأعمال لأنهم أخذوا بأسباب الحضارة منذ القديم فقامت لهم عدة ممالك أشهرها معين و سبأ و حمير، أما البدو و هم عرب الشمال فقد كانوا يحت قرون الصناعة و الزراعة و التجارة، و يعيشون على ما تنتجهم ماشيتهم ،و قد كانوا يجوبون الصحاري الشرقية و يقيمون خيامهم أين توفر المرعى. **أنظر**: الطبري، تاريخ الرسل و الملوك ، ج2، ص 271، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق و تعليق : عبد السلام محمد هارون، دار المعارف ، ط5، القاهرة، ص 7، ابن خلدون، العبر، ج 1، ص 150-215-216، حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق،ج1 ، ص13. أحمد أمين، المرجع السابق، ص9 ، صبحي عبد المنعم محمد، المرجع السابق، ص 16.

سعيا وراء العشب و الكلأ و الماء [1]، أما الحضر فهم سكان المدن و القرى الشامية، و قد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من زراعة و صناعة و تجارة[2].

و الذي يهمنا بالدراسة أكثر، القبائل العربية المستقرة [3]في الجبهة و التي حددت بنية المجتمع قبل و بعد الغزو الصليبي، أما القبائل العربية البدوية فلم تترك أثارا ذات أهمية أثناء ترحالها[4]، و من أهم القبائل المستقرة:

1/ بنوطئ[5] : كانت منازلهم باليمن ثم نزلوا نجد و الحجاز [6]، ثم افترقوا في أول الإسلام زمن الفتوحات الإسلامية في الأقطار، و يقال أنهم من وضع الخط العربي، و في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي انتقل بنوطيء من شمال الشام[7]، إلى فلسطين جنوبا في الإقليم الواقع شرق نهر الأردن و الأطراف الغربية لصحراء الشام[8].

و في أواخر القرن 4هـ/ 10م ، حاول بنوطئ تكوين دولة في فلسطين مستقلة عن الخلافة الفاطمية،فثار زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح بالرملة عام 388هـ/ 998م، لكن الفاطميين أخضعوا ثورته، ثم توالت ثورات بني

---

(4) فيلب حتي، تاريخ العرب الموجز، ص 16-17، أحمد أمين، المرجع السابق، ص4 ، سيد أمير علي، المرجع السابق، ص7.

(5) ابن خلدون، العبر، ج1، ص 150، الحويري، المرجع السابق ، ص16-24- 25.

(6) أنظر الخريطة رقم (5).

(7) يوشع بيلور، الاستيطان الصليبي ، ص 69.

(1) **بنو طيء** : و هم بن أُدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان و هم من القحطانيين (اليمن) و إليهم ينسب حاتم الطائي، **أنظر**: حبيب أبو جعفر محمد، مختلف القبائل و مؤتلفها، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 320، دار الكتاب المصري، القاهرة، ص 33، ابن حزم ،جمهرة أنساب العرب،ص446.

(2) لما تفرقت القبائل اليمنية بسبب سيل العرم نزلت طيء في جبلان بالحجاز يعرفان بأجأ و سلمى و كان ذلك قبل الإسلام .أنظر:القزويني،آثار البلاد،ص74،أبو الفداء،المختصر،ج1،ص130،أحمد أمين،المرجع السابق،ص7.

(3) ابن خلدون،ج1 ، ص 305، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 320،

(4) الحويري، المرجع السابق ، ص17.

الجراح الذين كانت لهم رياسة طئ، حتى أوقع بهم الفاطميون و منذ ذلك الوقت ضعف شأن بني الجراح، و تمكن الفاطميون من استرداد سيطرتهم على البقاع الجنوبية من الشام[1].

ومن طئ انحدر آل ربيعة [2]، وقد ذاع صيتهم أيام الدولة الأتابكية و الأيوبية «و كان مبدأ ربيعة أنه نشأ زمن الأتابك عماد الدين زنكي، و كان أمير عرب الشام أيام طغتكين السلجوقي صاحب دمشق و وفد على السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأكرمه و شاد بذكره [3]»، و قد اعترف الحكام الفاطميون في مصر بسيادة هذه القبيلة على جنوب الشام عشية الحرب الصليبية الأولى[4].

و من ربيعة برزت ثلاث أقسام و هم آل الفضل و تمركز تواجدهم بشمال الشام [5]، و آل مرا و منازلهم بحوران و غوطة دمشق. و ديارهم بمرج دمشق و غوطتها [6] قد أكد اليعقوبي ذلك[7] «و جند دمشق به قوم من ربيعة » ربيعة» و انحدر من ربيعة جرم الذين سكنوا ببلاده غزة، و كانوا متفقين مع ثعلبة على نصرة الفرنج، فلما فتح السلطان صلاح الدين المنطقة التي سكنوها دخلت طائفة منهم مصر و بقي منهم ببلاد غزة[8].

و بتأسيس المملكة اللاتينية وجدت قبيلة طئ و فروعها الكبيرة على الحدود الشمالية الشرقية لها (المملكة)، و كذا في أقصى الغرب من وادي اليتم عند جبل الجولان[9].

2/ بنو كلب[10]:

---

(5) نفسه،ص17.

(6) **آل ربيعة**:و هم بنو ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن الجراح **أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 203.

(7) نفسه ، ج4، ص 203.

(8) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص71.

(9) وديار آل الفضل من حمص إلى قلعة جعبر و هي شمال الفرات إلى الرحبة بدمشق، **أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 204.

(10) العمري ، مسالك الأبصار، ج4، ص 309- 315، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 204، الحويري، المرجع السابق ، ص18.

(11) اليعقوبي، البلدان، ص55.

(1) العمري ، مسالك الأبصار، ج4، ص 300، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 322، محمد كرد علي، المرجع السابق ، ص67.

(2) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص71.

(3) **بنو كلب** : يرجع نسبهم إلى كلب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة و منهم حارثة الكلبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، **أنظر**: أبو الفداء، المختصر، ج1، ص 128، القلقشندي،صبح الأعشى ،ج1، ص 316، خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين، ج5، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، 2002، ص 230.

و كلب من بطون قضاعة[1]، التي اعتبرها النسابون من أعظم قبائل العرب، و أكثرها بطونا، و أغلب الظن أن قضاعة جاءت إلى جنوبي الشام و استقرت فيه قبل الميلاد، و من أشهر بطونها إضافة إلى كلب، بهراء [2] و سليح و حلان و الضجاعم و تنوح...و غيرهم[3].

و قد نزل بنو كلب قبل الإسلام دومة الجندل [4] و تبوك و أطراف الشام و وادي القرى و الواحات شرقي حوران و جنوبيها، و أقامت جماعات كلبية أخرى حول سُلمية و تدمر، و في بادية الشام و شمالها[5].

و لم يكن موقف كلب معديا للإسلام، بل أرسلوا للرسول صلى الله عليه وسلم و دخلوا الإسلام تدريجيا. و بفتح الشام 14هـ/636م أصبحت كلب في مقدمة القبائل المؤيدة للدولة الإسلامية الجديدة، بل أصبح لكلب نفوذ سياسي في البلاط الأموي و في الجيش بعد أن تتزوج معاوية بن أبي سفيان ميسون الكلبية و التي ولدت له يزيد[6].

و مع بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي استقر بنو كلب في وسط الشام، و دخلوا في الحلف الذي دع إليه بن مرداس أمير بنو كلاب عام 415هـ/1024م كي يتحد زعماء القبائل العربية جميعا لإخراج الفاطميين من بلاد

---

(4) **قضاعة**: يرجع نسبهم إلى قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ، **أنظر**: أبو الفداء، المختصر، ج1، ص 128، ابن خلدون، العبر ج2، ص 296.

(5) **بهراء**: وهم بنو بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة و منهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم منهم المقداد بن الأسود و كانت منازلهم من الينبع إلى عقبة أيلة ،ثم جاوز بحر القلزم منهم خلق كثير، **أنظر**:ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص 448، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 316، الزركلي، الأعلام، ج2، ص 78.

(6) ابن خلدون، العبر، ج2، ص 296- 297، فاروق عمر فوزي، المرجع السابق ، ص 16-17، المسعودي، التنبيه و الأشراف، ص 186.

(7) **دومة الجندل** : و هي حصن على سبع مراحل من دمشق و المدينة المنورة، و أرضها منخفضة و هي قرب جبل طيء، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 486.

(8) و قد ذكر أحد الشعراء منازل قضاعة و كلب بعد خروجهما من اليمن :

و قد منا نزلت قضاعة منزلا * بعيدا فأمضت في بلاد الصنوبر

و كلب لها ما بين رملة عالج* إلى الحرة الرجلاء من أرض تدمر

و عالج: رمال معروفة في البداية (بادية الشام)، و الرجلاء و الحرة: في أطراف الشام بين حوران و تيماء **أنظر**: أبو الفداء، المختصر ج1، ص 128،القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 316، محمد كرد علي، المرجع السابق ،ج 1، ص63، حسين العويجات، المرجع السابق ،ص 18، أحمد أمين ، المرجع السابق، ص 7، فاروق عمر فوزي ، المرجع السابق ، ص 21.

(1) عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ص 234، فاروق عمر فوزي، المرجع السابق ، ص 21-27.

الشام و تقسيمها بينهم على أن يكون شمال الشام للمرداسيين [1]، من الرملة إلى حدود مصر لحسان بن مفرج بن الجراح أمير الطائيين و دمشق و ما يحيط بها (وسط الشام)لسنان بن عليان أمير الكلبيين [2].

غير أن الفاطميين كانوا على دراية بما يدبر له أمراء العرب و دعوتهم للانفصال. فلم يجدوا بدا من تجهيز الجيش و محاربة هذه القوى المتحالفة، لحماية نفوذها في بلاد الشام، و بالفعل كان ذلك عام 420هـ/ 1025م حين تمكن الجيش الفاطمي من إلحاق الهزيمة بالعرب عند طبرية[3]، و استرداد البقاع الجنوبية و الوسطى من بلاد الشام[4]

3/ عاملة[5] و جذام[6] :

(2) **المرداسيون**:و هم من بني كلاب,التي تسكن بادية الشام بعد هجرتها من بلاد العرب و قد استغل زعيمهم صالح بن مرداس الفوضى التي شاعت في خلافة الحاكم بأمر الله و شن غاراته على شمال بلاد الشام، و تمكن من انتزاع حلب من يد الفاطميين. 414هـ/ 1023، و استطاعت السلالة المرداسية أن تحتفظ بحلب أكثر من خمسين عاما، وقد تأسست الدولة المرادسية مكان الدولة الحمدانية ،وكلاهما شيعي المذهب **أنظر** : فليب حتي،تاريخ سورية و لبنان، ج2، ص 214، العبادي، المرجع السابق ، ص 296.

(3) محمود الحويري، المرجع السابق ، ص 18-19، أيمن فؤاد السيد، المرجع السابق ، ص 122.

(4) كانت الموقعة بالأقحوانة على شاطئ بحيرة طبرية، **أنظر**: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 168، ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب،تحقيق سهيل زكار، ج1، دار الكتاب العربي، ط1، دمشق، 1997، ص 200.

(5) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ، ص 120-217، ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 168، ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج 1، ص 200-201 ، المقريزي، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص 176،ابن أيبك الدوداري، كنز الدرر و جامع الغرر (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية) ، ج 6،تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961، ص 224، الحويري، المرجع السابق ، ص 18-19.

(1) **عاملة**: هو الحارث بن عدي بن مرة بن أدد و عاملة من قضاعة، خرجت من الشام بعد سيل العرم، **أنظر**:ابن حزم، جمهرة انساب العرب ، ص 394، أبو الفداء، المختصر، ج1،ص 133، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 335.

(2) **جذام**: و هي كذلك من قضاعة، و هم بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان، **نظر**: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ، ص 395،، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 330.

بنو عاملة من القبائل القحطانية (اليمانية)، كانت تسكن بادية الشام و بعد دخول المسلمين إلى الشام بفترة استقرت عاملة في الجليل الأعلى في جبل يسمى باسمهم (جبل عاملة) [1]، و ظلت عاملة حليفة كلب و برزت مع كلب أيام الأمويين مساندين حكم بني أمية[2].

و مع بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي، تمكن الصليبيون من السيطرة على أغلب الشريط الساحلي، و قد أشار ابن القلاسني إلى مساهمة العاملين مساهمة فعالة في الدفاع عن صور و حمايتها أثناء حصار الصليبيين للمدينة عام 505هـ/ 1111م فقال:«و أتت أهل صور رجالة كثيرة من صور و جبل عاملة».و هنا أكد ابن القلاسني على أن الحملة العاملية كانت كثيرة العدد، فقد وفد المدافعون من جميع قرى جبل عاملة لإنقاذ صور من قبضة الصليبيين[3].

أما أبناء جذام، فهم أشقاء عاملة، و هم من القبائل البدوية التي استقرت قبل الإسلام في الصحاري الواقعة فيما بين الحجاز و الشام و مصر، و انتشرت بطون جذام [4] من أرض مدين إلى تبوك إلى أيلة و كان منها فخذ مما يلي يلي طبرية من أرض الأردن إلى اللّجون إلى ناحية عكا، وجذام أول من سكن مصر بعد فتح العرب لها فقد جاءوا مع عمرو بن العاص سنة 20هـ/641م ، و انتشروا في قرى سيناء[5].

و كانت جذام عصبية من البدو يجولون الصحراء و يرتزقون من إرشاد القوافل [6] في الطرق التجارية التي تربط مابين بلاد العرب و الشام و مصر، و قد ساعدوا مساعدة كبيرة في فتح الشام[7].

4/المعينيــون[1] و الشهابيــون[2]:

---

(3) أبو الفداء، المختصر، ج1، ص 133، رضا السيد حسن، المرجع السابق ، ص 15، فاروق عمر فوزي، المرجع السابق ، ص 28.

(4) فاروق عمر فوزي، المرجع السابق ، ص 28- 29.

(5) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 284، رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عاملة، ص 51.

(6) و من جذام تفرق في جنوب الشام بنو صخر بالكرك و بنو مهدي بالبلقاء، و بنو عقبة و بنو زهير بالشوبك ، و بنو سعيد بحوران و منهم جماعة ببلاد الغور، **أنظر**: القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 331- 334، الزركلي، الأعلام، ج2، ص 144.

(7) العمري، مسالك الأبصار، ج 4، ص 362، ابن خلدون، العبر، ج 2، ص 307-308،القلقشندي،صبح الأعشى،ج4،ص213، الزركلي، الأعلام، ج2، ص 144. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج 1، ص 67، محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية و تاريخية، ج 1، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997، ص 132، فاروق عمر فوزي، المرجع السابق ، ص 28- 29.

(1) و تسمى هده المهنة بخفارة الطرق، فبعد أن شاع النهب و السلب و قطع الطرق لزم على المسافرين و التجار اصطحاب جماعة من المنطقة نفسها معهم حتى يتيسر لهم المرور من أرضيهم و وقاية المسافرين من الغدر و النهب. و سمى هؤلاء بالمرشدين أو الأدلاء :**أنظر**: كمال بن مارس، المرجع السابق ، ص 35.

(2) عبد الله خورشيد، البري، المرجع السابق ، ص 196.

ينسب المعينيون إلى الأمير معن الذي ظهر في لبنان على عهد الخليفة المسترشد العباسي (513- 530هـ/ 1118- 1135م)، و توفي عام (544- 1149م) على عهد نور الدين محمود [3]، و قد حارب المعينيون قبل استقرارهم في لبنان الفرنج في أنطاكية إلى أن تمت هزيمتهم عام 513هـ/1118م، فأمر طغتكين صاحب دمشق الأمير معن أن ينزل بعشيرته إلى سهل البقاع و منها إلى جبال لبنان ليشن الغارات على الإفرنج في الساحل[4].

و بالفعل فقد استقر المعينيون على جبل الشوف جنوب غرب لبنان بين بيروت و صيدا، و كان هذا الجبل مطلا على السهل الساحلي و خاليا من السكان، ما ساعد المعينيين على الاستقرار فيه، و بناء المنازل و الديار، بدلا من حياة التنقل و الترحال التي كانوا يعيشونها، و قد حارب المعينيون إلى جانب المسلمين ضد الصليبين، كما كانوا الملجأ الآمن لكل من فر هاربا من الفرنج[5].

أما الشهابيون، فقد كانوا يسكنون حوران، و في سنة 568هـ/ 1172م انتقلوا إلى وادي اليتم، و ذلك رغبة منهم في التزام الحياد زمن النزاع و الوحشة التي دبت بين صلاح الدين و نور الدين محمود حين جهز الأخير الجيوش في حوران للتوجه بها إلى مصر و القضاء على صلاح الدين، فما كان من الأمير منقذ الشهابي إلا أن جمع الشهابيين و رحل بهم من حوران إلى وادي اليتم ، حتى لا يتدخلوا في أي نزاع ينشب بين الطرفين، لما كان لهم عند صلاح الدين من المحبة و المنزلة الرفيعة[6].

على أية حال، فقد نزل الشهابين بواد التيم و هم حنيئذ خمسة عشر ألفا، و لما علم الصليبيون بأمرهم، أمدهم صاحب قلعة الشقيف الصليبية بجيش عظيم (خمسين ألفا) التقى بهم الشهابيون في حاصبيا، لكنهم انزلوا به هزيمة منكرة و قتلوا و أسروا أعدادا كبيرة من الفرنج و لما سمع صاحب قلعة الشقيف ما حل بالفرنج أرسل للأمير منقذ يطلب منه

---

(3) **المعينيون** : من معن بني ربيعة الأيوبي، جد الأمراء المعينين في لبنان، وهم من العرب العدنانيين و قيل من أيوب بن ربيعة بن نزار، كانوا من سكان الجزيرة الفراتية. **أنظر** : مجهول ،تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي القيم، مراجعة :سليم حسن هشي، منشورات دار لحد خاطر، ط 2، بيروت ، 1984، ص 17، الزركلي، الأعلام ج7، ص 273.

(4) **الشهابيون** : ينسبون إلى شهاب بن سليلة (سلالة) مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فه ر المسمى قريشا بن مالك بن نضر بن كنانة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان **أنظر** :مجهول، تاريخ الأمراء الشهابيين، ص 15.

(5) الحويري، المرجع السابق ، ص 23.

(6) الزركلي، الأعلام ،ج7، ص 273.

(7) محمد كرد علي، المرجع السابق،ج7، ص 32، الحويري، المرجع السابق ، ص 43.

(1) مجهول، تاريخ الأمراء الشهابيين، ص 29، محمد كرد علي، المرجع السابق،ج2، ص 40-41، الحويري، المرجع السابق ، ص 23.

الصلح، و كان في ذلك الوقت الأمير يونس المعيني بن الأمير معن حاكما على جبل الشوف، فجاء و هنأ الأمير منقذ في وادي اليتم[1].

هذا فيما يخص القبائل العربية المتمركزة في جنوب الشام، أما صحراء سيناء، فقد دلت الآثار التي خلفها الفراعنة في سيناء على العناصر السكانية التي استوطنتها منذ بدء التاريخ من أصل سام كسكان بلاد الشام، كانوا يتكلمون لغة غير لغة المصريين و قد عرفوا في التوراة عند مرور بني إسرائيل على بلاد التيه بالعمالقة[2].

و بظهور الإسلام في القرن 1هـ/ 7م، و فتح المسلمين صحراء سيناء، تغلبوا على أهلها الأصليين، و أقام البعض فيها إلى هذا العهد، و في تقاليد بدو سيناء أنه هاجر من العرب المسلمين خمس و سبعون قبيلة من نجد و الحجاز، فسكنوا مصر و سيناء و جنوب فلسطين[3].

غير أن العديد من الباحثين و المؤرخين حاولوا التقليل من أثر هذه الهجرات على شبه جزيرة سيناء، لكن المتمعن و الدارس لتاريخ المنطقة يلاحظ أن تلك القبائل الغفيرة التي وفدت تباعا منذ الفتح الإسلامي و التي شجعها على الهجرة ولاة مصر من بلاد العرب و بلاد الشام إلى مصر قد استقر بعضها في صحراء سيناء [4]، و يؤكد ذلك القلقشندي[5] « في أن هشام بن عبد الملك قام بإرسال أقوام من العرب إلى بلبيس و منهم قيس و بطونها خاصة هوزان و بني عامر و عجلان و ربيعة و هلال و أنزلهم ببلبيس و أمرهم بالزرع » .

على أن القبائل التي سكنت سيناء لم تستقر كلها لمدة طويلة بل هاجرها كثير منهم إلى مصر أو بلاد الشام، بعد أن أقاموا مدة قصيرة و ضعف الباقون أو انقرضوا ، و على العموم فإن شبه جزيرة سيناء قليلة العمران ، و لا يوجد

---

(2) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج2، ص 41، الحويري، المرجع السابق ، ص 23.

(3) **العمالقة** : و هم بنو عمليق و يقال عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وهم أمة عظيمة يضرب بهم المثل في الطول و الجثمان، و تفرقت منهم أمم في البلاد، فكان منهم أهل عمان و البحرين و الحجاز و ملوك العراق و الجزيرة و جبابرة الشام وفراعنة مصر ، **أنظر**: ابن خلدون، العبر، ج 1، ص 30. القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص313.

(4) نعوم شقير، المرجع السابق ، ص 106-108.

(5) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، ص 17.

(6) صبح الأعشى ، ج1، ص 40.

بها إلا بعض النقاط المبعثرة الآهلة بالسكان خاصة على حواف الصحراء، أو التي تقع على خط طرق المواصلات الرئيسية لسيناء و ربما لم يزد عدد سكانها في عصر ما عن خمسين ألف نسمة، كما هو في الوقت الحاضر [1].

و من أهم القبائل التي سكنت شبه جزيرة سيناء و كان لها دور في الصراع الإسلامي الصليبي على الجبهة نجد:

5/ ثعلبة[2] و جرم[3]:

سكنت قبيلة ثعلبة بين جنوب الشام و سيناء، و قد ذكر المقريزي ذلك [4]«و هي بالشام مما يلي أرض مصر إلى الخروبة »، و كانت قبيلة ثعلبة البدوية الكبيرة بفرعيها الرئيسين بنو ضرغام و بنو زريق، تتعاون مع الفرنج، الأمر الذي جلب عليهم السخط و الغضب من جانب إخوانهم المسلمين[5] و قد ذكر العمري ذلك[6]« كانت ثعلبة يدا مع الإفرنج الإفرنج على المسلمين».

أما جرم فهم من طيء، ومن جرم نفر من ثعلبة، و قد سكنوا بلاد غزة و الداروم مما يلي الساحل إلى الجبل و بلد الخليل عليه السلام [7]، و لما فتح صلاح الدين بلاد غزة من الفرنج 583هـ/ 1180م جاءت طائفة من جرم و ثعلبة إلى مصر، و بقيت بقايا جرم في مكانها[8].

على العموم فإلى جانب هذه القبائل السابقة الذكر و التي برز دورها زمن الصراع الإسلامي الصليبي ، وجدت قبائل عربية أخرى في الجبهة الجنوبية انتشرت هنا و هناك، و لم تذكر المصادر الإسلامية المعاصرة أي أدوار لها زمن الغزو الصليبي، و ربما قد تعايشت مع الوضع المستجد، و استمرت على نفس نمط حياتها السابق للغزو، و من هذه القبائل

---

(1) المقريزي، البيان و الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، طبعة ليدن (د.م.ن)، ص 7، نعوم شقير، المرجع السابق ، ص 108، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 8.

(2) **ثعلبة** : ينسبون إلى ثعلبة بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طئ بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن قحطان، **أنظر**: العمري، مسالك الأبصار و ممالك الأمصار، ج4، ص 299، المقريزي ، البيان و الإعراب، ص 6-7.

(3) **جرم** : ينسبون إلى علاف بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة،**أنظر**: المقريزي، البيان و الإعراب، ص 6-7.

(4) نفسه، ص 7.

(5) يوشع بيلور، المرجع السابق ، ص 70.

(6) مسالك الأبصار، ج4، ص 300.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 212، محمد كرد علي، المرجع السابق ، ص 67.

(8) العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص300.

قبيلة قيس[1]، و أفراد هذه القبيلة سكنوا جند دمشق و حران و عمان و الغور من أرض البلقاء [2]، كما استقرت بطون قيس في بلبيس، بعد أن نقلهم الأمويون إليها عام 109هـ/ 727م[3]، و من أشهر بطون قيس التي سكنت بلبيس هوزان و سليم [4] و يؤكد القزويني أن قوما من جذام كانوا يسكنون العريش إلى جانب أقوام أخرى [5]، كما كانت مساكن لخم[6] متفرقة أكثرها بين الرملة و مصر (في الجفار)، منها في الجولان و حوران، و كذلك لها ما حول الرملة إلى نابلس[7]، و قد سكن الأشعريون طبرية و هم الغالبون عليها [8]، و يذكر المقريزي أنه لما جاز أسد الدين شيوكوره إلى مصر، كان بأرض مصر من العرب «طلحة و جعفر و جهينة و لخم و جذام و شيبان و طئ »[9]. و إذا تركنا جانب العنصر العربي،و جدنا المجتمع الإسلامي في الجهة الجنوبية ضم عناصر أخرى غير عربية تركت بصمة واضحة في تشكيل هذا المجتمع أهمها :

---

(1) **قيس** :وهي من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، و هم من العدنانية، التي كانت من القبائل الكبيرة و كثيرة البطون حتى غلبت على سائر العدنانية، و من أهم بطونها هوزان، و سليم و عطفان و هم بني عامر و باهلة، و عقيل، **أنظر**:ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب، ص437، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1،ص135. القلقشندي، صبح الأعشى ، ج1، ص 339- 340، الزركلي، الأعلام، ج5، ص 207.

(2) اليعقوبي، البلدان، ص 55.

(3) لما قدمت سليم إلى مصر و استقروا في بلبيس، واصلوا انشغالهم بالزراعة و تربية الخيل محافظة على أسلوب حياتهم الذي كانوا يمارسونه في بلاد العرب **أنظر**: عبد الله خورشيد، المرجع السابق ، ص 122-123-134.

(4) المقريزي ، البيان و الإعراب، ص 40.

(5) البلدان، ص 57.

(6) **لخم**: و اسمه مالك بن عدي بن الحرث بن مرة، و لخم أخو جذام، **أنظر**: ابن خلدون،العبر، ج2،ص307.

(7) محمد كرد علي ، المرجع السابق ،ج1، ص 64.

(8) اليعقوبي ، البلدان، ص 55،محمد كرد علي،المرجع السابق،ج1،ص67.

(9) البيان و الإعراب،ص 16.

3/ الأتراك[1]:

و هم شعوب بدوية اعتمدت في عيشها على الرعي، سكنت أوساط آسيا، قدر لها أن تلعب دورا هاما في التاريخ الإسلامي[2] و قد قامت صلات بينهم و بين العرب قبل الإسلام، إذ كان الفريقان يعملان جنودا في الجيوش الفارسية و البيزنطية لبلاد ما وراء النهر[3]،حيث أسلم قسم منهم، ثم بدأ استخدام العنصر التركي في الجيوش الإسلامية و الدوائر الحكومية و قصور الخلافة في العصر الأموي[4].

و مع بداية القرن (2،3،4هـ/ 8،9،10م)، بدأت الهجرات الأولى لقبائل الأتراك من أقصى تركستان نحو الغرب، فاستقرت في إقليمي ما وراء النهر و خراسان، و يبدو أن هذه الهجرات التركية كانت من الحركات التي غيرت وجه التاريخ في العالم الإسلامي، و يرجح المؤرخون أن هذه الهجرات كانت تحت ضغط ظروف قاهرة، كغلبة قبائل أكثر قوة عليها،و سيطرتها على أراضيها، أو سوء الحالة الاقتصادية، خصوصا إذا ما كثر عدد أفراد القبائل، فعجزت موارد الرزق عن كفايتهم، أو حدث قحط جعل هذه الأماكن لا تصلح لاستمرار الحياة فيها[5].

و في أواخر القرن 4هـ/ 10م، أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة[6] و بدأت قوتهم تظهر على مسرح الأحداث الأحداث منذ أوائل القرن 5هـ/ 11م، و استعملوا كجند مرتزقة في خدمة الأمراء المتنازعين، ثم لم يلبث طغرلبك أول

---

(1) **الأتراك**: يكاد يجمع المؤرخون العرب على أن أصل الأتراك يعود ليافث بن نوح عليه السلام، غير أن هذا الاعتقاد مُستقى من الينابيع التوراتية ، و لم يحدد أصلهم بصفة قطعية عند النسابين ، و الترك أمة عظيمة و أجناسها كثيرة أهمها : الروس و القف جاق و الغز الذين منهم السلاجقة و اللان و الشركس و الروس.**أنظر**: ابن خرداذبة، المسالك و الممالك، ص 31، ابن خلدون ، العبر، ج5، ص 4، القلقشندي،صبح الأعشى ، ج1، ص 366.

(2) زبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى (بيزنطية و سلاجقة الروم و العثمانيون)، دار الفكر العربي،(د.ت)،ص 5.

(3) **ما وراء النهر**: لما انساحت جيوش المسلمين فيما يلي خوراسان عبروا نهر أكسوس"Oxux" وسموه جيحون (أموداريا الآن)، وسمو البلاد التي إفتتحوها "ما وراء النهر" إلى نهر يكزرت" Laxorte" و هو الآن "يسيرداريا "و سموه سيحون، فتح هذه البلاد قتيبة بن مسلم سنة 86هـ/ 705م و هي من أخصب الأقاليم منزلة و أكثرها خيرا،و أشهر مدنها بخارى و سمرقند، تخشب، فراعنة ، أشرونة وهذه البلاد كانت تسمى قديما بلاد الهياطلة .**أنظر**:ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج5،ص45، القلقشندي،صبح الأعشى ، ج4، ص 431، أمين واصف بك، المرجع السابق، ص 33-34. محمد سهيل طقوش ، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، ط3، بيروت، 2009، ص 11.

(4) محمد سهيل طقوش،، المرجع السابق، ص 5.

(5) عبد المنعم محمد حسنين، سلاجقة إيران و العراق ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2، القاهرة، 1970، ص 15.

(6) **السلاجقة** : ينحدر السلاجقة من قبيلة " قنيق " Qiniq"من الترك الغز، و قد أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جدهم سلجوق بن يقاق أو دقاق الذي ادخلهم لأول مرة للإسلام على أساس المذهب السني382 هـ/992م، و قد اتصفوا بالشجاعة و الجرأة و الفروسية و قوة الاحتمال، نتيجة قسوة حياتهم ، فلا يفزعهم ذاعر ، و لا يردعهم رادع **أنظر**: الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، ط3 ، بيرروت 1980، ص 7، الحسيني ، أخبار الأمراء و الملوك السلجوقية ، تحقيق: محمد نور الدين ، دار إقرأ ،ط1،بيروت ، 1985 ،ص 23. عبد المنعم حسنين، المرجع السابق=

سلاطينهم أن جلس على العرش في نيسابور عام 429هـ/ 1307م، و اعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422- 467هـ/1031-1075م) بقيام دولتهم عام 432هـ/ 1040م، فاكتسبوا صفة شرعية، و ازدادت شوكتهم[1] في البلاد الإسلامية لما استطاع السلاجقة إزاحة البويهيين 447هـ/ 1055م و الحفاظ على المذهب السني كمذهب رسمي للخلافة العباسية[2].

و يعتبر طغرلبك الذي توفي عام 455هـ/ 1063م المؤسس الحقيقي لدولة الأتراك السلاجقة، فهو الذي أظهرها و جعل السلاجقة من بعده يشرفون على بلاد الروم و سواحل البحر الشامي [3]، و في الشام كان الترك يمثلون الأرستقراطية الإقطاعية، و هي فئة قليلة العدد متناثرة لم تتغلب على الشام إلا قبيل مجيء الصليبيين بوقت قصير، و يمكن القول أن الأتراك في الشام لم يكونوا كتلة واحدة و وسطا واحدا، فنزولهم في جزء صغير من شمال الشام، جعل من مدينة حلب حدا بين البلاد العربية و التركية، فالأتراك يكثرون شمالها و يقلون جنوبها و أما العرب فالعكس[4].

و قد كان استقرار الأتراك بالشام على أيام عماد الدين زنكي و ابنه نور الدين بشكل دائم [5]، و خدم الأتراك في جيش صلاح الدين ضد الصليبيين و كان يفضل عنصرهم لما اعتادوه من عيشة التقشف و الخشونة و القدرة على تحمل الأسفار و القتال[6].

بالإضافة إلى السلاجقة، فقد سكن التركمان بلاد الشام ذلك مع بداية القرن 6هـ/12م، و التركمان أصلهم قبيلة من الأتراك عاشوا في المنطقة بين بحر الخزر و نهر جيجون، ثم انتقلت جموع منهم غربا ليستقروا شرقي آسيا و شمالي الشام[7].و على عهد دولة بني مرداس سيّر الأتابك عماد الدين زنكي طائفة منهم إلى الشام و أمرهم بجهاد الإفرنج،

=،ص 16، زبيدة عطا، المرجع السابق، ص 38، منى محمد بدر محمد بهجت ، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية و المملوكية في مصر ،ج1،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،202،ص17.

(1) عبد المنعم محمد حسنين، المرجع السابق، ص 5.

(2) الحسيني، أخبار الأمراء و الملوك السلجوقية،ص 59-60، ابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية ،دار صادر، بيروت ،ص 292،سهيل طقوس، المرجع السابق، ص 93.

(3) عبد المنعم محمد حسنين، المرجع السابق، ص 44، الحويري، المرجع السابق، ص26.

(4) محمد كرد علي، المرجع السابق،ج1، ص 82.

(5) كلود كاهن، المرجع السابق ، ص 156، كمال بن مارس، ، المرجع السابق، ص 41.

(6) الحويري، المرجع السابق، ص26.

(7) يوشع براور ، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص 71، الحويري ، المرجع السابق، ص 26.

و قد كثروا جدا على عهد الدولتين النورية و الصلاحية، فقد أقدم صلاح الدين كثيرا من التركمان في لبنان و سواحله[1].

و لم ينس التركمان أنهم بدو رحل، فعاشوا عيشة البداوة، و لم يركنوا إلى الاستقرار كما فعل السلاجقة، وحكموا منطقة الشرق الأدنى، فقد كان لفظ تركمان يخص القبائل التركية المنشغلة بالرعي و الترحال[2].

3/ الأكراد:

لم يستوطن الأكراد الجبهة الجنوبية بكثرة، حالهم في ذلك حال الأتراك، و يرجع ذلك إلى عدة عوامل أولها أنهم من الأمم البدوية الرعوية القاطنة للجبال و المرتفعات[3] و المناطق المنخفضة الحرارة، لذا نجد تمركزهم كان شمال الشام أين أين تتوفر مصادر المياه و الكلأ، و ثانيها قرب الجزيرة و شمال الشام من موطنهم الأصلي كردستان [4]، و ذلك ما ساعد على استمرار الهجرات إليها.

و كما قلنا سابقا فإن الأكراد قد سكنوا منذ القدم الجبال خاصة جبال كردستان، ابتداء من عام 650 ق.م، و قد اختلف المؤرخون في أصلهم و اعتبروه غامضا [5]، وربما كان ذلك الاختلاف لانعدام الآثار الوثائقية المدونة لدى الأكراد، و هو الأمر الذي جعل البحث عن تاريخ الكرد و أصلهم بشكل محدد أمرا بالغ الصعوبة [6]، غير أن المؤرخين الأكراد المعاصرين حاولوا أن يبرهنوا أنهم من أصل هندو أوربي كالفرس، و يستندون في ذلك أن لهم نفس اللغة[7]، أما في

---

(1) محمد كرد علي ، المرجع السابق، ج1، ص 69.

(2) الحويري ، المرجع السابق، ص 26.

(3) ماركوبولو ، رحلات ماركوبولو، ج1، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ط2، القاهرة، 1995، ص56.

(4) **كردستان** : كلمة كردستان تعني بلاد الاكراد، و في عهد الحكومات المقدونية و الساسانية و الرومانية لم تكن البلاد الكردية تذكر باسم خاص بها شامل لجميع أجزائها ، وفي عهد خلافة عمر بن الخطاب كان قسم كبير من المناطق الكردية يشمل جزء من إقليم أذربيجان و القسم الأوسط كان معروف بإقليم الجزيرة ، وظلت هذه التسمية في العهد الأموي و العباسي ، حتى عهد السلطان سنجر السلجوقي (511-551هـ/1117-1156م) آخر الملوك السلاجقة الذي أطلق على إحدى مقاطاعات مملكة كردستان .أنظر : باسيل نيكتين، الكرد ، تقديم و مراجعة : صلاح برواري، منشورات مجلة (ASO).(د.م.ن)، 1993، ص 29، محمد فتحي الشاعر، الأكراد في عهد عماد الدين زنكي(521-541هـ/1127-1146م)، دار المعارف،(د.م.ن)، 1991، ص 11-12.

(5) الحويري ، المرجع السابق، ص 28.

(6) محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص 5.

(7) باسيل نيكتين،، المرجع السابق، ص 26-27-28 .

في العصور الإسلامية فقد سعى الأكراد لإثبات اتصالهم بالنسب العربي الصريح [1] كالأكراد المروانية و الهكارية [2]، و يرى أغلب المستشرقين أن الأكراد يرجعون إلى الجنس الأري Aryan ، إلا أنهم امتزجوا بعناصر أخرى مجاورة لهم خاصة الفرس[3].

و لقد ورد ذكر الأكراد في بلاد الشام في القرن 5هـ/ 11م، عندما اقطع صاحب حلب محمود بن صالح بن مرداس معرة النعمان لأحد أمراء الترك عام 458هـ/ 1065م، و الذي جلب معه عددا من الأكراد ثم نقلهم إلى حلب[4]، كما ذكر الأكراد أيضا عندما زحف الصليبيون على الساحل بقيادة ريموند في اتجاه الجنوب، و استولى على معرة النعمان ثم أضرم فيها النار و استأنف مسيره بمحاذاة نهر العاصي محتلا في طريقه حصن الأكراد [5] ذي الموقع الحصين، و قد أقيم على أنقاض قلعة قديمة بناها أحد أمراء حمص سنة 423هـ/ 1031م، و جعل فيها جماعة من الأكراد، على ذلك يمكن اعتبار تاريخ قلعة الأكراد سنة 423/ 1031م، تاريخا للأكراد في الشام[6].

و الأكراد قوم أشداء، غالبهم أهل بداوة و خشونة، و يزاولون حياة الرعي في المناطق الجبلية، يقيمون في الخيام و هم أقل قبولا للحضارة من الترك، يمارس جزء منهم حياة التنقل، كما سكن البعض منهم مدن شمال الشام، و قد تأصل في حياتهم القبلية حبهم للصوصية و يؤكد ذلك الرحالة ماركو بولو [7]«إن الأكراد قوم لا مبدأ لهم صناعتهم سلب سلب التجار». و يبدو أنه لم ير الأكراد إلا من زاوية واحدة، فقد عُرف عن الأكراد الفروسية و الإحساس بالشرف و حسن الضيافة، و كانوا في شجاعتهم المشهودة يشبهون العرب، و كانوا أبطالا محبين للحرب[8].

---

(1) و يذكر المسعودي بأن قوما من الأكراد قد نسبوا أنفسهم إلى ربيعة بن نزار بنى معد بن عدنان و انفرد وا في قديم الزمان في الأودية و الجبال و جاوروا الأعجم و الفرس فخالفوا عن لسانهم و صارت لغتهم أعجمية ، و قال أيضا أنهم من مضر بن نزار ،و أنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصع بن هوزان و قد اعتصموا بالجبال طلبا للماء **أنظر**: المسعودي، التنبيه و الإشراف، ص 89، محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص 9.

(2) بعض القبائل الكردية زعمت أنها من أسر عربية مثل المروانية التي تزعم أنها من بني مروان بن الحكم بن آبي العاص، و مثل بعض الهكارية الذين يزعمون أنهم من ولد عتبة بن آبي سفيان بن صخر بن حرب. **أنظر**:المقريزي، السلوك،ج1،ص66،محمد فتحي الشاعر،المرجع السابق،ص 10،الحويري،المرجع السابق،ص28.

(3) ستانلي لين بوول، صلاح الدين و سقوط مملكة بيت المقدس .ترجمة فاروق سعد أبو جابر، الأهرام للتوزيع ،ط1، القاهرة، 1995،ص 29.

(4) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب،ص 9-10.

(5) **حصن الاكراد**: هي قلعة حصينة مقابل حمص من غربيها على الجبل المتصل بجبل لبنان على نحو مرحلة من حمص. **أنظر**: أبو الفداء،تقويم البلدان، ص 259، القلقشندي،صبح الأعشى ، ج4، ص 144.

(6) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 55.

(7) ماركو بولو، الرحلة، ص 57.

(8) الحويري، المرجع السابق، ص 28، باسيل نيكتين، المرجع السابق، ص 15، محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص 15،

على أن الأكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الإسلام إلا على عهد الدولة الأيوبية، و مؤسسها صلاح الدين الذي لم يكن من أصل عربي، و لكنه من الأكراد الرواندية أحد بطون الهذبانية [(1)]، كما أن نور الدين قبل ذلك قد دعم جيشه بعناصر من الأكراد الذين تمت إضافتهم إلى القوات التركية [(2)]،ثم كثر الأكراد في جيش الزنكيين، و في الدولة الأيوبية صاروا هم السادة و أصبح قسم عظيم من الجيش منهم و استعربوا إلا قليلا[(3)].

و قد أسكن صلاح الدين الأكراد في لبنان و ساحله، و يمكن أن تعتبر سواحل لبنان المكان الوحيد الذي استقر به الأكراد في الجبهة الجنوبية، لأن تمركزهم كان بشمال الشام، و قد تولوا الإمارات و الولايات في مصر و الشام و غيرها، و يظهر هنا أن صلاح الدين كان متعصبا لبني جنسه من الأكراد دون الأتراك العرب[(4)].

2/المجتمع المسيحي:

قُدر لبلاد الشام أواخر القرن الحادي عشر و أوائل القرن الثاني عشر الميلادي أن تكون مسرحا تباينت فيه الأجناس و الشعوب الأوربية الغربية، إذ أن الغزو الصليبي لم يقم به شعب واحد بل مسيرته حفلت بالعديد من الشعوب التي ترفع شعار الصليب و الحرب المقدسة لاسترجاع بيت المقدس، إضافة إلى الطوائف المسيحية التي كانت تعيش إلى جانب المسلمين و في كنف الدولة العربية الإسلامية[(5)].

على العموم يمكن القول أن المجتمع المسيحي يتكون من قسمين هامين، القسم الأول هو المسيحيون الشرقيون، و القسم الثاني يشتمل على المسيحيين الغربيين القادمين من أوربا.

أ/ المسيحيون الشرقيون:

لقد نعم المسيحيون في بلاد الشام عامة و في الأماكن المقدسة لهم خاصة بالحرية الدينية منذ نشأة الدولة الإسلامية، فقد تولوا جميع الوظائف التي تولاها المسلمون تقريبا فيما عدا الوظائف الدينية كالقضاء و الحسبة، و كانت

---

(1) ابن خلكان ، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، م7، تحقيق ،إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، (د.ت)،ص 139، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين ،ج 6، دار الكتب العلمية، ط1،بيروت،1992،ص 3،أحمد الشامي ، صلاح الدين و الصليبيون ، مكتبة النهضة العربية ،ط1،بيروت، 1991، ص 75.

(2) كلود كاهن، المرجع السابق، ص156،الحويري، المرجع السابق، ص 29.

(3) محمد كرد علي، المرجع السابق،ج1، ص 69.

(4)نفسه،ص69 ،الحويري، المرجع السابق، ص 29.

(5) نفسه،ص49-88.

الأديرة و الكنائس في كل مكان وجدوا هم فيه [1]،و قد تمركز وجود المسيحيين الشرقيين خاصة في أراضي فلسطين و جنوب شرقي الأردن، أما سيناء، فقد اجتمعوا في الأديرة المنتشرة فيها هنا و هناك، إضافة إلى المناطق الشمالية من الشام خاصة حلب و الرها و التي كانت أغلبيتها منهم.

لكن مع حلول الصليبيين ببلاد الشام و سيطرتهم على بيت المقدس نظروا إلى المسحيين الشرقيين نظرة أخرى إذ أُعتبروا منشقين عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية، و بمعنى آخر ملحدين و لما أخليت مدينة القدس عن طريق القتل و الطرد كان النصارى و اليهود و المسلمين على نفس الكفة و قتلوا هم كذلك لخوف اللاتين من غدرهم [2].

و من أهم طوائف المسيحيين الشرقيين التي سكنت الجبهة الجنوبية

1/الموارنة :

و هم من أبرز فرق الطائفة المسيحية في بلاد الشام منذ أوائل العصر الإسلامي [3]، و قد اشتدت شوكتهم أبان الحروب الصليبية[4]، و الموارنة طائفة من المسيحيين الكاثوليك الشرقيين [5]، و هم فرع من فروع الكنيسة السورية القديمة و يعود أصلهم إلى عميدهم القديس (مارون) أو(مارو) لفظ من أصل سرياني معناه السيد الصغير، و مارون هذا راهب متعبد لا يُعرف عن حياته شيء كثير عاش بين أنطاكية و قورس و توفي سنة **410**م[6].

---

(1) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 62.

(2) مصطفى الحياري،، المرجع السابق، ص 49، الحويري، المرجع السابق، ص 88.

(3) انفصلت الكنيسة المارونية عن البابوية في روما و أصبحت تتبع البطريك الماروني في لبنان عقب مجمع القسطنطينية الثالث عام 680م الذي عقد للفصل في قول يوحنا مارون من أن للمسيح طبيعة واحدة و مشيئة واحدة منذ البدء، غير أن المجمع الذي كان قد عقده الإمبراطور قسطنطين الرابع إرضاءا للبابا أجاثون بعدما فقد المراكز الرئيسية لمذهب الطبيعة الواحدة (الأريوسية) في مصر و الشام لفتح المسلمين لهما، قرر طرد من يقول بالطبيعة الواحدة و المشيئة الواحدة و أقر أن للمسيح طبيعتين و مشيئتين، و بذلك انفصلت طائفة المارونية و لحقت بسابقتها من الكنائس المنفصلة، **أنظر**: المسعودي، التنبيه و الإشراف، ص 153، فيلب حتي ،تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 141،مانع بنى حماد الجهيني ،الموسوعة الميسرة، ج2،ص 572.

(4) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 62.

(5) محمد كرد علي ، خطط الشام، ج6، ص 230.

(6) سكن القديس مارون صومعة جبل غير بعيد عن أنطاكية ، و لم يلبث أن سمع الناس بفضائله و إيمانه فزهد معه قوم و اتبعوا تعالمه، و كان أهم المراكز التي التفوا حولها دير القديس مارون المبني على ضفاف نهر العاصي في نواحي أفامية.**أنظر** :محمد كرد علي ، خطط الشام، ج6،ص 230.

و إذا كان القديس مارون هو الزعيم الروحي و المعلم الأول لهذه الطائفة، فإن يوحنا مارون المتوفى سنة 707م ، هو الزعيم الدنيوي و مؤسس كيانها القومي، و به تبتدئ سلسلة بطاركة الموارنة ، في حين كان للموارنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية[1].

وقد نمت قوة هذه الطائفة في العصر الأموي خاصة مما اضطر الخليفة معاوية بن أبي سفيان، و من بعده عبد الملك بن مروان إلى دفع إتاوة سنوية لهم، حتى يلتزموا جانب الحياد بينهم و بين الدولة البيزنطية و منذ ذلك الوقت استكان الموارنة و مالوا إلى العزلة التي طالما تميز بها سكان الجبال، كما اتخذوا من "قنوبين" الواقعة في الجبال الصخرية الوعرة مركز للبطريك الماروني، ثم تحولوا عنها إلى بكركي في جوار مدينة بيروت[2].

و قد استقر الموارنة جنوبي جبل لبنان الغربي [3] ابتداء من أواخر القرن السابع الميلادي، و يرى البعض أن انتقالهم من نهر العاصي إلى جنوب لبنان يعود للإضطهادات التي لقيها الموارنة على يد مخالفيهم من الطوائف المسيحية الأخرى[4]،و قد أشار إليهم الرحالة إبن جبير عند عبوره جبال لبنان في القرن 6هـ/ 12م[5]،ثم أخذ الموارنة في الهجرة إلى إلى الأقطار المجاورة فقصد فريق منهم جوار دمشق و اتجه بعضهم إلى مصر و استقر بها، على الأغلب فضلوا الإقامة في جبال لبنان فاعتصموا بها و نمو و كثروا رغم ما أصابهم من النكبات في أوقات مختلفة[6].

و يعتبر الموارنة آخر من تبقى من أنصار عقيدة الطبيعة الواحدة (المذهب المونوفيزيتي)، و قد حرصت الكنيسة الغربية على استمالتهم لاعتبارهم من الكاثوليك المنشقين، حتى سنة 578هـ/ 1182م حين وافق الموازنة أمام بطريك أنطاكية على قبول سيادة البابا في روما، على شريطة أن يظلوا محافظين على شعائرهم القديمة وتقاليدهم السريانية[7]،بالإضافة إلى أنهم لم يتخلوا عن عقيدتهم التي تجعل للمسيح إدارة واحدة[8].

---

(1) فيلب حتي ،تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 141، أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 63
(2) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 63.
(3) المسعودي، التنبيه و الإشراف، ص 153، محمد كرد علي ، خطط الشام، ج6، ص 230، عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 289.
(4) الحويري، المرجع السابق، ص 89.
(5) ابن جبير، الرحلة، ص 201.
(6) محمد كرد علي ، خطط الشام، ج6، ص 231، أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 63-64.
(7) كانت اللغة السريانية لغة الطقس الكنيسي عند المراونة ، و كانوا يتفقون مع الكاثوليك في عقيدتهم و شريعتهم الدينية . **أنظر** : بطرس مراياتي و آخرون ، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة (الكنائس الشرقية الكاثولكية)، م2 ،دار المشرق ، بيروت (د.ت)، ص 301، محمد كرد علي ، خطط الشام، ج6، ص 231.
(8) محمد كرد علي ، خطط الشام، ج6، ص 231، الحويري، المرجع السابق، ص 90.

أما عن علاقة الموارنة بالفرنج فقد كانت ودية منذ وصول الحملة الصليبية الأولى، فقد قدموا لهذه الحملة أدلاء يرشدونهم إلى الطرق و المعابر، كما أرسلوا فرقة من النشابة المتطوعة إلى مملكة بيت المقدس، و أنظمت قوة منهم إلى الجيش الزاحف على بيت القدس و قاتلت معه جنبا إلى جنب، و قد قدر عدد رجالهم الصالحين للقتال أواخر القرن 4هـ/ 10م بأربعين ألف مقاتل مدربين على مختلف الأسلحة المألوفة[1].

على العموم يمكن القول أن زمن الحروب الصليبية كان يمثل العصر الذهبي للموارنة، فقد كانوا أحسن حالا وأعظم شأنا ، فكنائسهم و أدريتهم و مدارسهم أزداد عددها، و توفر لهم سبل الرزق، و احتلوا في الممالك التي شيدها الفرنجة المكانة الأولى بعدهم ، و كانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية و يتمتعون بالحقوق والامتيازات التي تمتع بها البرجوازية اللاتينية بما في ذلك حق امتلاك الأرض في المملكة المقدسة، لذلك نجد الموارنة قد سكنوا بيت المقدس إلى جانب الطوائف الأخرى [2]، و قد استمرت علاقات الود و المصالح المشتركة وثيقة طوال فترة وجود الصليبيين في الشرق[3].

__2__/ الأرمن[4]:

تعتبر الكنيسة الأرمينية من أقدم الكنائس الشرقية نشأة و طقسا و لاهوتا، و قد بقيت هذه الكنيسة مرتبطة بالأرض و الشعب و اللغة عبر العصور، و هي من الكنائس الكاثوليكية[5].

سكن الأرمن مناطق التماس بين التخوم الإسلامية و البيزنطية و ذلك بدافع دعوة الإمبراطورية البيزنطية لهم و منح ملوك أرمينيا و أمرائها ضياعا واسعة في آسيا الصغرى و خاصة في إقليم كابادوكيا الأمر الذي أدى إلى هجرة

---

(1) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 83، الحويري، المرجع السابق، ص 90 ،كلود كاهن،، المرجع السابق، ص 99،فيلب حتي،تاريخ سورية و لبنان، ج2، ص 141.

(2) الحويري، المرجع السابق، ص 91.

(3) بطرس مارايابي و آخرون ، المرجع السابق، ص 307.

(4) أطلق الأرمن على أنفسهم اسم "هاي " و على بلادهم اسم "هاسيتان" نسبة إلى الملك الأسطوري " هايك "، أما اسم "أرمن" "و أرمينيا" فذلك ينسب إلى أرمين بن هايك كما جاء في التقاليد الأرمينية الشعبية و الأرمن ينتمون إلى الجنس الآري، و هم مزيج من شعوب البلقان و جبال الألب الذين نزحوا شرقا و اختلطوا بشعوب القوقاز **أنظر**: بطرس مارايابي و آخرون ، المرجع السابق، ص 18.

(5) نفسه،ص 20.

أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم [1]، غير أن توسعات السلاجقة في المنطقة جعلتهم يتجهون إلى إقليم قليقيا الجبلي جنوبا و حتى الرها و تل باشر و أنطاكية و أفامية شمال الشام[2].

أما في جنوب الشام فقد تسللت أعداد قليلة من الأرمن سكنوا خاصة بيت المقدس و منهم من انتقل إلى مصر و أبرزهم الوزير بدر الجمالي الأرمني الأصل و الذي اعتنق الإسلام و ساهم مساهمة كبيرة في جلب أعداد كثيرة من الأرمن إلى مناطق نفوذ الدولة الفاطمية [3] و أصبح الأرمن يشكلون جزء كبير من الجيش الفاطمي خاصة في عصر ابنه الأفضل الذي عمل على إقصاء العناصر الأخرى من الجيش[4].

و بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى قليقية شوال 491هـ/سبتمبر 1097م رحب الأرمن بالصليبيين بمجرد أن أضحوا على مشارف أنطاكية [5] و قدموا الدعم لتنكرد أثناء احتلاله السريع لسهل قليقية، و ساعدوا الصليبيين في حصار أنطاكية و أمدوهم بالرجال و الخيول و السلاح و حتى الغذاء كما قبلوا ببلدوين البولوني حاكما للرها و تل باشر،و يبدو أن الأرمن قد أيدوا حكن اللاتين لكونهم مسيحيين كاثوليك من جهة و أعداء للأتراك السلاجقة من جهة أخرى، كما وجد الصليبيون في الأرمن حلفاء طبيعيين لهم ضد السلاجقة،و حتى الدولة البيزنطية التي اضطهدتهم طوال القرن الماضي قصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثودوكسية[6] .

في الحقيقة لقد قدم الأرمن في كثير من المناسبات أدلة دامغة على ولائهم و احترامهم الشديد لحكامهم اللاتين ،فالتضحية التي أبدتها عصبة من الأرمن أنقذت بلدوين الثاني ملك بيت المقدس (511- 526هـ/1171-1131م) و جوسلين كونت الرها في عام 518هـ/1124م من قلعة خرتبرت kharput، تدل بوضوح على الدرجة التي يمكن للفرنجة الوثوق فيها بالأرمن ، كما أثبتت حوادث أخرى عكس ذلك فعندما كانت الحملة الصليبية الأولى تحاصر أنطاكية

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج1،ص 96، عليه عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001، ص *40*، الحويري، المرجع السابق، ص 92.

(2) -Grousset Op.Cit.P27.

(3) لقد قدم بدر الدين الجمالي من عكا التي الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427-487هـ/1036-1094م) قد استنابه عليها قدم في مئة مركب مشحونة بالأرمن و نزل بتنيس و بدأ إصلاحاته في مصر سنة 466هـ/1073م.**أنظر**:ابن القلانسي ،تاريخ دمشق،ص154،الصفدي،الوافي بالوفيات، ج10، تحقيق:أحمد الأرناووط و تركي مصطفى،دار إحياء التراث العربي،ط1،بيروت،2000،ص59.الإتعاظ الحنفا ،مقريزي، ج2،ص311،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج5،ص119.

(4) أيمن فؤاد السيد،الدولة الفاطمية تفسير جديد،ص143-144-148.

(5) قتل الأرمن صاحب أنطاكية ياغي سيان بعد أن فر من أنطاكية بعد سقوطها بأيدي الإفرنج .**أنظر**: ابن الأثير،الكامل، ج9،ص15.

(6) كلود كاهن،المرجع السابق،ص99،ر.سي.سميل ،المرجع السابق،ص88-89،عاشور،الحركة الصليبية ، ج1،ص16،بطرس مراياتي و آخرون،الرجع السابق،ص27،عليه عبد السميع الجنزوري ، المرجع السابق،ص51-52.

كان الأرمن موضع ريبة لممارستهم التجسس لصالح الحامية السلجوقية ، كما نقلوا المؤن إلى داخل المدينة، ومن هنا يمكن القول أن الأرمن لم يكونوا محل ثقة مطلقة عند الفرنج زمن الاستيطان الصليبي، في بلاد الشام[1].

على أية حال فمع بداية القرن 6هـ/ 12م، ازداد عدد الأرمن و رجال دينهم تدريجيا في مملكة بيت المقدس عامة و مدينة القدس خاصة، فقد استقروا في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة حول كنيسة القديس جيمس الواقعة إلى الشرق من القصر الملكي الجديد، و عرف هذا الحي داخل المدينة بحي الأمن و لازال لحد الآن[2].

3/الأقليات الدينية :

و تمثلت في العناصر السكانية المسيحية التي كانت تعيش جنبا إلى جنب مع المسلمين قبل مجيء الصليبيين إلى الشام،و لعبت أدورا ثانوية أو حيادية في الصراع الإسلامي – الصليبي على الجبهة الجنوبية و قد مثلت هذه الأقليات المسيحيين الشرقيين المحليين.

و على رأسهم الروم الأثودوكس [3]، الذين سكنوا بلاد الشام منذ القديم و استوطنوا خاصة ببيت المقدس، و ليس من المؤكد أن يرجع الروم إلى أصل بيزنطي، لكنهم مجموعة من أهل الشام و يقال أنهم من أصل عربي [4]، مرتبطين بالتقاليد البيزنطية، و قد أدى ميلهم الطبيعي للبيزنطيين أن شك الصليبيين في إخلاصهم و ولائهم، فأثناء سقوط بيت المقدس في أيديهم 493هـ/1099م طرد الصليبيون من كنيسة القيامة جميع الكهنة الشرقيين خاصة الروم الأرثودكس و لما فتح صلاح الدين القدس كانوا هم أول من أتهم بالتحالف مع المسلمين و من الواضح أن فئة الروم الأرثودكس كانت أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين وكان من المفروض أن يقوم الصليبيون بطردهم من أراضيهم، و لكن استبقوهم لمهاراتهم اليدوية و قياهم بالأعمال الحقيرة التي أنف الصليبين الغربيون بالقيام بها[5].

---

(1) سميل،المرجع السابق،ص89.

(2) مصطفى الحياري،المرجع السابق،ص54.

(3) يؤمن الروم الأرثودكس بأن للمسيح طبيعتين منفصلتين و أن الصلب وقع على طبيعته البشرية و الإلهية معا ،و يسمون بالملكانيين ،أي أتباع الملك في القسطنطينية ، **أنظر:** أبو الفداء،المختصر،ج1،ص116،حسين العويدات،العرب النصارى،ص 30. مانع بن حماد الجهيني،المرجع السابق،ص 571، بطرس ماراياتي و آخرون،المرجع السابق،ص48.

(4) كمال بن مارس،المرجع السابق،ص47.

(5) حسين العويدات،المرجع السابق،ص129-130،الحويري،المرجع السابق،ص95-96.

على أية حال يمكن تفسير كراهية الفرنج للروم الأرثودكس لسببين، الأول هو الاختلاف المذهبي فمنذ عام 446هـ/1054م و هو تاريخ انفصال الكنيستين الكاثوليكية و الأرثودوكسية و العداء يزداد بين أتباعها و بالثاني هو ارتباطهم بالإمبراطورية البيزنطية حتى أطلق عليهم اسم المالكانيين أي رجال الملك، و لهذه التسمية ما يبررها ، إذ أن بقائهم كان يتوقف على ما كان للإدارة الإمبراطورية من قوة و هيبة، كما لا ننسى أن الفرنج منذ وصولهم أنطاكية و تخلي الإمبراطور البيزنطي عنهم اعتبروا كل البيزنطيين و أتباعهم خونة[1].

على أنه في النصف الثاني من القرن 6هـ/ 12م عد الفرنجة رعاياهم من الروم الأرثوذكس جزء من الكنيسة الكاثوليكية الموحدة، على العكس من اعترافهم بالأرمن كطائفة مستقلة منفصلة، بالتالي فقد عادت الطقوس الأرثودكسية إلى كنيسة القيامة، و كانت هنالك أديرة أرثودكسية في جوار بيت المقدس، و يعود السبب في ذلك إلى تحسن العلاقات الصليبية البيزنطية خاصة على عهد الإمبراطور إمانويل كومنين (538- 566هـ/ 1142-1170م)[2]. و لم يكن الأرثودكس إلا أقلية من الأقليات في بلاد الشام فيما عدا مدن فلسطين[3].

كما سكن النساطرة[4] و اليعاقبة[5] أماكن متفرقة من الجبهة الجنوبية خاصة مدينة بيت المقدس، و لكن كانت كانت أعدادهم قليلة، لتمركزهم شمال الشام و الجزيرة [6]،و قد شهد اليعاقبة بلا اكتراث الأحداث التي لم يكن لها مبرر لتغيير وضعهم الثابت كأناس هامشيين خاضعين لسادة أجانب (المسلمين)، فالفرنجة الذين لا يعرفون شيئا عنهم و ينظرون إليهم على أنهم مستعربون و هراطقة و ليسوا أفضل من المسلمين، و إذا لم يكن في الإمكان تقتيلهم كان

---

(1) رنسيمان، المرجع السابق،ج1 ،ص 23-24، مانع بنى حماد الجهيني، المرجع السابق، ص571 .

(2) سميل، المرجع السابق، ص 91-92.

(3) رنسيمان، المرجع السابق،ج1 ص 23.

(4) **السناطرة** : وهم أتباع نطوريوس (سنطور)، وقد خالف السناطرة الملكا نيين في اتحاد الكلمة و قالوا أن القتل و قع على المسيح من جه ة ناسوته(صفته البشرية) لا من جهة لاهوتية ، و نسطريوس هذا سوري المولد و قد تولى منصب بطريك للقسطنطنية عام 428م و قد ناقش المجمع المنعقد في أفيروس عام 431م بطلان عقيدته و نفيهو هو و أتباعه و اعتبروا هراطقة بخروجهم عن مبادئ الكنيسة الأرثودكسية **أنظر** : أبو الفداء، المختصر، ج1،ص 116. رنسيمان، المرجع السابق،ج1 ،ص 20-21. بطرس مارياياتي و آخرون، المرجع السابق،ص 48، ويلتر ،الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع المسيحية ، ترجمة : جمال سالم ، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع ،بيروت، 2007، ص 92-93، حسين العوديات، المرجع السابق، ص 29، الجهيني، المرجع السابق،ج1 ،ص 571.

(5) **اليعاقبة** : و هم أتباع يعقوب البرادعي ،كان راهبا بالقسطنطينية . و هم من المؤمنين بالطبيعة الواحدة (المونوفيسية) و يعتقدون بإتحاد الطبيعتين الإلهية و الإنسانية دون اختلاط أو امتزاج و قد رفض المجمع الخليدوقي 451م هذا الإيمان فانشطرت عن الكنيسة الأرثودكسية : **أنظر**: أبو الفداء، المختصر، ج 1، ص 116. حسين العودات، المرجع السابق، ص 30.

(6) حسين العوديات، المرجع السابق، ص 30.

بالمستطاع سلب كنائسهم و أراضيهم، بهذا فقد كان دور النساطرة و اليعاقبة في الصراع الذي شب بين المسلمين و الصليبين حياديا، خاصة و أنهم أقلية مسالمة[1].

من هنا يمكن القول أن الفرنجة الذين قدموا من غرب أوربا من أجل نجدة العالم المسيحي الشرقي —نظريا- فإن قدومهم لم ينجم عنه مساعدة أيا كان من المسيحيين و بالأحرى المسيحيين ذوي الطقوس اليونانية، و هم أصحاب النفوذ في كبريات المدن بالشمال و القدس، وهنا تبرز الدوافع الحقيقية التي قدم لتحقيقها الفرنج في الشرق و التي تغاير ما ذكره البابا أوربان في خطابه بكليرمونت[2].

و قد انتشر المسيحيون الشرقيون عامة في المقاطعات و الأقاليم الريفية خارج المدن خاصة المحصورة بين بيت لحم وبيت المقدس و رام الله و حول غزة و قيسارية و عسقلان في جبهة الجنوب و كان جل سكان اللد من النصارى أيضا، كما تواجدوا في الخليل و أيلة، و على مقربة من جبل طابور في الجليل الأعلى على الحدود الشمالية للجبهة الجنوبية[3].

على أية حال، فقد مثل المسيحيون الشرقيون أحد مصادر المساعدات العسكرية للجيش الصليبي، خاصة الأرمن و الموارنة، حيث أن قوة المشاة كانت تحوي أعدادا كبيرة منهم[4].

غير أنه بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام 493هـ/ 1099م أدت المجازر و الأوبئة و فرار الكثير من المسلمين و اليهود و حتى المسيحيين الشرقيين إلى تناقص تعداد سكان المدينة و المناطق المجاورة لها التي استحوذوا عليها، و كان عدد الفرنج الذين بقوا لسد النقص الذي عانت منه المدينة ضئيلا جدا، و هكذا أمست بيت المقدس تشكوا فراغا ضخما و نقصا كبيرا في السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين و المسيحيين [5] و يؤكد وليام الصوري ذلك[6] «و كان سكان قطرنا قليلي العدد قلة ملحوظة و يعيشون في فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشتغلوا شارعا واحدا من شوارعنا ».

(1) كلود كاهن ، المرجع السابق، ص 99.

(2) نفسه، ص 99-100.

(3) المقدسي ، أحسن التقاسم ، ص 179، عودة سيعد عودة الكرد ، فلسطين في عص ر الدويلات الإسلامية (264-492هـ/ 877- 1099م)، رسالة ماجستير غير منشورة الجامعة الإسلامية غزة ، 2008،ص 89-90، يوشع برلور ، الاستيطان الصليبي،ص 75-78.

(4) سميل ، المرجع السابق، ص 96-97.

(5) نفسه، ص 92، عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص 259.

(6) وليام الصوري ، الحروب الصليبية،ج2، ص 318.

و يبدو أن هذا الخلل الذي حدث في توطين سكان بيت المقدس قد جعل الفرنج غير قادرين على القيام بما تحتاجه المملكة من أعمال، كما لم يكن هنالك عدد كاف حتى لحراسة مداخل المدينة و الدفاع عن أسوارها و أبراجها، خاصة و أن السكان الأوربيين لم تكن تجذبهم العاصمة [1]، فزحفوا إلى المدن الساحلية الأكثر رخاء، و كانت من نتائج ذلك أن هدد الفاطميون مدينة بيت المقدس و هي شبه خاوية لتغيب بلدوين الأول و رجاله عنها عندما كان يرد هجوما للسلاجقة على إقليم الجليل عام 507هـ/ 1113م[2].

و من هنا أولى الملك بلدوين الأول هذه المشكلة عناية خاصة و راح يدبر الأمر في ذهنه، وكان الحل في أولئك النصارى الشرقيين الذين سكنوا شرقي الأردن، و قد كان الملك بلدوين قد تعرف على أوضاع هذه المنطقة أثناء الحملات التي قادها إلى جنوب شرق الأردن [3] ، لذلك فقد أرسل إليهم في القدوم للإقامة بالمدينة واعدا إياهم بحياة أفضل من التي كانوا يعشونها[4].

وقد تم تنظيم مشروع هجرة جماعية على نطاق واسع، و فتحت أبواب المملكة أمام المسيحيين المحليين من موازنة و سريان و أرمن و روم أرثودكس [5]، و يذكر وليام الصوري [6]«أنهم قد جاؤوه بحريمهم و أولادهم و مواشيهم... و كل ما ملكته أيديهم»، كما و رافقهم جماعات أخرى ممن لم يوجه الملك إليهم الدعوة للقدوم، و يبدوا أنه كانت لهم أسباب جيدة في النزوح و التعاون مع الصليبيين أولها الهروب من الانتقام و التهديد الإسلامي خاصة و أنهم بادروا بالترحيب بالصليبيين، و ثانيا جاذبية الأماكن المقدسة و أخيرا الامتيازات التي و عدهم بها ملك بيت المقدس، فقد منحهم جزءا

(1) يعتبر إقليم فلسطين في مجموعة من الأراضي الشبه صحراوية خاصة و ان تربته خفيفة و فقيرة لاسيما حول بيت المقدس ، فلم تقم صناعة كبيرة بمدينة من المدن بل أن ملوك بيت المقدس في ذروة قوتهم لم يبلغوا في الثروة ما حازه كونت طرابلس أو أمير أنطاكية وكان المصدر الأساسي للثروة من الرسوم و الضرائب ، ورغم امتيازات المد ن الإيطالية بالمدينة المقدسة إلا أنها فضلت المدن الساحلية لأهميتها الاقتصادية **أنظر**: رنسيمان الحروب الصليبية ، ج 2، ص 19، سميل ، المرجع السابق، ص 54.

(2) وليام الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 318،حسن عبد الوهاب حسين ، مقالا ت و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية ، ص 60-61،عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص 259.

(3) كانت حملات بلدوين الأول إلى إقليم ما و راء الأردن عام 1115م و 1116م ، **أنظر**:فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الصليبية إلى القدس ،ص 156-157.

(4) وليام الصوري ، الحروب الصليبية ، ج2، ص 317، مصطفى الحياري ، القدس زمن الفاطميين و الفرنجة ، ص 51-52.

(5) حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 61.

(6) وليام الصوري ، الحروب الصليبية ، ج2، ص 318،

كبيرا من المدينة، و قد عرف هذا الجزء باسمهم زمن السيطرة الفرنجية «حي النصارى السوريين»، و كان أضعف جوانب المدينة تحصينا[1].

و قد ظل بلدوين منذ تتويجه ملكا على بيت المقدس حريصا على تكوين مجتمع مترابط في مملكته،لذلك فقد أجاز للمسحيين الشرقيين استخدام لغاتهم في محاكمه كما سمح لهم بأن يسيروا وفقا لعاداتهم و ليس لكنيسته أن تتدخل في شؤونهم الدينية[2]، و لتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين و الشرقيين، و جعل من نفسه مثلا على ذلك بزواجه من شرقية، و على أنه لم يقدم على الزواج من الوطنيات إلا عدد ضئيل من البارونات، بينما شاع الزواج بين فقراء عساكر الفرنج و الوطنيات الذي أنجب جيلا قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن المملكة المقدسة في أيام الفتور الديني و تناقص عدد الوافدين [3]، وقد أطلق الغرب الأوربي على هذا الجيل الذي نشأ على أرض الشرق "Poulain" أو "Pullani" أي المهر الصغير[4].

4/ الصليبيون:

و جدت بلاد الشام زمن الحروب الصليبية عناصر أوربية متابينة أهمها: الفرنسيون و النورمان و الانجليز و النمساويون و البروفنساليون و الهنغاريون و الاسكندنافيون و البلغار و الفلمنك و الجنوة و البيازنة و غيرهم و لاريب أن تلك الشعوب التي عجت بها أرض الشام احتوت طبقات و نوعيات من الناس أسهمت في بناء المجتمع الصليبي[5].

و إلى جانب اختلافهم العرقي فقد وفد إلى الجبهة الجنوبية طبقات مختلفة من المجتمعات الغربية ، فنجد الأمراء و البارونات و حتى الملوك في حين وفدت جموع غفيرة من المعدومين و الفقراء و المنبوذين في المجتمع خاصة في الحملة الصليبية الأولى، و كل هؤلاء قد أتوا تحت شعار الحروب المقدسة[6].

---

(1) مصطفى الحياري، المرجع السابق، ص 52،حسن عبد الوهاب حسين،المرجع السابق،ص61.

(2) كما أقيمت أنظمة سياسية و قانونية و إدارية جديدة تحكم حياة هذه الفئة الوافدة، **أنظر** : الحياري، المرجع السابق، ص 49.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2 ،ص 163-164. عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص 260.

(4) عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق و الغرب،ص 53، رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عاملة ، ص 84

(5) محمد كرد علي ، خطط الشام، ج1، ص 70، الحويري، المرجع السابق، ص 49.

(6) لقد كان اكبر و أهم جيشين في الحملة الصليبية الأولى يغلب عليها العنصر الفرنسي و قادمون من أقاليم فرنسية ، وهي جيش جودفري البويوني أمير لوثرانجيا و دوق اللورين و قد قدمت معه جماعة كبيرة من منطقة الراين و شمال فرنسا ، و الجيش الثاني جيش الكونت ريموند كونت بروفانس و هو أكبر الجيوش و قد جمع في جنوب فرنسا ، و أتي معه عدد كبير من أمرائها **أنظر** فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الصليبية إلى القدس، ص 41، هانس ماير ، تاريخ الحروب الصليبية، 95-98، زابوروف، الصليبيون في الشرق ،ص 59-60 ، تيسير بن موسى ، نظرة عر بية على الغزوات الإفرنجية من بداية الحروب الصليبية حتى =

لقد كانت أهم العناصر الأوربية و أغلبها في المملكة اللاتينية العنصر الفرنسي، و ذلك لأن الطابع العام لأكبر حملة و فدت على بلاد الشام و نقصد الحملة الصليبية الأولى كان طابعا فرنسيا، و قد ظهر اثر ذلك عندما استقر الصليبيون بالشام، إذ سرعان ما ذبلت العلاقات الإقطاعية التي ربطتهم بإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، و أقاموا ملكية جديدة في بيت المقدس وفق النظم و التقاليد الفرنسية، و بسبب تغلب العنصر الفرنسي أصبحت لغة التخاطب في مملكة بيت المقدس لغة شمال فرنسا،"Langue D'oeil" [1]

و يعزي أيضا انتشار اللغة الفرنسية أن أطلق العرب اسم "الفرنجة" على الصليبين جميعا، و في بداية الحركة لوحظ أن الفرنسيين اعتزوا بعنصريتهم،و أنه كان لديهم شعور باختلافهم عن العناصر الأخرى مثل الانجليز و الألمان و الإيطاليين، و يبدو أن هذا الشعور ناجم عن كثرة عددهم في المملكة و سيطرتهم على الملك منذ البداية و توارثهم له (جودفري ثم بلدوين الأول أخ جودفري و بلدين الثاني ثم الثالث...) [2].

و على الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر الأوربية التي استأثرت بنصيب الأسد في السيطرة على المملكة، إلا أنهم كانوا مفضلين على غيرهم من العناصر الأخرى، لتعايشهم مع الشعوب التي حكموها و تبنوا عاداتها و ملبسها و تعلموا لغتهم، حتى الفن في الأرض المقدسة غلب عليه الطابع الفرنسي و قد ظهر ذلك جليا في كنائس الصليبيين[3].

أما الانجليز فقد كانت مشاركتهم في الحملة الصليبية الأولى هامشية بسبب تلك النزعات التي كانت بين البابوية و المملكة الانجليزية و إصدار عقوبة الحرمان البابوي عليها، غير أنه مع توالي الحملات الصليبية و أفواج الحجاج على المملكة ازداد عدد الانجليز و ازدادت مشاركتهم في الحروب الصليبية، و قد اعتبر الفرنسيون و الانجليز من أعظم العناصر نفعا في الدفاع عن الهدف الصليبي[4].

=وفاة نور الدين، دار العربية للكتاب ،(د.ت)ص 66 -67، عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ص 98-99، سيد علي الحريري الأخبار السنية في الحروب الصليبية ، الزهراء للإعلام العربي ط3، القاهرة 1985، ص 26.

(1) عاشور ، العلاقات بين الشرق و الغرب ، ص 25 ،الحويري، المرجع السابق، ص 49- 50.

(2) زينب عبد المجيد عبد القوي، الانجليز و الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ،ط1،(د.م.ن)، 1996، ص 91، الحويري ، المرجع السابق، ص 50.

(3) الحويري، المرجع السابق، ص 51.

(4) زينب عبد المجيد عبد القوي، المرجع السابق، ص 90.

كما شارك النورمان [1] في الحرب ضد المسلمين من الوهلة الأولى و استوطن أغلبهم إمارة أنطاكية و انتشر الباقون في الإمارات الأخرى خاصة المملكة المقدسة التي شملت ذلك الوقت جميع الأجناس الأوربية لقداستها عندهم [2].

و قد سكن الايطاليون المدن الساحلية [3] منذ بداية التواجد الصليبي في بلاد الشام، كما حرصوا على أخذ أكبر قدر من الامتيازات فيها مقابل ما أسدوه من خدمات للصليبيين، و رغم ما حصل عليه الايطاليون من امتيازات في المدينة المقدسة إلا أنهم فضلوا الاستقرار بالمدن الساحلية لتسهيل مبادلتهم التجارية مع المملكة اللاتينية و حتى المسلمين [4].

و يمكن القول أن البنادقة و البيازنة و الجنوية، قد حافظوا على هويتهم أكثر من معظم الصليبيين و ذلك لأنهم استقروا في الأحياء التي خصصت لهم في المدن الساحلية، وكاونوا لأنفسهم جاليات في هذه الأحياء، و قد تمتعت هذه الجاليات بالاستقلال السياسي و الاقتصادي و القضائي في قلب المجتمع الصليبي فكانت بمثابة شكل من أشكال الكوميونات فيما وراء البحار، هذا من ناحية و من ناحية أخرى أنهم كانوا يسافرون من و إلي ايطاليا على الدوام [5].

أما الألمان فقد استقروا على شكل جماعات قليلة منهم في مدينة بيت المقدس حيث أقاموا حيا خاصا بهم كما كانت لهم في المدينة كنيسة و فندق و يظهر ذلك جليا في استياء الحاج الألماني يوحنا فورتزبـورج الذي زار بيت المقدس حوالي 571هـ/ 1175م و اكتشف أنه لم يكن للألمان دور في مجتمع الفرنج [6].

و رغم اختلاف و تباين المجتمع الصليبي و توافد الحجاج كل سنة إلى مملكة بيت المقدس، إلا أن الصليبيين خلال مجرى تاريخهم الكلي كانوا أقلية صغيرة عرقيا و اجتماعيا في البلاد التي حكموها، أقلية قليلة في مدينة بيت المقدس

---

(1) لم يحفل النورمان أول الأمر بدعوة البابا أوربان للحروب الصليبية ، نظرا لاستمرار الحروب الأهلية التي نشبت بينهم في جنوب ايطاليا عقب وفاة روبرت جوسيكارد والد بوهيند الذي قاد جيش النورمان إلى الشرق بعد أن أدرك فعلا أهمية الحركة الصليبية حين وصلت إلى إيطاليا جيوش الصليبيين المتحمسة القادمة من فرنسا فرأى بوهيند أنه سيفيد كثيرا من ذهابه إلى الشرق بدلا من بقائه في دوامة لصراعات **أنظر** : رنسيمان ، الحروب الصليبية ج1، ص 222.

(2) تيسير بن موسى ، نظرة عربية على غزوات الافرنج، ص 67، الحويري، المرجع السابق، ص 51.

(3) لقد زخرت المدن الساحلية في المملكة المقدسة بالجاليات الايطالية حيث كفلت المعاهدات للجنويين إقامة منشآت في يافا و عكا و قيسارية و أرسوف و صور و بيروت بينما اقتصرت مؤسسات البنادقة على المدن الكبرى من بين التي سبق ذكرها و نزلت جاليات بيزا في صور و عكا و حل الأمالفيون في عكا ، على أن المستعمرات التجارية في كل مدن المملكة باستثناء عكا لم تتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأشخاص **أنظر**: رنسيمان ، الحروب الصليبية ج1، ص 471، عبد الحافظ عبد الخالق البنا ، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية،ص 21

(4) هايد، التجارة في الشرق الأدنى ،ص 149، رنسيمان، المرجع السابق، ج2،ص 417،أنتوني بردج، الحروب الصليبية، ص 120.

(5) أنتوني بردج، الحروب الصليبية،ص 120، محمد كرد علي ، خطط الشام، ج1، ص 70،البنا، المرجع السابق،ص20.

(6) رنسيمان،الحروب الصليبية، ج2،ص470-471،مصطفى الحياري،القدس زمن الفاطميين و الفرنجة، 54.

فقد قدر عددهم بما يقارب الألف فارس في السنوات الأولى من تأسيس المملكة اللاتينية، ثم بدأ عدده في التضخم مع مجيء الزوار الجدد بين الحين و لآخر، و بهذا يمكن القول أن بقاء الإمارات الصليبية و المملكة اللاتينية كان رهنا بوصول إمدادات جديدة من غرب أوربا[1].

غير أن المجتمع الصليبي في المملكة اللاتينية ظل مجتمعا مفككا لا تربطه جنسية و لا لغة واحدة، و هذا ما أدى إلى ضعف الأثر الذي تركوه في المجتمع الإسلامي رغم بقاء الصليبين على أراضي الشام ما يقارب القرنيين من الزمن[2].

و إضافة إلى العناصر الأوربية التي وفدت على المملكة اللاتينية فقد شهدت الحركة الصليبية ابتكارا فذا فريدا، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى و يتمثل ذلك الابتكار في الهيئات الدينية و الحربية التي جمعت بين حياة الرهبنة و الفروسية في رباط واحد، كما شكلت هذه الهيئات العسكرية الدينية فئات اجتماعية مميزة في المملكة[3].

و إذا كان انتصار الصليبين و إنشاء إمارتهم على الأرض الشامية جاء على يد عدد من القادة و الأمراء المغامرين، فإن تثبيت هذا الانتصار و مد عمر هذه الإمارت لعشرات السنين إنما يعود الفضل فيه إلى تلك القوة الدينية العسكرية التي نطلق عليها اسم الفرسان الرهبان و التي ضمت ثلاث طوائف هي فرسان القديس يوحنا [4]، و التي سميت سميت نسبة لبطريك الإسكندرية يوحنا المتصدق في القرن السابع الميلادي، و فرسان المعبد (الداوية) [5]و فرسان التيوتون[1] ،كما نشأت هيئات أقل شأنا منها فرسان القديس لازاروس، و القديس توما و غيرهم[2].

---

(1) أنتوني بردج، الحروب الصليبية،ص 119، أحمد رمضان أحمد ، المجتمع الإسلامي ، ص 31.

(2) أحمد رمضان أحمد ، المجتمع الإسلامي ، ص 31. حسن عبد الوهاب حسين،المرجع السابق،ص 5.

(3) مصطفى الحياري ، القدس،ص 64، الحويري، المرجع السابق، ص 55.

(4) **فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية)**: و هي منظمة دينية عسكرية أنشئت في بيت المقدس عام 463هـ/1070م من قبل تجار مدينة أمالفي على شكل جمعية خيرية في بيمارستان قرب كنيسة القيامة للعناية بفقراء الحجاج الأوربيين ثم دخل هؤلاء تحت النظام الديري البندكتي ،و في سنة 507هـ/1113 م أصدر البابا باسكال الثاني مرسوما اعترف فيه رسميا بالهيئة الجديدة كما وضعها تحت الرعاية المباشرة للباباوية في روما وكان معظم الإ سبتارية من الانجليز والإطاليين، و كانت مبادؤها الأساسية هي : الفقر ، العفة،و الطاعة ،و قد لعبوا دورا هاما في الحروب الصليبية **أنظر** :كلود كاهن، المرجع السابق، ص 135.

Archer And Chales .L. Kinsford,The Crusades "The Story Of The Latin Kingdom Jerusaleme G.P Putnaméssons , Lond"Don,1989,p171.

رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج1، ص 248، جوناثان ريلي سميث ، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس و قبرص (1050-1310 م) الترجمة: صبحي الخالبي ، طلاس للدراسا ت و الترجمة و النشر ط 1،دمشق ،ص 7، تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص 90، نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثا ني عشر و الثالث عشر ،مطبعة جامعية القاهرة للكتاب الجامعي، القاهرة، 1994، ص 17،الحويري، المرجع السابق، ص 56-57.

(5) **فرسان المعبد (الداوية)**: و هي الهئية العسكرية الدينية الثانية التي نشأت في بيت المقدس عم 512هـ/1118 م أسسها فارس فرنسي يسمى هـ يو دي باين"Hugh de payan" من إقليم شامبي بفرنسا و زميله جفري دي سانت أومير و معهم تسعة من زملائهم كلهم من أصل فرنسي،نالوا من الملك=

إلا أن أهداف فرق الرهبان الفرسان التي كانت في بداية الأمر أهداف خيرية و إنسانية، تتمثل في إيواء الفقراء الحجاج المسيحيين وعلاج مرضاهم و حراستهم على الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة، فقد تلاشت بالتدرج، و أصبحت كل منها تمثل دولة داخل الكيان الصليبي، و أخذت الهدايا و الهبات ترد إليهم من ديار الغرب حتى تجمعت لديهم ثروات طائلة انتهت بهم إلى الحصول على مكاسب سياسية و اقتصادية واسعة وكذا تفشي الفوضى بينهم و الانحدار الخلقي في السنوات الأخيرة للتواجد الصليبي ببيت المقدس[3].

3/ اليهــود[4]:

لقد سكن اليهود منذ القدم بالجزء الجنوبي من بلاد الشام إلى جوار المسلمين و المسيحيين و قد عاشوا زمن العصور الوسطى في كنف المسلمين وفي ظل حكمهم تمتعوا بمعاملة حسنة و سمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية في معابدهم بحرية تامة، عكس ما كنوا يعانونه من اضطهاد أيام الحكم البيزنطي هذا ما يؤكده المؤرخ اليهودي يوشع براور «لقد رأى اليهود الفتح الإسلامي لهذه المناطق (فلسطين) في القرن 1هـ/7م بارقة الأمل لتحريرهم من الاضطهاد البيزنطي » كما ذكر أن الحكام المسلمين قد سمحوا لجماعات يهودية بالإقامة في بيت المقدس و ألغوا ذلك الحظر البيزنطي الذي كان قد فرض على اليهود[5].

=بلدوين الثاني تصريح إنشاء منظمة حربية مهمتها محاربة المسلمين و حماية طرق الحج كما منحهم مكان للإقامة على مقربة من هيكل سليمان عليه السلام فسموا أنفسهم فرسان الهيكل ، وقد اتخذت بادئ الأمر من الفقر و الجوع شعارا لها، لكن بفضل الهدايا التي انهالت عليها من أوربا غدت تشكل قوة مالية ضخمة و قد ثبتت جذورها بفضل شجاعة فرسانها في معاركهم ضد المسلمين ، إلا أن فتوحات صلاح الدين أجبرت الداوية على الجلاء عن بيت المقدس إلى عكا حيث كانت لهذه الطائفة دورا بارز في الحرب الصليبية الثالثة **أنظر:** وليام الصوري ، الحروب الصليبية ، ج2، ص ،345 ،كلود كاهن ، المرجع السابق، ص 135،تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص 91،نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان ،ص 16-17-18.

Archer ,the crusades,p 171

(1) **فرسان التيتون** : طائفة عسكرية دينية أسسها الرهبان الألمان في فلسطين عام 586هـ/ 1190م و قيل أسست أول الأمر بعكا على يد بعض الحجاج الألمان ، وقد لعب فرسان التيوتون دورا ثانويا في المجال الحربي و السياسي إذ ما قورن بنشاط الداوية الإسبتارية ، كما كان عددهم قليلا و لا يقبلون إلا إنضمام الألمان لهم ، لكن فتوحات صلاح الدين أجبرت التيوتون على العودة إلى ألمانيا **أنظر:** تيسير بن موسى،، المرجع السابق، ص 61 السابق، نبيلة ابراهيم مقامي، المرجع السابق، ص 160-161-162.

(2) رنسيمان ، المرجع السابق، ج2، ص 248، تيسير بن موسى،المرجع السابق، ص 89، الحويري، المرجع السابق، ص 55..

(3) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص 90-92، نبيلة إبراهيم مقامي، المرجع السابق،ص9.

(4) **اليهـود**: ينسب اليهود إلى "يهوذا " أحد أبناء يعقوب (إسرائيل) الإثنى عشرة ، و لم زالت مملكة يهوذا حوالي 586/587 ق.م تشتت اليهود فأصبحت كلمة يهودي تدل على كل من يدين باليهودية ،**أنظر:** محمد أحمد محمود حسين، اليهودية التبشيرية في الكتب المقدسة و إلى اليوم ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (د.ت)، ص 6.

(5) يوشع براور ، الاستيطان الصليبي ، ص 79، الحويري، المرجع السابق، ص 98.

و بحلول منتصف القرن 5هـ/ 11م (قبل الغزو الصليبي)، كانت رام الله تعد من مراكز اليهود العامة، أما الجماعات اليهودية في مناطق بيت المقدس في السهل الساحلي فقد عاشوا في أحياء مستقلة يطلق عليها "الجيتو" ، ضمن مجتمع المدينة المسلم، و في منطقة الجليل عاشوا في قرى ضمت أخلاطا من الناس، أما نابلس فقد سكنها السامرة[1] منذ القديم باعتبارها مدينتهم المقدسة، و قد عاش اليهود في الجهة الجنوبية ضمن كيانات سياسية مستقلة باعتبارها أقلية دينية، وتمتعوا بحريتهم الدينية و الاقتصادية و الاجتماعية التي كفلها لهم الإسلام[2]

و قد كان اليهود على اتصال دائم اجتماعيا و اقتصاديا مع إخوانهم في الغرب الأوربي، الذين كانوا قد انتشروا على هيئة جاليات عديدة على امتداد الطرق التجارية في غرب أوربا و في العصور الوسطى، و قد قوى ذلك من مركزهم التجاري و الاقتصادي، و مكنهم من القيام بنشاط مالي كبير و تأسيس عدة بيوت لإقراض الأموال للأمراء و الفرسان و غيرهم فوقع في شباكهم عدد كبير من الناس[3].

وخلال الدعوة للحرب الصليبية حرصت الكنيسة على تأكيد أهمية بيت المقدس ، و هو البلد الذي شهد صلب المسيح في العقيدة المسيحية، و بذلك توجهت الدعوة ضد أولئك القوم الذين على أيديهم صلب المسيح و اضطهد إضافة إلى كثرة الفئات التي أخذت تقترض من اليهود الأموال لحاجتهم لها لكن بفوائد ربوية كبيرة في الوقت الذي حرمت فيه الكنيسة الربا[4].

---

(1) **السامرة** : و هم من أقدم فرق اليهود بفلسطين ، و ترجع العقيدة السامرية إلى حدوث انشقاق ديني داخل الديانة اليهودية و يختلف السامريون عن اليهود بأنهم لا يعترفون إلا بنبوة موسى و هارون و يوشع بن نون، و التوراة التي يؤمنون بها غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود فهم لايقبلون إلا الأسفار الستة الأولى ،سفر التكوين ،سفر الخروج ،سفر اللاوين، سفر العدد، سفر التثنية، سفر يوشع .و ينسب السامرة أنفسهم إلى سبط يوسف ، و يعزون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى هذا الخلاف الديني و من الناحية العرقية هم بقية القبائل من أشور و فارس الذين نقلهم سرجون الاكدي في حوالي سنة 700ق.م و هم صنفان صنف يقال لهم الدستان و صنف يقال لهم الكوشان ،و قد سكن السامريون اللد و الرملة و نابلس و عكا و غزة وظلت نابلس مقر السامرة على مر العصور و موضع قبلتهم ،فالسامريون يعتبرون جبل "ج رزيم "هو الجبل المقدس و المحل المختار و هو بمدينة نابلس ، و هم لا يتزوجون إلا فيما بينهم لذلك فإنهم ينقرضون بسرعة ، و لم يبلغ عددهم حاليا إلا ألف سامري فقط ، و لما دخل العرب فلسطين أخذ السامريون يد ينون بالإسلام ، وقد أخذ المسلمون منهم كثيرا من العادات و اللهجات، **أنظر**: ابن حزم ،الفصل في الملل و الأهواء و النحل ، ج1، تحقيق :محمد إبراهيم نصر ،عبد الرحمان عميرة ، دار الجليل ،بيروت (د.ت)، ص 202. عودة سعيدة عودة الكرد، المرجع السابق، ص 94، عبد المجيد همو ، الفرق و المذاهب اليهودية منذ البدايات ، مراجعة : إسماعيل الكردي ، الأوائل للنشر و التوزيع ، ط2، دمشق ، 2004، ص 34-35،كامل سعفان ، اليهود تاريخ و عقيدة، دار الاعتصام ، القاهرة ، (د.ت)، ص 209. رياض مصطفى أحمد شاهين، أوضاع اليهود وم وقفهم في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية (491-690هـ/ 1098-1291م)، مقالة منشورة لجامعة غزة ،(د،ت) 205، ص 9 ،أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 61.

(2) المقدسي ، أحسن التقاسم، ص 179،رياض مصطفى أحمد شاهين المرجع السابق ص 9.

(3) عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص 111-112، رياض مصطفى أحمد شاهين، المرجع السابق، ص 2-3.

(4) الحويري، المرجع السابق، ص 98-99، شاهين، المرجع السابق، ص 4.

و في أواخر القرن 5هـ / 11م، بدأت التجمعات اليهودية في بلاد الشام تقل و تنحصر في مراكز محددة، و يبدو أن ذلك راجع لأنباء المذابح المرتكبة في الغرب ضد اليهود و قرب وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، هذا إضافة إلى الخطابات و التحذيرات التي و صلتهم من إخوانهم في الغرب عن طبيعة هذه الحركة(1).

و تلك الروح الصليبية المشبعة بكراهية اليهود، ما إن سقطت مدينة بيت المقدس حتى شرع الصليبيون في إبادتهم و يذكر ابن القلانسي(2)أن الصليبيين قاموا«بجمع اليهود في الكنيسة و أحرقوها عليهم» و يذكر يوشع براور أن ما قام به الصليبيون يعبر عن الكراهية الدفينة التي يكنها لهم المسيحيون(3).

بعد ما قام به الصليبيون في بيت المقدس فر عدد كبير من اليهود منها خوفا من نفس المصير الذي لقيه إخوانهم، و قد تمركزت أغلب الجماعات اليهودية في عسقلان و صور و عكا لعدم تعرض هذه المدن للإبادة كمثيلاتها في باقي المدن الشامية، فقد استسلم يهود المدينتين طوعا للفرنج(4).

و قد حزن الرحالة بنيامين التطيلي (555- 569هـ/ 1160-1173م) لما شاهده من ضآلة عدد اليهود بفلسطين لما زارها حوالي سنة 566هـ/ 1170م، حيث ذكر أن عددهم لم يتجاوز المائتين في مدينة بيت المقدس كانوا يقيمون في حي مجاور لبرج داود،وكان ببيت لحم أحد عشر يهوديا فقط، على أن مدينة دمشق لوحدها كان بها من اليهود ما فاق في العدد من نزل منهم في كل الإمارات الصليبية (5)، و قد تميزت المستوطنات اليهودية عامة بقلة كثافتها السكانية(6).

على أنه قد سمح لليهود بالإقامة و المعيشة في بيت المقدس منذ قيام المملكة اللاتينية، و لم تشهد أي مذابح ضدهم منذ تولى بلدوين الأول عرش المملكة فقد أظهر تقاربا مع المسلمين و اليهود و سمح لهم بأن يقيموا بالمدينة كرعايا، و أجاز لليهود أن يؤدوا اليمين على التوراة في حال دخولهم المحكمة، غير أن اليهود ظلوا مضطهدين طوال فترة

---

(1) لقد اتجهت الحملة الشعبية (حملة الفقراء) عام 490 هـ/ 1096م إلى مهاجمة اليهود في حوض الراين بألمانيا و قاموا بالفتك بأعداد كبيرة منهم، **أنظر** : شاهين، المرجع السابق، ص 2-10.

(2) ابن القلانسي،تاريخ دمشق،ص222

(3) يوشع براور، عالم الصليبيين،ص47.

(4) رنسيمان ، المرجع السابق،ج2، ص 473، شاهين، المرجع السابق، ص 15.

(5) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي،ترجمة:عزرا حداد، تقديم: عباس العزاوي، بيت الوراق للطباعة و النشر و التوزيع ،ط 1،بغداد،2011،ص125-132.

(6) كلود كاهن ، الشرق و الغرب زمن الحرب الصليبية،، ص 217.

تواجد الفرنج بالشام ولم يتحسن وضعهم إلا عندما انتصر المسلمون و انتزع صلاح الدين بين المقدس من أيدي الفرنج 583هـ/ 1187م، فسمح لليهود بدخول المدينة[1].

و قد قدم السامريون في أيام الحروب الصليبية المساعدة للمسلمين و تعاونوا معهم ،بل اعتبروا موتاهم في تلك الحروب شهداء و أقاموا عليهم الأضرحة التي لا تزال تزار حتى اليوم من السامريين و المسلمين من سكان نابلس[2].

(1) رنسيمان، المرجع السابق،ج2، ص 164، الحويري، المرجع السابق، ص 99، شاهين، المرجع السابق، ص 15- 16.
(2) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي ، ص 62.

المبحث الخامس: أهم الطرق و المسالك التجارية العسكرية في الجبهة الجنوبية .

لقد حاولنا من خلال المباحث السابقة دراسة الجبهة الجنوبية دراسة تشتمل أهم جوانبها الحضارية، حتى يتسنى لنا فيما بعد – الفصول القادمة – تتبع مراحل الصراع الذي نشب بين المسلمين و الصليبيين للسيطرة عليها و نحن نملك تصورا واضحا عن طبيعتها و أهميتها، و لإتمام هذا التصور كان من الأجدر بنا دراسة أهم الطرق و المسالك التي تخللت جبهة (فلسطين– سيناء) أو (مملكة بيت المقدس – سيناء) بعد الغزو الافرينجي لبلاد الشام، التي سلكتها إما جيوش صليبية أو إسلامية أو قوافل تجارية أو حتى أفواج الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس.

على أية حال، لقد احتوت الجبهة الجنوبية على العديد من الطرق الداخلية الرابطة بين أطرافها كذا الممتدة إلى أقاليم و حواضر مجاورة لها، و قد تفاوتت هذه الطرق من حيث الأهمية و الاستعمال و ذلك عائد لطبيعة الطريق و الظروف السياسية التي تمر بها المنطقة خاصة في القرن 6هـ/12م حيث تمكن الصليبيون من بسط نفوذهم على بيت المقدس و العديد من مدن الشام ما جعل الطرق الرابطة بين الأقاليم الشامية أو حتى مع مصر و شرقي الشام تكون خطرة و غير آمنة أو حكرا من أطراف النزاع (المسلمين أو الصليبيين).

على أن الوضع لم يستمر طويلا على هذا الحال إذ أنه في النصف الثاني من القرن 6هـ/ 12م، انقلبت الأوضاع رأسا على عقب، فبعد أن كانت في مصر خلافة شيعية تفصلها أواصل مذهبية و خلافات عقائدية من القوى الإسلامية في الشام. إذ بالدولة الفاطمية في مصر تسقط لتقوم على أنقاضها الدولة الأيوبية، و لم يلبث صلاح الدين أن اعتبر نفسه وريث سيده نور الدين في أملاكه فضلا عن سياسته، فلما خرج من مصر و نجح في بسط سيطرته على دمشق ثم حلب و بذلك غدت دولة صلاح الدين ذات شطرين كبيرين شطر في وادي النيل و شطر في الشام، و بين هذين الشطرين تقف الجبهة الجنوبية (مملكة بيت المقدس– سيناء)، لم يلبث صلاح الدين بمهارته الفذة أن حول طرق شبه جزيرة سيناء إلى سلاح قوي و فعال في يده خاصة في دور الإعداد و التجهيز لمرحلة الجهاد ضد العدو الصليبي و قد استخدم صلاح الدين مجموعة الطرق الوسطى و الجنوبية في شبه جزيرة سيناء، و ذلك بسبب تهديد الصليبيين للطريق الساحلي الشمالي و بذلك استطاع بفضل اختياره لأنسب الطرق و أصلحها له أن ضيق الخناق على الصليبيين بالربط بين قواته في مصر و الشام[1].

(1) أحمد رمضان أحمد ، شبه جزيرة سيناء، ص 27.

و من أهم الطرق و المسالك التجارية و العسكرية في الجبهة الجنوبية:

1/ طريق دمشق – مصر:

يعتبر هذا الطريق أهم طريق تجاري و عكسري في الجبهة الجنوبية، و كان يتجه من دمشق إلى طبرية ثم اللجون ثم الرملة و من الرملة لغزة[1] ثم العريش ثم الفرما إلى القاهرة[2].

قد فصل المقريزي في محطات هذا الطريق [3] «من مصر إلى الكسوة إثنا عشر ميلا ثم إلى حاسم أربعة عشرون ميلا ، ثم إلى فيق أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال، و من طبرية إلى اللجون عشرون ميلا ثم إلى القلنسوة عشرون ميلا ،ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة و عشرون ميلا ،ثم إلى أزدود اثنا عشر ميلا، ثم إلى غزة عشرون ميلا ، ثم إلى العريش عشرون ميلا، ثم إلى الفرما أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى جرير ثلاثون ميلا، ثم إلى بلبيس ثم الفسطاط مدينة مصر».

و قد كانت القوافل التجارية تسلك هذا الطريق إلى أن قامت الحروب الصليبية و بنا بلدوين الأول ملك المقدس حصن الشوبك، و من ثمة أخذ يوجه غارته على العريش، مما أدى إلى إغلاق ذلك الطريق من ناحية و سيطرة الصليبيين على طرق القوافل من ناحية أخرى، و لما استرد المسلمون بيت المقدس على يد صلاح الدين سنة 583هـ/ 1187م عادت القوافل التجارية إلى طريق الساحل[4].

و يتفق ابن خرداذبة مع المقريزي في تحديد الطريق غير أنه يذكر في كتابه المسالك و الممالك أنه كان هناك طريقان من طبرية حتى الرملة [5] «و من طبرية يتفرق الطريق إلى الرملة فرقتين، فمن طبرية إلى اللجون على الطريق

---

(1) من غزة يتفرع ثلاث طرق: إلى دمشق و إلى الكرك و إلى صفد ،بالنسبة للطريق الأول من غزة إلى ملاقس و منها إلى بلد الخليل عليه السلام ثم منها جنبا ، ثم منها إلى الصافية ثم منها إلى الكرك ، أما الطريق إلى صفد فتبدأ من غزة إلى الجنين إلى بتين ثم منها إلى حطين ثم إلى الصفد ،**أنظر**: القلقشندي،صبح الأعشى ،ج14، ص 379- 380.

(2) ابن خرداذبة ، المسرالك و المم الك، ص 219، القلقشندي،صبح الأعشى ،ج14، ص 380.الطحاوي ، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص 136، الحويري ، الأوضاع الحضارية، ص 122

(3) المقريزي ، الخطط، ج1، ص 632.

(4) وليام المصري ، الحروب الصليبية ، ج 2،ص 317، المقرزي ، الخطط، ج 1، ص 632. عاشور ، الحركة الصليبية، ج 1، ص 257، الحويري ، المرجع السابق، ص 122،

(5) ابن خرداذبة،المسلك و المملك، ص 219،

المستقيم عشرون ميلا و الطريق الآخر إلى بيسان ستة عشر ميلا ثم إلى اللجون ثمانية عشر ميلا، ثم من اللجون إلى قلنسوة عشرون ميلا و من قلنسوة إلى الرملة أربعة و عشرون ميلا»

على أية حال، إذا أردنا التفصيل أكثر في هذا الطريق دمشق- مصر ،نجد المتجه من الشام إلى مصر سواء عبر طريق دمشق ،طبرية ، الرملة ، غزة، أو عبر طريق الساحل الشامي الذي بينه ابن خرداذبة و الذي يبدأ من شمال الشام مرورا[1]«بجبلة ثم طرابلس الشامية ثم بيروت ثم صيدا ثم صور، قدس ثم قيسارية ثم إلى أرسوف الشامية ثم إلى يافا ثم عسقلان وصولا إلى غزة »، فبعد وصوله إلى مشارف شبه جزيرة سيناء كان عليه السير في أحد الطرق الثلاثة للطريق الشمالي لسيناء، (الطريق الساحلي و طريق الرمل (الدرب السلطاني) و درب الشام أو الدرب المصري) [2]

و يبدو أن العديد من جغرافي العرب قد أكدوا على وجود الطريقين الساحلي و السلطاني، و لم يشيروا إلى الطريق الثالث الواقع في الجزء الجنوبي من مجموعة الطرق الشمالية، وربما يعود ذلك إلى قلة المعلومات عنه و التي تعزى إلى قلة المرور و الحركة فيه لظروف الطريق القاسية [3]،و نجد عند ابن خرداذبة إشارة للطريقين [4]«ومن غزة إلى رفح و من رفح إلى العريش من العريش يفترق الطريق إلى طريق الجفار و هو الرمل طريق الساحل على البحر».

أ/ الطريق الساحلي: [5]

يعتبر هذا الطريق أقدم الطرق الثلاث السالفة الذكر، إذ أن اعتدال مناخه و قلة رماله و بعده عن مناطق البدو الذين يهاجمون المسافرين جعلته أفضل الطرق للتجارة و للغزوات، و ذلك منذ أقدم عصور مصر التاريخية، و من مميزات هذا الطريق أيضا قربه من البحر الشامي حتى تسهل حمايته من ناحية البحر، و تدل الآثار الباقية من حصون و قلاع و علامات طرق و محطات أنه استخدم حربيا في العصر الروماني و البيزنطي أما عن محطات هذا الطريق [6]«فمن العريش العريش إلى المخلصة و من المخلصة إلى حصن النصارى، و فيه ماء عذب، ومن الحصن إلى الفرما ...إلى بلبيس إلى مصر»[7].

---

(1) نفسه، ص ر98.

(2) أحمد رمضان أحمد ، شبه جزيرة سيناء، ص 75، انظر الخريطة رقم (06)

(3) نفسه، ص 82.

(4) ابن خرداذبة المسالك و المملك، ص 219.

(5) أنظر الخريطة رقم (6)

(6) أحمد رمضان أحمد ، سيناء، ص 75- 76.

(7) ابن خرداذبة المسالك و المملك، ص 219 ،كما ذكر المقدسي هذا الطريق المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 213-214.

ب/ طريق الرمل:

يطلق عليه الآن الدرب السلطاني، و هو أقل أهمية من الطريق الساحلي لكثرة رماله و قساوة مناخه، خاصة و أن استخدام الابل للنقل في صحراء سيناء متأخرا، غير أن أهمية هذا الطريق أخذت في الزيارة خاصة بعد تهديد الصليبيين للساحل و طغيان البحر عليه، فتوجهت القوافل التجارية شيئا فشيئا إلى طريق الرمل و تبعتها الجيوش و أصبح ، هذا الطريق الرئيسي بدلا من الطريق الساحلي [1]، و قد ذكر القريزي [2] أمر هذا التحول« هذا الدرب مصر – دمشق الذي يسلكه العساكر و التجار و غيرهم على الرمل إلى مدينة غزة، ليس هو الدرب الذي يسلك في القديم من مصر إلى الشام، و لم يحدث هذا الدرب ...إلا بعد الخمسمائة من الهجرة عندما انقضت الدولة الفاطمية ».

غير أن هذا الطريق قد ذكره ابن خرداذبة [3] في كتابه المسالك و الممالك«و من العريش يفترق الطريق إلى الطريق الطريق الجفار و هو الرمل و طريق الساحل على البحر »، و من المعروف أن الرحالة ابن خرداذبة قد توفي عام 300هـ/ 912م و هذا ما يؤكد قطعا أن هذا الطريق قديم وقد سلك منذ القدم.

أما عن محطات هذا الطريق فهي «من العريش إلى الواردة ثمانية عشر ميلا ومن الواردة إلى البقاوة عشرون ميلا من البقاوة إلى الفرما أربعة و عشرون ميلا »[4] ، طريق الرمل يأتي من الشام إلى رفح ليسير في منطقة الكثبان جنوبي الطريق الساحلي، و يقطع مصب وادي العريش و يتمر في الجفار إلى ينتهي إلى حدود سيناء الغربية عند الفرما [5].

ج/ درب الشام أو الدرب المصري:

و هو الجزء الجنوبي من مجموعة الطرق الشمالية، و يظهر أن قلة معلوماتنا عن هذا الطريق إنما ترجع إلى قلة المرور و الحركة فيه، و ذلك لقلة المياه الصالحة للشرب في تلك المنطقة، كما أن المناخ أشد قسوة من الطريقين الساحلي و المتوسط في المجموعة الشمالية و ذلك لبعده عن تأثير البحر الذي يلطف من قسوته قليلا [1].

---

(1) نعوم شقير،، المرجع السابق، ص 254،

(2) أحمد رمضان أحمد ، سيناء، ص 80.

(3) ابن خرداذبة المسالك و الممالك، ص 219

(4) نفسه ، ص 219.

(5) أحمد رمضان أحمد ، سيناء، ص 75.

و يبدأ هذا الدرب من غزة ببلاد الشام في أرض مكشوفة و يسير إلى الجنوب الغربي تاركا آثار الزراعة وراءه ليقترب شيئا فشيئا من منطقة الكثبان الرملية في شمال سيناء ثم يعبر وادي العريش قرب القضيمة هي إحدى النقط الحربية الهامة في شمال سيناء، ثم يسير إلى اليسار حتى جبل المغارة ثم يتجه يسارا حتى ينتهي عند الإسماعيلية.غير أن هذه الطريق قد بطلت حاليا بفتح ترعة السويس[2].

على أية حال، لقد كانت القوافل المارة من الطريق بين دمشق و مصر تتعرض للسلب و النهب، لأنها تجتاز إقليم يحكمه صليبي أو أحد أتباعه و ربما لم تكن الرغبة في الاستيلاء على الغنيمة هي الباعث الوحيد لديهم، فقد تكون عندهم أسباب سياسية إلى عرقلة التقدم المستمر في التجارة بين الشام و مصر، لأن اتحاد هذين البلدين سيحقق إضرارا بمملكة بيت المقدس لا محالة[3].

و مهما كان الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية من دمشق إلى مصر، فإنها تجد نفسها تحت رحمة ملوك بيت المقدس، لأن قلعتا الكرك و الشوبك كانتا تتحكمان في طريق الغور، كما كان لحصن الكرك ما هيأ له السيطرة على الطريق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر عربي بلاد العرب إلى بلاد الشام، فضلا على أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الأردن[4].

ونتيجة لهذه الأهمية التي يتمتع بها هذان الحصنان و التي جعلت سيطرة الصليبيين عليهما تشكل شوكة في حلق التجارة الإسلامية، شيد صلاح الدين حصن عجلون عام 580هـ/ 1184م، الذي يشرف على غور الأردن من الغرب و صحراء البلقاء من الشرق طريق القوافل عبره و للتقليل من أذى الصليبيين على التجار و الحجاج، غير أنه رغم وجود هذا الحصن إلا أن حصن الكرك ظل يمثل تهديدا كبيرا على المسلمين خاصة بعد تولي أناط مقاليد الأمور في الأردن و إغارته على كل سالك لطريق تمر عبر حصنه[5].

و قد تركت إحدى غارات صاحب الكرك أرناط ضد قافلة المسلمون و ما أعقبها من سلب و نهب ذكرى لا تنسى، ما جعل صلاح الدين يعلن على الصليبيين عام 583هـ/ 1187م الحرب انتقاما من هذه الأعمال التي كانت

---

(6) نفسه ، ص 82-83.

(1) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 261، أحمد رمضان أحمد ، سيناء، ص 83.

(2) هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج1، ص 183-184.

(3) رنسيمان ، الحروب الصليبية ج 1، ص 369.سميل ، فن الحروب عند الصليبين،51، ألبير شاندور، صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ص 178، هايد، المرجع السابق،ج 1، ص 184.

(4) أبو الفداء،تقويم البلدان، ص 245، القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص 105، عاشور ، الحروب الصليبية ، ج2، 64

على حد قول الأصدقاء و الأعداء انتهاكا صريحا للهدنة، مهما كان الأمر فإن تلك الأحداث تثبت أن قوافل المسلمين كانت في أوقات السلم حسب عادتها الإقليم الصليبي و كانت معاهدات الصلح أحيانا تفرض أمن القوافل صراحة لمل كنت ندرة هذه الحركة التجارية من فائدة للدولة الصليبية[1].

و الحقيقة أنه على الرغم من العرف الذي جرى عليه الأمر بخصوص عدم التعرض للقوال التجارية التي تستعمل طريق دمشق –القاهرة– فلم يكن صاحب الكرك الوحيد الذي خرق هذه الاتفاقيات، فكثيرا ما هاجم الملوك الصليبيون القوافل الإسلامية[2]، و من ذلك ما ذكره ابن القلاسني من أن الملك بلدين الأول هاجم إحدى القوافل في وادي موسى جنوب البحر الميت عام 521هـ/ 1127م نهب كل ما تحمله من سلع و أموال[3]، كما استولى الصليبيون عام 588هـ / 1192م على قافلة تجارية مصرية كبرى كانت في طريقها للتجارة مع الشام و غنم منها ثروة كبيرة، وهذا ما يؤكده الأهمية التجارية الكبيرة لهذا الطريق بين أسواق الشام و مصر[4].

2/طريق بيت المقدس– يافا:

و هو طريق على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للمملكة الصليبية ، وخاصة و أنه كان يمثل الممر الحيوي و الرئيسي الذي سلكه الحجاج القادمون من أوربا لزيارة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، و يلاحظ أنه خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الاستقرار الصليبي لم يكن الصليبيون قدموا سيطرتهم على مناطق متعددة ومن ثمة قامت حركة مقاومة من جانب المسلمين ضد عناصر الحجاج خاصة وأن أولئك الحجاج هم من قدم العون الحربي لخدمة الصليبيين في المملكة اللاتينية[5].

ويبدو أن المضايقات المتتالية للحجاج القادمين على هذا الطريق إما من العرب المسلمين أو قطاع الطرق في عسقلان و المناطق الجنوبية من فلسطين، قد جعلت الملك بلدوين الثاني يهتم بمشكلة تأمين طريق الحجيج و ذلك بأن شجع بعض الفرسان المتحمسين عام 512هـ/ 1118م لتكوين هيئة هدفها حماية و حراسة الحجاج و هي الهيئة التي

(1) هايد، المرجع السابق،ج 1، ص 184.
(2) الطحاوي ، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص 136.
(3) ابن القلاسني ، تاريخ دمشق،ص 347
(4) الطحاوي ، المرجع السابق، ص 137.
(5) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في بيت المقدس ص 79.

أصبحت تشكل أكبر هيئة عسكرية صليبية في الشرق، و قد عرفت بفرسان المعبد (الداوية) [1]، و يذكر وليام الصوري[2] «أنه كانت مهمة هذا التنظيم الرئيسية و التي أوصاهم بها البطريرك و الأساقفة الآخرون لجلب خطاياهم (لغفرانها)، هي أنهم يجب أن يبذلوا ما تسعهم به طاقتهم لحفظ المسالك و الدروب العامة، و جعلها آمنة من تهديد اللصوص و قطاع الطرق، مع بذل العناية الخاصة لحماية الحجاج».

أما عن طريق بيت المقدس- يافا فقد كان يمر بمناطق ذات طبيعة جبلية صخرية ووعرة إلى أن يصل إلى السهل الساحلي و يبلغ امتداده 670 كلم[3]، و يمتد من ميناء يافا الغير آمن إلى عسقلان جنوبا أو مدينة اللد و يصل كلا الطريقان إلى رام الله التي كانت تعرف بمدينة القديس جورج، و من رام ان الحاج يتجه إلى بيت النبي" Biet Nuba". و كان الطريق إليها محفوفا بالمخاطر و هو طريق قلعة تورون أو فرسان تورون " Toron Chevalier" (اللاتران Latron)، و من هذه القلعة يصل الحاج المسيحي إلى ما يعرف عند إتباع الديانات الثلاثة بجبل السعادة و الذي يمكن منه رؤية مدينة بيت المقدس[4].

كما ذكرت طريق أخرى عبرها الحجاج المسيحيون من يافا إلى بيت المقدس و قد امتدت من ميناء يافا إلى مدينة الرملة ثم أبو غوش إلى دير ياسين ثم هضبة القدس و يستمر الحاج في التقدم حتى يدخل المدينة المقدسة من الباب الغربي و الذي كان يسمى آنذاك باب يافا[5].

و قد قام الصليبيون بتشييد سلسلة من القلاع على امتداد هذا الطريق خاصة في عهد الملك فولك الأنجوي و كان أولها حصن بيت جبرين (بيت جبريل)، و هي على تقاطع مع الطرق المؤدية إلى بيت المقدس و الجليل و غزة و عسقلان، و قد كانت هذه المنطقة مهددة من جانب حامية عسقلان المصرية[6].

---

(1) مصطفى الحياوي ، القدس، زمن الفاطميين و الفرنجة ، ص 55، نبيلة ابراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان،ص17، محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في بيت المقدس ص 79.

(2) وليام الصوري ، الحروب الصليبية ،ج2، ص 345.

(3) محمد مؤنس عوض ،الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الاجتماعية ، ط1،القاهرة ،1995، ص 59 هامش 36.

(4) يوشع براور ، الاستيطان الصليبي، ص 251-252.

(5) محمد مؤنس عوض،الجغرافيون و الرحالة، ص 59 هامش 36.

(6) نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان،ص 77-78.

3/طريق دمشق– الساحل:

و قد كانت تنطلق من دمشق عدة طرق تجارية نحو الساحل الشامي خاصة مدن : صور و عكا و صيدا.

فعندما كانت تصل السلع و الضائع الشرقية إلى دمشق،تقوم القوافل التجارية بحملها عبر الطرق البرية و يصف ابن جبير طريقين للوصول إلى من دمشق إلى عكا أولهما هو طريق دمشق- بانياس-تبنين- عكا، و يقول إنه طريق وعر لذا كانت تعتمد القوافل فيه على البغال ، أما الطريق الآخر كان منبسطا غير وعر و لذا اعتمدت فيه القوافل الجمال[1].

و قد فصل ابن جبير في الطريق الذي سلكه الذي كان يصل دمشق بصور مرورا بعكا [2] «من دمشق إلى دارية ثم بيت جن و هي بين الجبال ثم مدينة بانياس و من بانياس إلى قرية تعرف بالمسية على مقربة من حصن هونين الذي شيده الافرنج ثم اجتزنا في طريقنا بين هونين و تبنين بواد ملتف الشجر حتى وصلنا حصن تبنين، و رحلنا من تبنين و طريقنا كله ضياع متصلة و عمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون، ثم عكا، ثم توجهنا إلى صور».

كما وجد طريق آخر من دمشق إلى بيروت، يبدأ من دمشق إلى خان مسيلون و منها إلى زبدان ثم الحصين وصولا إلى بيروت.أما طريق بيروت صيدا فيمر بخان مسيلون و يصل مباشرة بصيدا[3].

5/ أهم طرق سيناء[4]:

تعتبر سيناء هي الوصلة البرية بين مصر و الشام و الحجاز، و قد نشأ فيها منذ بدأ التاريخ عدة طرق تجارية حربية أو دينية تخترقها من الشرق إلى الغرب [5]،و قد درسنا سابقا مجموعة الطرق التي تصل الشام بمصر، و سنحاول الآن الطرق المتبقية و التي تقع إلى الجنوب من الطريق الشمالي، و يمكن اعتبارها ممرات ثانوية بالنسبة للتجارة و الغزوات الحربية إذا ما قورنت بالمجموعة الشمالية لسهولتها و قربها من الساحل ما يسهل عليهم الدعم البحري الذي كثيرا ما اعتمدوا عليه[6].

(1) ابن جبير ، الرحلة، ص 29، الطحاوي ، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص 137.
(2) ابن جبير ، الرحلة،ص209-210-211.
(3) القلقشندي،صبح الأعشى ، ج4، ص 382.
(4) أنظر الخريطة رقم (6)،(7).
(5) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 249.
(6) أحمد رمضان أحمد ، سيناء، ص 88.

أ / **درب الشعــوي:**[1]

و هي أخصر الطرق من السويس إلى نقب العقبة، و أقدمها عهدا و أخصبها مرعى، تسير من شط السويس في وادي الراحة فتقطع هضبة الراحة لتدخل أرض التيه شمالي عين سدر ، حيث توجد آثار تعود إلى عهد صلاح الدين و هي قلعة «و هي قلعة منعوق و أم رحيم » و في هضبة التيه يسير الدرب في ذلك السطح الجامد شرقا قاطعا أعالي فروع اليرموك أولا ثم يقطع وادي العريش نفسه شمال بئر أم سعيد حتى يصل إلى "الثمد" ثم يتفرع منه فرعان، أحدهما يسير شرقا حتى يصل نقب العقبة(2).

ودرب الشعوي هي الدرب التي اتخذها صلاح الدين للمسير إلى جزيرة فرعون و أيلة، ففي سنة 578هـ/ 1182م خرج صلاح الدين من مصر متخذا طريقه عبر سيناء سالكا درب الشعوي و شن الغرات من هناك على أطراف مملكة بيت المقدس الصليبية ثم اتجه إلى حصين الكرك و الشوبك أين قام بحصارهما و مهاجمتهما بعنف (3).

ب /**درب البتراء:**

نشأ في سيناء منذ القديم طريق الفرما أو العريش أو يعرف بالطريق الساحلي في شمالها و طريق البتراء في جنوبها، و الطريق الساحلي هو طريق التجار المسافرين من مصر إلى بلاد الشام فالعراق و غربي الأردن- و قد مر ذكره سالفا- أما طريق البتراء فهي طريق التجار و المسافرين من مصر إلى العقبة و الحجاز و البتراء و شرقي الأردن، و قد سمي بالبتراء لأنه الطريق الذي اتخذه النبطيون أسياد البتراء في تجارتهم إلى مصر، كما تدل الصخرات النبطية الباقية عليها (الطريق) إلى اليوم في أودية حدرة و فيران و المغارة و النصب (4). يبدأ طريق البتراء من السويس و يمر بعيون موسى ثم سير جنوبا في منطقة صحراوية يندر فيها الماء، و يستمر الطريق في تلك المنطقة الصحراوية حتى يصل إلى التعدين القديمة في وادي سرابيط الخادم و من هناك يمكن الوصول إلى وادي فيران و منه تتجه شرقا إلى طور سيناء و تبقى باتجاهها شرقا إلى حذرة فوادي الغزالة فالنويبع فالعقبة فالبتراء(5).

---

(1) أنظر الخريطة رقم (7).

(2) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 265،- أحمد رمضان أحمد ، سيناء، ص 88.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية ، ص 101، أبو شامة، كتاب الرو ضتين في أ خبار الدولتين ، ج 3 ،ص 70.سحر سيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي ،مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 2009، ص 46.

(4) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 265- 266.

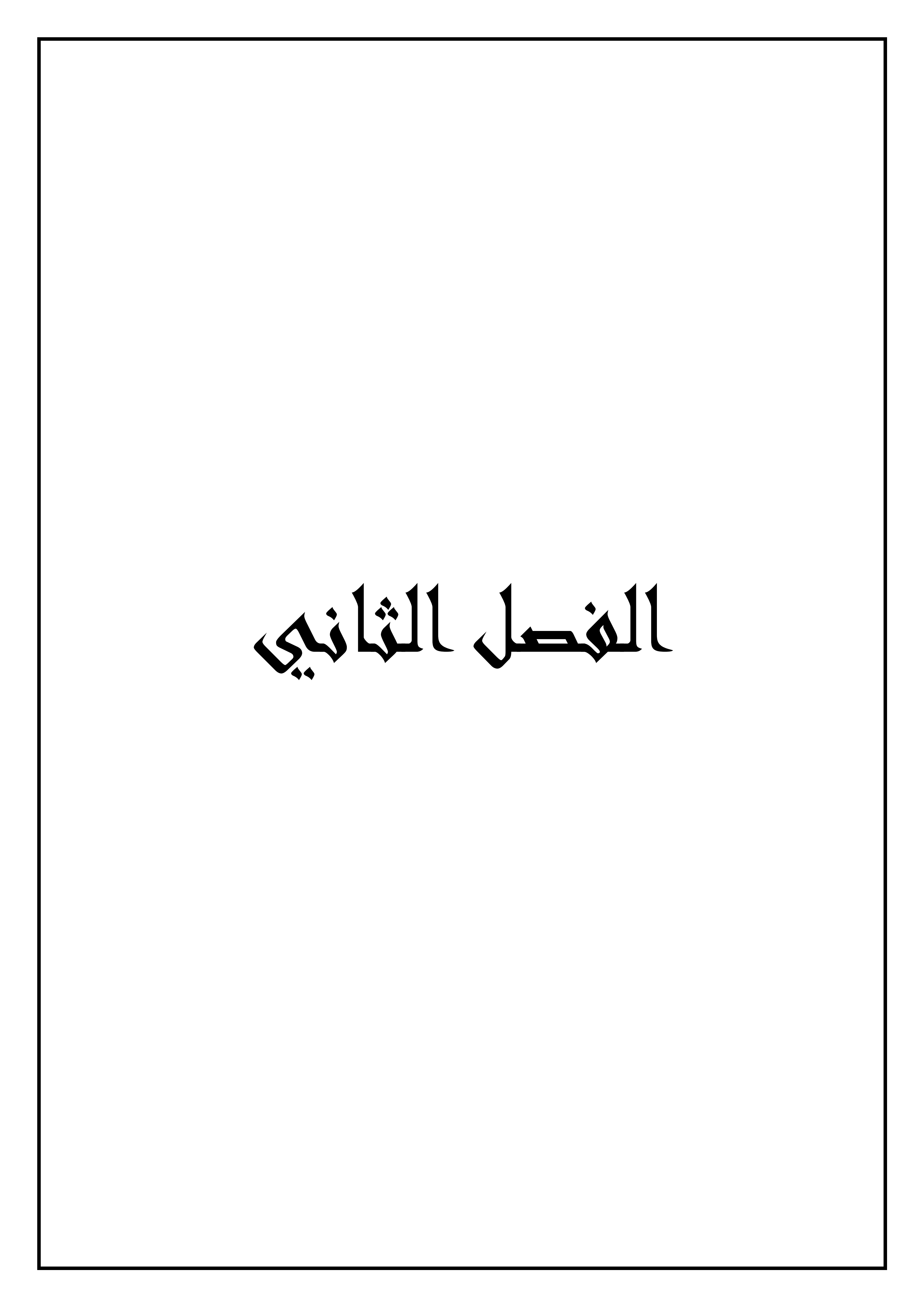
(5) أحمد رمضان أحمد ، شبه جزيرة سيناء، ص 87.

ج/درب النبك:

و هو طريق يقطع سيناء الجنوبية من جنوبها الشرقي عند النبك على خليج العقبة إلى شمالها الغربي عند السويس ، وهذا الدرب هو درب تجارة الإبل و الغنم في الحجاز إلى مصر، و الماء في هذا الطريق متوافر، و لا يصعب الحصول عليه إلا في الجزء الذي يقع بين الطيبة و عيون موسى، على أن أهمية هذا الطريق تكاد تكون في حيز العدم الآن.

و يمكن القول أن طريق كل من طريق البتراء و النبك يقطعان منطقة الجبال النارية في ذلك المثلث الذي تبلغ فيه جبال سيناء أشد ارتفاعها، و الذي تتعمق فيه الوديان على شكل خوانق تعلو جوانبها علوا كبيرا، و يأتي هذا الطريقان كطرق في الدرجة الأخيرة بالنسبة لطرق سيناء[1]

(1) نعوم شقير، المرجع السابق، ص 266، أحمد رمضان أحمد ، شبه جزيرة سيناء، ص 87-88.



الفصل الثاني

الفصل الثـاني: الصليبيون و جبهة بيت المقدس مصر.

المبحث الأول: التوسع الصليبي في منطقة بيت المقدس و لساحل

1 -الحملة الصليبية الأولى.

2 -التوسع الصليبي على منطقة الساحل.

3 -التوسع الصليبي على منطقة بيت المقدس.

المبحث الثاني: إقليم الجليـل و السـواد.

1 -إقليم الجليل و أهم حصونه

2 -السواد و حوران.

المبحث الثالث: المنخفضات الشـرقية.

1 -وادي الأردن (الكرك).

2 -وادي عربة (حصن الشوبك).

3 -خليج العقبة (أيلة).

المبحث الرابع: صحراء سيناء و الحملة على مصـر.

1 -صحراء سيناء

2 -الحملة الصليبية على مصر.

المبحث الأول: التوسع الصليبي في منطقة بيت المقدس و الساحل.

حاولنا في الفصل السابق إبراز الأهمية التي اكتسبتها الجبهة الجنوبية عامة، والتي جعلت منها محل صراع بين المسلمين و الغزاة الصليبيين، و يبدو أنه لامتزاج هذه الأهمية مع الظروف الأخرى التي عاشها الغرب الأوروبي في تلك المرحلة من العصور الوسطى الأثر الكبير في ظهور تلك الحركة الشعبية التي شهدها القرن 5 هـ/ 11م والتي بدأت بدعوة البابا أوربان الثاني [1] Urban II و انتهت بدخول الفرنج إلى بيت المقدس وتأسيسهم مملكة حافظت على وجودها قرابة القرنين من الزمن[2].

لقد كان لخروج تلك الأعداد الهائلة من الأوروبيين متوجهة نحو الشرق أسباب ودوافع عديدة جعلتها تترك أوطانها و تنصاع إلى أوامر الكنيسة و البابا، و يذكر بعض المؤرخين [3] أن توسع نفوذ المسلمين في حوض البحر المتوسط مع بداية القرن 2هـ/ 8م كان السبب المباشر في الاحتكاك بين الأوروبيين المسيحيين و بين المسلمين في الشرق، لكن سرعان ما اختفت الأسباب التجارية والسياسية التي كانت السبب المباشر في الصراع بين الفريقين و اتخذت الحروب بينهما صبغة دينية في كثير من أدوارها.

أما الآخرون فيرون بأن الحملة الصليبية تعتبر التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، إذا لم تكن فكرة الحملة الصليبية لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت من فترة باكرة و حتى أخريات القرن 5هـ/ 11م، حيث برزت الدعاية الكنسية لتخليص الأرض المقدسة من المسلمين، و القيام بحملة حج مسلحة لتحقيق هذا الهدف.[4]

---

(1) **البابا أوربان الثاني**: ولد البابا أوربان 434هـ/ 1042م في تشاتلون سور- مان من عائلة فرنسية نبيلة، ثم أصبح راهبا في دير كلوني قبل الثلاثين من عمره و برتبة كردينال رئيسا لأساقفة أوسيتا قبل الأربعين، عُين بابا لروما بعد وفاة البابا قريقوري السابع، و كان ذلك في ربيع الأول 481هـ/ ماي 1088م، و كان عمره آنذاك لا يتجاوز السادسة و الأربعين، سار على درب سلفه قريقوري في أغلب القضايا و كانت له خلافات مع الإمبراطور هنري توفي البابا أوربان سنة 493هـ/ 1099م. **أنظر**: أنتوني بردج، الحروب الصليبية، ص 37،

Archer and Charles. L. Kingsford, The crusades. The story of the latin Kingdom of Jerusalem, p 28, RenéGrousseet, lépopée des croisades, p 6,

،رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 151- 152.

(2) أنظر الخريطة رقم (8).

(3) كانتور، التاريخ الوسيط- قصة الحضارة، ص 195- 196، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 103 أحمد رمضان، سيناء، ص 30.

(4) لقد صرح البابا غريقوري السابع بأن الخدمة العسكرية يمكن أن تؤدى في سبيل الكنيسة أو في سبيل الرؤساء الدينيون و هكذا كان يمكن للحروب الداخلية المدمرة التي سعى سلام الرب و هدنة الرب لمحاصرتها أن تتحول إلى حروب في سبيل العقيدة، و هكذا جعلت البابوية المشاركة في حرب مقدسة إحدى عوامل الخلاص. **أنظر**: كلود كاهن، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ص 77، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 31.

كما يمكن القول أن الحروب الصليبية في حقيقتها تعتبر إفرازا للتفاعل بين الكنيسة و الإقطاع، فقد كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي كانت البابوية قد بلورتها، و التي تركزت أساسا حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي، كما أن الحروب الصليبية كانت من ناحية أخرى محاولة لتحقيق أهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الإقطاعي سواء كانوا من النبلاء أو الفرسان أو من الفلاحين.(1)

1/ الحملة الصليبية الأولى و سقوط بيت المقدس.

إن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق بالصورة التي تم عليها الأمر، لم تكن من ابتكار الإمبراطور ألكسيوس كومنين(2) Allexius I comnenus (474- 512هـ/ 1081- 1118م).أو بطرس الناسك " Pierre l'Ermite"، و إنما يرجع الفضل في ابتكارها و تنفيذها إلى البابا أوربان الثاني، ذلك أن نداءه في مجمع كليرمونت "Clermont"في 25 ذو القعدة 488هـ/ 27 نوفمبر 1095م لم يلبث أن صادف استجابة كبيرة من جمهور الحاضرين، حيث دعاهم إلى شن حملة تحت راية الصليب لاسترجاع الأراضي المقدسة في فلسطين، و قد تجسدت الحماسة العاطفية التي أيقضتها كلمات البابا في صيحة رددها جمهور الحاضرين " Dieu le veut !" أو " Dieu li volt" و تعني تلك "إرادة الرب"(3).

---

(1) قاسم عبده قاسم، ماهية، ص 55- 56.

(2) لقد كان الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين يسعى من خلال طلب نجدة البابا أوربان II إلى أن يمده البابا ببعض الحملات التي يجري توجيهها في الوقت المناسب ضد المسلمين في الشرق ، خاصة و أنه كان يلاحظ تداعي قوة السلاجقة ، و لم يكن له من المرتزقة ما يسمح له برد الضربة التي أوجعوهم(السلاجقة) في معركة مانزكرت 464هـ/ 1071م و أخذهم كامل آسيا الصغرى غير أنه لم يتوقع بتاتا قدوم تلك الجموع الهائلة من الغرب الأوربي التي بدأت أول الأمر بتخريب عاصمته. **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق، ج1،ص 157، كلود كاهن، المرجع السايبق، ص 82- 83، حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، 1983، ص 210.

C.W.C Oman ; B.A, the art of war in the middle ages (378-1515) oxford B.H. Blackwell, London, 1885, p 46. 47. Paul Brandily, Louis- Marie Bureau et des autres, le royaume de Jérusalem de la terre sainte au syncretisme religieux, club du millénaire.p1

(3) تذهب بعض الآراء إلى أن دعوة بطرس الناسك و مواعظه كانت السبب المباشر في نشأة فكرة الحروب الصليبية ضد الشرق، ذلك أنه لما التقى هذا الراهب بالبابا أوربان الثاني في كليرمونت ذكر له ما واجهه من ضغط الأتراك أثناء رحلته إلى بيت المقدس و التي اجبر فيها على العودة الى بلده مما ترك أثرا في نفسه و قد طلب من البابا أن يدعو المسيحيين للخروج و مساعدة إخوانهم من المسيحيين الشرقيين ضد المسلمين فاستجاب له البابا، غير أن الحقيقة تبتعد عن هذا الرأي لأن فكرة الدعوة إلى حملة صليبية على النحو الذي تم في كليرمونت قد اختمرت في وجدان البابا و عقله في رحلته من ايطاليا إلى فرنسا و قد وجدت البابوية ذريعتها النهائية في تلك السفارة البيزنطية التي تقدمت إلى المجمع، و كانت القوى الاجتماعية جاهزة لتنفيذ دعوة البابا بسبب الظروف العامة التي كانت تعيشها الشعوب الأوربية، أما بطرس الناسك فعلى الأرجح لم يشهد مجمع كليرمونت و لم يستمع حتى لخطاب البابا فيه. **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق، ج 1 ، ص 170.

Archer, op. cit, p , Paul Brandily, le royame de Jérusalem, p 1

عاشور العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 89، سيد علي الحريري، الأخبار السنية، ص 17.

و منذ ذلك الوقت باتت تلك هي صرخة الحرب التي رددها الصليبيون في كل معاركهم ضد المسلمين.[1]

على أنه لم يكد البابا أوربان الثاني ينتهي من خطابه حتى نهض من مجلسه أسقف لي بويه Le Puy، فركع أمام عرش البابا و التمس منه الإذن بأن يلحق بالحملة المقدسة، و تزاحم مئات من الحاضرين ليفعلوا ما فعل [2]،و يذكر القس فوستيه الشارتري أن أسقف لي بويه المدعو أدهيمار Adhimar[3] "هو الذي أصبح فيما بعد الرئيس الروحي الذي قاد جيش الرب".

إن فكرة الحماسة في كليرمونت هي عسكرة الحج، و إضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة في الوقت نفسه ، فقد كان الصليبي في حقيقته حاجا من طراز خاص، إذا كان حاجا يتمتع بامتياز حمل السلاح [4]، و من هنا يمكن القول أن الحملة الصليبية "فعلة كنسية" و لكن العوامل الدنيوية هي التي حسمت أمرها و جعلتها أمرا واقعا.[5]

لقد أثار مجمع كليرمونت حماسا شعبيا ربما أقلق البابا نفسه، بسبب الفوضى التي يمكن أن تنشب عنه و المجازفة بسيطرة الكنيسة عليه، و لعل ذلك الحماس يعود خاصة إلى المناخ الذي ازدهر فيه الإيمان و كذا الظروف الاجتماعية للطبقات الدنيا في المجتمع الأوربي[6]. و التي كانت دعوة الكنيسة تحمل لها مغريات كثيرة[7].

كان البابا أوربان الثاني قد حدد لبدء الرحيل شهر رمضان 489هـ/ أوت 1096م، غير أن الفلاحين و الفقراء الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد و بدءوا رحلتهم من فرنسا في شهر مارس بقيادة بطرس الناسك و ولتر المفلس، و كان عددهم يقارب الإثني عشر ألفا [8]، غير أن هذه الحملة التي عرفت في التاريخ باسم

---

(1) جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية، ص 113، كلود كاهن، المرجح السابق، ص 87، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 106، 107.

(2) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 162، عاشور، العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 98.

(3) تاريخ الحملة إلى القدس ، ص 37.

(4) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 32.

(5) قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص 14- 15.

(6) كلود كاهن، المرجع السابق، ص 87، جوناثان ريلي سميث، المرجع السابق، ص 64.

(7) لقد وعد البابا كل من يحمل السلاح و يتجه إلى الشرق بأن تغفر كل ذنوبه "الغفران الكنيسي"، كما أذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضي التي كانوا مرتبطين بها، و أعفي السكان من الضرائب، فأثناء فترة غياب الصليبي تعفى أملاكه من الضرائب، كما يمنح تسهيلات في الديون التي يستدينها خاصة و أن تكاليف الرحلة قد اضطرت كثيرين إلى الاستدانة. **أنظر**: محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 67، محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1291م)، دار المعرفة الجامعية، د.م.ن، 2000، ص 25. مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة الإيمان، ط1، المنصورة، 1997، ص 22.

(8) محمود علي الحريري، الأخبار السنية، ص 24، محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص 26، مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص 22- 23.

الحملة الشعبية أو حملة الفقراء كانت بداية غير مشرفة للحرب المقدسة [1]، لما قام به أتباعها من أعمال النهب و السلب في الطريق إلى القسطنطينية و في المدينة نفسها [2]، فقد نزل بطرس الناسك و أتباعه عليها كسحابة من الجراد، و كان هذا بعيدا عن ما طلبه ألكسيوس في رجائه[3].

كما لم يكن لدى الإمبراطور البيزنطي الذي هاله أمر هذه الحملة أن يختار بين أمرين، بل كان عليه أن يذعن في صمت إلى مشيئة هذه الجيوش بنقلها إلى الأناضول (آسيا الصغرى) أين تكلفت سيوف الأتراك السلاجقة بهم، و قتل والتر المفلس أحد أبرز زعماء الحملة الشعبية أما بطرس الناسك فقد نجا هو و قلائل من الصليبيين تمكنوا من الهرب ووقفوا ينتظرون قدوم الجيش الإقطاعي.[4]

بعد فشل الحملة الشعبية، بدأت الموجة الثانية من الصليبيين مغادرة أوطانها في صيف 490هـ/ 1096م متجهتا نحو القسطنطينية و قد كان عدد الحملة الرسمية أو حملة الأمراء ضخما، إضافة إلى اختلاف أجناسها و الطرق [5] الطرق[5] التي سلكوها للوصول إلى القسطنطينية [6]، و قد سار الصليبيون في مجموعات تحت قيادة كبار الشخصيات الذين عملوا على تنظيم قواتهم تنظيما جيدا[7].

كما استعان البابا أوربان الثاني بقوة جنوه البحرية لتنفيذ مشروعه الصليبي و لإدراكه أهمية مساندة القوة البحرية للجيوش الصليبية المتجهة إلى الشرق، و الراجح أن ريموند الرابع هو من أشار على البابا بطلب المساعدة من الجنوية

---

(1) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 46، هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص 92، مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 71.

(2) الحريري، المرجع السابق، ص 24، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 113.

(3) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 46- 47.

(4) كلود كاهن، المرجع السابق، ص 87، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 46- 47، أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص 26، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 27.

(5) لقد سلك جيش جودفري طريق المجر و البلقان إلى أسوار العاصمة، و قد تجنب المرور بإيطاليا ربما لما أحس به من حرج في علاقته مع البابونية لأنه من أنصار الإمبراطور الألماني، أما جيش هيو فيرماندوا فقد عبروا جبال الألب و إيطاليا و البحر الأدرياتيكي ثم القسطنطينية، أما بوهمند فقد سار شرقي الأدرياتيكي ثم تقد و لحق بالآخرين، و قد سار الجيش الأخير جيش ريموند على نفس طريق جبال الألب و شمال إيطاليا و شواطئ الأدرياتيكي حتى العاصمة البيزنطية.
أنظر: رنسيمان الحروب الصليبية، ج1، ص 207-242، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47.

(6)Archer, op, cit, p 41.

جوناثان ريلي سميث، المرجع السابق، ص 109.

(7)Grosset, op, cit, p 18.

و الذين بالفعل استجابوا لدعوة البابا استغلوها أحسن استغلال فقد عادت عليهم بالخير الوفير و الامتيازات الواسعة في بلاد الشام و التي لم يتمكن لا البيازنة و لا البنادقة أخذها إلا بعد جهد كبير [1].

لقد اتجهت أربعة جيوش منظمة لتسلك الطريق نحو القسطنطينية، و كان يسير في مقدمة الصفوف جيش قوي من اللوترنجيين و أهالي إقليم الراين بقيادة جودفري البويوني " Godfroi de Bouillon" و برفقة أخوه بلدوين Baudouin فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء و قد قدر هذا الجيش بنحو عشرة آلاف فارس و سبعين ألف من المشاة[2].

أما الجيش الثاني فهو لهيو فيرماندو Hugue de Vermandois شقيق فيليب الأول Philippe 1er ملك فرنسا، و قد تبعه روبرت دوق النورمانديا Robert de Normandi، و روبرت الفلاندرز[3] Robert de Flandre، و قد كان الجيش الثالث من النورمانديين القادمين من جنوب إيطاليا، و كان عددهم عشرة آلاف فارس و عشرين ألفا من المشاة المحاربين تحت قيادة بوهيمند " Bohémond" و هو ابن روبرت جوسيكاد "Robert Guiscard"[4]، و معه ابن أخته تنكرد " Tancrid"، و قد التحقوا بالآخرين في أواخر خريف 490هـ/ 1096م.[5]

و كانت آخر حملة وصلت القسطنطينية لتلتقي مع بقية الجموع الصليبية على شاطئ البوسفور بقيادة كونت تولوز ريموند الصنجيلي Raymond de Saint-Guilles، و قد أوفد البابا معه الأسقف أدهيمار "Adhémar" ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين بالشرق[6].

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 107، احمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 33. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 56.

(2)Grosset, op, cit, p 18, Archer, op, cit, p 42- 43, paul Brandily, op, cit, p 2.

عاشورن الحركة الصليبية، ج1، ص 115، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج 1، ص 207، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47، قاسم عبده قاسم، الحرب الصليبية الأولى نصوص و وثائق، ص 21.

(4) لقد مكان بوهيمند و والده على خلاف مع الإمبراطور البيزنطي و قد امتد الصراع بينهم (474- 478/ 1081- 1085م)، و قد تسبب ذلك في خوف الإمبراطور و ريبته من الجيش النورماندي، و ذلك يفسر طلبه في إعلان الجيوش الولاء له من أول وهلة ، **أنظر** :كلود الكاهن، المرجع السابق، ص 96، Grosset, op, cit, p 20.

(5) فوستيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 40، سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47،أنظر الخريطة رقم (8).

(6) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 299- 230

Paul Brandily, op, cit, p1

و باجتماع الصليبيين أمام أسوار القسطنطينية طالبهم الإمبراطور البيزنطي بإعلان الولاء له حتى يضمن الاستعادة التامة لكل ما كان في حوزة الإمبراطور من قبل، و يذكر فوشيه الشارتري "أنه كان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الإمبراطور، إذا لم يكن باستطاعتنا دون مساعدته و مشورته القيام بهذه الرحلة، و قد وهب الإمبراطور للأمراء كثيرا من الهدايا و ما يحتاجونه"[(1)].

و من هنا يمكن القول أن الإمبراطور الكسيوس كان مدركا لحاجة الصليبيين إليه، فعمل على استغلال هذه القوة و الحاجة و حتى الحماسة الدينية لصالح إمبراطورتيه، كذا و استرجاع ما سلب منها سابقا بأيدي الصليبيين.[(2)]

و مهما يكن من أمر ما تعرضت له الحملة الصليبية الأولى من أخطار و أحداث أثناء طريقها إلى الشام، أو ما نشأ من خلاف بينت زعمائها و بين الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، فإن الذي يعنينا من أمرها هي الأحداث التي وقعت بعد و صولها إلى بلاد الشام، و هنا تظهر أمامنا حقيقة هامة ساعدت الصليبيين على سهولة تثبيت أقدامهم في بلاد الشام، و أعني بذلك النزاع القائم بين السلاجقة السنيين و الفاطميين الشيعة، الذي أضعف الجبهة الإسلامية أمام خطر الغزو الصليبي.[(3)]

على أن الخلاف المذهبي لم يكن السبب الوحيد في تشرذم المسلمين و تفرقهم، فبعد وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه عام 485هـ/ 1092م اندلعت الحرب الأهلية والصراعات العالية بين أفراد البيت السلجوقي و لم تمض أربع سنوات فقط حتى بدأت الحملة الصليبية الأولى تقدمها نحو الشرق، و الحقيقة أن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين قد أحس بضعف السلاجقة و أدرك أن الأوان قد آن لرد الدين لهم. فأسرع لطلب النجدة من الغرب الأوربي و استرجاع ما سلب من أراضيه.[(4)]

---

(1) تاريخ الحملة إلى القدس، ص 45.

(2) قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص 22.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 13، حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 212.

(4) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 200، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 482- 483، ابن العديم، زبد الحلب، ج2، ص 470، ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 366، 367. ستانلي لين بول، صلاح الدين و سقوط بيت المقدس، ص 45،أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة 1985، ص 36.

عبر الصليبيون البوسفور إلى آسيا الصغرى بعد أن أدوا يمين الولاء و الطاعة إلى الإمبراطور البيزنطي [1] و هناك انظم إليهم بطرس الناسك و شراذم الناجين من حملته، واعتذر الإمبراطور عن قيادة جيوش الصليبيين و لكنه زودهم بالأدلاء و المرشدين والخبراء بالطريق و واصل إرسال الإمدادات لهم برا و بحرا.[2]

لقد كان أول هدف حدده الصليبيون هو الاستيلاء على نيقية Nicéa[3] عاصمة السلطنة السلجوقية بالأناضول، و من الواضح أنهم لم يستطيعون المضي في جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدي السلاجقة، فقد كان ذلك يهددهم و يعرض خطوط مواصلاتهم مع الإمبراطورية البيزنطية لخطر جسيم، كما ساعدهم غياب السلطان السلجوقي قلج أرسلان عن عاصمته في التقدم و التضييق على أهل المدينة الذين راسلوا الإمبراطور ألكسيوس سرا لتسليمه المدينة بشرط الأمان، فوافق الإمبراطور الذي وجد في هذا العرض فرصة لاسترجاع نيقية من جديد ، و قد تفاجأ الصليبيون بارتفاع الرايات البيزنطية على أسوار المدينة في رجب 491هـ/ جوان 1097م[4].

و من نيقية اتخذ الصليبيون الطريق البيزنطي الرئيسي المعروف قديما و الذي يجتاز آسيا الصغرى. فالطريق الممتد من خلقيدونية و نيقوميديا إلى أن يصلوا سهول ضورليوم "Doryaeum"[5] أين وجدوا قوى الأتراك في آسيا الصغرى تهب لمهاجمتهم و ذلك في 6 رجب 490هـ/ 20 جوان 1097م غير أن الأتراك السلاجقة تكبدوا هزيمة نكراء، وغنم الصليبيون كميات ضخمة من المؤن و الغنائم، و قد اعتبر كثير من المؤرخين أن معركة ضورليوم و نصر الصليبيين فيه هو إعلان منهم عن قدوم قوة جديدة إلى الشرق الأدنى أثبتت تفوقها الحربي على أسطورة السلاجقة التي طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية.[6]

---

(1)Grosset .op, cit, p24.

(2) قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص 22.

(3) تقع نيقية على شواطئ بحيرة أسكان التي لا تبعد كثيرا عن بحر مرمرة، و قد اشتهرت المدينة منذ القرن الرابع الميلادي بمناعة استحكاماتها، أما أسوارها العالية التي امتد طولها أربعة أميال و ارتفع عليها 240 برجا فإن البيزنطيين دأبوا على صيانتها و إصلاحها. **أنظر**: ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة، الإسكندرية، 2000، ص 77، رسينمان، المرجع السابق، ص 249، 251.

(4) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 45، بطرس توديبور، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، تقديم: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2001، ص 111، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 185، 209، رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 255- 256. Acher, op. cit, p 54, Grosset, op, cit, p 24.

كلود كان، المرجع السابق، ص 98.

(5) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 259.

(6) سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 253- 254، عاشور، العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 119،

Grosset, op. cit, p25-26.

لقد كانت معركة ضورليوم معركة فاصلة حسمت مصير الحملة الصليبية الأولى لحد كبير، إذا توقفت بعدها كل مقاومة منظمة من جانب المسلمين و أصبح الطريق مفتوحا أمام الصليبيين إلى بلاد الشام، فتابعوا تقدمهم وسط جبال الأناضول يقودهم أدلاء بيزنطيون باتجاه الجنوب، و لكن الهجمات الخاطفة التي كان الفرسان الأتراك يشنونها كلفت الصليبيين كثيرا من جهودهم، كما كان المناخ هو العدو الرئيس لهم سيما عند عبور الجيش صحراء تراقيا حيث عانوا من نقص الماء و الطعام، حتى وصلوا سهول قونية الغنية بعشبها و شجرها [1].

و مع بداية خريف 490هـ/ 1097م انفصل كل من تنكرد و بلدوين البويوني شقيق جودفري عن الجيش الرئيسي للإغارة على قليقية[2] cilicíou و قد تمكن بلدوين من الاستيلاء على العديد من المدن و القلاع شمالي الجزيرة الفراتية منها الرواندان [3] و تل باشر [4]، وعندما اقترب من الرها استدعاه حاكمها توروس الأرميني لمساعدته ضد الخطر السلجوقي[5] فلبى نداءه، و قد استطاع بلدوين أن يحصل لنفسه على مدينة الرها بعد نجاح المؤامرة التي حاكمها مع أرمن المدينة ضد توروس [6] و تمكن من تأسيس أول إمارة صليبية كان لها دور كبير في حماية ممتلكات الصليبيين في بلاد في الشام ضد أي هجوم يأتي من إمارة الموصل [7]

---

(1) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 78، تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص 70، قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص 22، منس عوض، الحروب الصليبية، ص 78.

(2) أرنست باكر، المرجع السابق، ص 34، جوناثان ريلي سميث، المرجع السابق، ص 11.

Archer, op, cit, p 59.

(3) **الرواندان**: قلعة حصينة و كورة خصبة من نواحي حلب، على مرحلتين منها، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم، ج 3، ص 19، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 267.

(4) **تل باشر**: قلعة حصينة شمالي حلب، بينها و بين حلب يومان، و أهلها نصارى أرمن، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 40.

(5) لقد ارتاع توروس حاكم الرها لما بلغه من أنباء بأن كربوغا أمير الموصل المعروف بخطورته و شدته، أخذ يحشد جيشا ضخما استعدادا لنجدة أنطاكية، فتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش و هو في طريقه إلى الشام الرها و غيرها من الإمارات الأرمينية. **أنظر**: رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 289، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 143.

(6) يذكر فوشيه الشارتري الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى و رافق بلدوين إلى إمارة الرها، و قد اتخذه بلدوين مستشارا له يذكر عكس ما ذكرته المراجع فقد قال: "لقد تآمر المواطنون بخبث لقتل أميرهم ز ذلك لأنهم يكرهونه و لرفع بلدوين إلى القصر ليحكم البلاد... و قد أصاب الأسى بلدوين و رجاله لأنهم لم يقدروا ان يحصلوا له على الرحمة". **أنظر**، فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 53، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، (د.م.ظ)، دمشق، 1995، ج6، ص 7.

(7) ابن أيبك الدواداري، الدرة المضنية، ج6، ص 450، الحريري، الأخبار السنية، ص 35- 36.

عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 47. كلود كاهن، المرجع السابق، ص 102.

عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 149.

Archer, op, cit, p.p 60- 63.

في الوقت الذي كان بلدوين يحكم سيطرته على إمارة الرها زحف بقية الجيش الصليبي الكبير إلى الشام قاصدا أنطاكية، و هي العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم، وقد أحدث وصول هذا الجيش إلى مشارف الشام هلعا كبيرا لأن كثرة أعدادهم و طبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر كبير. [1]

لما وصلت جموع الفرنج إلى أنطاكية 11 ذو القعدة 490هـ/ 21 أكتوبر 1097م[2] أخذت في حصارها من الجهات الثلاث[3] لمعرفتها بحصانة المدينة التي لا يمكن مقارنتها في مناعتها و قوة تحصينها إلا بالقسطنطينية [4]، و قد قد برز ذلك جليا في طول مدة حصار الصليبيين لها و التي دامت ما يقارب السبعة أشهر، و رغم ما قام به حاكمها ياغي سيان من الاستنجاد بجيرانه من حكام المسلمين [5] إلا أن المدينة سقطت قبل وصول التحالف الإسلامي [6] بقيادة بقيادة أمير الموصل كربوغا و ذلك بسبب خيانة أحد الأرمن [7] الذي فتح للفرنج البرج الذي كان يتولى حراسته، و كان ذلك في 27 جمادي الثانية 491هـ/ 2 جوان 1098م.[8]

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 149.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 13، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 131-132، ابن أيبك الدوادري، كنز الدرر، ج6، ص 466، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 20، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 144، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م5، تحقيق: عبد القادر الأرناءوط، دار ابن كثير، ط1، بيروت، 1989، ص 399، سميث، المرجع السابق، ص 111، الحريري، المرجع السابق، ص 37،
Archer, op, cit, p 58.

(3) بطرس تؤديبود، تاريخ الحملة إلى البيت المقدس، ص 135.

(4) و تحصين مدينة أنطاكية يعود إلى الجبال العالية المحيطة بها حتى الجنوب والشرق و تحتضن داخلها قمم ثلاث جبال، و يحدها من الغرب مجرى نهر العاصي و من الشمال مستنقعات و أحراش كم تحتوي أنطاكية على قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها. **أنظر**: الخريطة رقم ()، ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 85- 86. رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 303، عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 150/ Archer, op, cit, pp 64-65

(5) لقد ذكر ابن العديم "بأن ياغي سيان أخرج ولديه شمس الدولة و محمدا، مسار أحدهما إلى دقاق و طغتكين يستنجدها، و بث كتبه إلى جناح الدولة و وثاب بن محمود و بنو كلاب، سار محمد ابنه إلى التركمان و كربوغا و أمراء الشرق و ملكه و سار كتبه إلى جميع أمراء المسلمين". كما أكد ذلك ابن القلاسيني بعث الأمير ياغي سيان في الاستصراخ و الاستنجاد... قصد الدفاع و تحصين أنطاكية" غير أن ابن الأثير يذكر أن سبب تأخر النجدة الإسلامية لأنطاكية هو "أن الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب و دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بأيدي الروم لا نطلب سواها مكرا منهم و خديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية". **أنظر**: ،تاريخ دمشق، ص 218، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 15 ، زبدة الحلب، ج2، ص 130.

(6) ضم التحالف الإسلامي إضافة إلى قائده صاحب الموصل قوام الدولة كربوغا (كربوقا)، دقاق بن تتش و طغتكين أتابك و رضوان صاحب حلب، و سمكان بن أرتق صاحب مردين و جناح الدولة صاحب حمص، و أرسلا نتاش (شاه) صاحب سنجار، و غيرهم من الأمراء المسلمين، و يذكر ابن تغري بردي أن الأفضل لم ينهض بإخراج عساكر مصر، مع قدرته على المال و الرجال. **أنظر**: ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 133، ابن خلدون، العبر، ج 5، ص 210، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، 145، الحريري، الأخبار السنية، ص 41.

(7) و يعرف بالزاد أو الفيروز، و هو من أحد كبار ضباط عساكر ياغي سيان، **أنظر**: ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 133، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 145، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج3، ص 248.

(8) ابن الحوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطاء مراجعة: نعيم زرزور، ج17، دار الكتب العلمية، العلمية، ط1، بيروت، 1992، ص 43، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 133، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 209، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص

أثار خبر سقوط أنطاكية موجة من الذعر في البلدان الإسلامية القريبة، كما كان لسقوطها دوي هائل على العالم المسيحي لا يفوقه إلا سقوط بيت المقدس نفسها لقيمة المدينة تاريخيا و دينيا [1]، و بعد أيام وصلت النجدة التي بعث بها السلطان السلجوقي بقيادة صاحب الموصل قوام الدولة كربوغا غير أن الفرنجة هزموهم هزيمة نكراء، لتشتتهم و تفرق صفوفهم، فلم ينسوا أعداءهم حتى أمام خطر الصليبيين المحدق [2]، أما المدينة فقد آل أمرها إلى بوهمند الذي عرف كيف ينتهز الفرصة و يضمن سيطرته عليها[3].

بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية، عاد الناس يلحقون على قادتهم إلحاحا شديدا بمعاودة الاستعداد للسير إلى القدس، و انجاز الغرض الأساسي الذي دفع الجميع لترك أوطانهم، و يذكر وليام الصوري [4] أنه لما اجتمع القادة و رأى فريق منهم أن الواجب يقتضي ألا يتوانوا عن الخروج في ساعتهم، أما الآخرون فقالوا أن العقل يفرض عليهم تأجيل الخروج حتى دخول فصل الخريف لتنخفض الحرارة و تتوفر المؤونة للزحف، و هذه الأسباب جعلت الجميع يوقن أن المسير في هذا الوقت يشكل خطرا كبيرا.

و بانقضاء فصل الصيف و اعتدال درجة الحرارة، تهيأت الظروف للزحف إلى البيت المقدس، فعقد الأمراء الصليبيون مجلسا في كنيسة القديس بطرس و ذلك في محرم 492هـ/ نوفمبر 1098م[5] و اجتمعوا على استئناف الزحف نحو بيت المقدس ، ما عدا بلدوين الذي كان مشغولا بتنظيم إمارة الرها. [6]

20،= =ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5،ص 147، ابن العبري، مختصر الدول، ص149، ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 118، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 48، سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج3، ص 248.

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 161.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 136، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 210، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 100، Archer, op, cit, pp 74- 75

(3) كانت أنطاكية قبل أن يستولي عليها السلاجقة سنة 478هـ/ 1085م للبيزنطيين، و لما سقطت بأيدي الصليبيين توقع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس أن يسلموها له، غير أن ذلك لم يحدث، إذ أقام بها بوهمند ابن عدو ألكسيوس القديم روبرت جوسيكارد إمارة صليبية له، و أذاع بوهيمند القصة القائلة بان البيزنطيين قد خانوا الصليبيين و تخلوا عنهم أثناء الحصار، كما حدثت نزاعات بين بوهيمند القصة و ريموند حول من يملك المدينة و أخير تم الأمر لبوهيمند.

أنظر: رنسيمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 303، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 100، سميث، المرجع السابق، ص 112، حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص 212.

(4) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 20.

(5) ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 163-164.

(6) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 173.

لقد كان أول ما تقرر في المجلس هو مهاجمة معرة النعمان [1]، و ذلك لتأمين الجناح الأيسر حين يسير الجيش صوب الجنوب (إلى فلسطين)[2] و بعد أن استولوا على مدينة البارة وصلوا إلى أسوار المعرة بصاحب حلب رضوان[3]،و صاحب حماة جناح الدولة فلم يجبهم أحد [4]، و يذكر ابن القلانسي "أن الفرنج زحفوا إلى أسوار المعرة من الناحية الشرقية و الشمالية، و انهزم أهل المعرة" في 14 محرم 492هـ/ 11 ديسمبر 1098م. و نكث الفرنج وعودهم بالأمان [5] فذهبوا و قتلوا العدد الكبير من الناس.[6]

أخيرا تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرا في شمال الشام، فقد خرج ريموند الصنجيلي من معرة النعمان في 17 صفر 492هـ/ 13 جانفي 1099م على رأس جيشه معلنا الزحف على بيت المقدس و تبعه بقية الصليبيين، ما عدا بوهيمند الذي اختار البقاء في أنطاكية[7].

توجه الجيش الصليبي إلى كفرطاب [*][8]، و هناك قرروا الأخذ برأي تنكرد القائل بضرورة سلك الجيش للطريق الداخلي المباشر إلى بيت المقدس بدلا من الطريق الساحلي إلي يحتاج إلى جهد و وقت كبيرين، بحيث يصل الجيش التي بيت المقدس، و قد تضائل عدده و أنهكه التعب، لوقوع أهم المدن و الموانئ في هذا الطريق، كما أشار عليهم تنكرد بالاقتراب بين حين و آخر من شاطئ البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك[9].

---

(1) **معرة النعمان**: مدينة كبيرة و مشهورة، سميت نسبة إلى الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنه، وهي من أعمال حمص بين حلب و حماة، يوجد بها الزيتون بكثرة: **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 156، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 138، أمين واصف بك، معجم الخريطة التاريخية، ص 107.

(2) رسينمان، الحروب الصليبية، ج1، ص 368.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 142، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 210، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الأب أنطون صالحي ، الرائد اللبناني، ط2، لبنان، 1994 ،ص149، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج3، ص 23، ابن كثير، البداية و النهاية، ج 7، ص 119، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 100، Archer, The crusades, p 79

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 141-142، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 173. تاريخ دمشق، ص 223.

(5) ذكر بطرس توديبود "أن بوهيمند قد بعث برسالة إلى زعماء المسلمين داخل المدينة بأنه سيحافظ على حياتهم إذا ما أخذوا متاعهم و توجهوا إلى القصر الواقع فوق بوابة المدينة و اقتحم جميع رجالنا معرة النعمان، و أخذ كال منهم ما وجده من أسلاب في المنازل و الأقبية و لما اشرف الصباح قاموا بذبح كل من المسلمين من الرجال و النساء" و بطرس يعتبر من معاصري الحملة الصليبية الأولى. **أنظر**: تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص 262.

(6) يذكر ابن تغري بردي أنه قتل بالمعرة مئة ألف مسلم و سبوا مثلها. **انظر**: ابن الجوزي، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، ج 17، ص 43، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 144، ابن العماد، شذرات الذهب، ج 5، ص 399. كلود كاهن، المرجع السابق، ص 100.

(7) رسينمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 375، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 175.

(*) **كفرطاب**: بلدة بين المعرة النعمان و مدينة حلب و هي قاحلة قليلة المياه، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 470.

(8) ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 144، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 179.

(9) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 378- 379.

التزم الجيش –بالفعل– المسير إزاء الساحل إلى الجنوب حتى وصل سهل البقيعة الواقع بين جبال النصرية و جبال لبنان، و الذي يعتبر أيسر طريق يصل بين الأقاليم الداخلية و الساحل، و كان يتحكم في هذا السهل حصن الأكراد الذي تسلمه الفرنج بعد هروب أهله ليلا و ذلك في 3 ربيع الأول 492هـ/ 29 جانفي 1099م، ثم اتجهوا صوب الجنوب حتى وصلوا مدينة عرقة[1] القريبة من طرابلس و التي ينفرج عندها سهل البقيعة تجاه الساحل و شرعوا في حصارها للضغط على أمير طرابلس.[2]

غير أن موقع عرقة الحصين و الواقع على مرتفع شديد المناعة عند سفح جبل لبنان جعل حصارها يتطلب وقتا طويلا[3]، خاصة مع مناعة الاستحكامات و استبسال أهلها في الدفاع عنها، و بعد مرور أربعة أشهر في حصار دون طائل من ربيع الثاني إلى جمادى الثانية/ فيفري إلى ماي، قرر ريموند الصنجلي التخلي عن حصاره للمدينة و هنا ظهرت جليا أهمية التحذير الذي ذكره تنكرد عند خروج الجيش من المعرة، و هو أنه ليس ثمة ما يدعو الجيش لمهاجمة الحصون الواقعة في الطريق بل يجب الاتجاه فورا صوب الهدف الرئيسي (بيت المقدس.)[4]

بعد تخلي الصليبيين عن حصار عرقة عبروا نهر الكلب و دخلوا بذلك حدود الدولة الفاطمية [5] التي لم تكن تولي اهتماما بحراسة أو تحصين ممتلكاتها في بلاد الشام باستثناء ما جعلوه من الحاميات بالمدن الواقعة على الساحل، غير أنهم حازوا أسطولا ضخما يعتبر عاملا إضافيا في الدفاع عن هذه المدن، و بهذا لم يكن للصليبيين أن يأملوا في الاستيلاء على ما يصادفهم في طريقهم من الموانئ، و لم يعد بوسع الأسطول الصليبي أن سيظل على اتصال بهم، على أن خوفهم من نفاذ المؤن أجبرهم على أن يبذلوا كل ما في وسعهم من السرعة لبلوغ هدفهم الأخير[6].

---

(1) **عرقة**: بلدة في شرقي طرابلس، لها قلعة صغيرة، و هي من أعمال دمشق، و بين عرقة و طرابلس كيلومترين، و بينها و بين تعليك عشر كيلومترات،و هي على سفح جبل و تبعد عن شاطئ البحر بأقل من كيلومتر واحد، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 109، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 255.

(2) لما وصل الصليبيون إمارة طرابلس التي يحكمها بنو عمار بعث ريموند مندوبين إليها للتشاور في التدابير اللازمة لمرور الحملة الصليبية، غير أن ما اشتهرت به طرابلس و الجهات المجاورة من رخاء أثر في نفس السفراء الذين أشاروا على ريموند أن يهاجم عرقة التابعة لإمارة طرابلس كنوع من الضغط حتى يزيد من قيمة الجزية التي تعهد بها إلى الصليبيين ليشتري الأمان و السلام لسائر ممتلكاته، و سرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسنا عند ريموند، لاسيما و انه كان في حاجة للمال كما كانت عرقة نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غني بمياهه و ثروته الطبيعية. **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق ج 1، ص 380–381، عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 181، فيليب حتى، تاريخ سورية، ج2، ص 228.

(3) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، 45.

(4) إن الأثير، الكامل، ج 9، ص 16، أنتوني بردج، الحرب الصليبية، ص 97، رسينمان، المرجع السابق، ج 1، ص 381–382، جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة ح. ص، ص 112. أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص 36.

(5) جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى، ص 112، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 127.

(6) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 388.

بدأت اتصالات الصليبيين بعد خروجهم من معرة النعمان بالبيوت العربية التي انتهزت فرصة انحلال قوى الأتراك السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن مثل حمص [1] و طرابلس و شيزر [2]، كم أثرت إتباع سياسة مرنة [3] مع الصليبيين للمحافظة على أملاكها، خاصة و أن هؤلاء الأمراء العرب قد أدركوا خطورة الموقف و عدم وجود قوة إسلامية كبرى تستطيع حمايتهم من خطر جيوش الفرنجة[4].

هذا عن موقف العرب، أما النصارى المحليين فيؤكد لنا وليام الصوري [5] أن الموارنة كانوا خير عون للصليبيين لما عبروا جبال لبنان، لدرايتهم التامة بالمنطقة و ما حولها، فقد استدعاهم القادة مستفسرين منهم على اسلم الطرق و أيسرها إلى بيت المقدس، فدلوهم على الدرب الساحلي لأنه لأيسر السبل و اقصرها إلى وجهتهم.

2/ التوسع الصليبي على منطقة الساحل:

بعد وصول الصليبيين إلى مدينة بيروت 25 جمادى الثانية 492هـ/ 19 ماي 1099م[6]، يكون الجيش الصليبي قد جاز الحدود الشمالية للجبهة الجنوبية متخذا طريق الساحل الذي سلكه من الإسكندر و سواه من الفاتحين[7]، غير أن السهل الساحلي في سفح جبل لبنان و في القسم الذي يحاذي لبنان عامة يقتصر على مجرد شريط ضيق لا يزيد عرضه عن أربعة أميال في أي جزء من أجزائه، بشكل يلفت النظر كما هو الحال في شمالي بيروت، حيث تلي السهل الساحلي الذي يبلغ عرضه ميلا واحدا تلالا ترتفع مقدار 750 مترا على أربعة أميال من البحر، و على

(1) **حمص**: بلد مشهور قديم كبير و مسور، و في طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبير، و هي بين دمشق و حلب في نصف الطريق، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 302.

(2) **شيزر**: و هي ذات قلعة حصينة، و نهر العاصي يمر بطرفها الشمالي، و هي ذات أشجار و بساتين و فواكه كثيرة، بينها و بين حماة ما يقارب الكيلومترين و بينها و بين حمص خمس كيلومترات، و هي نفس المسافة بينها و بين أنطاكية، **أنظر**: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 263.

(3) لقد قدم الأمراء المحليون (العرب) للصليبيين الأموال، و الهدايا و بعثوا لهم حتى أدلاء الطريق كما فعل أمير شيزر و طرابلس و غيرهما و ذلك تحاشيا لهجوم الصليبيين عليهم و إنزال الضرر بمحاصيلهم. **أنظر**: وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص 45، رسيمنان، المرجع السابق، ج 1، ص388، زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 119، فيليب حتى، تاريخ سورية و لبنان، ج2، ص 228.

(4) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 179، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص 127.

Grosset, op, cit, p.

(5) الحروب الصليبية، ج 2، ص 62.

(6) هانس ماير، المرجع السابق، 117، سميث، الحملة الصليبية الأولى، ص 113، رسينمان، المرجع السابق، ج 1، ص 388، محمود سعيد عمران المرجع السابق، ص 31، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 187.

(7) فيليب حتى، تاريخ سورية و لبنان، ج2، ص 288.

ثلاثة أميال إلى الجنوب عند مصب نهر الكلب تصل المرتفعات الجبلية إلى البحر و بذلك تعطي للسكان موقعا استراتيجيا لمنع مرور القوات المعادية.(1)

و قد استغل صاحب دمشق دقاق بن تتش هذه الميزة الأخيرة أين تصل المرتفعات الجبلية إلى البحر مباشرة مخلفة ممرا ضيقا يعرف بممر نهر الكلب يصعب فيه مرور الجيوش للإيقاع ببلدوين البويوني الذي كان قادما من إمارته بالرها للاستيلاء على عرش المملكة اللاتينية(2).

بعد وفاة أخيه جودفري، و كان ذلك في ذي الحجة 493هـ/ أكتوبر 1100م، غير أن أمير طرابلس و نتيجة لخلافاته المتأزمة مع دقاق كشف لبلدوين الكمين الذي أعده له صاحب دمشق، هذا ما جعل بلدوين يفلت و يعبر نهر الكلب بسلام(3)

و ما أن وصل الصليبيون إلى بيروت في 24 جمادى الثانية 492هـ/ 19 ماي 1099م حتى بادر السكان المحليون الذين خافوا أن يتعرض للدمار كل ما يحيط بالمدينة من حدائق و بساتين، ببذل الهدايا و السماح لهم باجتياز البلاد شريطة ألا ينزلوا الضرر بالأشجار المثمرة والكروم و المحصولات، و قبل أمراء الصليبيين الشروط، أرشدوا الجيش عن الطريق إلى صيدا(4)، كما تعهد أهل بيروت بالدخول في طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم إذا هم نجحوا في احتلال احتلال بيت المقدس.(5)

لقد كان امتلاك الثغور على الساحل الشامي مسألة حياة أو موت بالنسبة للملكة الصليبية لأن الساحل وحده يضمن لها الاتصال بالغرب الأوربي الذي تصلها منه المعونات البشرية و المالية الضرورية لبقائها (6)، لذلك سعى بلدوين منذ اعتلائه عرش المملكة 493هـ/ 1100م السيطرة على مدن الساحل، خاصة و أن الدولة الفاطمية صاحبة السلطة

---

(1) فيليب حتى، المرجع السابق، ج1، ص 31، أجمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي، ص 15.

(2) يذكر فوشيه الشارتري الذي كان مرافقا لبلدوين، "أنه على مقربة من مدينة بيروت و على بعد حوالي خمسة أميال، يقع ممر شديد الضيق في الطريق العام المحاذي للبحر، و لم يكن بوسعنا أو بوسع أي كان اجتيازه إذا ما أراد عدو أن يمنع عبوره، ولو أراد مائة ألف جندي أن يعبروه لما استطاعوا إذا ما قاومهم مائة أو حتى ستون مقاتلا، و لذلك خطط أعداءنا أن يطوقونا هنا من جميع الجهات و يفتكوا بنا." **أنظر**: تاريخ الحملة إلى القدس، 103-104.

(3) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 103- 104.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 388- 389، فيليب حتى، تاريخ سورية، ج2، ص 228.

(5) رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عاملة، ص 47، عاشور،الحركة الصليبية، ج1، ص 187.

(6) هايد، التجارة في الشرق الأدنى، ج1، ص 149.

على الحوض الشرقي و المسيطرة على السواحل الشامية الجنوبية تعاني من اضطرابات داخلية كان لها أثر بالغ في ضعف بحريتها و عجزها عن صد الصليبيين التي وجهت إلى مدنها الساحلية[1].

قد كان بلدوين يفتقد إلى القوة البحرية اللازمة للسيطرة على مدينة بيروت، خاصة وأنه كان يدرك أن الحصار البري لوحده غير قادر على إخضاعها و ذلك لمسارعة الأسطول الفاطمي بتقديم النجدات البحرية للمدينة، و لما تهيأت لبلدوين القوة البحرية اللازمة و المتمثلة في سفن البيازنة و الجنوية [2]، إضافة إلى مساعدة بيرتراند كونت طرابلس [3] في ضرب الحصار على المدينة و كان ذلك في شعبان 503 هـ/ فيفري 1110م، و قد نصب الصليبيين على سور المدينة برجين، كما لم تتمكن السفن الفاطمية القادمة من صور و صيدا من كسر الحصار البحري الذي استمر ما يقارب الثلاثة أشهر و هرب إلى قبرص حيث استسلم للحاكم البيزنطي أما المدينة التي تخلى عنها، فقد سقطت عنوة في 20 شوال 503هـ/ 13 ماي 1110م و أجرى الايطاليون مذبحة شاملة في السكان، قبل أن يعيد بلدوين الأمن إلى نصابه[4].

و بعد أن عبر الجيش الصليبي بيروت بدأ السهل الساحلي في الاتساع [5]، كما تراجعت المرتفعات عن البحر كلما اتجهنا جنوبا نحو صيدا التي يتسع السهل الساحلي عندها و يبلغ حدود العشرين كيلومترا (من 3- 20 كلم) ، حيث يكون على شكل سهول متعددة، و قد وصلت جيوش الفرنج مشارف مدينة صيدا 8 رجب 492هـ/ 20 ماي 1099م.

على أن رجال حاميتها قاموا بهجوم عنيف على الصليبيين بينما كانوا معسكرين على شاطئ نهر عوالي، غير أن الهجوم قد جرى رده، كما توالت عليهم هجمات الأهالي التي أنزلت بهم أشد الأضرار، فلجأ الفرنج إلى نهب الحدائق

---

(1) صابر محمد دياب، سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط، ص 259.

(2) يذكر ابن القلاسني أن الملك بلدوين قد أنفذ إلى السويدية يستنجد بمن فيها الجنوية في مراكبهم فوصل منها إلى بيروت أربعون مركبا، **أنظر**: تاريخ دمشق، ص 268.

(3) كانت مساعدة برتراند بن ريموند الصنجيلي لبلدوين في حصار بيروت لرد الجميل له لمساعدته في الاستيلاء على طرابلس السنة الماضية 503هـ/ 1109م. **أنظر**: عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 143- 244.

(4) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 268- 269، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 136، ابن العبري ،تاريخ مختصر الدول، ص 346، ابن أيبك الدواداري، كنز الدررو جامع الغرر، ج6، ص 474، النويري، نهاية الأدب في فنون الأدب، ج28، ص 170، الذهبي، العبر في خير من عبر، ج2، ص 385 ، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 220، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 45، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 168، فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 145-146، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 287- 288. رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 149، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 272.

(5) ناجي علوش، الوطن العربي، الجغرافيا البشرية و الجغرافية، ص 22.

المحيطة بالمدينة، كما بعثوا ببعض رجالهم من خفيفي التسليح للحصول على ما يلزمهم من الطعام في الضواحي المجاورة فأتلفوا المزارع، و اعتدوا على الضياع القريبة، ثم تحركوا بكل سرعة إلى الجنوب[1].

و لم تتح لبلدوين الفرصة لمهاجمة صيدا إلا في ربيع 499هـ/ 1106م مستعينا بمن كان في مملكته وقتذاك من الحجاج الانجليز و الفلمنكيين، و لما علم حاكم صيدا بذلك أرسل مبلغا كبيرا من المال و كف عن مهاجمة صيدا مدة عامين[2]، لكنه عاود مهاجمتها في صيف 501هـ/ 1108م مستعينا في ذلك بأساطيل المدن الايطالية، أمالفي و بيزا وجنوة و البندقية مجتمعة، و كان يرمي من خلال ذلك إلى تشديد الحصار على المدينة برا و بحرا لانتزاعها من قبضة الفاطميين، غير أن وصول العمارة البحرية التي وصلت صيدا وقتذاك من مصر أدت إلى فشل بلدوين في الظفر بالمدينة، بل و أنزلت بالسفن التي ساهمت في الحصار الهزيمة النكراء.[3]

و في نفس الوقت كان حاكم صيدا الفاطمي قد طلب برية من طغتكين صاحب دمشق لصد الصليبيين عن المدينة، مقابل مبلغ من المال يؤديه إليه، فقبل طغتكين، وأرسل قوة كبيرة من دمشق قيل أنها بلغت 15 ألف مقاتل، ما اضطر بلدوين إلى العودة بقواته إلى عكا[4].

على أن بلدوين ما لبث أن حاول للمرة الثالثة الاستيلاء على صيدا، فحاصرها برا في ربيع الثاني 504 هـ/ أكتوبر 1110م، و استعان في هجومه بأسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجور ملك النرويج وصل عكا، ثم انظم إليه أسطول بندقي [5]، و لم يتمكن الأسطول الفاطمي من إنجاد صيدا لأنه كان يدافع عن صور المحاصرة هي الأخرى، و لما اشتد الهجوم على أهل صيدا، طلب قاضيها و شيوخها الأمان من بلدوين، "فأجابهم إلى ذلك، و أمنهم

---

(1) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص 64، رسينمان، المرجع السابق، ج 1، ص 389. محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 32، عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 188، رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عاملة، ص 47.

(2) صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 267.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 193، هانس ماير، الحروب الصليبية، ص 143، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 243.

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 260، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 122- 123 رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 48، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 267.

(5) وليام الصوري، تاريخ الحرب الصليبية، ج 2، ص 290، فوتشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، 147، رسينمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2 ، ص150، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 244، هايد، المرجع السابق، ج1، ص 154، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 267.

على النفوس و الأموال، و إطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق." و كان ذلك في 20 جمادى الآخرة 504هـ/ 4 ديسمبر 1110م ،و حصل البنادقة من بلدوين على امتيازات في عكا.[1]

بعد المرور بصيدا اتجه الجيش الصليبي بسرعة إلى الجهات القريبة من صور، و التي تتميز بالخصوبة و جودة المحاصيل، خاصة و أن السهل الساحلي يبلغ أقصى اتساعه بين صيدا و صور، إضافة إلى توفر المياه اللازمة للزراعة بانتشار العيون بالمنطقة، و يمتد هذا السهل من ناحية الجنوب صوب عكا ما يقارب أربعة أو خمسة أميال من صور كما يمتد بنفس المسافة تقريبا ناحية الشمال صوب كل من صرفند [2] و صيدا، هذا ما جعل المنطقة مفتوحة و ذات أهمية اقتصادية و إستراتيجية كبيرة [3].

وصل الجيش الصليبي إلى صور يوم 25 جمادى الثانية 492 هـ/ 23 ماي 1099م، و انتظروا يومين ريثما يلحق بهم بلدوين دي بور و جماعة من فرسان أنطاكية و الرها، و في تلك الأثناء بقيت حامية صور خلف الأسوار و تجنبت أية اشتباكات مع الفرنج.[4].

و على الرغم من أن مدينة صور شبه جزيرة تقريبا حيث يذكر الرحالة ناصر خسرو [5] "أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد عن مئة ذراع و الباقي في ماء البحر" إلا أنه يمتد أمام أبوابها حقول فسيحة تصلح كلها للزراعة، كما ينبسط أمام المدينة ذاتها سهل خصب التربة غزير الإنتاج يوفر للأهالي في صور كميات هائلة من المواد الغذائية [6]، و قد وصفت صور على مر العصور بحصانتها،"فهي حصينة جدا ركينة لا يرام بحصارها من جهة البر" [7]، لأنها بنيت

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 273- 274، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 139، أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 224، ابن أيبك الداوداري، كنز الدرر، ج6، ص 474، النويري، نهاية الأدب، ج 28، ص 172، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 46، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 169، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 290- 293، Archer, op, cit, p 133

(2) **صرفند (صرفندة)**: و هي قرية محصنة من قرى صور، و هي على سواحل بحر الشام، واقعة بين صيدا و صور. **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص 402.

(3) وليام الصوري، الحرب الصليبية، ج3، ص 21، رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 389، عبد الرحمن حميدة، جغرافية الوطن العربي، ص 291، ناجي علوش، الجغرافيا الطبيعية و البشرية، ص 22.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 389.

(5) سفر نامة، ص 10.

(6) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج3، ص 21.

(7) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 10، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 268.

على صخرة امتدت في الماء و هي مرتفعة على ما حولها و تأتيها المياه من الجبل و لعل كل هذه الميزات جعلتها ممتنعة على الصليبيين فترة طويلة.[1]

لقد اتخذ الفاطميون من مدينة صور مركزا لأسطولهم البحري يغيرون به على المراكز الصليبية المختلفة، كما زودها بالمؤن و الذخيرة الحربية، لكن توالي غارات الصليبيين عليها[2] زاد من خرج أهلها خاصة و أن الدولة الفاطمية منذ أوائل القرن 6هـ/ 12م أصبحت عاجزة عن تقديم المساعدة الفعالة لصور، مما جعل حاكمها عز الملك على طلب النجدة من صاحب دمشق طغتكين مقابل الدخول في طاعته، خاصة و أن الصليبيين قد عمدوا إلى بناء قلعة تبنين TORRON سنة 499هـ/ 1105م على يد هيو حاكم الجليل لتشديد الحصار على المدينة[3]

لقد استمرت صور في الصمود أمام تضيقات الصليبيين إلى أن قدم أسطول البندقية سنة 517هـ/ 1123م[4]، و الذي تقرر تسخيره لحصارها لما تحتله هذه المدينة من أهمية حربية و تجارية كبيرة في الحوض الشرقي للمتوسط[5]، و قد شرع في الحصار شهر ربيع الأول 518هـ/ أفريل 1124م، و المعروف أن مدينة صور لم يربطها بالبر سوى برزخ ضيق شيده الاسكندر الكبير كما أن استحكاماتها قد جرى تشيدها على طراز سام و مع ذلك فإن بها نقطة ضعف، و هي أن مياه الشرب تأتي عن طريق سقاية ممتدة من البر، فلم يكن بشبه جزيرة صور بئر تستمد منها الماء، و في اليوم التالي لوصول فرنج سدوا هذه السقاية كما نزلوا في الحدائق و البساتين حيث يتصل البرزخ باليابسة وأرسى البنادقة سفنهم على الساحل إزائهم.[6]

استمر حصار المدينة طوال فصل الربيع و أوائل الصيف، و ظل الفرنج يقذفون أسوارها عبر البرزخ بالآلات التي استقدمها البنادقة معهم، و تجهز المدافعون من جهتهم بالآلات التي ترمي المهاجمين بالنيران، غير أنهم كانوا قلة في

(1) كان الفرنج يحاصرون صور ثم يعودون عنها و كان حصار 505هـ/ 1111م أشد ما عانت المدينة و قد ام أربعة أشهر و قد قاده الملك بلدوين الأول بنفسه بمساندة أسطول بيزنطي، غير أن صور نجت بفضل ثباتها و نجدة السلاجقة من دمشق. للمزيد أنظر بالتفصيل: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 144، 145، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 284، رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 50، 52. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 48- 49.

(2)رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 50. محمد كرد على، خطط الشام، ج1، ص 291، 297، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 268.

(3) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 50. محمد كرد على، خطط الشام، ج1، ص 291، 297، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 268.

(4) عقب هزيمة الصليبيين في معركة الدم 513هـ/ 1119م كتب الملك بلدوين الثاني إلى جمهورية البندقية يلتمس منها المساعدة مقابل امتيازات تجارية واسعة و أيد البابا طلب الملك، فقرر دوق البندقية الاستجابة له غير أن الحملة لم تكتمل أعدادها إلا بعد مضي ثلاث سنوات. **أنظر**: هايد، المرجع السابق، ج 1 ، ص 155.

(5) صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 270. Archer, op, cit, p 133

(6) رنسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 270.

العدد[1]، فخرج الأتابك طغتكين صاحب دمشق بجيوشه إلى بانياس للذب عنها، فتصدى له بونز Bonz أمير طرابلس، كما حاولت حامية عسقلان الفاطمية الدفاع عن صور بالزحف على بيت المقدس و مهاجمتها أكثر من مرة كنوع من الضغط على الصليبيين للتخلي عن حصار المدينة على أن كل ذلك لم ينفع و استمر الحصار و تحرج الموقف داخل الأسوار، "وضعفت النفوس، و وقع اليأس في المعونة، فراسل أتابك الإفرنج بالملاطفة و المهادنة والإرهاب و الإرغاب إلى أن تقررت الحال على تسليمها إليهم بالأمان" [2] و هكذا استسلمت مدينة صور للصليبيين في 23 جمادى الأولى 518هـ/ 23 جوان 1124م، واحترم الصليبيون شروط الأمان الذي منحوه لأهل هذه المدينة.[3]

غادر الصليبيون المدينة يوم 25 جمادى الآخرة 492هـ/ 23 ماي 1099م، فتغلبوا على ما صادفوه من صعاب الممر الضيق المعروف بمرتقى صور و الواقع بين الجبال الشاهقة الارتفاع و البحر، ثم عبروا مرتفعات الناعورة أين نصبوا معسكرهم في السهل القريب من مدينة عكا على طول شاطئ نهر مجاور للمدينة، فسارع حاكمها بتقديم الهدايا و المؤن الوفيرة و طلب الأمان للضياع الخصبة الواقعة حول المدينة[4]. كما تعهد بالدخول في طاعة الفرنج إن هم استولوا استولوا على بيت المقدس[5].

شيدت بيت عكا على مرتفع بعضه من أرض وعرة و بعضه سهل [6]، و هي تبعد عن صور باثني عشر ميلا[7]، و لها قلعة حصينة يطل جانبها الغربي و الجنوبي على البحر [8]، و بها أهم خليج في سواحل الجبهة الجنوبية لذلك أعتبر ميناء عكا من أشهر و أكبر الموانئ الحربية و التجارية في العصور الوسطى.[9]

وجهت مملكة بيت المقدس اهتمامها إلى الاستيلاء على موانئ فلسطين التي كانت لا تزال في حوزة الفاطميين، ذلك أنها ظلت تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالحر لتتزود عن طريقه إلى ما تحتاج إليه من إمدادات بشرية و مادية،

(1) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 206- 207، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 3، ص 27-28-29، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 271.

(2) ابن القلاسنة، تاريخ دمشق، ص 337.

(3) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 337، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 229، أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 237، ابن أيبك، كنز الدرر، ج 6، ص 494، النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص 173، الذهبي العبر في خير من عبر، ج 2، ص 410، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص169، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ص، ص 107، ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص 93.

(4) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 65، رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 389، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 23.

(5) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، 188.

(6) ناصر خسروا، سفر نامة، ص 11.

(7) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 243.

(8) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 11.

(9) ناجي علوش، المرجع السابق، ص 21.

كما شجعها على ذلك أن سيطرة الفاطميين على هذه المدن صارت شكلية، و بقاء المدن الساحلية في يدهم قد يتيح لهم الفرصة – إذا ما استعادوا قوتهم – أن يتخذوها مراكز لمهاجمة الصليبيين [1]، غير انه لم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عكا و عسقلان و قيسارية تبعيتهم لدولة الفرنج، ودفعوا جزية مشتركة تعبيرا عن ذلك.[2]

على أن الأمر لم يستمر على هذا الحال فقد حاصر أسطول بندقي مدينة عكا من ناحية البحر سنة 494هـ/ 1100م، غير أن وفاة جودفري المفاجئة [3] جعلت القادة الصليبيين يتجهوا لحصار حيفا القريبة من بيت المقدس، خاصة و أن الظروف العامة كانت غير مستقرة و لا تسمح بحصار مدينة كبيرة و حصينة مثل عكا.[4]

شرع بلدوين الأول ملك بيت المقدس في حصار عكا في ربيع 496هـ/ 1103م، لكنها صمدت لوصول النجدات الفاطمية إليها من صور و صيدا، مما اضطر بلدوين إلى رفع الحصار عنها بسبب حاجته إلى قوة تؤازره من ناحية البحر و تقف ضد احتمال هجوم الفاطميين بحرا لكنه ما لبث أن استعان بأسطول جنوي وصل اللاذقية في شعبان 497هـ/ ماي 1104م لمهاجمة عكا برا و بحرا، فدافع عنها حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي، غير أنه سرعان ما اضطر إلى التسليم بعد أن اشتد حصار الصليبيين لعكا دون أية مساعدات من مصر.[5]

و بتملك بلدوين لعكا، كفل لمملكته ما كانت في أمس الحاجة إليه، و هو ميناء صالح لرسو السفن في كل الفصول، فعلى الرغم من أن عكا تبعد عن العاصمة ما يزيد عن مئة ميل غير أنها أضحت الميناء الرئيسي للمملكة، فحلت بذلك مكان يافا بمرفئها المكشوف،[6] و يذكر الرحالة ابن جبير[7] الذي زار عكا بعد استيلاء الفرنج عليها "أنها

(1) عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 237، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 263-264.

(2) قدرت الجزية المشتركة بخمسة آلاف بيزنتا (دينار) شهريا، هذا فضلا عما تعهدت هذه المدن بتقديمه م غلال و مواشي و زيوت. **أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 436، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 261، إبراهيم سعيد فهم محمود، و يافا و دورها في الصراع، ص 72.

(3) يذكر كل من ابن القلاسني و ابن الأثير أن جودفري قتل بسهم أصابه أثناء حصاره لعكا، أما وليام الصوري و سينمان فذكرا أنه أصيب بمرض خبيث قضى عليه، **أنظر** : تاريخ دمشق، ص 224، الكامل ج9، 43، الحروب الصليبية، ج2، ص 186، رنسيمان ، المرجع السابق، ج1، ص 440.

(4) صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 261، هايد، المرجع السابق، ص 150.

(5) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 232، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 72، أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص ، 217 ابن كثير، البداية و النهاية، ج7،ص125، ابن أيبك، كنز الدرر، ج 6، ص 463، ابن خلدون، العبر،ج5، ص 215، المقريزي، اتعاظ الحنفا ج 3، ص 34، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 168، ابن العماد، شذرات الذهب، ج 5، 414، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 264.

(6) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 144.

(7) الرحلة، ص 211.

"أنها قاعدة مدن الإفرنج بالشام مجمع السفن و لتقي تجار المسلمين و النصارى من جميع الآفاق" و يذكر ابن سعيد [1] "أن مدينة عكا ركاب الفرنج و مجمع تجارتهم".

بعد أن غادر الجيش الصليبي عكا اتجه قاصدا حيفا، و التزم الساحل من سفح جبل الكرمل حتى قيسارية، فسار بين الجبل و البحر قرابة الأربعة أيام من 2-6 رجب 493هـ/ 26- 30 ماي 1099م[2]، و الطريق بين عكا و حيفا يكثر بها الرمل الناعم الذي يسمى الرمل المكي و حيفا مشيدة على البحر [3] عند رأس الكرمل الذي يعتبر من بين أهم الرؤوس على الساحل الشامي، و عنده ينقطع امتداد السهل الساحلي فيحول الرأس الجبلي دون وجود أي سهل و يترك ممرا يكاد لا يبلغ 200 متر على الساحل هكذا يتحول إلى الداخل ذلك الطريق الدولي العظيم الذي كان في العصور القديمة يبدأ بمصر ويتابع الساحل نحو الشمال.[4]

اتجه الصليبيون لحصار حيفا بمساعدة الأسطول البندقي عام 493 هـ/ 1100م بعد أن تخلوا عن حصار مدينة عكا الحصينة[5] -كما ذكرنا سابقا- فبعد وفاة جودفري اقترح تنكرد أمير الجليل أن لا تضيع فرصة مساعدة البنادقة و أن يؤجلوا مهاجمة عكا و يتجهوا نحو حيفا، فأقره البطريرك على ذلك، و لم يلبث الجيش أن تحرك إليها و عسكر على منحدرات جبل الكرمل و تبعه الأسطول البندقي الذي أبحر إلى الخليج [6]، و قد استمر حصار الصليبيين بها حتى علم تنكرد أن جودفري قد أوصى لأمير اسمه جالدمار بأن تكون له المدينة، لذا هدد بأن ينسحب من الحصار، لكن البطريك دايمبرت وعده بها خاصة و أنها تعتبر الثغر البحري الطبيعي لإمارة الجليل.

كانت بحيفا حامية فاطمية صغيرة، و كان معظم سكانها من اليهود الذين يبذلوا كل جهودهم للدفاع عن مدينتهم[7] و قد أمرهم المسلمون بالأسلحة، غير أن عودة تنكرد حسمت الأمر و سقطت المدينة في أيدي الصليبيين في في شوال 493/ أوت 1100م، و قد هرب إلى عكا [8] و قيسارية كل من استطاع أن يفر من المدينة غير أن الغالبية لقيت مصرعها.

---

(1) الجغرافيا، ص 48.

(2) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 65، رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 389.

(3) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 13.

(4) فيليب حتى، تاريخ سورية و لبنان و فلسطين، ج1، ص 31، أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص 15، ناجي علوش، المرجع السابق، ص 22.

(5) هايد، المرجع السابق، ص

(6) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 446.

(7) عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 217- 218.

(8) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 225، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 43، رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 446.

اتجهت الحملة الصليبية الأولى بعد حيفا نحو قيسارية حيث ينحرف الطريق عن البحر و يدخل الجبل ناحية المشرق أين الرمال و المحاجر، و يعود الطريق إلى محاذاة الشاطئ بعد مسيرة 11 كم(1)، و تمتاز قيسارية بكثرة القنوات التي تشقها و بساتينها المروية، كما أن لها ميناء متواضع.

كانت قيسارية تابعة اسميا للدولة الفاطمية فزحف الملك بلدوين بمساعدة الجنوبيين على المدينة في رجب 494هـ/ ماي 1101م(2). و طوقها بالحصار و لكنه لم يستطع أخذها بسرعة بسبب مناعة أسوارها (3) غير أنها لم تستطع المقاومة طويلا(4) "و أخذ الفرنج قيسارية بالسيف" بعد خمسة عشرة يوما من الحصار و أحثوا فيها مذبحة مروعة(5).

استأنف الجيش الصليبي السير إزاء الساحل حتى وصلوا مدينة أرسوف الساحلية، وقد كانت أول ميناء بحري فاطمي في الشام يتعرض لهجوم بلدوين الأول ملك القدس، و لكن لم يسيطر عليه الصليبيون إلا في أوائل عام 494هـ/ 1101م بسبب حاجتهم إلى قوة بحرية تساندهم بدليل أنه لما توفرت لديهم القوة متمثلة في مساعدة أساطيل جنوة و بيزا لم تستطيع أرسوف الصمود أمام زحف الصليبيين عليها برا و بحرا، فسلمت لهم أواخر جمادى الآخرة 494هـ/ أفريل 1101م(6).

و لم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه نحو يافا و إنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي و يشقوا سبيلهم داخل الجبهة الجنوبية إلى بيت المقدس مباشرة، و مع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائما على أن لا ينقطع الطريق بينهم و بين البحر، فوصلوا الرملة في 10 رجب 494هـ/ 3 جوان 1099 و ما إن سمح أهلها بقرب الجيش الصليبي حتى فروا من مدينتهم، و في يوم 14 رجب 494هـ/ 7 جوان 1099م كان الجيش الصليبي معسكرا أمام المدينة المقدسة.(7)

(1) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 13.

(2) وليام الصوري، الحرب الصليبية، ج2، ص 219، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 262.

(3) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 114. و يذكر ناصر خسرو أن لقيسارية سور حصين له باب حديدي، **أنظر**: سفر نامة، ص13.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 165. أنظر: ابن خلدون، العبر، ج5، ص 213، ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 122.

(5) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 114.

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص، ابن خلدون، العبر، ج 5، ص 213، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 165، فوشيه الشارنري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 113-114، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 1، ص 218- 219، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 121، عاشور الحركة الصليبية، ،ج1، ص 232، صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص 261- 262.

(7) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج 3، ص 23، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص 65- 66، ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 120، رسينمان، المرجع السابق، ص 390، عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 188، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 32.

و مدينة يافا من الحصون الشهيرة فيها أسواق عامرة و وكلاء التجار و ميناء كبير فيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين و المقلعة منها إلى كل بلد و بينها و بين الرملة حوالي 10 كلم.[1] و هي ميناء القدس على ساحل البحر[2]، و لما كان الصليبيون عند أرسوف خاف أهل يافا على أنفسهم و تضاءلت ثقتهم في قدرة تحصينات المدينة فهجروها[3]، و في 24 رجب 494هـ/ 17 جوان 1099 رسا بمرفأ يافا بعض السفن الجنوية، فاستولت على المدينة بسهولة، و قد نجم عن ذلك ربط الصليبيين بالساحل، كما أحضرت هذه السفن بعض آلات الحصار و المؤن الأمر الذي كان له بالغ الأثر في تدعيم مركز الصليبيين أثناء حصار بيت المقدس[4].

استغل الصليبيون في بيت المقدس ضعف الدولة الفاطمية و انهار سلطانها في بلاد الشام منذ أوائل سنة 494هـ/ 1100م، فعملوا على تحصين يافا و تقوية استحكاماتها، و ساعد جودفري في هذه المهمة الأسطول البيزي، فلم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطئ فلسطين بأكمله، كما فاقت قوتها منائي عسقلان و عكا التابعين للدولة الفاطمية، و غدت بذلك مركزا لنشاط تجاري و حربي كبيرين، بعد أن صارت الميناء الرئيسي لمملكة بيت المقدس الصليبية فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحي، و بخاصة من جنوة و البندقية و بيزة لإحضار الحجاج من ناحية و إمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من ناحية أخرى.[5]

من هنا يمكن القول أن سيطرة الصليبيين على الساحل لا يرجع الفضل فيها فقط للقادة و الجيوش الصليبية ، بل إن المساعدة الدائمة من جانب الأساطيل الايطالية كان لها الدور الكبير في الحصار البحري لهذه المدن و كذا تثبيت سلطة الفرنج عليها، و عند حصول المدن الايطالية على الامتيازات التجارية كفوا أيديهم عن مساعدة إخوانهم و هكذا عجز الصليبيون بجيوشهم الإقطاعية عن الاستيلاء على عسقلان مفتاح الشام و الطريق الدولي مصر بلاد الشام عبر الساحل.[6]

(1) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 239.

(2) أمين واصف بك، معجم الخريطة، ص 123.

(3) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 107، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 32.

(4) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 397، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 32.

(5) هايد، المرجع السابق، ج1، ص 149.
عاشور، الحركة الصليبية، ج1، 207- 208

(6) كمال بن مارس، الظهير الشامي، ص 93، هايد، المرجع السابق، ج1، ص149.

و إلى جنوب يافا تقع مدينة عسقلان الساحلية، و عندها يبلغ السهل الساحلي أقصى اتساعه في الجنوب حيث يصل إلى 32 كم [(1)]، و السهل كله رمال ناعمة تصعب فيها الحركة [(2)]، و بين عسقلان و غزة حوالي 20 كم و بينها و بين الرملة 29 كم، أما ميناؤها فرديء و لم يذكر أنه كان لها ميناء زمن الحروب الصليبية. [(3)]

كانت أول محاولة للصليبيين للاستيلاء على عسقلان سنة 493هـ/ 1099م، عندما جاءت الأخبار إلى جودفري بقدوم حملة فاطمية من مصر إليهم كرد فعل على ما قاموا به من مجازر في حق سكان بيت المقدس، و كان على رأس الحملة الوزير الأفضل[(4)] الذي اتجه جنوب عسقلان لانتظار الأسطول، في حين كان الصليبيون قد اتجهوا نحوه و فاجئوه في غير استعداد منه و كان عددهم كبيرا، فانهزم الفاطميون شر هزيمة و هرب الأفضل و بعض جنده إلى داخل المدينة (عسقلان). [(5)]

و كان ذلك في 21 رمضان 492 هـ/ 12 أوت 1099م، و كان جودفري يأمل في الاستيلاء على عسقلان بعد المعركة فبدأ بحصارها، غير أن رغبة الأهالي في تسليم المدينة لريموند [(6)] جعلت جودفري يحول دون أخذ الصليبيين للمدينة التي قد ضاعت من أيديهم لفترة تزيد عن نصف قرن. [(7)]

حول الفاطميون عسقلان إلى حصن منيع يهدد الصليبيين في قواعدهم الأمامية و قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة من جنوب فلسطين[(8)]، و عسقلان إذ ذاك هي حصن شامخ يدور حول سور يمتد يمتد داخل البحر في نصف دائرة كأنه درع يقيها هجمات البحر و كان فيها من الأقوات و الذخائر ما لا يحصر فيذكر،

---

(1) ابن سعيد، الجغرافيا، ص 48، القزويني، آثار البلاد و أخبار العباد، ص 222، أمين واصف بك، معجم الخريطة، ص 80، فيليب حتى، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 31.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 186.

(3) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 239، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 186.

و يذكر وليام الصوري أن موقع عسقلان لا يتيح لها أن تكون ميناء أو مرفأ يصلح لرسو السفن فشاطئها رملي جدا، كما أن الرياح القوية تجعل البحر المحيط بها عاصفا جدا، **أنظر**: الحروب الصليبية، ج3، ص 352.

(4) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 77- 78، زابوروف، المرجع السابق، ص 125.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 222- 223.

(6) أراد أهالي عسقلان تسليم المدينة إلى ريموند لأنهم علموا أنه يبق في بيت المقدس من المسلمين إلا الذين استسلموا لريموند فذاعت شهرته، فأرسلوا إلى المعسكر أنهم لن يستسلموا إلا إليه، إلا أن جودفري رفض الاعتراف بأي شرط تسليم إلا أن يظفر لنفسه بالمدينة، **أنظر**: رسينمان: المرجع السابق ص 419 - 420.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 21، الأزدي، أخبار الدولة المنقطعة، تحقيق: عصام مصطفى هزايمة و محمد عبد الكريم محافظة و آخرون، دار الكندي للنشر و التوزيع، ط1، الأردن، 1999، ص 438، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج3، ص 24، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 148، عزيز سوريال عطية، المرجع السابق، ص 50، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 56. Archer, op, cit p 96.

(8) يوشع براو، الاستيطان الصليبي، ص 35، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 510.

وهي بحكم موقعها هذا كانت نقطة عسكرية أمامية للقيادة المصرية الفاطمية تسمح بتركيز الإمدادات و القوات في قاعدة ممتازة عبر الصحراء و من هناك يسهل الهجوم على منطقة حبرون (الخليل) و بيت لحم و الرملة و يافا، كما يسهل فصل القدس عن البحر [1]، و هذا ما دفع ملوك بيت المقدس إلى ضرورة السيطرة على عسقلان حتى يضمنوا تأمين حدود المملكة من ناحية الجنوب.[2]

شرع الملك بلدوين الثالث (539- 557هـ/ 1143- 1163م) في حصار عسقلان أواخر شهر صفر 548هـ/ جانفي 1153م، منتهزا فرصة الاضطرابات الداخلية[3] في مصر و انشغالهم (الفاطميون) عن عسقلان، و في في يوم 25 شوال/ 25 جانفي ظهر أمام أسوار عسقلان جميع جيش مملكة بيت المقدس، بكل ما أستطاع الملك أن يجمعه من أدوات الحصار، و صحب الملك في الحملة، مقدما الاسبتارية و الداوية، و كبار السادة الإقطاعيين العلمانيين و رجال الدين في المملكة، و قد استمر الحصار بضعة أشهر حاول الفاطميون خلالها أن يمدوا أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر، فأرسلوا أسطولا كبيرا من سبعين سفينة محملة بالسلاح و المؤن، و نجح ذلك الأسطول في اختراق الحصار الذي فرضته الأساطيل الصليبية بقيادة جيرارد سيد صيدا على عسقلان و كان حافزا على مواصلة المقاومة، لكن الحصار طال و ازداد هجوم الصليبيين عنفا فلم تجد حامية عسقلان بدا من طلب الأمان و دخل بلدوين الثالث المدينة في 26 جمادى الأولى 548هـ/ 19 أوت 1153م[4].

باستيلاء الملك بلدوين الثالث على عسقلان يكون نفوذ المملكة اللاتينية على الساحل قد امتد من بيروت شمالا إلى غزة جنوبا، الأمر الذي حرم الفاطميين من قادة بحرية طالما استخدموها في مهاجمة الممتلكات الصليبية في فلسطين، ورغم أن الاستيلاء على عسقلان آخر ما أحرزه ملوك بيت المقدس من انتصارات إلا أنه لا يعتبر كسبا ماديا

---

(1) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج3، ص 351، رسينمان، المرجع السابق، ج3، ص 546، Grosset, L'épope Des Croisades, P 40- 41.

(2) عبد اللطيف عبد الهادي عبد السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث (1143- 1163م)، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2006، ص 199.

(3) كانت الدولة الفاطمية في هذه الفترة على وشك الانهيار ، فلم ينل الوزارة رجل كفء منذ مصرع الأفضل، فقد سير الوزارة طائفة من الوزراء الضعاف منهم رضوان بن ولخشي و العادل بن السلار، و طلائع بن رزيق و شاور و ضرغام، و الواقع أن سلسلة التآمر التي سادت الدولة الفاطمية شجعت آمال أعداءها، ففي سنة 545هـ/ 1150م شرع الملك بلدوين الثالث في عمارة استحكامات غزة لاتخاذها قاعدة لتوجيه الأعمال الحربية الى عسقلان، **أنظر**، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 204. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، ج3، 544، العبادي في التاريخ العباسي و الفاطمي، ص 311- 312.

(4) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 496- 497، ابن الأثير الكامل، ص 392-393، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 3، ص 353- 357، أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص 78، رسينمان، المرجع السابق، ج 3، ص 545- 546، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 510، عبد اللطيف عبد الهادي، المرجع السابق، ص 204- 205.

Grosset ; l'épopée des croisades, p 139.

كبيرا، خاصة و أن مصر لم تعد مصدر تهديد على الصليبيين، كما أن النصر الذي حققه نور الدين محمود ضمه دمشق إلى باقي أملاكه في شمال الشام عام 548هـ/ 1153م أنقص كثيرا من قيمة النصر الصليبي في عسقلان[1].

3/ التوسع الصليبي على منطقة بيت المقدس:

تعتبر منطقة فلسطين عامة و بيت المقدس خاصة من الأراضي الشبه صحراوية، فتربتها خفيفة و فقيرة و لاسيما حول بيت المقدس باستثناء الغابات التي على حافة جبل الكرمل، و حول السامرة و أشجار الصنوبر المنتشرة جنوب قيسارية، كما جاءت الحقول في مرج بني عامر بمحصولات وافرة من القمح، غير أن منطقة فلسطين لم تقم بها صناعة كبيرة بمدينة من مدنها، بل أن ملوك بيت المقدس في ذروة قوتهم لم يبلغوا من الثروة ما حازه كونت طرابلس أو أمير أنطاكية، فقد كان أغلب دخلهم من الرسوم والضرائب.[2]

و يشق سهل مرج ابن عامر جبال فلسطين الغربية، فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة و يهوذا في الجنوب، و يعد جبل الكرمل عند حيفا مانعا طبيعيا للتحرك فعرضه 11.2 كم و يخترقه ممران فقط يدخل غربيهما قبالة الناصرة عبر سهل ابن عامرة، أما شرقيهما قبالة الفولة [3]، و يعتبر هذان الطريقان نقطة عبور إجبارية للقوافل التجارية و القوات العسكرية و الأفراد، لأن اتساع الساحل في هذه المنطقة يقل عن مائتي متر، كما أنه ليس بالطريقين صعوبات طبيعية تعترض القوات المتقدمة، و مع ذلك فكلاهما يسهل الدفاع عنه و يصعب جدا عبورها عنوة أمام أية مقاومة.[4]

سلكت الحملة الصليبية طريقها عبر هذين الممرين مرورا بحيفا ثم قيسارية وأرسوف و منها توجه الجيش إلى الداخل، فوصل الرملة في 10 رجب 492هـ/ 3 جوان 1099م فوجدوا أهلها قد هجروها خوفا من الجيوش الصليبية[5]، خاصة و أن حاميتها الفاطمية كانت قليلة العدد، و كانت من البعد عن البحر ما يجعل مساعدة الأسطول

---

(1) عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المرجع السابق، ص 205- 209.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 165، رسينمان، المرجع السابق، ج2، ص 18- 19.

(3) **الفـولة**: بلدة بفلسطين، شرقي الناصرة، و هي شمالي القدس، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 280.

(4) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص 65، كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 162، عبد الرحيم حسين سعد الدين أبو عون، إقطاعية حيفا و دورها في الصراع الإسلامي الافرنجي (493- 690هـ/ 1100- 1291م)، جامعة النجاح الوطنية رسالة ماجستير غير منشورة، نابلس، 2004، ص 14.

(5) ذكر وليام الصوري أن القادة الصليبيين بعثوا بكونت فلاندرز مع 500 فارس ليعرفوا موقف أهل الرملة و ما هي شروطهم للتسليم، فلما اقترب هؤلاء الكشافة وجدوا أبواب المدينة مفتوحة و هي خاوية مهجورة من سكانها الذين فروا منها الليلة الماضية و حملوا معهم كل أمتعتهم، فأرسل كونت فلاندرز يستعجل قدوم الجيش، **أنظر**: الحروب الصليبية، ج2، ص 66.

المصري متعذرة، فهرب سكان الرملة من دورهم و يمموا نحو الجنوب الغربي (مصر)، و قبل أن يغادروا دمروا كنيسة القديس جورج التي تبعد عن الرملة بأقل من كيلومترين، لكن الصليبيين رمموها و أقاموا عليها أسقفا كاثوليكيا على إقليم اللُّد(1) و الرملة، و في تلك الأثناء عقد الصليبيون مجلسا للحرب ناقشوا فيه عدة مسائل أهمها ضرورة التوجه لمصر و مهاجمتها لأنها تعتبر بحق العدو الحقيقي غير أنه تقرر في الأخير الزحف على بيت المقدس مباشرة.(2)

خُطت الرملة في السهل بينها و بين القدس مسيرة يوم (3)، و منها إلى قيسارية 44 كم، و هي مدينة كبيرة بها صور عظيم حصين مرتفع و متين عليه أبواب من حديد، ومن المدينة إلى شاطئ البحر 16 كم، والماء فيها من المطر لذا فقد بني في كل منزل حوض تجمع مياه الأمطار فيه، بناها سليمان بن عبد الملك في خلافة أبيه عبد الملك بن مروان و سميت بالرملة لغلبة الرمل عليها، و يصنع من هذا الرمل المسمى المكي الرخام الذي تشتهر المدينة بصنعه.(4)

و الرملة مفتاح بيت المقدس من الساحل، و مفتاح المدن الساحلية المحيطة بها بشكل دائري، فقد شكلت الرملة و ربطاتها بالسهل وحدة متكاملة من وحدات الدفاع في منطقة السهل الساحلي، فكانت بذلك قاعدة خلفية مركزية للمدن الساحلية السبع الواقعة أمامها، وكان سليمان بن عبد الملك قد أنشأها لتقوم بحماية الثغور و الدفاع عن البلاد الساحلية، و تعميق خطوط الدفاع عن الساحل مع تركيز هذه الخطوط عند نقطة مركزية خلفية أكفأ من بيت المقدس على الدفاع و الهجوم(5)، و للرملة عدة دروب أهمها، درب بيت المقدس و درب لُّد و درب يافا و درب مصر، كما تميزت بباءاتها الحسنة و ماءها الطيب و ثمارها المتنوعة كما ازدهرت بها التجارة لوقوعها على طريق دمشق مصر وباعتبارها بوابة لبيت المقدس، و قد زرع بها التين و النخل و حوت الخيرات(6).

ثم تلت الفترة التي استولى فيها الصليبيون على بيت المقدس معارك طاحنة على أرض الرملة بين الفاطميين و الفرنج أراد فيها الوزير الأفضل استيراد ما يمكن استيراده من ممتلكاتهم في الشام، و قد تتالت المحاولات زمن الملك

---

(1) **لد**: قرية قرب بيت المقدس و هي شمالي الرملة. **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 15.

(2) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 69- 70، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص 65- 66، رسينمان، المرجع السابق، ج 1، ص 390- 391، عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 188، زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص 120،

Archer, op, cit, p 84.

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 164، القلقشدي، صبح الأعشى، ج4، ص 99.

(4) ناصر خسرو، سفر نامة، ص 13، اليعقوبي، البلدان، ص 56، القلقشذي، صبح الأعشى، ج4، ص 99، أمين واصف بك، المرجع السابق، ص 57.

(5) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 162- 163.

(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 164.

بلدوين الأول عام 494هـ/ 1101م و 495هـ/ 1102م و كذلك عام 499هـ/ 1106م، غير أن الفاطميين قد هزموا في كل مرة هزيمة نكراء جعلتهم يدركون أنه لا سبيل لاسترجاع لا الرملة و لا المدن الأخرى.[1]

من الرملة اتخذ الجيش الطريق القديم الذي يدور حول تلال يهوذا حتى شمال الدرب الحالي، و عند اجتيازه قرية عمواس[2] قدم إلى الأمراء الرسل من مدينة بيت لحم يلتمسون من الصليبيين أن يخلصوهم من المسلمين، فقد كان أغلب سكان المدينة من المسيحيين الشرقيين فأسرع بلدوين دي بور و تنكرد مجتازين التلال إلى بيت لحم، فوضع تنكرد رايته على المدينة ثم لحق بالجيش الصليبي الرئيسي الذي كان يشتق طريقه إلى بيت المقدس.[3]

تعتبر الطريق من الرملة إلى بيت المقدس وعرة حيث يذكر الرحالة ناصر خسرو [4] الذي سلك هذه الطريق أنه "بعد الرملة صعدنا في الجبل و وجدنا أمامنا بعد صعودنا سهلا واسعا بعضه صخري و بعضه كثير التراب و على رأس جبل فيه تقع مدينة بيت المقدس"، و قد مر الجيش الصليبي على هذا الطريق و استغرق يوما كاملا و في الضحى بلغ الصليبيون قمة الطريق بأعلى التل المسمى (المنتج)، و تراءت لهم على مسافة المدينة المقدسة بأسوارها و أبراجها العالية و كان ذلك في مساء يوم الثلاثاء 15 رجب 492هـ/ 7 جوان 1099م[5]، فعسكرة كتائب الجيش الصليبي أمام المدينة.[6]

و مدينة بيت المقدس من أضخم المعاقل و الحصون [7]، و هي مشيدة على قمة جبل مستديرة، وعرة المسالك و بناءها بالحجر و الكلس [8]، تقع في منطقة جبلية خالية من الأشجار و الينابيع [9]، و تبعد عن بحر الروم بحوالي 40كم، و بيت المقدس أصغر من المدن الكبرى، و إن كانت أكبر من أي مدينة عادية، و هي ذات شكل رباعي

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 65، رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 122- 124، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، 232- 235.

(2) **عمواس**: مدينة من فلسطين، واقعة على الحد الغربي لجبال بيت المقدس، ة تبعد بعشرة كيلومترات عن الرملة و هي على طريق القدس، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 157.

(3) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 70، رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 391، الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص 44، زابوروف، المرجع السابق، ص 120، مصطفى الحياري، القدس زمن الفاطميين و الفرنجة، ص 40.

(4) سفر نامة، ص 14.

(5) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 94.

(6) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 94.

(7) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 393،أنظر الخريطة رقم (10).

(8) القلقشذي، صبح الأعشى، ج4، ص 101.

(9) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 71.

بعض الشيء و إن كان أميل إلى الاستطالة [1]، و تحدها من جوانبها الثلاثة وديان عميقة [2]، وليس بيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزرع و شرب أهلها من ماء المطر المجتمع بالصهاريج، باستثناء عين سلوان الغير بعيدة عن المدينة التي قد يتوفر فيها الماء في بعض الأحيان أو يشح، فليس ماؤها بالكثير [3].

على القدس حصن بعضه على جبل و على بقية خندق، و بها ثمانية أبواب من الحديد، باب صهيون و باب التيه و باب البلاط، باب جب أرميا، باب سلوان، باب أريحا، باب العمود، باب محراب داوود [4] و في شرقي السور توجد منحدرات وادي كيدرون شديد الهبوط و التي حمت هذه الجهة من السور، و في الجنوب الشرقي هبطت الأرض إلى وادي جهنم، و يحاذي السور الغربي واد آخر يقل عمقا عن الواديين الآخرين، على أن الأرض لا تلاءم الهجوم على الاستحكامات، إلا من الجهة الجنوبية الغربية حيث اجتاز السور جبل صهيون، و على امتداد السور الشمالي، أما القلعة و هي برج داود، فتقع في منتصف السور الغربي، و تسيطر على الطريق الذي يسير إزاء جانب التل حتى باب يافا، و على الرغم من أنه ليس بالمدينة آبار، فإن ما توافر بها من الصهاريج كفل بها الماء الغزير. [5]

شرع الجيش الصليبي في حصار مدينة القدس، وباعتبار عدد الصليبيين كان دون الحد الكافي للتطويق تماما بالمدينة، فقد اجتمع قادتهم و قرروا التركيز على النقاط الضعيفة من السور والواقعة شمال المدينة و في جنوبها الغربي ، و كان الحاكم الفاطمي [6] افتخار الدولة قد اتخذ إجراءات تموينية و دفاعية كافية [7]، كما طرد سكان المدينة النصارى النصارى لخوفه من خيانتهم، خاصة و أن نصارى بيت لحم —كما ذكرنا سابقا– كانوا قد أرسلوا وفدا منهم إلى الرملة

---

(1) أنظر الخريطة رقم (11)

(2) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 79، 84.

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 227، القلقشدي، صبح الأعشى، ج4، ص 101، أحمد رمضان أحمد، الرحلة و الرحالة المسلمون، ص175.

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 165.

(5) رنسيمان المرجع السابق، ص 393– 394.

(6) كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش، ثم أقطعه لسكمان بن أرتق من التركمان، و لما استولى الصليبيون على أنطاكية طمع أهل مصر فيها (بيت المقدس)، و ستر الأفضل إليها و حاصرها نيفا و أربيعين يوما و كان بها سكمان و أخوه إبلغازي، و ملكها الفاطميون بالأمان في رمضان 492هـ/ أوت 1098م و أحسن الأفضل إلى ابنا أرتق و سرحهما إلى دمشق، و استناب على المدينة افتخار الدولة و وضع حامية كافية للدفاع عنها . **أنظر**: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 19، ابن العبري، تاريخ مختصر الدولة، 149، 342، ابن خلدون، العبر، ج5، ص 210، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 22، محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 82، مصطفى الحياري، المرجع السابق، ص 39، كلود كاهن، المرجع السابق، ص 101، عريز سوريال عطية، العلاقات، ص 49، زابوروف، المرجع السابق، ص 119.

(7) أمر افتخار الدولة بترميم ما تهدم من أسوار المدينة أثناء حصاره لها، و وفر المياه و المواد الغذائية بما فيه الكفاية، و أفسد الآبار خارج المدينة، و سبقت قطعان المواشي بعيدا عن أيدي الفرنج، **أنظر**: رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 394، هانس ماير، المرجع السابق، ص ، الحريري، الأخبار السنية، ص 45، زابوروف، المرجع السابق، ص 121.

لإعلان ولائهم للفرنجة، و قد كانت القدس عند وصول الحملة الصليبية إليها تعج بالناس الذين إلتجأوا إليها من فلسطين و المناطق المجاورة طلبا لحماية أسوارها[1].

لقد كان حصار المدينة محكما على الجهات الثلاثة لها باستثناء الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية فقد كانتا مكشوفتين لتمركز الجبال بهما، كما تتواجد بالمناطق الشرقية الدروب العميقة التي تمنع تجمع المحاصرين أو استعمال أدوات الحصار الضخمة[2]، لذا فقد اجتنب الصليبيون هذه الأماكن فاتخذ روبرت موضعه على امتداد السور الشمالي، تجاه باب الزهور (باب هيرود، باب الساهرة) و إلى يمينه كان روبرت فلاندرز تجاه باب الأعمدة (باب القديس ستيفان أو باب دمشق)، أما جودفري فقد تمركز في الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا و لحق تنكرد الذي قدم من بيت لحم إلى الجنوب استقر ريموند كونت تولوز الذي تحرك بعد يومين أو ثلاثة إلى الجنوب الغربي بمحاذاة جبل صهيون [3] بعد بعد أن اكتشف أن الوادي يجعله بعيدا عن الأسوار.[4]

بعد أن طوق الصليبيون المدينة أدركوا صعوبة اجتيازها لذلك شرعوا في صناعة سلالم خشبية و آلات للحصار ، خاصة بعد أن أحبطت محاولاتهم الأولى لاقتحام الأسوار نتيجة قلتها، و قد كانت أكبر مشكلة واجهت الصليبيين أثناء الحصار هي قلة المياه، خاصة بعد ما قام به افتخار الدولة من تدابير كانت لها بالغ الأثر في شح الماء عند معسكر الفرنج و كان المورد الوحيد للمياه العذبة عند بركة سلوان بأسفل الأسوار الجنوبية، كما زاد من قلق الصليبيين الحرارة و التراب و الافتقاد إلى الظل، و قد دافع سكان القدس باستماتة عن أسوارها[5].

في ظل هذه الظروف، رست بمرفأ يافا بعض السفن الجنوبية و ذلك في 24 رجب 492هـ/ 17 جوان 1099م، أحضرت معها ما احتاجه الصليبيون من آلات الحصار والأسلحة و العتاد التي كان لها بالغ الأثر في تدعيم مركز الصليبيين أثناء حصار بيت المقدس [6]، بعد أن أنجزت أدوات الحصار خاصة تلك الأبراج الضخمة التي ذكرتها

(1) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 95، هانس ماير، المرجع السابق، ص ، مصطفى الحياري، المرجع السابق، ص 40.

(2) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 95، زابوروف، المرجع السابق، ص 120.

(3) لقد غير ريموند مكان معسكره من الجهة الجنوبية لأن البرج الفاطمي الموجود فوقه سيطر على معسكره، و قد كان هذا البرج كذلك يحمي البوابة حماية قوية، كذلك كانت مجاورته الشديدة للوادي الواقع بين معسكره و بين المدينة تقف سدا في وجه تحركاته أما الجنوب الغربي فيكون فيه أكثر قربا من المدينة، كما يقال أنه أراد حماية كنيسة القيامة، **انظر**، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 96.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 395، الحريري، المرجع السابق، ص 45.

Archer, op, cit, p 85.

(5) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الى القدس، ص 73، رسينمان، المرجع السابق، ج 1، ص 396، أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص 99–100 ، مصطفى الحياري، المرجع السابق.

(6) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 32، مصطفى الخياري، المرجع السابق، ص 41.

العديد من المصادر الإسلامية [1] و أكدت أنها السبب المباشر في احتراق سور المدينة الحصين [2]، و قد كان قد ابتنوا برجين و بدءوا الهجوم على المدينة ليلة 22 شعبان/ 14 جويلة، و تمكن ريموند من توصيل برجه في الجنوب الغربي بالسور و لكنه لم يستطع السيطرة عليه، أما جودفري فقد حقق نجاحا كبيرا من برجه في الشمال و استولى على جزء من السور ثم تدفق الصليبيون إلى المدينة[3]، أما افتخار الدولة فقد عرض على ريموند أن يسلمه برج داود الذي كان يتحصن فيه مقابل الإبقاء على حياته فقبل ريموند واستولى على البرج[4].

استسلمت بيت المقدس للصليبيين يوم الجمعة 23 شعبان 492هـ/ 15 جويلة 1099م[5]، و قد جرت على السكان مذبحة مروعة تحدث عنها المؤرخون الصليبيون بكل فحر، و من أمثال ذلك ما ذكره فوشيه الشارتري [6] أحد معاصري الحملة الصليبية الأولى "و انظم الصليبيون إلى رفاقهم يذبحون أعداءهم الأشرار بلا توقف، و قد قطعت رؤوس ما يقارب العشرة آلاف شخص في هيكل سليمان، لم يبق منهم أحد و لم يرحموا امرأة و لا طفلا"، أما مؤرخ المملكة اللاتينية وليام الصوري[7] فقد عقب على ما حدث للأهالي فقال "أن ذلك كان قضاء عادلا من الرب، أمضوه فيمن دنسوا هيكل السيد بشعائرهم الخرافية و حرموه على شعبه المؤمن فلابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت" وكذلك يذكر ريمونداجيل[8] "انه قد سفك تنكرد و جودفري كمية لا تصدق من الدماء".

من كل هذه النصوص يتضح لنا مدى الحقد الصليبي الكامن في قلوب الصليبيين تجاه المسلمين، و مدى الأفكار الخاطئة المأخوذة عنهم، فرغم احترام المسلمين لمقدساتهم و السماح لهم بزيارتها إلا أن أقوالهم و اعتقاداتهم تذكر عكس ذلك و تؤكد على وجود حقد دفين للإسلام و المسلمين.

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 19، المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج 2، ص 23، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 147.

(2) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 149.

(3) هانس ماير، الحروب الصليبية، ص 119، عزيز سوريال عطية، العلاقات، ص 49.

(4) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 403، زابوروف، المرجع السابق، ص 123.

(5) دام حصار الفرنج لمدينة بيت المقدس أربعين يوما، **أنظر**: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 222، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم، ج 17، ص 47، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 19، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 149، ابن أيبك الداوداري، كنز الدرر، ج6، ص 449، ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 122، المقريزي، اتعظ الحنفا، ج 2، ص 23، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 147، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص 33، قاسم عبده قاسم، الجملة الصليبية الأولى، ص 25.

(6) تاريخ الحملة الصليبية إلى القدس، ص 75.

(7) تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 127.

(8) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 246.

لقد قتل الفرنجة كل من كان بالمدينة من مسلمين [1] ويهود[2] غير أن ردود الفعل الإسلامية مما حدث بالشام كانت مخجلة، فقد ظلت الدولة الفاطمية تغط في سباتها العميق، أما حاضرة الخلافة العباسية –بغداد– فلم تحرك ساكنا، رغم نداءات الاستغاثة و اكتفوا بالبكاء[3] و الحزن على ما حصل[4].

تم اختيار الدوق جودفري البويوني حاكما على الصليبيين و ذلك 1 رمضان 492هـ/ 22 جويلة 1099م ،و قد رفض حمل لقب ملك بيت المقدس، و ارتداء تاج من ذهب في المكان الذي ارتدى فيه المسيح عيسى تاجا من الشوك —حسب اعتقادهم– لذا اكتفى جودفري باتخاذ لقب متواضع هو حامي القبر المقدس « Advocatus sancti sepulchri» اعترافا منه أنه الدولة الجديدة لا تكتسي صفة سياسية بحتة، و أن لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها[5].

بعد أن استقرت الأمور للصليبيين في بيت المقدس، صارت الخطوة التالية أمامهم هي الاستيلاء على بقية مدن فلسطين، حيث لم يمتلكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس و بيت لحم اللد [6] و الرملة و يافا كما أبرع أهالي نابلس[7] إلى الاستسلام وأرسلوا وفدا إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة، فتسلم تنكرد نابلس في غير صعوبة في أواخر أواخر شهر رمضان 492هـ/ جويلة 1099م[8].

---

(1) تذكر المصادر الإسلامية أن الفرنجة قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا، و غنموا مالا يقع عليه الإحصاء، **انظر**: ابن الجوزي، المنتظم، ج17، 47، الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 438، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، 149، ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 119.

(2) يذكر ابن القلاسني "أنه قد جمع اليهود في الكنيسة و أحرقوها عليهم"، أنظر: تاريخ دمشق، ص 222.

(3) لما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفضيع (سقوط بيت المقدس) هالهم ذلك و تباكوا، و قد نظم أبو سعد الهروي كلاما قرئ على الديوان و على المنابر:

مزجنا دماء بالدموع السواجم   فلم يبق منا عرضة للمراجم

و شر سلاح المرء دمع يفيضه   إذا الحرب شبت نارها بالصوارم.

و كيف تنام العين ملء جفونها   على هفوات أيقظت كل نائم.

أنظر: ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 119.

(4) أرنيست باكر، المرجع السابق، ص 36، حسن عبد الوهاب حسين، المرجع السابق، ص 57، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 192- 193.

(5) حتى، تاريخ سورية، ج 2، ص 229*، رسينمان، المرجع السابق، ج 1، ص 412، محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية، ص 56، سوريال عطية، الحروب الصليبية، ص 50، زابوروف، المرجع السابق، ص 125

Paul Brandily, op, cit, p 1, Archer, op, cit, p 94

(6)**اللد**: من بلاد فلسطين و هي على ميل من الرملة بها مسجد كبير. **أنظر**: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 176، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 227.

(7) **نابلس**: مدينة مشهورة من أرض فلسطين، و هي مدينة قديمة شمال القدس، و هي أرض مباركة يسمونها دمشق الصغرى، و هي في واد قد ضغطها جبلان مشجران بالزيتون و هي كذلك مدينة السامرة، يزعمون أن بيت المقدس هو نابلس. **أنظر**: الاصطخري، المسالك، ص 28، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 174، اليعقوبي، البلدان، ص 56، القزوين، آثار البلاد، ص 277.

(8) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 201.

لم يكد الصيف ينتهي حتى امتدت سلطة جودفري الى سهل جزرل (زرعين) في الشمال، و إلى ما وراء جبل حبرون، إلى النقب في الجنوب، على الرغم من أنه لم تكن له السيطرة التامة على جنوب يهوذا، لأن معظم السكان كانوا من المسلمين، و استمر نزوح البدو إليها من الصحراء، و زاد الاهتمام بتحصين حبرون التي أطلق عليها الصليبيون اسم: "ST. Abrahams"، حتى أضحت تتحكم في كل المنطقة[1].

و بعد أن تولى بلدوين الأول العرش 493هـ/ 1100م، تعرض للخطر الجانب الأكبر من فلسطين الذي حازه الفرنج، و كان أكثر ما ساده الهدوء و الاطمئنان، هو ذلك الجزء الجبلي الذي يعتبر العمود الفقري للإقليم، و الذي يمتد من بيت لحم إلى سهل جزرل (زرعين) شمالا، لأن عددا كبيرا من القرى الواقعة به كان المسيحيون يؤلفون معظم سكانها ، بينما هجر معظم المسلمون ديارهم بالمنطقة عند ظهور جيوش الفرنج، بل إنهم غادروا مدينتهم المحبوبة، نابلس على أنه كان من اليسير الدفاع عن هذه المنطقة، فما يقع إلى الشرق منها كان يحميه وادي الأردن، و لم يؤد من الوادي إلى الجبال إلا درب واحد، و يكاد يكون من العسير أيضا الوصول إليها من جهة الغرب.[2]

(1) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 201،أنظر الخريطة رقم (9) و(10).

(2) نفسه، ج2، ص 16- 17.

المبحث الثاني: إقليم الجليل و الســـواد

1/ إقليم الجليل و أهم حصونه:

يمتد إقليم الجليل [1] من بحيرة طبرية شرقا إلى البحر الشامي غربا و من جبال الجليل الأدنى التي تعرف بجبل عاملة شمالا إلى بيسان[2] و المناطق الداخلية من فلسطين جنوبا.

و قد اشتملت إمارة الجليل التي استولى عليها تنكرد و أضافها إلى مملكة بيت المقدس، سهل ايزدرايلون (مرج بني عامر) و التلال الممتدة من الناصرة إلى بحيرة الحولة (بحيرة بانياس) [3]، و قد كانت الإمارة تتكون في البداية من مدن طبرية و الناصرة و بيسان و ضم إليها فيما بعد حيفا و بلاد السواد [4] و المناطق الواقعة بينها، و قد حصل تنكرد على هذه المناطق باعتباره حاكما عليها تابعا لجودفري، و فيما بعد نشأت إمارة الجليل، و مع مضي الزمن تبعتها حتى منطقة حوران.[5] كما اشتملت إمارة الجليل على صفد، و العديد من الحصون المنتشرة على أطرافها.[6]

كان الوضع الجغرافي لإمارة الجليل يجعل أطرافها أكثر عرضة للأعداء، إذ كان من اليسير الوصول إليها من البحر الشامي من جهة عكا، و من الشرق باتخاذ الطرق المؤدية إلى شمال بحيرة طبرية و جنوبها [7]، و إقليم الجليل في مجمله يقع ضمن منطقة التلال الوسطى [8] و يمتد شماله جبال الجليل الأعلى، التي هي الحدود الشمالية للجبهة الجنوبية، و تبلغ مرتفعات الجليل الأعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفد حيث تبلغ 1200م، و هي أعلى قمة في فلسطين، و يرتفع الجليل الأدنى إلى 562م عند جبل طابور قرب الناصرة.[9]

---

(1) أنظر الخريطة رقم (12)

(2) **بيـسان**: مدينة صغيرة بالغور الشامي، و هي بين حوران و فلسطين، و ليس لها سور و قد بنى لها الفرنج قلعة صغيرة، ذات بساتين و أشجار و انهار و أعين تشق المدينة، و هي على الجانب الغربي من الغور، بينها و بين طبرية 18 ميلا و هي في جنوبها. **أنظر** : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 527، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 243، القلقشذي، صبح الأعشى، ج4، ص 103، أمين معلوف بك، معجم الخريطة، ص 39.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 17.

(4) **السواد**: يقع السواد شرقي طبرية و هو إقليم خصب كثير الزروع و الأشجار، و قيل سمي بالسواد لأن العرب يسمون الأخضر سوادا، فسموه سوادا لخضرته بالزروع و الأشجار. **أنظر**: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 272.

(5) هانس ماير، المرجع السابق، ص 127.

(6) سبانلي لين بول، صلاح الدين و سقوط بيت المقدس، ص 97.

(7) رسينمان، المرجع السابق، ج2، ص 17.

(8) عبد الرحمن حميدة، جغرافية الوطن العربي، ص 301.

(9) فيليب حتى، تاريخ سورية و لبنان، ج1، ص 39- 40، ناجي علوش، المرجع السابق، ص 20.

تمتد في منطقة الجليل أراضي غنية لعدة أميال تعرف بالغور و يذكر المقدسي [1]" أن الأغوار ذات قرى و أنهار و نخيل و مزارع، و يقع فيه من البلدان أريحا و بسيان وطبرية و بانياس و تبوك" تنتشر حتى الجبال الموازية للبحر على طول الساحل كله تقريبا، و كانت الجبال نفسها منفصلة بواسطة واد يمتد من الشمال إلى الجنوب و مميز بمنابع نهري العاصي و الأردن، و كانت المناطق الريفية شرق و جنوب هذه الجبال أكثر جفافا تتجه تدريجيا نحو الصحراء، إلا أن المدن ظلت محاطة بمناطق مزروعة قريبة منها كما أن بساتينها احتوت على الخضروات و الفواكه.[2]

أمام هذا الوضع الجغرافي لإقليم الجليل كان لزاما على أمرائه الصليبيين أن يعملوا على توسيع نفوذهم في الجهة الجنوبية بخلق منفذ بحري للإمارة لتسهيل عمليات التبادل التجاري و تصدير الغلال و كذا مد سلطتهم إلى المناطق الخصبة شرقي الإقليم والتي كانت تمثل المفتاح الوحيد لتغطية حاجيات الإقليم و المملكة اللاتينية من القمح ونقصد هنا حوران و السواد.

كان أول ما قام به تنكرد بعد استيلاءه على إقليم الجليل هو البحث عن منفذ بحري لإمارته، و قد ظفر أخيرا بمنفذ إلى البحر الشامي عند حيفا [3]، و تمتاز حيفا بمينائها الطبيعي الآمن، الذي لا ترسو السفن في الموانئ الفلسطينية عند اشتداد الخطر إلا فيه [4]، فالمجرى المائي المؤدي إليها كان أكثر عمقا من ميناء يافا، كما أن حافة جبل الكرمل تحميه من الرياح الجنوبية الغربية، غير أن ميناء حيفا يتعرض إلى خطر الرياح الشمالية، و يمكن القول أن ميناء عكا هو الميناء الوحيد الآمن في فلسطين في كل فصول السنة، لذا كان على الصليبيين حشد جهودهم للاستيلاء على عكا لأغراض تجارية إستراتيجية[5].

لم يكد الصليبيون يستولون على بيت المقدس 492هـ/ 1099م حتى شرعوا في التوسع شرقا و غربا و ضم ما استطاعوا ضمه من أقاليم بتلك القوة الصغيرة التي بقيت بحوزة جودفري بعد أن رحل الكثير من الصليبيين [6] عائدين إلى إلى الغرب[7]، و يذكر وليام الصوري [1] "أن معظم الزعماء الذين شاركوا في الحملة قد عادوا إلى أوطانهم،... وكانت

(1) أحسن التقاسيم، ص 186.

(2) جوناثان رايلي سميث، الاستبارية، ص 22.

(3) رسينمان، المرجع السابق، ج2، ص 17.

(4) عبد الرحيم حسين سعد الدين أبو عون، إقطاعية حيفا و دورها في الصراع الإسلامي الافرنجي، ص 14.

(5) رسينمان، المرجع السابق، ج2، ص 21.

(6) لقد رحل كل من روبرت النورماندي و روبرت فلاندرز في مطلع شهر رمضان 492هـ/ سبتمبر 1099م و اتجهوا نحو الشمال و معهما جميع أتباعهما. **انظر** :هانس ماير، المرجع السابق، ص 126، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 204- 205.

(7) Grosset, op, cit, p 41.

مصادر الصليبيين المالية و قوتهم الحربية ضئيلة جدا، و لو جمع كل عسكرهم لما بلغوا بعد طول الكد أكثر من ثلاثمائة فارس و لم يتجاوز مشاتهم الألفين"، و لم يبقى إلى جانب جودفري سوى تنكرد ذلك الأمير النورماندي الذي لم يتعجل العودة إلى إيطاليا و ظل في فلسطين يعمل تحت رئاسة جودفري[2].

كان إقليم الجليل قبل استيلاء الصليبيين عليه موضع نزاع بين الفاطميين من جهة و دقاق أمير دمشق من جهة أخرى، غير أن دقاق لم يتسع له الوقت للاستيلاء على الإقليم بعد الهزيمة النكراء التي حلت بالفاطميين عند عسقلان في شعبان 492هـ/ أوت 1099م[3]، ما سهل المهمة أمام الصليبيين الذين اكتشفوا أن المناطق الداخلية في فلسطين كانت ضعيفة التحصين فاندفعوا نحوها.[4]

تعهد جودفري إلى تنكرد بفتح إقليم الجليل على أن يعطيه إياه ليصبح أميرا عليه تابعا له، فتوغل تنكرد عام 493هـ/ 1100م في الجليل و بصحبته أربع و عشرون فارسا بأتباعهم و لم يصادف مقاومة شديدة من المسلمين، فحينما اقترب جيشه الصغير من طبرية، عاصمة الإقليم هرب سكانها المسلمون إلى دمشق، و ظلت فيها أقلية من السريان أما اليهود فقد أظهروا الجفاء و السخط نظرا لما أصاب إخوانهم في بيت المقدس من سوء، و آثروا مغادرة البلاد و اللحاق بالمسلمين و لم يبق من اليهود سوى بعض الجاليات اليهودية بالمدن الصغيرة و لاسيما صفد التي تعتبر منذ قديم الزمن الموطن الأهلي للتلمود، و بعد أن استولى تنكرد على طبرية حصنها تحصينا قويا حتى يتخذها مركزا لإمارته الجديدة.[5]

و طبرية من أعظم مدن الجليل، و هي على ضفة بحيرة كبيرة تنسب إليها، و جبل طابور مطل عليها، و تقع جنوب دمشق بينهما ثلاثة أيام[6] و الطريق بينهما عبر ممر ضيق عند مخاضة نهر الأردن عند جسر الصنبرة [7]، و المدينة مستطيلة على البحيرة بنحو 5.5كم، و يبلغ طول البحيرة ككل 66كم و عرضها 11 كم و يخرج منها نهر الأردن، و يصب في البحر الميت، و بطبرية عيون ساخنة تخرج من الأرض تغني أهلها عن الاستخدام، و هي بعيدة عن بيت

(1) الحروب الصليبية، ج2، ص 179- 178.
(2) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 204- 205.
(3) رسينمان، الحركة الصليبية، ج1، ص 204- 205.
(4) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 31.
(5) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ج2، ص 429، ص 17، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 205.
(6) إسحاق بن حسين المنجم، أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، (د.م.ن)، (د.ت)، ص 13، الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 17.
(7) هانس ماير، المرجع السابق، ص 125، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 346.

المقدس بثلاث أيام و بيومان عن عكا و لها سور حصين يحيط بالمدينة يبدأ من شاطئ البحيرة، فالطرف المحدود بها لا حائط له[1].

بعد أن استولى الصليبيون على طبرية ظلت غارات الدماشقة تتوالى عليها، لما تكتسبه هذه المنطقة من أهمية إستراتيجية و عسكرية كبيرة باعتبارها الخط الدفاعي الأول عن إقليم الجليل و المملكة اللاتينية بأكملها من الجهة لشمالية، كما أن الصليبيين قد جعلوها مركزا لشن هجماتهم المتتالية عن الأقاليم الخصبة بها [2]، ففي سنة 500هـ/ 1106م هاجم الصليبيون أعمال السواد و حوران و جبل عوف و أفسدوا محاصيلها، و لما بلغت هذه الأخبار ظهير الدين أتابك صاحب دمشق جمع العساكر الشامية و أرسل إلى والي صور الأمير عز الملك بأن ينهض لحصار حصن تبنين كنوع من الضغط، أما هو فقد هاجم طبرية على أن الهجومين لم يحرزوا شيئا من النجاح. [3]

و لم يلبث طغتكين بعد انتهاء الهدنة القصيرة 501هـ/ 1107م، حتى أغار على طبرية ثانية و نصب كمينا للصليبيين في أوائل شوال 501هـ/ ماي 1108م على الجبال القريبة منها[4]، ففقد الصليبيون كثيرا من الضحايا في ذلك الكمين، و وقع جرفاس أمير الجليل و معظم قادة جيشه في الأسر و حملوا إلى دمشق، و أرسل طغتكين إلى بلدوين الأول يخبره أن ما يريده كفدية لفك أسر جرفاس Gervase أمير الجليل و معظم قادة جيشه في الأسر و حملوا إلى دمشق، و أرسل طغتكين إلى بلدوين الأول يخبره أن ما يريده كفدية لفك أسرهم، هو أن يبذل له المدن الثلاث الآتية: طبرية و عكا و حيفا، غير أن بلدوين رفض ما جعل طغتكين يأمر بقتل أمير الجليل و من معه [5]، و انتهى الأمر الأمر بعقد هدنة[6] في نفس السنة بين طغتكين و الملك بلدوين الأول.

---

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 161، ناصر خسرو، سفر نامة، ص 12، ابن سعيد الجغرافيا، ص 49، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج3، ص 155، القزوين، آثار البلاد و أخبار العباد، ص 217– 218، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 243، ابن بطوطة، تحفة النظار، ص 36.

(2) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 156.

(3) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 243.

(4) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 246.

(5) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 258– 259، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 130، رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص 156، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 242، الذهبي، العبر، ج2، ص 383.

(6) لقد دفعت عدة عوامل الطرفين لعقد هذه الهدنة أهمها تشابك المصالح الرئيسية بينهما، كما أن طغتكين لم يلبث أن وجد نفسه في نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين و لم يكن بلدوين يرجو أكثر من مسالمة الدماشقة ليتفرغ للخطر المستمر الذي هدد يافا و الرملة من جانب الفاطميين، **أنظر**: محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص 39.

غير أن الأمر لم ينته عند هذه الهدنة، فقد شن طغتكين صاحب دمشق و مودود صاحب الموصل [1] عام 506هـ/ 1113م هجوما على إقليم الجليل و حاصروا طبرية، ويبدوا أن السبب في ذلك هو ما قام به الملك بلدوين الأول من غارات على إقليم دمشق في هذه السنة، فنهب المحاصيل و قطع الطرق المؤدية إليها، و لعل الملك الصليبي أراد أن يضغط على حاكم دمشق لما قام به من مساندة لأهل صور عام 505هـ/ 1111م بإرسال التعزيزات إلى المدينة ما أدى إلى فشل الحصار الصليبي و إنقاذ المدينة، كما تحالف مع أمير الموصل في حملته السابقة على الأملاك الصليبية. [2]

لقد كان جيش مودود كثير العدد، فقد اجتمع إليه جيش كبير من الأتراك والأكراد [3]، فتوجه إلى الشام قاطعا الفرات و كان ذلك في أواخر شهر ذي القعدة 506هـ/ ماي 113م، و لما سمع طغتكين بمسيره إلى الشام سار إليه و لقيه في سُلمية جنوب شرقي حماة حيث تم حشد القوات الإسلامية التي قدرت بحوالي 15 ألف مقاتل، ثم تقدمت في شهر ذي الحجة/ أفريل باتجاه مدينة طبرية باعتبارها أهم المراكز الصليبية في الجليل، ولم يلبث مودود و طغتكين أن حاصروا مدينة طبرية المنيعة، وعندما استعصت عليهما أخذ السلاجقة يدمرون و ينهبون الممتلكات حتى جبل طابور. [4]

طابور. [4]

و في هذه الأثناء، كانت قوات مملكة بيت المقدس بقيادة الملك بلدوين الأول في منطقة ميناء عكا عندما وردتها أخبار حصار مدينة طبرية، فأرسل الملك في طلب النجدات من إمارتي طرابلس و أنطاكية غير انه لم ينتظر وصولها و تعجل بالتقدم خوفا على مدينة طبرية من السقوط بيد المسلمين، و لما سمع مورود و طغتكين باقتراب الصليبيين اتفق رأيهم على الانسحاب من حول طبرية و الاتجاه جنوبا أين عبروا نهر الأردن إلى الضفة الشرقية و اتخذوا مواضع حصينة

(1) ذكر ابن القلاسني انه في سنة 506هـ/ 1112م تتابعت كتب ظهير الدين أتابك إلى الأمير شرف الدين مودو صاحب الموصل بشرح أحواله، و بعثه على الوصول إليه و الفوز بفضيلة الجهاد، **أنظر**: تاريخ دمشق، ص 293.

(2) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 293، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 149، سميل، فن الحرب، ص 1، سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر، ج2، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1990، ص 66.

(3) جمع الأمير مودود، صاحب سنجار تميرك، و الأمير أياز بن ايلغازي و غيرهم من الأمراء. **أنظر**: ابن الأثير، الكامل ج9، ص 149.

(4) ابن قلاسني، تاريخ دمشق، ص 293، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 149، ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 163، أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 226، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج 2، ص 389، ابن كثير، البداية و النهاية، ج 7، ص 135، ابن خلدون، العبر، ج 5، ص 176، سالم محمد الحميدة، المرجع السابق، ص 67، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 205، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 250.

في منطقة الأقحوانة[1]، المحمية بنهري الأردن و اليرموك اللذان يشكلان شبه جزيرة جنوبي بحيرة طبرية و طلبا مساعدة من الملك رضوان صاحب حلب فتأخرت عليهما[2].

و نجح الحلفاء المسلمون في استدراج الملك بلدوين إلى جسر الصنبرة أين قامت القيادة الإسلامية بنصب الكمائن[3] للقوات الصليبية المتقدمة و كانت الأرض مساعدة على نصب مثل هذه الكمائن لوجود مضيق تمر الطريق منه، و يعبر خانقا حصينا و ضيقا لا يساعد على الانفتاح و في 13 محرم 507هـ/ 20 جوان 1113م دخلت القوات الصليبية منطقة الكمين، و اشتد القتال بينهما و كانت القوات الإسلامية هي المتفوقة [4] فأنزلت بالفرنجة هزيمة ساحقة[5]، و غرق منهم في بحيرة طبرية و نهر الأردن الكثير [6]، وقد قدرت خسائر الصليبيين في تلك المعركة بألف و مائتين من المشاة و ثلاثين من الفرسان.[7]

و كان الملك بلدوين قد نجا من الموت بأعجوبة، ثم انسحب مع فلول الصليبيين إلى طبرية و التقى عند مضيق يقع جنوب المدينة بقوات إمارتي أنطاكية و طرابلس، وبالنظر لسوء موقف الصليبيين و تفوق القوات الإسلامية عليهم، لجأ إلى تل يقع غربي طبرية للاحتماء به [8]، و أقاموا ست و عشرين يوما و المسلمون إزاءهم يرمونهم بالنشاب [9]، كما قطعوا عليهم خطوط المواصلات، و لم يقم الفرنجة بأنه حركة هجومية طوال هذه المدة، و من الواضح أن هذه الخطة الجامدة التي لجأ إليها الصليبيون قد أتاحت الفرصة للسلاجقة فحاربوا المراكز الصليبية لإدراكهم أن المملكة قد خلت من

(1) **الأقحوانة**: موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية. **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 234.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 294، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 149، ابن خلدون، العبر، ج 5، 176، فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 151، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 1، ص 300، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 205- 206، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، 251، سالم محمد حميدة، المرجع السابق، ص 65-.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 163.

(4) لقد أدرك المسلمون أنهم بحاجة إلى التدبير الحربي أكثر من حاجتهم إلى الوفرة العددية، فأرسلوا خمسمائة فارس كلفوهم بالتقدم في غير نظام حتى تنطوي المكيدة على الملك فيمضي في مطاردتهم، و تم تنفيذ كل شيء وفق ما رتبوا. **أنظر**: وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 300.

(5) سالم محمد حميدة، المرجع السابق، ص 67.

(6) المرجع السابق، ج2، ص 206.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 149.

(8) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 301، محمود محمد الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة و أثرها في التصدي للصليبيين، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1992، ص 69.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 149.

المدافعين عنها[1]، وفي فترة الحصار يذكر فوشيه الشارتري [2] "أنه كان مستحيلا بسبب مصائد العدو أن يغامر أي مبعوث نرسله للملك أو أن يجتاز مبعوث منه لأي مدينة من مدننا".

و قد أوغل مودود في إغارته على أرض المملكة حتى بلغ أرباض عكا و بيت المقدس و لم يبق بينهما ضيعة عامرة، على أن أغلب الحاميات الصليبية قد قبعت داخل أسوار مدنها باستثناء نابلس و بيسان هذه الأخيرة التي نهب المسلمون ما فيها و قتلوا كل من وجدوه من الصليبيين[3]، و مما زاد من سوء موقف بلدوين و من معه في هذه الفترة، ما قامت به حامية عسقلان التي قادت هجوما مباغتا على المملكة اللاتينية لمعرفتهم بحصار مودود للجيش الصليبي في طبرية، و قد وصلت هذه الحملة إلى أسوار بيت المقدس، غير أن قلة قوتها حملتها على الانسحاب[4].

لم تلبث الظروف أن تغيرت لصالح بلدوين و من معه، و ذلك بوصول أعداد ضخمة من الحجاج الغربيين إلى ميناء عكا، مما جعل مودود و طغتكين ينصرفان إلى دمشق، خاصة و أن فصل الشتاء قد حل و مدة الحصار قد طالت كما أذن مودود لرجاله بالرحيل إلى بلادهم و العودة في فصل الربيع [5]، أما مودود نفسه فقد نزل في ضيافة طغتكين ، و ذلك إلى حين استئناف الجهاد ضد الصليبيين.[6]

لم تمض بضعة أسابيع على وجود مودود بدمشق، حتى لقي مصرعه في الجامع الأموي على يد أحد الحشاشين و ذلك في أواخر ربيع الأول 507هـ/ 12 سبتمبر 1113م، ولعل هذا الحادث يبرهن على مدى انحلال المسلمين و تمزق صفوفهم في ذلك الوقت[7]، و قد أتُهم ابن الأثير[1]صاحب دمشق طغتكين بقتله و قال "أن طغتكين خافه [2] خافه[2] فوضع عليه من قتله".

---

(1) سالم محمد الحميدة، المرجع السابق، ص 68، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 252.

(2) تاريخ الحملة إلى القدس، ص 152.

(3) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 297، ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 149، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج 2، ص 389، ابن خلدون، العبر ، ج5، ص 176، أرنست باكر، المرجع السابق، ص 49، الجويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص 69.

(4) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 153، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 5، ص 303، عاشور، الحركة، الحركة الصليبية، ج 1 ، ص 252.

(5) إن الجيش الذي قدم من بلاد فارس مع مودود يحكمه النظام الاقطاعي، و الخدمة العسكرية التي قدموها لمودود هي مقابل الإقطاع الذي منه لهم لذلك كان لابد من تسريحهم و قد حل موسم الحرث و البذر.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 150، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج 2، ص 389، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 303، الحويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص 69، سالم محمد حميدة، المرجع السابق، ص 69.

(7) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 298، أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 226، ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر، ج 6، ص 476، الذهبي، تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدميري، دار الكتاب العربي، ج 35، ط1، 1994، ص 29، ابن كثير، البداية و النهاية،=

و إلى الجنوب الغربي من طبرية تقع مدينة بيسان، التي قصدها تنكرد سنة 492هـ/ 1099م بعد تحصينه لطبرية، و بيسان مدينة حصينة ذات موقع يمكن الإشراف منها على الضفة الشرقية لنهر الأردن[3]، كما أن استحكاماتها تتحكم في الدرب الذي يصل بين سهل جزرل (زرعين) و نهر الأردن، و كذلك في الطريق التجاري الذي يمر بمنطقة الغور و التي تعتبر بيسان عاصمة لها[4].

سلم تنكرد بيسان و الأراضي المحيطة بها للداوية، لحراسة الطريق التي كان يسلكها الحجاج الصليبيون للاغتسال في نهر الأردن، كما أن سيطرة الصليبيين على هذه المناطق الخصبة بالغور والتي تعتبر امتدادا لسهل البقاع ،جعلها تدر على المملكة اللاتينية الكثير من المزروعات و الثمار، كما و أنه بالسيطرة على نهر الأردن الذي لا يعد مانعا طبيعيا برغم تياره الشديد، سهل عملية التحرك و تحويل التجارة من الجولان و حوران إلى موانئ فلسطين، إلا أن الإغارة في هذا الإقليم القريب من دمشق لم تكن سليمة العواقب.[5]

لقد سعى الملك بلدوين الأول إلى جعل حدود المملكة اللاتينية حدود آمنة و ملائمة، و إن يفيد في نفس الوقت من اقتراب مملكة من طرق التجارة العربية الممتدة من العراق و بلاد العرب إلى البحر الشامي و مصر، لذا فما إن غادر تنكرد فلسطين في جمادى الآخرة 493هـ/ مارس 1101م لتقلد زمام الحكم في أنطاكية حتى ضم بلدوين إمارة الجليل[6] بسرعة إلى مملكته، و عهد إلى النبيل هيو أف سانت أومير "High of saint omer" بإدارة أعمالها

=ج7، ص 135- 136، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 203، رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، 206، محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 48، حامد زيان غانم زيان، الصراع السياسي و العسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر، ط1، القاهرة، 1983، ص 63، عاشور، العلاقات بين الشرق و الغرب، ص 262.

(1) الكامل، ج9، ص 150.

(2) أتهم طغتكين بتآمر مع الباطنية لقتل مودود، خاصة و أن وجود مودود في دمشق قد أثار مخاوف الأتابك الذي خشي أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة في بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين. **انظر**: عاشور، العلاقات، ص 262.

(3) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 205.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 429، على السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص 16.

(5) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 243، القلقشدي، صبح الأعشى، ج4، ص 103، كمال بن مارس، الظهير الشامي، ص168.

(6) لقد سعى تنكرد منذ قدومه إلى الشرق إلى تأسيس إمارة قوية و مستقلة عن سلطة بيت المقدس كم فعل كل من أمير الرها و أمير أنطاكية، و قد ساعدته في ذلك سياسة جودفري الذي اعتبره أكبر أتباعه، و لقب تنكرد نفسه بأمير الجليل، الذي لم يكن فصلا ملكيا، بل كان يحمل لقب يشبه لقب أمير أنطاكية الحاكم المستقل "princeps" ، غير أن قدوم بلدوين غير كل الموازين ما جعل تنكرد ينسحب من الإمارة و يقبل عرض الأنطاكية بالحكم بدلا من خاله الأسير عند الداتشمند، **أنظر**: رنسيمان: المرجع السابق، ج1، ص 431- 432- 439، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 156.

، و أصبحت إمارة الجليل بموقعها الاستراتيجي المتوسط لطرق التجارة جزءا لا يتجزأ من مملكة بيت المقدس، و تداعت كل الآمال الانفصالية لها عن التاج الملكي في بيت المقدس.[1]

على أن هيو قد انتهج سياسة عدائية مع المسلمين حيث عمل على توسيع إمارته على حسابهم في الشمال الشرقي "إقليم السواد" و الشمال الغربي "صور"، و لتحقيق غرضه شيد حصنين، في الشمال الغربي حصن تورون (Torron) و هو المعروف حاليا باسم تبنين، و كان هذا الحصن على الطريق الذي يربط بين صور و بانياس و دمشق، و قد صار له شأن كبير في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، أما في شمال شرقي بحيرة طبرية، فقد شيد حصن عال أو "علعال" على مرتفعات البحيرة[2]، و تم بناء الحصنين في خريف 499هـ/ 1105م[3].

لقد كانت حاجة هيو أمير الجليل إلى حصن تبنين كبيرة، خاصة و أنه كان دائم القيام بهجمات خاطفة على صور[4]، و يذكر وليام الصوري[5] "أن العسكر في غدوهم إلى صور و رواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود قلاع قلاع أو أماكن حصينة بين المدينتين (طبرية و صور) يلجئوا إليها لو تعقبهم العدو، لذلك حاول هيو تذليل تلك الصعوبة فعزم على بناء حصن على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور و إن كان يبعد عنها بحوالي عشرة أميال."

اختار هيو هذا المكان لحصنه لبروزه و علوه و إشرافه على ما حوله من سهول، و في وسطه بقعة زراعية تكثر فيها الكروم و الغابات[6]، على أنه مع مرور الزمن علا شأن الحصن و صار مركزا من أعظم المراكز الإدارية و العسكرية حتى أطلق اسمه على الأسرة التي حكمته و منها "هنفري دي طورون" الذي أصبح رئيسا لديوان الملك بلدوين الثالث سنة 549هـ/ 1154م، و كانت إمارة تبنين تضم إلى جانب إقطاعها الخاص إقطاع هونين و مارون و قلعة الصبيبة (نمرود) و بانياس.[7]

(1) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 210، رسينمان، المرجع السابق، ج2، ص 154- 155، على السيد على المرجع السابق، ص 15، يوشع براور، الاستيطان، ص 341- 342.

(2) القلقشذي، صبح الأعشى، ج4، ص 151- 152، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 241.

(3) و يذكر وليام الصوري أن حصن تورون و علعال قد تم بناؤها سنة 501هـ/ 1107م

(4) رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عاملة، ص 55.

(5) تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 268.

(6) القلقشذي، صبح الأعشى، ج4، ص 151، 152، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص 268، رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 101.

(7) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص 101- 102.

أما الحصن الثاني عال أو علعال [1] فلم يبق بأيدي الصليبيين سوى فترة قصيرة، لأن طغتكين صاحب دمشق أدرك أن وجود هذه القلعة يهدد أمن بلاده و يجعلها تتعرض للتهديد الصليبي المستمر، لذا ففي سنة 499هـ/ 1105م و بينما كان هيو عائدا إلى علعال بغنيمة ثقيلة بعد غارة موفقة انقض عليه جيش دمشق، فأصابت هيو جراح أودت بحياته و تفرق رجاله و لم يجد طغتكين صعوبة في الاستيلاء على القلعة[2].

2/ إقليم السواد و حوران.

و إقليم السواد إلى الشرق من بحيرة طبرية، و هو من المناطق الخصبة التي اشتهرت بكثرة الزروع و الخيرات [3]، و قد كان هذا الإقليم تابعا لدقاق صاحب دمشق [4] ويحكمه أميرا تابعا له أطلق عليه الصليبيون اسم الفلاح السمين، و قد استطاع جودفري بمساعدة، تنكرد بسط سيطرته على إقليم السواد في رجب 493هـ/ ماي 1100م حيث خرج على رأس مائتين من فرسانه و ألف من المشاة ليقوم بغارات مدمرة على السواد، استمرت ثمانية أيام و أنزلت الكثير من الأضرار في الأرواح و الأموال بأهل الإقليم من المسلمين[5]، ما جعل أمير السواد يستجيب لرغبة تنكرد و يعترف بسيادة بسيادة الفرنج.

ما إن ارتحل تنكرد إلى بيت المقدس حتى نقض أمير السواد ولاءه للفرنجة، والتمس المساعدة من سيده أمير دمشق، و عندما سمع تنكرد بذلك استنجد بجودفري، لأنه يعلم الأهمية الكبيرة لهذا الإقليم، إذ أنه متى كان للفرنج موضع بهذه الجهة استطاعوا أن يحولوا التجارة المارة من الجولان و حوران إلى موانئ فلسطين يضاف إلى ذلك أن منطقة السواد ذاتها كان تدر على مالكها صنوفا مختلفة من الغلال و الثمار[6].

سارع جودفري مع قواته ليساعد تنكرد في غارته على أراضي السواد، و قد أوغلت قواتهم حتى بلغت جوف الجولان، لكن عند عودتهم مثقلين بغنيمة وافرة في 7 شعبان 493هـ/ 18 جوان 1100م انقض دقاق على مؤخرتهم التي تولي حمايتها تنكرد، و لعدم علم جودفري بما حدث مضى في سيره، و لم يستطع تنكرد أن يخلص نفسه إلا بعد أن

---

(1) يذكر ابن القلاسني أن حصن علعال بين السواد و البثنية، و كان من الحصون الموصوفة بالمنعة و الحصانة، **أنظر**: تاريخ دمشق، ص 241.

(2) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 241، رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص 155، عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص 241، محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص 37، علي السيد على، العلاقات الاقتصادية، ص 15.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 272، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 209.

(4) Grosset, op, cit, p 41.

(5) عاشور الحركة الصليبية، ج1، ص 209.

(6) رسينمان، المرجع السابق، ج1، ص 237.

فقد عددا كبيرا من جنوده، و أضاع كل نصيبه من الغنيمة، غير أن دقاق لم تكن له من القوة ما يتمكن بها من متابعتهم لذا عاد إلى دمشق[1].

لقد كان رد فعل تنكرد عنيفا على ما قام به الدماشقة إذ أنه لم يسترح إلا بضعة أيام في طبرية، ثم عاود الهجوم على إقليم السواد مجددا، و لم يكتف هذه المرة بتخريبه بل أوغل حتى اقترب من دمشق نفسها، ما دفع دقاق لطلب الهدنة التي قابلها تنكرد بإرسال سفارة من ستة فرسان إلى دقاق فدعوه للدخول في المسيحية أو ترك دمشق فورا، فاستاء الدماشقة من تلك الجرأة و رد عليه دقاق بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام فقبل أحدهم ذلك و أعدم الخمسة الباقين[2].

و بعد ما حدث من أمير دمشق، خرج تنكرد و جودفري على رأس جميع قواتها، واستمر الصليبيون يعيثون فسادا بالضياع و المزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين، بينما لزم الدماشقة مواضعهم خلف أسوار مدينتهم و لم يحاول دقاق المقاومة، و عندئذ أدرك أمير السواد أن سيده عاجز عن حمايته فأعترف بالتبعية لتنكرد (أمير الجليل)، و وافق على دفع الجزية له، و بهذا أصبح إقليم السواد بكل خيراته تابعا إلى إمارة الجليل الصليبية[3].

أما حوران فهي من الأقاليم الأكثر خصوبة في الشام كلها و هي شرقي السواد وجنوبي دمشق ذات قرى كثيرة و مزارع[4]، و هي على أربعة مراحل من دمشق و في جنوبها الشرقي صرخد قاعدة جبل بني هلال [5]، و هضبة حوران أهم جزء من السلسلة الشرقية في الجبهة الجنوبية، و يمتاز سطح الهضبة بأنه بركاني في قسمه الأعظم و فيه صخور بازلتية و تربة غنية، و تبدأ الأراضي البركانية في التلال جنوبي دمشق و تشمل مساحة طولها حوالي 97 كم بما يعادلها عرضا ، و هي أكبر مساحة من هذا النوع في الشام، و يحد هذه الأراضي في الشمال الشرقي منطقة اللّجا ذات الحجارة السوداء و هي ملجأ للقبائل المتمردة في مختلف العصور و في الجنوب الشرقي المنطقة الجبلية المعروفة باسم جبل حوران أو جبل الدروز، و ترتفع هذه الكتلة الجبلية في شرقي حوران إلى ما بين 1200 و 1500م، و تقوم بين حوران و البادية ، و تمتد المنطقة البركانية غربا حتى تشمل الجولان[6].

(1) نفسه، ص 238.

(2) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 209– 210.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج1، ص 438، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 210.

(4) البغدادي، مراصد الإطلاع، ص 435.

(5) ابن سعيد، الجغرافيا، ص 50.

(6) فيليب حتي، تاريخ سورية و لبنان و فلسطين، ج1، ص 45.

كان لإقليم حوران أهمية زراعية كبيرة إذ عرف بوفرة مزروعاته كبيرة إذ عرف بوفرة مزروعاته، خاصة القمح الذي ينتج بكثرة، فقد كانت حوران هي المتصدرة لجميع مدن الشام في إنتاج الحبوب، حتى أنها عرفت زمن الرومان بمخزن الشام لوفرة حبوبها، و يعود السر في ذلك إلى عناصر التربة التي تتألف من مواد بركانية سوداء منحلة، وهي غنية بالمواد المغذية للنبات، و تُمون حوران فلسطين و لبنان بالقمح(1).

كما ساعدت الطرق التجارية المارة داخل الإقليم على نقل الإنتاج الزراعي، و كذا إضفاء أهمية تجارية للإقليم ككل، و من أهمها الطريق الواصل بين دمشق و شمال فلسطين، و كذلك الطريق القادم من بلاد العرب إلى دمشق ، و التي كانت كلها تمر من بصرى كورة إقليم حوران، و هي مدينة قديمة بها مضارب بني فزارة و بني مرة وغيرهم، و لها قلعة ذات بناء متين و بساتين.(2)

و منذ بداية عهد الأتابك طغتكين في حكم إمارة دمشق 497هـ/ 1103م، لم يتوقف تبادل الغازات بين الدماشقة و أمراء الجليل خاصة و أن طغتكين قد أدرك أن متاخمتة لحدد و الإمارة قد يهدد ملكه في دمشق و يحرمه من المناطق الخصبة التي كانت محط نزاع بين الطرفين، على أنه في النهاية سنة 502هـ/ 1108م، و نظرا لتشابك المصالح الرئيسية لبلدوين و طغتكين، قررا عقد هدنة لمدة عشرة سنوات (3)، تقرر فيها تقسيم منطقة السواد و جبل عوف إلى ثلاثة أقسام، الثلث الأول للأتراك و الثاني للإفرنج والثالث للفلاحين(4).

و الراجح أن أسباب الهدنة ترجع إلى دواع تجارية، إذ أن الغارات المستمرة أنزلت أفدح الخسائر بالتجارة البرية التي تجتاز الإقليم، و أن مثل هذه الهدنة تساعد على استئناف التجارة في هذه المنطقة، على أنها كانت محلية و لا تتعدى أكثر من الذي نصت عليه، بمعنى أن طغتكين كان له الحق في مهاجمة المناطق الصليبية الأخرى التي لم ترد في نصوص الهدنة و للصليبيين الحق ذاته (5)، و قد ظلت منطقة الجولان و الكثير من أراضي السواد الواقعة عند بحيرة طبرية أراضي مقاسمات تخضع للسيادة المشتركة الإسلامية و الصليبية، و لم يوافق الطرفان الصليبي و الإسلامي على تحصين المنطقة. (6)

المنطقة.(6)

(1) محمد كرد علي، المرجع السابق، ج4، ص 131، محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية، ص 142، حتي، تاريخ سورية، ج1، ص45.
(2) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 253، محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية، ص 142.
(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 157.
(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص 263، ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 130، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج2، ص 383.
(5) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 157، محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص 36.
(6) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 32- 62- 63.

و من الملاحظ على سياسة دمشق و أمرائها مع إمارة الجليل في العقد الثاني من عمر المملكة الصليبية، أنه قد سادها اللين، خاصة و أن حكام دمشق قد اعتبروا جيرانهم الصليبيين أكثر أمنا و أخف وطاءة من القوى الإسلامية الموحدة، و قد تم إقرار معاهدة الصلح بين الفرنج و حكام دمشق، و أصبحت هذه الاتفاقيات تمثل حجر الزاوية في سياسة حكام دمشق، و من الغريب أن هذه المعاهدات قد ظلت سارية المفعول و معمول بها حتى سقوط دمشق في يد نور الدين عام 549هـ/ 1154م و أصبحت ضمن سياسة الوحدة الإسلامية التي تبناها نور الدين، و ظلت هذه المعاهدة كذلك حتى حدوث الهزيمة النكراء التي مني بها الصليبيون في موقعة حطين عام 583هـ/ 1187م[1].

إن رغبة الصليبيين الجامحة في ضم إقليم حوران الخصيب إلى ممتلكاتهم جعلتهم يتناسون أمر الهدنة مع أمير دمشق معين الدين أنر الذي كانت حوران و يتبعها من أقاليم تحت سلطته و يقلبون عرض تابعه المدعو التونتاش [2] الذي كانت له السيادة على حصني بصرى و صرخد من (إقليم حوران) بأن يسلم لهما الحصين مقابل أن يعترفوا به حاكما على الإقليم كله، و لعل كثرة النصارى الأرثوذكس في تلك المناطق قد شجعت الصليبيين لقبول هذا العرض السخي، خاصة و أن الاستيلاء على حوران يهيئ للصليبيين السبيل للضغط العسكري و السياسي على دمشق[3].

زحف الصليبيون و على رأسهم الملك بلدوين الثالث من طبرية إلى حوران في ذي الحجة 541هـ/ ماي 1147م، بعد أن عبروا نهر الأردن و إقليم الجولان، و كان معين الدين قد تلقى تحذيرا بذلك و اجتمعت قواته الخفيفة من التركمان بالعرب النازلين في المنطقة لمضايقة الفرنج أثناء معاناتهم لالتماس الطريق من وادي اليرموك إلى درعا [4] ولسد ولسد طريق بصرى و صرخد في وجوههم، فضلا عن أنه أرسل يستنجد بنور الدين الذي أسرع من حلب لنجدته و معه جيشه[5].

و صل الفرنج إلى درعا و في تلك الأثناء كان معين الدين أنر و نور الدين قد اجتمعا عند صرخد، و من هناك أسرعا أولا بالاستيلاء على بُصرى قبل أن يستولي عليها الصليبيون، فبادرت زوجة التونتاش بتسليمها لهما، على أن خبر

---

(1) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 32- 33، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية زمن بلدوين الثالث، ص ص 150- 160.

(2) **التونتاش**: و هو من أصل أرمني، اعتنق الإسلام و كان غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان والي صرخد و بصرى أولا. **أنظر**: ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 451، وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 243.

(3) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص 243، محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية، ص 142، حسين مؤنس، نور الدين بن زنكين فجر الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، جدة، ط2، 1984، ص 204.

(4) **درعا**: جنوب دمشق، و هي في منتصق الطريق الى بصرى، (100كم). **أنظر**: رسينمان المرجع السابق، ج2، ص 390.

(5) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 451، أبو الشامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص 200، ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 176، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 390، عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص210.

تسليم بصرى لم يبلغ الفرنج إلا في المساء، و قد أضناهم التعب و الإرهاق، و نفذت المياه، و أصبحت بصرى على مرمى نظرهم، و لما لم تسمح حالتهم بالمضي لقتال المسلمين، لم يسعهم إلا الارتداد، على أنهم صادفوا من العناء و المشقة أثناء عودتهم ما يزيد كثيرا على ما لقوه عند قدومهم، إذ نفذ القوت [1] و أضيف العجاج و الحر الشديد و العطش إلى سهام المسلمين و هجماتهم [2]، و طبق المسلمون في المرحلة الأولى من المسير نفس الخدعة التي طبقت في المعركة خارج أنطاكية 491هـ/ 1098م و التي تكرر تنفيذها بعد ذلك في حطين عام 583هـ/ 1187م، حيث أضرموا النار بالحشائش على الطريق و أرهقوا رتل الفرنجة باللهيب و الدخان[3].

حرص الفرنجة، خلال جميع هذه المحن المتنوعة التي مروا بها على المحافظة على تشكيلاتهم المتراصة، و نقلوا جرحاهم و جثث قتلاهم ضمن تشكيلة الرتل، كي لا ترتفع معنويات أعدائهم بإطلاعهم على الخسائر التي تكبدوها ،و اتخذت إجراءات مشددة جدا لضمان عدم ترك ثغرة في ترتيب المسير يمكن أن يستغلها المسلمون [4]، وهكذا لم يستطع الصليبيون تحقيق أي هدف من أهداف حملتهم الفاشلة، و عادوا إلى بيت المقدس تحت تهديد جيوش نور الدين و معين الدين أنر الذين كانوا يتخطفون من قدروا عليه من جنود و لم يصلوا إلى بيت المقدس إلا و قد هلك منهم المئات بين قتيل وأسير [5]،سلمت بصرى و صرخد إلى معين الدين و عاد إلى دمشق 24 محرم 542هـ/ 26 جوان 1147م[6].

و قد هاجم الملك بلدوين الثالث إقليم حوران من جديد عام 553هـ/ 1153م، و أطلق العنان لجيشه في إفساد و إحراق الضياع و أسر الأهالي و سبيهم، ثم قصدوا داريا[7] بالقرب من دمشق فنهبوها و استباحوا أهلها[8]، و لعل ما قام به الملك الصليبي في هذا الإقليم كان للرد على الهزيمة التي مني بها في معركة السواد التي كانت في نفس

---

(1) وليام الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2، ص 252، رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص 390- 391، حسين مؤنس، نور الدين، ص 204، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 483.

(2) و يذكر ابن القلاسني أن المسلمين "قد ملكوا عليهم المشرب و المسرب و ضايقوهم برشق السهام و إرسال نبل الحمام، و أكثروا فيهم القتل و الجراح و إضرام النيران في هشيم النبات في طرقهم و مسالكهم، و أشرفوا على الهلاك و الدمار". **أنظر**: تاريخ دمشق، ص 452.

(3) ر. سي، سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص 240.

(4) ذكر وليام الصوري بالتفصيل المشقة و المعاناة التي تكبدها الجيش الصليبي أثناء عودته إلى بيت المقدس، **أنظر**: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 253-255.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت)، ص 91- 92، عاشور، الحركة الصليبية، ج1،ص 483، حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 204.

(6) ابن القلاسني، تاريخ دمشق، ص 452، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 200.

(7) **داريا**: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 431.

(8) وليام الصوري، الحروب الصليبية، جد3، ص 425، محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية، ص 152- 153.

السنة، حيث تمكن فيها نور الدين من الاستيلاء على حصن بالقرب من صيدا عرف بكهف صور، كما هاجم مناطق هونين و خربها [1].

يمكن القول أن غارات الصليبيين على إقليمي حوران و السواد كانت في عمومها للنهب و الغنائم حيث عرفت هذه المناطق بوفرة مزروعاتها و غالبا ما كانت هذه الغارات قبيل موسم الحصاد أو جني الغلال أما حملات المسلمين بدمشق على هذين الإقليمين فكانت للدفاع عن حدود دمشق أولا، و حماية الحجاج ثانيا، حيث تمتد الطريق إلى مكة عبر هذه المناطق و كذلك لحماية طرق التجارة و التي كانت تأخذ طريقها إلى مصر مع طريق الحج حتى آيلة جنوبا ثالثا[2].

و أخيرا يمكن أن نتحدث عن التقسيمات الإدارية التي كان عليها إقليم الجليل زمن السيادة الصليبية، و الظاهر أن الجليل قد قسم إلى قطاعات و مقاطعات و حتى إلى إمارات مستقلة فيما بعد حيث خضعت بعضها لسلطة الملك مباشرة في حين كانت الإقطاعات الأخرى تابعة لإمارة الجليل الصليبية، بيد أن كل أصحاب هذه المقاطعات أصبحوا بسرعة مستقلين و أفصالا مباشرين للملك الصليبي، الذي كان سعيدا لأن يرى البارونيات الإقطاعية الكبرى تفقد بعض أقاليمها، وعلى سبيل المثال فقد قام أمير الجليل بتشييد قلعتي تورون Torron و نيف Neuf و هونين ، اللتين أصبحتا مستقلتين و أصبح سيدهما فصلا مباشرا للملك[3].

---

(1) تاريخ دمشق، ص 536.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 45، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 337. مؤنس عوض، سياسة نور الدين، ص 153.

(3) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص 160- 161.

Archer, op, cit, p 118.

المبحث الثالث: المنخفضات الشرقيــة

يعتبر إقليم المنخفضات الشرقية أو ما يعرف بإقليم ما وراء نهر الأردن، من أهم الأقاليم التابعة للملكة اللاتينية ، خاصة وأن هذه المناطق كانت تمتاز بالخصوبة مقارنة مع أراضي فلسطين الفقيرة، وقد امتدت إمارة ما وراء نهر الأردن الواسعة من نهر اليرموك في الشمال إلى ميناء العقبة الصليبي على البحر الأحمر في الجنوب، وكان هذا الموقع الاستراتيجي لهذه الإمارة بمثابة فاصل بين مصر الفاطمية وبلاد الشام في الشمال، الأمر الذي كان له بالغ الأهمية [1] في الدفاع عن المملكة،، وتأمين حدودها الجنوبية و الجنوبية الشرقية.

كما مكنت ممتلكات الفرنج في شرقي الأردن، من السيطرة على طرق المواصلات و الإفادة من حركات التنقل الطبيعية التي يسلكها التجار و الحجيج و البدو المسافرون ما بين بلاد الشام ومصر و الجزيرة، كما حدّت من تسلّل البدو وغاراتهم المتواصلة على الحدود الشرقية و الجنوبية للمملكة اللاتينية عن طريق صحراء النقب[2] ، و قد ضمت هذه الإمارة ثلاث مناطق مهمة و هي منطقة نهر الأردن و منطقة وادي عربة و أخيرا خليج العقبة الواقع جنوب المملكة.

منطقة وادي الأردن:

و هي تلك المنطقة الممتدة شرقي البحر الميت [3] و وادي الأردن و تحتل البادية و الصحراء أكثر من 90 من مساحتها ، و تنحدر الضفة الشرقية لنهر الأردن تدريجيا باتجاه الشرق نحو منخفض السرحان و نحو الجنوب ، و تؤلف المرتفعات العمود الفقري لها [4].

و قد امتدت منطقة وادي الأردن إلى تلال الشراة (ايدوم) و مؤاب شرقا [5] و يذكر الاصطخري [6] أنه من "زغر (البحر الميت) إلى جبال الشراة يوم و من جبال الشراة إلى أخر الشراة يوم ، و الأردن أصغر أجناد الشام و أقصرها مسافة".

(1) يوشع براور ، الاستيطان الصليبي ، ص 161 ، أحمد رمضان احمد ، شبه جزيرة سيناء ، ص 41 .
(2) ر.سي ، سميل ، فن الحرب عند الصليبين ، ص 51 ، رنسيمان ، المرجع السابق، ج2 ، ص 158، أرنست باكر، المرجع السابق، ص46.
(3) رنسيمان، المرجع السابق، ص46.
(4) عبد الرحمن حميدة، جغرافية الوطن العربي، ص31.
(5) رنسيمان، المرجع السابق، ج2 ص371.
(6) المسالك و الممالك، ص32.

و وادي الأردن هو ذلك القسم الجنوبي من نهر الأردن (الأردن الكبير) الذي يخرج من جبال لبنان الشرقية ويمر ببحيرة طبرية ثم يصب في البحر الميت ، و يعرف عند النصارى " بالشريعة الكبرى" لاعتقادهم أن يوحنا المعمدان عمّد سيدنا عيسى عليه السلام فيه [1] و نهر الأردن ينبع من جبل الشيخ (جبل الثلج) ، و تسهم في تكوينه ثلاث فروع و هي اللدان و الحاصباني و بانياس ، و أهم رافد له هو نهر بانياس ، و بعد أن يجتاز سهل الحولة يصب في بحيرة طبرية التي تنخفض عن مستوى البحر بمقدار 208 م ، ثم ينحدر جنوبا و يصب في البحر الميت ، ويبلغ طوله 252 كلم [2].

و من بحيرة طبرية ينبع وادي الأردن (الأردن الصغير) و يعرف كذلك بالشريعة الصغرى ، و هو الحد الغربي لمنطقة وادي الأردن التي تعتبر القسم الشمالي من إقليم المنخفضات الشرقية ، و وادي الأردن طويل و ضيق يتراوح عرضه ما بين 15 و 25 كلم ، ومن بحيرة طبرية يمر نحو الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياعه و عليه قرى كثيرة منها بيسان وأريحا و العوجاء و غيرهم [3] و يذكر العمري [4] أن نهر الأردن يبدأ من قرية تعرف بالبقارية جنوبي طبرية ثم يعبر جسر الصنبرة إلى الجسر العادلي و هو تحت عقبة فيق (أفيق) و هي قرية من حوران في طريق الغور ، ثم يمر الوادي بجسر شامة ثم يجتمع مع نهر الزرقاء إلى أن يصل الوادي فيصب في البحيرة المنتنة (البحر الميت) و يجتمع كذلك وادي الأردن مع نهر اليرموك الذي هو بين بحيرة طبرية و القيصر فيصبان نهرا واحدا [5].

يعتبر هذا الوادي مانعا طبيعيا إلى حد ما بين الهضبة الغربية و الهضبة الشرقية، نظرا لشدة انحدار كل من الهضبتين تجاهه و يتلقى هذا الأخدود عددا كبيرا من الجداول من المنحدر الغربي، فتتصرف فيه مياه فلسطين بكثرة متجهة إلى البحر الميت، و تكون الضفة الغربية لوادي الأردن جبال القدس و الخليج و نابلس كثيفة السكان و خصبة مقارنة مع الضفة الشرقية ذات الطابع الصحراوي[6].

اشتهر وادي الأردن و المناطق المجاورة له ذات المناخ المداري بما تنتجه من موز و فاكهة نادرة ، كما تنحصر الزراعة المرواة في غور الأردن حيث تروى من روافد نهر الأردن الشرقية ، و لاسيما نهر اليرموك ، و يعتبر إقليم ما وراء نهر الأردن عامة من أهم المناطق التي اشتهرت أراضيها بزراعة القمح الوافر الإنتاج إلى جانب حوران، وقد كانت تمثل أهم

(1) أمين واصف بك، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، ص8.
(2) العمري ، مسالك الأبصار، ج1 ، ص118، ناجي علوش، جغرافية الوطن العربي، ص63، عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص304.
(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص147، ابن سعيد، الجغرافيا، ص 49، العمري مسالك الأبصار، ج1، ص118.
(4) مسالك الأبصار، ج1، ص118.
(5) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص147-148، أبو الفداء ، تقويم البلدان، ص38.
(6) كمال بن مارس، الظهير الشامي، ص15، عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص290.

مصدر لهذه المادة الأساسية بالنسبة للمملكة اللاتينية أما في المرتفعات فتكون مقادير الأمطار كافية لقيام زراعة شجرية ، بل و حتى لقيام الغابات في جبال علجون شمالي الإقليم [1].

و إلى الجنوب من وادي الأردن يقع البحر الميت أو ما يعرف عند الجغرافيين العرب [2] بالبحيرة المنتنة أو زغر أو البحيرة الميتة أو بحيرة لوط ويبدو أنه سمي بهذا الاسم لاعتقاد الناس أن مدينة سيدنا لوط تقع على شاطئه [3] وهو جنوبي أريحا ويصب فيه نهر الأردن، ولا يعيش فيه أي نوع من الكائنات الحية لشدة ملوحته، وهو آخر الفور من جهة الجنوب [4] ، و البحر الميت أعمق منخفض على سطح الأرض، حيث يهبط هذا البحر إلى حوالي 392م تحت سطح البحر أما قعره فينزل إلى حوالي 800 م تحت سطح البحر، وتبلغ مساحته ما يقارب 920 كم^2 وتحتوي مياهه على 22 % من الملح إلى جانب أنواع أخرى من الأملاح و المواد التي تستعمل كسماد للنباتات، ويسود بجواره المناخ المداري [5].

ويعتبر وادي الأردن حدّاً فاصلاً بين فلسطين والأردن ولهذا النهر ثلاث معابر (مخاضات)، ففي شمال الجبهة يوجد جسر بنات يعقوب جنوب بحيرة الحولة، والممر الثاني عند جسر الصنبرة وكان بإمكان الجيوش مواصلة زحفها عند هذا الممر وعبور النهر وهو واقع جنوب بحيرة طبرية، والممر الثالث وهو جنوب جسر الصنبرة ويُعرف بجسر اليهودية[6].

عندما احتل الصليبيون بيت المقدس (493هـ/ 1099م) ، كان أول ما احتاجوا إليه من العمائر والأماكن ما يتعلق بأسباب الدفاع عن النفس [7]، فاتجهت أنظارهم إلى المنطقة الشرقية التي كانت القبائل العربية القاطنة القاطنة بها تقوم بغارات متتالية و مهددة للملكة ، فكان على الصليبيين إحكام السيطرة على هذه القبائل و توسيع حدود المملكة إلى تلك المناطق التي كانت تتمتع بأهمية تجارية و زراعية كبيرة.

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص19، عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص315، عبد اللطيف عبد الهادي، بلدوين الثالث، ص60.

(2) الاصطخري ، المسالك و الممالك، ص 31-32، ناصر خسرو، سفر نامة، ص 12، ابن سعيد، الجغرافيا، ص 49، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج 3 ، ص158، أبو الفداء ، تقويم البلدان، ص227.

(3) ناصر خسرو، سفر نامة، ص12.

(4) الاصطخري ، المسالك ص31، ناصر خسرو، سفر نامة، ص 12، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج 3 ، ص115، القزويني، آثار البلاد، ص141، ابن سعيد ، الجغرافيا، ص49، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص83، فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص109.

(5) هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص 125، عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص300-301-302-313.

(6) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص346، هانس ماير، المرجع السابق، ص125.

(7) مرفت عثمان ، التحصينات الحربية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر و الشام زمن الحروب الصليبية، دار العالم العربي،ط 1، القاهرة، 2010، ص166.

و برغم ما قام به الملك بلدوين الأول من محاولات لإخضاع إقليم ما وراء الأردن، و شنه لحملتين متتاليتين عليه،الأولى سنة 509 هـ/ 1115 هـ والثانية 510هـ / 116 م نتج عنهما بناء عدة قلاع صليبية أهمها الشوبك Montréal التي هيأت للفرنج سيطرة غير محدودة على طرق القوافل المؤدية من مصر إلى بلاد الحجاز وبلاد الشام، إلاّ أن القوافل لم تزل تجتاز الطرق دون أن تتعرض لمضايقة الفرنجة وخطرهم، ولم يزل بوسع المغيرين من الصحراء أن ينفذوا إلى المملكة اللاتينية [1].

ولما تولى الملك فولك الأنجوي ''Fulk of Anjou'' (527-538هـ / 1131-1143م) عرش المملكة، وبينما كان يغير على جلعاد (534 هـ/ 1139م) حاولت جماعة من المسلمين أن تعبر نهر الأردن في المكان الذي يتصل فيه بالبحر الميت، وذلك للإغارة على فرسان الداوية الذين هاجموا أراضيهم قبل ذلك، و نتيجة لهذه الهجومات قام سيد الشوبك باجان ''Baganus'' بنقل مقره من الشراه إلى مؤاب [2] ليضبط الطرفين الشمالي والجنوبي الملك، على تل عُرف باسم تل البتراء ' 'Petra Deserti" حصنا كبيراً بالغ المناعة اشتهر باسم كرك [3] مؤاب [4].

والكرك مدينة وقلعة حصينة جداً [5] فوق مرتفع صخري، تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك، وإلى الجنوب من المدينة تماماً تنتصب القلعة [6]، وهي عبارة عن نتوء صخري مستطيل الشكل وقد شيد القلعة فوق مصطبتين تفصلهما عن المدينة قناة عميقة، كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحيط بها ويتماشى مع حواف الصخور، وتمتاز القلعة بموقع حصين إذ تحيط بها الأودية من كل جانب فهناك إلى الغرب و الجنوب وادي الكرك وإلى الشمال مدينة الكرك التي يفصلها عن القلعة خندق عميق قطع في الصخور وثم تحصينه في الجهة الشرقية [7].

(1) وليام الصوري، الحروب الصليبية،ج2 ، ص317، رنسيمان ، المرجع السابق، ج2، ص369.

(2) **مُؤاب (مَآب)**: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء وهيجنوبي بُصرة ، **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص31.

(3) و أصل كلمة كرك هو من السريانية Karko ومعناها الحصن، وقيل ذكرت في التوراة و هي مكونة من مقطعين قير Kir يعني الحصن و الثانية تعني تل أي كرك تعني القلعة المحصنة على تل،**أنظر**: رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص370، مرفت عثمان، التحصينات، ص165.

(4) ر. سي. سميل، فن الحرب، ص318، أرنست باكر، المرجع السابق، ص46، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص370.

(5) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص453.

(6) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 247، سميل، المرجع السابق، ص318، مرفت عثمان، التحصينات الحربية، ص165.

(7) أنظر الخريطة رقم (19)،أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 247، سميل، المرجع السابق، ص318، مرفت عثمان، التخصينات الحربية، ص165-166.

ويذكر أن الكرك قديم النشأة وأنه كان ديراً للرهبان، ولما قدم الفرنج أداروا أسواره وحصونه حتى صار مدينة عظيمة، ثم بنوا به قلعة حصينة [1]، وعلى الأرجح أن استيلاء الفرنج عليه كانت أثناء حملاتهم الأولى في عهد الملك بلدوين الأول، الذي قام بإعادة بناء القلعة سنة 509هـ / 1115م ، وحسّن تحصينات المدينة ، و في سنة 537 هـ / 1142م كان تاريخ بناء وتجديد القلعة وإدخال دفاعات جديدة للمدينة وتوسيعها حتى أصبحت من أهم الحصون وأشهرها على الإطلاق في العصور الوسطى[2].

وقد برزت الأهمية التجارية الكبيرة لحصن الكرك بالنسبة للمملكة اللاتينية فيما يسمى بالرسوم أو ضريبة العبور و التي أُعتبرت المصدر الأساسي لثروتها، وقد مكن هذا الحصن بموقعه الاستراتيجي وسط صحراء البتراء الصليبيين من السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر وغربي بلاد العرب إلى بلاد الشام فضلا على أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الأردن الأدنى، ومشرف على صحراء شرق الأردن الأدنى، وأراضي البحر القاحلة [3]، كما مكن حصن الكرك الصليبيين من إحكام السيطرة كذلك على القبائل العربية التي كانت قوة ضاربة في المنطقة و أجبرتها على دفع مقدار من المال سنويا لصالحها [4]

2/ منطقة وادي عربة:

هي تلك المنطقة المنخفضة الممتدة من البحر الميت شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً [5]، ومن صحراء البلقاء شرقاً إلى وادي عربة غرباً، ويعتبر وادي عربة الحد الطبيعي الفاصل بين جنوب الأردن و المدن الداخلية الفلسطينية، ويبلغ انخفاض سطح الأرض عنده نحو 400 متر تحت سطح البحر[6].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص155-156، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج3، ص137.

(2) Ronni Ellenblum, cuisader castles and Modern History, Cambridge University press, new York, 2007, p63-64.

مرفت عثمان، المرجع السابق، ص166.

(3) رنسيمان ، المرجع السابق، ج 2، ص370- 371 ، سميل، المرجع السابق، ص 53، ألبير شاندور، صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام، ص 178، الحويري، الأوضاع الحضارية، ص137، علي السيد علي، المرجع السابق، ص16.

(4) محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، مكتبة الجامعة الأردنية، ط1 الأردن، 1976،ص6.

(5) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ، ج4، ص114-119.

(6) عبد الرحمن حميدة، المرجع السابق، ص301.

اتجهت أنظار الصليبيين إلى هذه المنطقة منذ عهد الملك بلدوين الأول، الذي أدرك أن فلسطين معرضة باستمرار للغزو و التسلل من جهة الجنوب الشرقي، عن طريق النقب، ولذا كان لا بد السيطرة على الإقليم الواقع بين البحر الميت و خليج العقبة، لقطع الطريق بين مصر وسائر العالم الإسلامي(1).

كانت أول محاولة لبلدوين الأول حتى يسيطر على إقليم وادي عربة سنة 500هـ / 1107م، عندما استدعاه رهبان الأديرة اليونانية (الروم الأرثوذكس) القاطنين بالمنطقة للتدخل بعد أن علموا أن البدو ناشدوا طغتكين صاحب دمشق حتى يقيم قاعدة تنفذ منها الغارات إلى المملكة اللاتينية، فما كان من بلدوين إلا أن سار بجيشه إلى معسكر الأتراك بوادي موسى (2)، وحرص على تجنب نشوب معركة معهم، لكن الدماشقة ما إن علموا بوصول الجيش الصليبي حتى تحركوا إلى دمشق مسرعين(3)، غير أن رواية ابن قلانسي (4) تذكر أن إرسال طغتكين للجيش كان نتيجة لما لما قام به الفرنج من غارات على أعمال وادي موسى وجبال مؤاب و الشراة و البلقاء، فما كان منه – طغتكين– إلا أن أقطعها للأمير الأصفهبذ التركماني وأرسل معه الجيش للدفاع عنها، ولما علم الفرنج جمعوا جيوشهم وباغتوه فانهزم ورجع إلى دمشق وبهذا أثبتت الدماشقة أنهم غير قادرين على حماية إقليم وادي عربة وأن امتلاك الصليبيين له لا يعدو أن يكون مسألة وقت فحسب.

عاد بلدوين الأول إلى إقليم عربة سنة 509 هـ / 1115 م ، وعزم على ضرورة الاستيلاء الدائم عليه، فخرج من بيت المقدس، ثم هبط من حبرون (الخليل) ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت واجتاز وادي عربة فوصل إلى المنطقة المعروفة بالشوبك، و التي تقع في منطقة غابات بين المنخفض وبلاد العرب، وتبعد نحو 160 كلم عن أقرب مكان ينزل به الفرنج، فشيّد قلعة ضخمة، أنزل بها حامية عسكرية، وشحنها بالذخائر، وأطلق عليها اسم جبل الملك ''Le Krak de Montréal'' (5).

---

(1) رنسيمان ، المرجع السابق، ج2، ص158.

(2) **وادي موسى**: وهو بين بيت المقدس و الحجاز، يكثر بجانبه الزيتون، ويسمى بوادي موسى نسبة إلى سيدنا موسى عليه السلام عندما خرج من التيه ومعه بني اسرائيل، فعبر هذا الوادي. **أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص346.

(3) رنسيمان ، المرجع السابق، ج2، ص159.

(4) تاريخ دمشق، ص254.

(5) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 157–158، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2 ص316–317، رنسيمان ، المرجع السابق، ج 2 ، ص 159–160، أرنست باكر، المرجع السابق، ص 49، محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص 5، أحمد رمضان، سيناء، ص 42، يوشع براور ، الاستيطان، ص161،

Archer, op, cit, p1.

و الشوبك قلعة حصينة [1]، وهي شمالي العقبة [2]، بنيت على قمة التل المرتفع الذي يشرف على بلدة الشوبك الحالية، ويبلغ ارتفاع هذا التل ما يقارب 1330م عن سطح البحر، و إلى الجنوب منها تقع مدينة عمّان [3] التي تبعد عنها بحوالي 342 كم [4] ، و القلعة شديدة المناعة بفضل موقعها الطبيعي، و ما امتازت به من وسائل دفاعية زودتها بها الطبيعة، فهي بجبال الشّراة الوعرة، إضافة إلى تزويدها بوسائل دفاعية محدثة، حيث وضعت بها حامية من الفرسان والمشاة و أقطعوا الأراضي الشاسعة بالإقليم، كما كان المكان محصنا بالأسوار و الأبراج وبخندق عميق، وجُهز الموضع بالأسلحة و الطعام و الآلات لتجنب أي حصار قد يشنه المغيرون على القلعة [5] ، ويعتبر حصن الشوبك متمما متمما للكرك من الناحية الإستراتيجية لأنه يجبر السالكين لطريق مصر الحجاز أو مصر الشام المرور بالكرك ودفع الرسوم المفروضة عليهم.

شيّد بلدوين الأول حصن الشوبك 509 هـ / 1115م في تلك المنطقة المرتفعة حتى يشرف على الطريق الصحراوي المار من الأردن و الواصل بين دمشق ومصر و الحجاز و العراق هذا من جهة ومن جهة أخرى ليكون بمثابة مركز يمكّن الصليبيين من السيطرة على وادي عربة بأجمعه من جهة أخرى، ولحماية الحد الشرقي لمناطق نفوذهم من أية محاولة لهجوم عدائي ضد الصليبيين من جهة الشرق من جهة ثالثة [6].

كما كان لإقليم وادي عربة أهمية زراعية كبيرة عادت بخيرات وفيرة على ملاكه من الصليبيين، حيث يذكر ويليام الصوري [7] أن الأراضي المجاورة لحصن الشوبك (المونتريال) كانت خصبة وتنتج كميات وفيرة من القمح والنبيذ و الزيت، فقد كان ينتج من وادي عربة كميات كبيرة من القمح و الشعير تنقل إلى بيت المقدس لتغطية حاجته منها [8] ، ولولا مساعدة إقليم ما وراء نهر الأردن عامة لما تيسر للمملكة الصليبية أن تطعم نفسها، وقد حدث ذلك بالفعل عام 581 هـ / 1185م عندما شح الإقليم ما حتم على الصليبيين استيراد القمح من المناطق الخاضعة للمسلمين لسد

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص370.

(2) ابن سعيد ، الجغرافيا، ص49.

(3) **عمّان**، مدينة من البلقاء، وبها أثار عظيمة، يمر تحتها نهر الزرقاء الذي على درب حجاج الشام، وهي غربي الزرقاء، وأرضها خصبة، **أنظر**: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص247.

(4) مرفت عثمان، المرجع السابق،165.

(5) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2 ص317، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص156.

(6) يوشع براور، الاستيطان، ص 36، عاشورا، الحركة الصليبية، ج 1، ص257، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص 65، تيسير بن موسى، غزوات الإفرنج، ص94.

(7) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص317.

(8) محمد كرد علي، خطط الشام، ج4، ص150.

حاجتهم من هذه المادة الأساسية، كما انتشرت أشجار الكروم و الزيتون بكثرة في ضواحي الشوبك حتى غطت احتياجات المملكة وما تبقى وُجه للتصدير إلى أوروبا [(1)].

اشتهرت الشوبك كذلك بكثرة الأشجار المثمرة أهمها المشمش و الرمان [(2)]، كما انتشرت بضواحيها البساتين البساتين و المزارع المختلفة [(3)] وقد زرع الصليبيون قصب السكر بالشوبك ووسعوا هذه الزراعة حتى صارت تضاهي صور صور المناطق الشمالية في إنتاج السكر.

3/ خليج العقبة:

يحد خليج العقبة سيناء الجنوبية من الشرق [(4)]، طوله من رأس محمد [(5)] إلى قلعة العقبة نحو 160 كم وعرضه من 11 إلى 22 كم [(6)]، وهو خليج على بحر القلزم (البحر الأحمر)، و العقبة التي سُمي عليها، مدينة صغيرة على رأس هذا الخليج، على بعد نحو 300 كم من السويس بطريق البحر و 240 كم بطريق البر، وهي مدينة حديثة العهد نسبياً، قامت على أنقاض بعض من مدينة أيلة القديمة، على هضبة صغيرة وتحيط بها حديقة متسعة من النخيل تمتد شمالاً وجنوباً على شاطئ الخليج مسافة كيلومتر أو كيلومترين[(7)].

اتجه بلدوين الأول إلى خليج العقبة سنة 510هـ/1116م بعد سنة من بناء الشوبك، فقطع نهر الأردن وجلب مئونة للجيش حملها على البغال، لمعرفته بصعوبة العثور على الماء و الزاد في تلك المناطق القاحلة، وبذلك تمكن من الوصول إلى خليج العقبة و البحر الأحمر لأول مرة، وقد فر الأهالي لما سمعوا بقدوم الصليبيين خوفاً من بطشهم[(8)].

اتجه بلدوين الأول – بعد ذلك – إلى مدينة أيلة الواقعة على رأس خليج العقبة الذراع الشرقي للبحر الأحمر (بحر القلزم)، واستولى عليها بعد هروب أهلها، وفيها شيد قلعة حصينة لتكون مركز دفاع عن المدينة [(9)] و أيلة من أقدم المدن

---

(1) علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية، ص30، الطحاوي، الاقتصاد، ص205.
(2) ناصر خسرو، سفر نامة، ص13.
(3) أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص247، القلقشدي، صبح الأعشى، ج4، ص156.
(4) أنظر الخريطة رقم (3).
(5) **رأس محمد**: هو تل صغير في رأس مثلث سيناء علوه نحو 120 متر. **أنظر**: نعوم شقير، تاريخ سيناء، ص17.
(6) نفسه، ص16.
(7) احمد رمضان أحمد، سيناء، ص169.
(8) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص226، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص160.
(9) أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص45، محمد عدنان البخيت، المرجع السابق، ص5.

المدن المشهورة على ساحل بحر القلزم [1]، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، وعليها طريق حجاج مصر، كما كان حجاج جنوب الشام يأتونها بدرب غزة فيجتمعون فيها مع حجاج مصر [2]، ويحتل موقع أيلة أهمية كبيرة فوقوعها على رأس خليج العقبة جعل ميناءها محمياً من تيارات وأعاصير البحر[3].

أما عن قلعة أيلة فلا يُعلم بالضبط الفترة التي بنيت فيها، وهل كانت موجودة قبل استيلائهم على أيلة ؟ غير أن المرجع أن مدينة أيلة وهي مدينة حدود –كما سبق وأن بيّنا – لا بد أن تكون بها قلعة قبل استيلاء الفرنج عليها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن ضراوة الحروب الصليبية بين المسلمين و الفرنج في منطقة متغلغلة في الصحراء بعيدة عن ساحل بحر الروم، وعن مركز تجمع الفرنج في بيت المقدس لم يكن يسمح للصليبيين بإقامة قلعة في منطقة كمدينة أيلة ولكن لا يستبعد أن يكون الصليبيون قد أضافوا إليها بعض المباني و التحصينات التي تتفق وأسلوبهم الحربي [4].

وبعد أن شيّد بلدوين قلعة أيلة ، اتجه إلى جزيرة صغيرة تدعى جزيرة فرعون [5] وعرفها الفرنج باسم (Ile de Gray) فبنا بها قلعة أخرى، وهي واقعة قبالة أيلة في خليج العقبة، عند رأس الخليج على 13 كم من مدينة العقبة بحراً، وهي جزيرة صغيرة محيطها نحو ألف متر، وهي مؤلفة من أكمتين (تلتين صغيرتين) بينهما فرجة ضيقة، وبينها وبين بر سيناء نحو 250 متر، ويحيط بها سور منيع له باب إلى جهة سيناء، وبسيطرة الصليبيين على هذه الجزيرة تمكنوا من إحكام الحصار على مصر .

بعد سيطرة الصليبيين على خليج العقبة وترك حاميتين عسكريتين بأيلة وجزيرة فرعون، أضحوا يتحكمون في الطرق التي تصل بين دمشق وبلاد العرب ومصر، وصار من اليسير عليهم أن يغيروا على القوافل كيفما شاءوا، بينما يتعذر على أي جيش إسلامي أن يصل إلى مصر من الشرق [6].

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص292، ابن سعيد، الجغرافيا، ص 46، القزويني، أثار البلاد، ص 153، أمين واصف بك، معجم الخريطة، ص83.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 178، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص87، أحمد رمضان، سيناء ص169.

(3) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص 169.

(4) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص168، مرفت عثمان، المرجع السابق، ص165.

(5) **لخليج العقبة ثلاث جزر**: جزيرة فرعون المذكورة، وجزيرة تيران وجزيرة سنافر، **أنظر** :نعوم شقير، المرجع السابق، ص16.

(6) رنسيمان المرجع السابق، ج2، ص160.

إن ما قام به بلدوين الأول جعل لخليج العقبة قيمة كبيرة من الناحية الدفاعية للصليبيين، إذ يستطيع المدافع من ارتفاع 600 متر أن يعترض طريق أي سفينة تقتحم الخليج إلى ميناء أيلة، وتمتد وعورة هذه المنطقة حتى نقب العقبة نفسها وهي نقطة الحدود العربية على الخليج، إذ ينحدر الطريق من رأس النقب إلى العقبة انحداراً سريعاً (1).

كانت منطقة المنخفضات الشرقية تمثل الحدود الآمنة للدولة اللاتينية والتي كانت أساس كل سياسة دفاعية عن مملكة بيت المقدس الصليبية، فقد كانت حصون الشوبك والكرك وأيلة هي دعائم تلك السياسة، لذلك كان الملوك اللاتين لا يفرطون بحال من الأحوال فيها، كما وأن المسلمين لا سيما في عهدي نور الدين وصلاح الدين قد وعوا بأهمية هذه المنطقة في أي عملية استرداد أو هجوم على مملكة بيت المقدس، لذلك كانت حملاتهم مستمرة على هذه الحصون، وظلت جيوشهم في حالة الجاهزية لمراقبة أي تحرك صليبي بهذه المنطقة لضمان سلامة قوافلهم وجيوشهم (2)، على أنه طوال الفترة الممتدة من استيلاء بلدوين الأول على منطقة المنخفضات الشرقية لم يقم المسلمون سواء في مصر أو بلاد الشام أو حتى فارس بمهاجمة قلاعها حتى الحملة النورية الأولى إلى مصر 559هـ/ 1164م. حين شكلت هذه المحطات الصليبية شوكة في حلق الجيوش و التجارة بين البلدين دمشق ومصر، لكن قبل ذلك فقد عزل إقليم المنخفضات الشرقية بلاد الشام عن مصر وحتى عن الحجاز.

---

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص10.

(2) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص170.

المبحث الرابع: صحراء سيناء والحملة على مصر.

1/ صحراء سيناء[1]:

وهي تلك البادية الشهيرة التي تصل مصر [2] ببلاد الشام والحجاز ، وتقع شبه جزيرة سيناء بين ذراعي البحر الأحمر (بحر القلزم) يحدها من الجنوب الشرقي خليج العقبة، ومن الجنوب الغربي خليج السويس، أما البحر الشامي الذي يحد سيناء من الشمال فطول شاطئه من رفح [3] إلى بور سعيد نحو 200 كم وطوله في خط مستقيم بلغ 160 كم [4]، وقد قُدرت المسافة من شمال سيناء إلى جوبها بضعفي ذلك [5] ، كما امتدت سهول البحر الأحمر على جانبي شبه الجزيرة مسافة 2100 كم، أما مساحتها الكلية فقد قاربت 61000 كم^2 [6].

ولم يقم بسيناء في زمن من الأزمان دولة أو أمة ، وذلك يعود إلى موقعها الجغرافي و طبيعة أرضها اللذان لا يؤهلانها لذلك، فشاطئها رملي معرض للرياح الشمالية الغربية التي تشتد في غالب الأحيان حتى يستحيل على السفن الاقتراب منه لشدة هياج الأمواج، وليس في هذا الشاطئ ما يصلح أن يكون ميناءًا للسفن إلا خليجاً صخرياً بين مدينة العريش و الشيخ زويّد يدعى جرف الحصين عند بئر المصيدة فإنه إن أعتني به صلح لأن يكون ميناءًا للسفن الصغيرة [7].

وشبه جزيرة سيناء هضبة شاهقة الارتفاع يوجد بها قمم بركانية عالية أهمها جبل سانت كاترين الذي يبلغ ارتفاعه 2639 متر جبل الثبت 2439 متر، وجبل أم شومر 2586 متر، و على الشمال من هذه القمم البركانية توجد هضبة التيه التي تنحدر شمالاً وتكون ثلثي مساحة شبه الجزيرة، ويبلغ متوسط ارتفاعها ألف متر، ويقع وادي العريش

---

(1) لصحراء سيناء العديد من الأسماء التي أطلقت عليها أهمها: جزيرة طور سيناء، أو جزيرة سيناء، أو الجزيرة أو سيناء طلباً للاستقرار، أما نسبتها لطور سيناء لأن هذا الطور هو أشهر جبالها. أنظر: نعوم شقير، تاريخ سيناء، ص9-10. **أنظر**: الخريطة رقم (3).

(2) لقد اعتبرت سيناء على مدى العصور من أعمال مصر وتابعة لها، **أنظر**: الإصطخري، المسالك و الممالك، ص 24، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص193، أبو الفداء، تقويم البلدان ص103، نعوم شقير، المرجع السابق، ص9.

(3) لقد كانت رفح في أكثر العصور الحد بين مصر وبلاد الشام على البحر الشامي، ويذكر اليعقوبي الذي عاش في أواخر القرن 3 هـ/ م أن حد مصر في مكان يدعى "الشجرتين" قرب رفح، كما يؤكد أبو الفداء أن حد مصر هو رفح "وحد ديار مصرمن الشمال بحر الروم من رفح إلى العريش...."، أما المقدسي وياقوت الحموي فيذكران مدينة العريش ويعتبرانها أول أعمال مصر من جهة الشام. أ **نظر**: أحسن التقاسيم، ص193، البلدان، ص57، معجم البلدان ، ج4 ، ص113، تقويم البلدان، ص103.

(4) أحمد رمضان أحمد ، شبه جزيرة سيناء، ص5.

(5) ناجي علوش، جغرافية الوطن العربي، ص44.

(6) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص5، نعوم شقير، المرجع السابق، ص1،10.

(7) نعوم شقير، المرجع السابق، ص1.

العظيم هو وروافده المختلفة شاقاً طريقه نحو البحر الشامي حيث ينتهي بالقرب من مدينة العريش، كما توجد وديان أخرى عميقة تشق هضبة التيه شرقاً وتنتهي عند خليج السويس شرقاً[1].

وقد قسمت صحراء سيناء إلى ثلاثة أقسام، القسم الجنوبي وهو بلاد الطور [2]، فهي بلاد جبلية وعرة تعلو في الوسط وتنحدر تدريجياً على الشرق و الغرب فتسيل منها الأودية على خليج العقبة وخليج السويس ولم يسكن بها غير الرهبان و النساك في الأديرة المبنية على قمم التلال و الجبال و القبائل البدوية التي كانت ترتحل من مكان لآخر بحثا عن الكلأ و الماء لدوابها[3].

ويشغل القسم الأوسط من شبه جزيرة سيناء بلاد التيه، و التي تعرف أيضا ببرية التيه، و هي سهل عظيم أرضه صلبة جامدة التربة ومقفرة، تغطيها الرمال وفي بعض الأجزاء وطبقة رقيقة من فتات الصوان في الأجزاء الأخرى [4]، ويتصل الحد الشمالي لبلاد التيه بالجفار (بلاد العريش) و الحد الجنوبي بجبل طور سيناء [5]، وقد بلغت مساحة هذا السهل ما يقارب 16093 كم^2 وارتفاعه نحو 457م عن سطح البحر[6].

ويفصل بلاد التيه عن جنوب شبه الجزيرة سلسلة عظيمة من الجبال تعرف بجبال التيه، و تمتد من السويس إلى العقبة في شكل قوس عظيم كثير الامتداد جنوباً [7]، ويذكر الإصطخري و ابن حوقل [8] أن طول بلاد التيه نحو أربعين فرسخاً وعرضه قريب من طوله، أما ابن سعيد [9] فيقول أن التيه على أربعة مراحل، كما تنتشر بهذا السهل المقفر نخيل وعيون قليلة [10] وتخترقه من الجنوب إلى الشمال وادي العريش العظيم وفروعه وفي وسطه بلدة نخل الشهيرة [11].

ويعتبر قسم وسط سيناء قليل العمران فلا توجد به إلا نقط مبعثرة آهلة بالسكان أهمها القسيمة و بير الحسنة و الثمد ونخل، وهي نقطة تقع على طرق المواصلات الرئيسية التي تخترق وسط سيناء من شرقي السويس إلى

---

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص5،6.

(2) ذكرنا في الفصل السابق جغرافية بلاد الطور وأهميتها الدينية، **أنظر**: ص14-15، 21-24.

(3) نعوم شقير، المرجع السابق، ص22-23.

(4) الاصطخري ، المسالك و الممالك، ص 26، ابن حوقل، المسالك، ص 104، أبو الفداء ، تقويم البلدان، ص 109، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص7.

(5) ابن حوقل، المسالك، ص 104.

(6) نعوم شقير، المرجع السابق، ص24.

(7) نعوم شقير، المرجع السابق، ص24.

(8) الاصطخري ، المسالك و الممالك، ص26، ابن حوقل، المسالك، ص 104.

(9) الجغرافيا، ص49.

(10) ابن حوقل، المسالك، ص 104.

(11) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص7.

العقبة [1]، وأهم هذه الطرق وأقدمها "درب الشعوي" الذي يسير من شط السويس في وادي الراحة فيقطع هضبة الراحة ليدخل أرض التيه شمالي عين سدر، وفي هضبة التيه يسير الدرب شرقاً قاطعاً أعالي فروع اليرموك أولاً ثم يقطع وادي العريش نفسه شمالاً إلى الثمد ثم يسير شرقاً حتى يصل العقبة[2].

ولم تسخر الطرق المارة عبر التيه إلا للتجارة، فلم تكن طرقاً حربية إلا زمن صلاح الدين، الذي تفطن لأهميتها الإستراتيجية في مباغتة الصليبيين الذين استأثروا بالطرق الشمالية المارة عبر بلاد العريش ولم يولوا أهمية لهذه الطرق المارة في قلب شبه الجزيرة، وقد سلك صلاح الدين درب الشعوي أثناء مسيره إلى جزيرة فرعون وأيلة وذلك في سنة 578هـ / 1182م ، عندما خرج جيشه من مصر متخذاً الطريق عبر سيناء إلى أيلة، وشن الغارات من هناك على أطراف مملكة بيت المقدس ثم اتجه إلى حصني الكرك و الشوبك أين قام بحصارهما ومهاجمتهما بعنف[3].

و القسم الشمالي من شبه جزيرة سيناء يسمى بلاد العريش نسبة لأهم مدينة به وهي مدينة العريش، ويتكون هذا القسم من سهل كبير يتدرج في الانحدار من هضبة التيه نحو الشمال حتى البحر الشامي [4]، وهو في مجمله سهول متسعة من الرمال تتخللها بقاع صالحة للزراعة، وتنصرف مياه هذا السهل في وادي العريش وروافده العديدة التي تتفرع من هضبة العجمة، وتبلغ مساحة هذا القسم بالتقريب 8 آلاف كيلومتر مربع، وحده الطبيعي مع بلاد التيه هو جبل المغارة [5]، وقد أطلق مؤرخوا العرب [6] على بلاد العريش اسم الجفار لكثرة الجفار بأرضها، و الجفار جمع جفر و هي البئر الواسعة القريبة القعر [7].

ويمتد السهل الساحلي (بلاد العريش) حتى هضبة التيه، يعبره طريق الحج القديم المشهور، ثم يهبط السهل إلى مستوى 400 متر يغذيه وادي قرية من الشرق ووادي اليرموك من الغرب ثم يشق الوادي طريقه في خانق ضيق يسمى بالضيقة بين جبل ضلفع من الشرق و جبل الحلال من الغرب، ثم يهبط إلى مستوى 200 متر ويشق طريقه في منطقة

---

(1) نفسه، ص8.

(2) نعوم شقير، المرجع السابق، ص265.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 101، أبوشامة، الروضين، ج3، ص70، سحر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي ، ص46.

(4) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص6.

(5) نعوم شقير، المرجع السابق، ص24.

(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 193، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص144، القزويني، آثار البلاد، ص 179، ابو الفداء، تقويم البلدان ، ص103، المقديزي، الخطط، ج1، ص591.

(7) نعوم شقير، المرجع السابق، ص25.

كثبان رملية حتى ينتهي شرقي العريش، ويغطي هذا السهل كثبان رملية تعتبر خزانات طبيعية لمياه الأمطار التي تسقط في الشتاء، على أن موارد المياه عامة قليلة حتى في القسم الشمالي اللهم إلا عدد من الآبار المتناثرة [1].

ويكثر في بلاد العريش النخل الذي ينتشر في جميع مناطقها ز كذلك الكروم وشجر الرمان و العديد من الفواكه المختلفة وأهلها بدو متحضرون أي أنهم قليلو التنقل و يميلون للاستقرار، ويزرعون في الرمل زرعاً ضعيفاً [2]، ومياه هذا السهل توجد على مستويين، المستوى العلوي وهو لا يزيد على بضعة أمتار عن سطح البحر، والثاني ويُعرف بمستوى "الغجرة" وعمقه يتراوح من 10 إلى 15 متر عن سطح البحر [3].

ومن أشهر أراضي القسم الشمالي "الجورة" وهي شرقي العريش وجنوبي رفح مساحتها واسعة وهي أخصب بلاد العريش وأجودها تربة ويزرع فيها القمح و الشعير و الذرة وبها آثار من عهد الرومان ، كذلك يمتد شرقي الجورة متسع عظيم من الرمال يدعى "العجرة" تتخلله بقاع زراعية، وإلى الجنوب الغربي من العجرة يمتد سهل رملي مرتفع تكسوه الأعشاب التي ترعاها الإبل ويسميه أهل سيناء "بالتراث" وكذا "قطية" و "الزُقبة" وهي بقاع صالحة للزراعة يكثر فيها النخيل وتعتبر بحيرة البردويل من أشهر بلاد العريش —وسيأتي ذكرها لا حقاً–، أما جبال بلاد العريش فجميعها في الجنوب في المنطقة الفاصلة عن بلاد التيه وأهمها جبل المغارة وجبل "ريسان عُنيزة"[4].

---

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص6.

(2) القزويني، آثار البلادوأخبار العباد، ص179،221، نعوم شقير، المرجع السابق، ص27.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص6.

(4) نعوم شقير، المرجع السابق، ص25، 26، 27، 39.

الحملة على مصر:

إن فكرة غزو مصر من قبل الصليبيين ترجع إلى الوقت الذي ثبّتوا فيه أقدامهم في فلسطين منذ القرن 5 هـ/ 11م ، ذلك أن جودفري أول حكام مملكة بيت المقدس فكر في غزو مصر [1] سنة 492هـ/1099م عن طريق شبه جزيرة سيناء، ولكن وافته المنية قبل أن ينفذ مشروعه [2]، بل إن بعض الآراء [3] تذهب إلى أن فكرة غزو مصر جاءت قبل سقوط بيت المقدس، ذلك أن المؤرخ اللاتيني ريموندأجيل [4]، أكد أن الصليبيين لما عقدوا مجلسا للحرب في الرملة أوائل رجب 492 هـ/أوائل جوان 1099م ، ناقشوا عدة مسائل أهمها الرأي القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا في القاهرة، وأن العدو الحقيقي لهم هو مصر، غير أن هذا المشروع قد أُجل لما حل بالصليبيين من تعب وإرهاق طوال الحملة الصليبية الأولى.

لقد بقي مشروع غزو مصر مسيطر على عقول الزعماء الصليبيين طوال عصر الحروب الصليبية [5]، خاصة بعد ما لمسوه من ضعف الخلافة الفاطمية وسيطرة الوزراء على سُدة الحكم في مصر، كما أن موقف الفاطميين تجاه الغزو الصليبي كان غريباً، فنجدهم لم يقدموا يد المساعدة للقوى الإسلامية التي تولت أمر الدفاع عن أنطاكية ضد خطر الغزو الصليبي عليها [6]ويذكر ابن تغري بردي [7] أن الأفضل لم ينهض لإخراج عساكر مصر مع قدرته على المال و الرجال.

غير أن هناك من يذهب إلى أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس، ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة و البيزنطيين و الصليبيين جميعاً [8]، وقد اتهم ابن الأثير [9] الفاطميين بدعوة الصليبيين إلى بلاد الشام الشام لمساعدتهم ضد الخطر السلجوقي الداهم و الذي امتد إلى بلاد إلى أغلب الأملاك الفاطمية بجنوب الشام، و

---

(1) لقد وعد جودفري بطريك بيت المقدس نة 493 هـ/1100م أنه متى تم له فتح مدينة كبيرة و بالأخص القاهرة فسيتنازل له عن بيت المقدس، هذا ما يؤكد طموح جودفري في الاستيلاء على مصر. **انظر**: أرنست باكر، الحروب الصليبية، ص48.

(2) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص41.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج1 ص390-391، عاشورا، الحركة الصليبية، ج1، ص188، محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص32.

(4) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص 120.

(5) أرنست باكر، المرجع السابق، ص48، عاشورا، الحركة الصليبية، ج1، ص188-189.

(6) جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 103، 104، 105، أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية تفسير جديد، ص 221، أحمد رمضان، سيناء ص44.

(7) النجوم الزاهرة، ج5، ص147.

(8) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص184.

(9) الكامل، ج9، ص13-14.

الأرجح أن نظرة الفاطميين لما يدور في الشام كانت نظرة خاطئة تماماً، فقد كان همهم الأول هو إعادة ما سُلب منهم في بلاد الشام دون أن يُعيروا أمر الغزو الصليبي للبلاد الإسلامية أية أهمية [1].

وإلى جانب هذه الأسباب، فقد كانت رغبة الصليبيين في تأمين ممتلكاتهم في الشام من أهم أسباب الحملة على مصر، فبعد وفاة جودفري 493هـ/1100 م لم يلبث أن حل محله أخوه بلدوين الأول الذي فكر تفكيراً استراتيجياً سليماً استهدف تأمين الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس فبدأ بالجنوب الشرقي مسيطراً على وادي عربة حتى البحر الأحمر حيث خليج العقبة أين صار بوسعه التحكم في خط المواصلات بين مصر ودمشق وتهديد طريق الحج إلى مكة و المدينة خاصة بعد تشييده حصن الشوبك سنة 509 هـ/ 1115 م وبنائه لقلعة على أيلة وأخرى في جزيرة فرعون في العام التالي[2].

وهكذا تمكن بلدوين الأول من أن يجعل مملكة بيت المقدس تصل إلى حدودها التاريخية عام 510هـ/1116م، ولم يبق أمامه إلا أن يُهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم [3]، و الواقع أن التفكير في تأمين حدود مملكته من ناحية الجنوب الشرقي يوضح أسلوب غزوه لمصر، فقد كان واضحاً بعد السيطرة على وادي عربة وبناء حصن الشوبك وقلعة أيلة وجزيرة فرعون أنه ينوي اختراق شبه جزيرة سيناء إلى مصر[4].

كما كان لتتابع الهجمات الفاطمية من عسقلان على الحدود الجنوبية للمملكة اللاتينية دور كبير في دفع الملك بلدوين إلى تجسيد فكرته في غزو مصر سنة 11هـ/1111م ، فقد قامت الجيوش الفاطمية بغارتين موفّقتين على المملكة، ففي سنة 507هـ/1113م وبينما كان بلدوين منصرفاً لقتال السلاجقة في الشمال، مضت القوات الفاطمية في تقدمها حتى بلغت أسوار بيت المقدس، وأمعنت في النهب أينما سارت، وفي سنة 509هـ/1115م كاد ينعقد لها الظفر أثناء مباغتته يافا، ولم يكن رد بلدوين سوى أن يُغير على مصر ذاتها [5].

و في أوائل شهر ذي الحجة 511هـ/مارس 1118م قرر الملك بلدوين الأول غزو مصر [6]، وقد فضل الغزو البري عن طريق شبه جزيرة سيناء رغم المشاق التي تتعرض لها أية قوات تسلكها، فسيناء ليس بها سوى بعض

---

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص54.

(2) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 158، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص316-317، أرنست باكر، المرجع السابق، ص45، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص41-42، محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص42.

(3) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص258.

(4) عبد الرحمن زكي، الجيش المصري في العصر الاسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص 68، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص42.

(5) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص328، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161.

(6) ابن أيبك الداودري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج 6، ص480، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص53، الحريري، الأخبار التنسية في الحروب الصليبية، ج1، ص60، هانس ماير، المرجع السابق، ص147، عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص258.

الدروب التي تُحيط بها الصحراء الواسعة، فضلاً عن ندرة المياه و النباتات فيها اللهم إلاّ الشوك والحسك الذي ترعاه الإبل وقليل من النخل، وبعبارة أخرى فإن شبه جزيرة سيناء لم تكن بالمعبر أو الطريق الممهد لمن يسلكها [1].

وقد اعتمد بلدوين في عبوره هذه الصحراء القاحلة على البدو [2]، ذلك انه لم يتحرك من بيت المقدس حتى اتفق مع شيوخ القبائل النازلة بالصحراء على تزويد الجيش الصليبي أثناء مروره بمناطقهم بالزاد و الماء كما قام بعض البدو بدور الأدلاء و العيون للجيش الصليبي [3].

وقد اتجه بلدوين الأول لغزو مصر بجيش صغير لم يتجاوز المائتين وستة عشر فارساً، وأربعمائة راجل ولم يُحاول حشد جميع القوى الصليبيين في الشام لغزو الدولة الفاطمية، مما يثبت أنه لم يكن ينوي القيام بعمل حربي واسع النطاق، وربما كان بلدوين يستهدف مهاجمتهم (الفاطميين) ليضطرهم إلى الاستعانة بحاميتي صور وعسقلان، ويستولي على هاتين المدينتين من غير عناء [4]، على أن ابن الأثير [5] قد ذكر أن تلك الغزوة إنما كان بلدوين يقصد بها ملك مصر و التغلب عليها.

سار الملك الصليبي من بيت المقدس بعد أن توفرت له المؤن، واتجه إلى حبرون [6] ومنها إلى غزة في الجنوب الجنوب الغربي، وقد كانت الحملات الفاطمية التي خرجت لغزو الصليبيين في الشام مشجعاً لبلدوين على إمكانية سير القوات الصليبية عبر الصحراء، هذا إلى جانب ما يبدو من أن سيناء كانت خالية من أي قوات حربية يمكنها الوقوف في وجه الهجوم الصليبي على مصر. كما أن طبيعة موقع مملكة بيت المقدس قد رجح اختيار الصليبيين الطريق البري عبر المدخل الشرقي لمصر ألا وهو سيناء، ذلك أن دولة الصليبيين في بيت المقدس كانت قوة برية، وإن كان هذا لا يمنع القوى البحرية من أن تقوم بدور الإمدادات التموينية أثناء عبور الجيش للصحراء، فضلاً عن تقديم الإمدادات البشرية أو معدات الحصار إذا لزم الأمر [7].

---

(1) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص42.

(2) لقد ذكر كل من المقريزي و العمري أن قبيلتي جرم و ثعلبة الساكنتين بسيناء قد تعاونتا مع الفرنج على المسلمين، **أنظر**: البيان و الإعراب، ص7، المسالك و الممالك، ج4، ص300.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص42.

(4) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161، عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص258.

(5) الكامل، ج9،ص 178.

(6) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161.

(7) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص42، 43، 67.

وقد اختار الملك بلدوين عند غزوه مصر سلك الطريق الشمالي [1] في شبه جزيرة سيناء، خاصة وأن الطريق الشمالي كان أفضل الطرق لاختراق سيناء بالنسبة للجيوش الغازية و التي تملك قوة بحرية يمكن أن تحمي جناحها الأيمن، وهكذا استطاع الصليبيون أن يعبروا تلك الصحراء القاحلة سالكين المحور الشمالي دون أي مقاومة [2].

كان الجيش الصليبي في أوائل ذي الحجة / مارس، قد اخترق صحراء سيناء [3] ومر برفح التي تقع على مرحلة من غزة بعد الداروم وبينها و بين عسقلان يومان [4]، حتى وصل مدينة العريش التي اعتبرها العديد من الجغرافيين [5] أول أعمال مصر من ناحية الشام، وهي شرقي غزة حيث يلتوي البحر إلى الجنوب الغربي أين تقع العريش [6]، وهي وهي على ساحل بحر الروم على طريق الرمال، بينها وبين رفح مسيرة يوم، وتكثر بها الفواكه و التمر وصيد الطيور[7].

ويسكن في هذه المناطق الممتدة من رفح حتى العريش قوم من لخم و جُذام و ثعلبة [8] وكان لهم دور كبير في عبور هذه الحملة الصليبية بسلام، فلم تحدث منهم أية مقاومة لإفشالها خاصة وأن بلدوين لم يصطحب معه عدداً كبيراً من الفرسان، لكن البدو قاموا بعكس ذلك وقدموا الماء و الزاد وحتى الأدلاء للصليبيين ودخلوا في خدمتهم، أما الفاطميين فلم يُحركوا ساكناً ولم تحدث مهم أية مقاومة رغم معرفتهم بدخول القوات الصليبية حدود مصر ونية بلدوين في غزوها، وهذا ما يعكس القدر الذي آلت إليه الخلافة الفاطمية من الضعف و الانحلال في هذه الفترة [9].

اتخذ بلدوين من العريش طريق الساحل الشمالية ماراً ببحيرة سربونيوس، التي عُرفت فيما بعد باسم بحيرة (بلدوين) [10] ثم حُرفت فأصبحت تُعرف بإسم بردويل [11] و تعتبر هذه البحيرة من أشهر بلاد العريش، وهي بحيرة عظيمة تمتد من خرائب الفلوسيات على نحو 16 كم غربي العريش، إلى خرائب المحمدية على نحو 13 كم شرقي الفرما [12] وهي الآن واقعة شرقي بور سعيد على شاطئ البحر المتوسط و على بعد 90 كم منها [1]، ويبلغ طولها حوالي 93

---

(1) أنظر الخريطة رقم (6).

(2) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص43.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161، عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص258، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص67.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص54، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص109.

(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص193، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص113، اليعقوبي، البلدان، ص57.

(6) ابن سعيد، الجغرافيا، 48.

(7) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص113، القزويني، آثار البلاد، ص221، ابن سعيد، الجغرافيا، 48، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص109.

(8) اليعقوبي، البلدان، ص57.

(9) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161.

(10) يذكر ابن تغري بردي أن سبب تسمية هذه البحيرة باسم الملك بلدوين هو أنه خلال حملته على مصر 1118/512م أصابه مرض فعاد من الفرما، وقبل أن يصل العريش أهلكه الله، فشق أصحابه بطنه و رموا حشوته (أمعائه) في هذه البحيرة، وهي ترجم إلى الآن، **أنظر**: النجوم الزاهرة، ج5 ص169.

(11) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص67-68.

(12) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص68.

كم أما عرضها فيختلف من نحو كيلومتر واحد إلى 16 كم، و للبحيرة فم ضيّق يدخل منه ماء البحر (الشامي) شرقي القلس، كثيب عظيم من الرمال يمتد نحو 3.2 كم على شاطئ البحر عند منتصف البحيرة، ومازال هذا الكثيب يحتفظ بخرائب بلدة قديمة طمرتها الرمال (2).

وابتداء من فصل الربيع ينحسر ماء البحيرة حتى فصل الصيف، ونتيجة لذلك تنفصل من بحيرة البردويل بحيرة صغيرة تعرف باسم بحيرة الزرانيق لتترك شريط ضيّق من البر يسمح بمرور المسافر من العريش إلى الفرما، على أن هذه البحيرة تعود في الشتاء فتتصل ببحيرة الردويل، ونتيجة لوصول الملك بلدوين بجيشه إلى هذه المنطقة في فصل الربيع فقد استغل انحسار الماء في البحيرة لعبور جيشه إلى الفرما بسلام كما يمكن للمار أن يقطع المسافة بقارب مرتين، مرة عند فم بحيرة البردويل و الثانية عند فم بحيرة الزرانيق، ولا يزيد عمق الماء في البحيرتين عن مترين أو ثلاثة أمتار، وينخفض عمقه إلى أقل من ذلك في بعض الجهات، ويكثر في البحيرتين السمك (3).

وقد كان السفر خطيراً في بحيرة البردويل، لأنها لا تبق على حال واحدة فكانت إذا سُدت الأفواه التي تربطها بالبحر الشامي تبخر ماؤها وبقي في الطريق عدّة برك موحلة تغطيها الرياح الرملية إذا مرّت عليها، فتحجب وُحولها عن نظر المسافرين فيغوصون فيها، وتذكر الراويات أن جيوشاً عظيمة غرقت برمتها في تلك الوحول المخبوءة(4).

وقد أمضى بلدوين وجيشه الصليبي في منطقة بحيرة البردويل فترة غير قصيرة امتدت حتى أواخر شهر ذي القعدة 511هـ/ مارس 1118م، حيث التقط فيها أنفاسه من شدة حرارة فصل الريع و كذا هبوب الرياح الموسمية (5).

وبعد أن عبر الملك بلدوين الأول بقواته منطقة بحيرة البردويل وصل إلى مدينة الفرما (6) وكان ذلك في 25 ذو القعدة 511 هـ/ 21 مارس 1118 م (7) و تعتبر هذه المدينة أولى المراكز الأمامية في الأراضي المصرية، وتقع الفرما على ساحل البحر الشامي حيث تبعد عنه بأقل من كيلومترين، وتعتبر هذا المدينة من أهم محطات الطريق الساحلي

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص169.

(2) نعوم شقير، المرجع السابق، ص27.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص68.

(4) نعوم شقير، المرجع السابق، ص27.

(5) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص67.

(6) كان بمدينة الفرما شأن كبير عبر العصور، فهي من حصون مصر القديمة خاصة زمن الفراعنة الذين اعتبروها الحدود الآمنة لدولتهم من جهة الشرق، فقد كان بها على الدوام قوة عسكرية للتصدي لأي اعتداء طارئ، لذلك فقد كانت الفرما حصناً من حصون مصر أكثر مما هي مدينة، **أنظر**: صابر محمد دياب ، المرجع السابق، ص197، **أنظر** :الخريطة رقم (3).

(7) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 162، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص328، ابن أيبك،كنز الدرر، ج 6، ص480، المقريزي ، الخطط، ج1، ص593-594، اتعاظ الحنفا، ج3، ص53، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص169، الحريري، المرجع السابق، ص 60، رنسيمان ، المرجع السابق، ج2، ص161، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص258، عبد الرحمن زكي، الجيش المصري، ص68.

الشمالي، كما يجري إليها فرع النيل (فرع دمياط) الذي يؤدي إلى مصر السفلى، وهي قصبة الجفار، و تغلب عليها الرمال الذهبية، عليها حصن بني عليها زمن الخليفة المتوكل (232-247هـ/ 846 – 861م) و ميناء عامر [1].

ونتيجة لأهمية موقعها الذي يقرب بحر الروم (المتوسط) من بحر القلزم (الأحمر)، حتى بقي بينهما أقل من 112كم، كانت للمدينة زمن الفاطميين شأن كبير، إذ أشرفت على الطريق من الصحراء الشرقية، كما كانت أيضاً رأس الطريق إلى بلاد الحجاز ومن ثمة أصبحت مكاناً آمنا تأوي إليه القوات الفاطمية [2].

لما وصل الملك بلدوين الأول وجيشه مدينة الفرما، استولوا عليها، وقد كانت دهشتهم عظيمة عندما وجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها تاركين وراءهم متاعهم وزادهم، بعد أن علموا بزحف الصليبيين على المدينة، مما هيأ للغزاة قدراً كبيراً من الغنائم أفادوا منه بعد أن شح ما معهم من المؤن، ولم يكتف بلدوين بما ناله من غنائم بل أحرق المدينة واتجه إلى مسجدها الجامع فأحرقه وأتبع به جميع مساجد المدينة [3]، وبذلك استولى الفرنج على أول مركز دفاعي عن شرق مصر [4].

وفي عصر الخليفة الظافر بأمر الله (545-549هـ/1150-1154م) أعاد الصليبيون الكرّة وهجموا على مدينة الفرما سنة 548هـ/1153م، بعد أن استولوا على مدينة عسقلان [5]، ويذكر المقريزي [6] أن الصليبيين قد قد نزلوا على الفرما في هذه السنة وكانوا في جمع كبير فنهبوا أهلها وأحرقوها.

ولم يلبث الصليبيون أن استأنفوا مشروع غزو مصر زمن الملك عموري الأول (557-570هـ/1162-1174م) وذلك في سنة 575هـ/1162م وقد كانت أول محطة قد وقفوا بينهم وبين غزو مصر، وإذا كان النيل في موسم الفيضان استطاع ضرغام أن يُجبر عموري الأول على الانسحاب بأن حطم بعض سدود النيل [7].

وبعد مدينة الفرما الشهيرة تقع مدينة تنيس غربيها وجنوبي بحيرة المنزلة أو (بحيرة تنيس)، وقد مر بها الملك بلدوين الأول وجيشه عام 511هـ/1118م [1] ويذكر كل من ابن الأثير و وليام الصوري [2] أن الجيش الصليبي قد مر

---

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص195، اليعقوبي، البلدان، ص57، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص106، المقريزي، الخطط، ج1، ص591، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج2، ص328، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص258، محمد صابر دياب، سياسة الدول الإسلامية ، ص197.

(2) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص156، محمد صابر دياب، المرجع السابق، ص197.

(3) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص 162، وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج 2، ص328-329، ابن أيبك، كنز الدرر، ج 6، ص480، المقريزي، الخطط، ج 1، ص593، النويري، نهاية الأرب، ج 28، ص178، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص178، رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص161، أرنست باكر، الحركة الصليبية، ص48، الحريري، المرجع السابق، ص 60.

(4) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص43.

(5) المرجع نفسه، ص103.

(6) المقريزي، الخطط، ج1، ص593.

(7) رنسيمان، المرجع السابق، ج3، ص592.

مر بالمدينة ووصل إلى مصب نهر النيل أي إلى مدينة دمياط. فعلاً على أن بلدوين لم يستطع التقدم في حملته الاستطلاعية هذه أكثر من ذلك لقلة ما معه من القوات و العدد [3].

و تنيس جزيرة و مدينة جميلة، وهي بعيدة عن الساحل، وتقع شرقي دمياط [4]، كما يحيط بهذه الجزيرة بحيرة تنيس التي يفيض فيها ماء النيل و تتصل هذه البحيرة ببحر الروم، فإذا امتد النيل في الصيف غلب الماء المالح من حول تنيس حيث يصبح ماء البحر عذباً حتى 55 كم تقريباً حولها، وقد بنوا بهذه الجزيرة صهاريج عظيمة تحت الأرض تسمى بالمصانع، فحين يغلب ماء النيل ويُطرد الماء المالح من هناك تملأ هذه الأحواض و يستعمل السكان هذا الماء طوال السنة، و الفائض من الصهاريج يُباع أو يُعطى للمحتاجين و الغرباء، و يكون ماء البحيرة أغلب السنة مالحاً لدخول ماء البحر إليه [5].

ومدينة تنيس ذات طابع صحراوي، فلا تكثر بها الزروع سوى بعض الواحات و الكروم التي ينتج منها الزبيب [6]، كما تنتشر بها الأسواق الفخمة وينسج بتنيس القصب الملون الذي تصنع به العمامات و ملابس النساء، ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غيرها وما ينسج منه في مصانع السلطان لا يُباع و لا يُعطى لأحد [7].

وقد اهتم الفاطميون بتحصين مدينة تنيس، فأحكموا السيطرة على مينائها، لقواتهم و مراكبهم الحربية المرابطة فيها، وجعلوها قاعدة بحرية لأسطولهم الحربي و التجاري [8]، ويذكر الرحالة ناصر خسروا [9] الذي زار زمن الفاطميين، أنه كان يرابط حول تنيس دائما ألف سفينة، منها ما هو للتجار، وكثير منها للسلطان، ويُجلب لهذه الجزيرة كل ما تحتاجه إليه إذ ليس بها من خيرات الأرض شيء، وتجري المعاملات فيها بالسفن لأنها جزيرة.

وكان بمدينة تنيس زمن الفاطميين دار لصناعة السفن، كما جعلوا فوق كل مسجد من مساجدها (وكان بها 160 مسجداً) منارة يرصدون منها سفن العدو، إذا قدم للغزو ومداهمة الأسطول الفاطمي بتنيس [10].

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص259.

(2) الكامل، ج9، ص178، الحروب الصليبية، ج2، ص329.

(3) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص69، هانس ماير، المرجع السابق، ص 147.

(4) ناصر خسرو، سفر نامة ، ص26، ابن سعيد، الجغرافيا، ص47، القزويني، آثار البلاد، ص176.

(5) الإصطخري، المسالك و الممالك، ص24-26، ناصر خسرو، سفر نامة، ص26.

(6)ابن حوقل، المسالك، ص101.

(7) ناصر خسرو، سفر نامة ، ص26، ابن سعيد، الجغرافيا، ص48.

(8) صابر محمد دياب، سياسة الدول الإسلامية، ص195-196.

(9) ناصر خسرو، سفر نامة، ص26.

(10) صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص196.

وقد هاجم الملك بلدوين الثالث مدينة تنيس سنة 548هـ/ 1153م بعد استيلائه على عسقلان جنوب الشام، فنزل أسطول صقلية المرافق للقوات البرية الصليبية على سواحل مصر وأحرقوا المدينة، بعد أن كانوا قبل ذلك قد خربوا الفرما، ولما تقدمت القوات الصليبية أخذت ما أمكنها أخذه من الغنائم وعادت إلى بيت المقدس [1].

إن المحاولات التي قام بها الصليبيون لغزو مصر منذ عهد الملك بلدوين الأول الذي كرّ راجعاً إلى العريش وتوفي قبل وصوله إلى بيت المقدس دون أن يحقق نصراً ملموساً على الفاطميين [2]، وبلدوين الثالث الذي هدد بغزو مصر سنة 555هـ/ 1160م و لم يمنعه من ذلك إلا ما حصل عليه من وعد بأن يؤدي له الخليفة الفاطمي إتاوة سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار، على أن هذه الإتاوة لم يجر دفعها مطلقاً فاتخذ عموري الأول من ذلك ذريعة ليهاجم مصر شوال 558هـ/ سبتمبر 1163م، كل هذه المحاولات كان مصيرها الفشل رغم ما كانت تعانيه الخلافة الفاطمية من ضعف [3].

وقد كانت حملات الملك عموري الأول الشهيرة على مصر (558-564هـ/1162-1168م) من أعنف الحملات التي شهدتها المنطقة و التي اتخذت من سيناء طريقاً لها متوغلة في العمق المصري، لكن دون أن تستطيع هذه القوات الصليبية الاحتفاظ بالأرض التي غزتها داخل مصر [4].

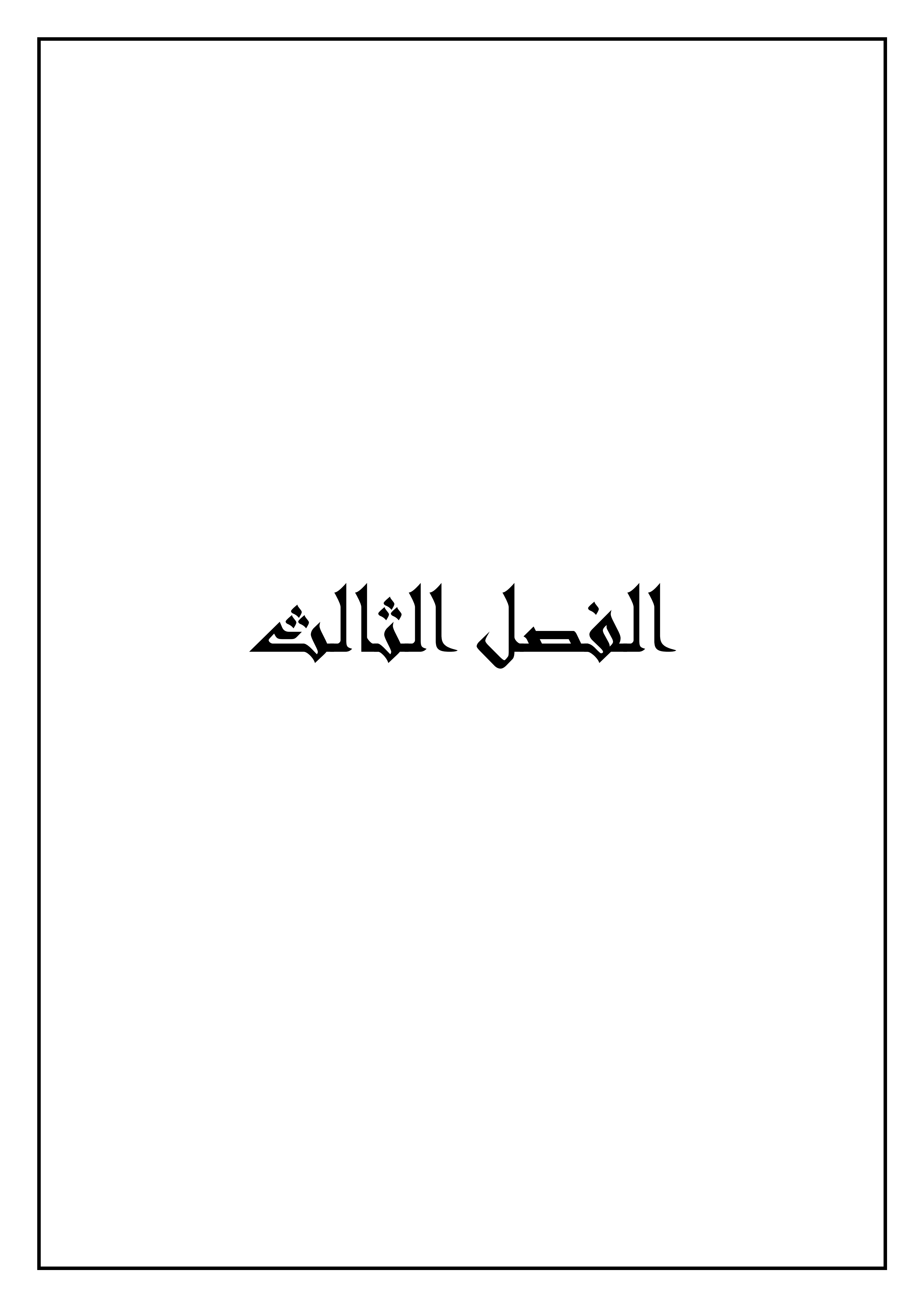
---

(1) ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج6، ص563، أحمد رمضان أحمد، المرجع السابق، ص103.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، 178، المقريزي، الخطط، ج1، ص593، اتعاظ الحنفا، ج3، ص53، النويري، نهاية الأرب، ج28، ص178، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج5، ص169، وليام، الحروب الصليبية، ج2، ص329-330، رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص161.

(3) رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص592.

(4) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص43-44.



الفصل الثالث

الفصل الثالث: الجـبهة الجـنوبية على عهد نور الـدين و صـلاح الدين.

المبحث الأول:معركة حارم 559هـ/1164م ونهاية الصراع على الجبهة الشمالية

المبحث الثاني: حملات نور الدين على مصر.

1- الحملة النورية الأولى

2- الحملة النورية الثانية

3- الحملة النورية الثالثة.

المبحث الثالث: حملات نور الدين على مملكة بيت المقدس.

1/: بيت المقدس و الجليل

2/: المنخفضات الشرقية

المبحث الرابع:صلاح الدين و الصليبيين في الجبهة الجنوبية.

1/:حملات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس

أ/بيت المقدس

ب/الجليل

ج/المنخفضات الشرقية.

2/:معركة حطين و نهاية الوجود الصليبي في الجبهة الجنوبية.

المبحث الخامس: أهم القلاع و الحصون في الجبهة الجنوبية و دورها العسكري.

1/ أهم القلاع في المملكة اللاتينية

2/أهم القلاع في شبه جزيرة سيناء

المبحث الأول: معركة حارم 559هـ/1164م و نهاية الصراع على الجبهة الشمالية.

لقد حاولنا سابقا إبراز موقع الجبهة الجنوبية [1] وأهميتها الكبيرة في مختلف المجالات الحيوية،و بخاصة الدينية والتجارية ، غير أنه ومنذ دخول الصليبيين إلى بلاد الشام وتأسيسهم لإمارات (الرها ،أنطاكية و طرابلس) و من ثمة إعلانهم عن قيام المملكة اللاتينية 493هـ/1199م، لم يكن الصراع الإسلامي- الصليبي قد وجه نحوها بعد ، فقد كان متمركزا في الجبهة الشمالية [2] الممتدة من الجزيرة الفراتية شرقا إلى البحر الشامي غربا حيث سعى السلاجقة في الشام و فارس و من بعدهم الأتابكة لمنع امتداد السيطرة الصليبية إلى المدن الإسلامية الكبرى الواقعة فيها خاصة حلب و دمشق و إرجاع ما يمكن إرجاعه.

وقد ظل الصراع بين المسلمين و الفرنجة محتدما في الجبهة الشمالية منذ حملة كربوغا صاحب الموصل سنة 491هـ/1098م على أنطاكية، غير أن الطرفين لم يحققا أية انتصارات بارزة، فقد اقتصرت نتائج صراعهما على تحصيل الغنائم وتهديد العدو بضم بعض الحصون أو القرى المتاخمة،و لم يتمكن أي طرف من التغلب على الآخر أو حتى استرجاع ما سلب منه ، كما لم تتسع حدود الإمارات الصليبية لتشمل مدن أخرى غير التي أخذتها في الحملة الصليبية الأولى.

ولم يوجه الصراع الإسلامي - الصليبي فعليا إلى الجبهة الجنوبية إلى بعد معركة حارم سنة 559هـ/1164م حيث تمكن نور الدين محمود بع دها من إحكام سيطرته على الجبهة الشمالية خاصة بعد أن ضم إليه دمشق سنة 549 هـ/1154 فخلق بذلك جبهة شمالية يمكن من خلالها الضغط العسكري على المملكة اللاتينية و من ثمة نقل الصراع إلى الجبهة الجنوبية التي لم تدرك القوى الإسلامية أهميتها مبكرا ومدى تأثيرها في قلب موازين القوى لصالح الطرف الإسلامي [3].

غير أنه لا يمكن إهمال بعض المحاولات الإسلامية التي هددت المملكة اللاتينية قبل عام 559هـ/1164م ، فبالرغم من تمركز الصراع في المناطق الشمالية إلا أن بعض القو ى الإسلامية قد أدركت مبكرا الخطر الكبير الناجم عن

---

(1) أنظر الخريطة رقم (1)

(2) أنظر الخريطة رقم (9).

(3) محمد مؤنس عوض،السياسة الخارجية لنور الدين محمود،ص 164.

تأسيس مملكة صليبية في قلب البلاد الإسلامية، وعلى رأس ها الدولة الفاطمية المتاخمة للحدود الجنوبية للمملكة و سلاجقة فارس الممثل الأول للخلافة العباسية و السلطان السلجوقي.

لم يشكل الفاطميون تهديدا كبيرا على المملكة اللاتينية باستثناء بعض المناوشات و الحملات الصغيرة التي بعث بها وزراؤها [(1)]، والتي لم تلبث أن تعود أدراجها دون إحراز أي تهديد حقيقي على مملكة بيت المقدس ، أو حتى تسترجع ما قد أخذه الصليبيون منها في بلاد الشام بعد استيلائهم على بيت المقدس 493هـ/1164م[(2)].

أما القوة الثانية التي هددت المملكة اللاتينية و التي تمثلت في سلاجقة فارس، فقد بعثت بأمير الموصل مودود الذي قاد حملتين إلى بلاد الشام [(3)]، و يمكن اعتبار ما قام به هذا الأمير التهديد الإسلامي الوحيد الذي تمكن من نقل الصراع في تلك الفترة المبكرة إلى الجبهة الجنوبية [(4)]،خاصة وأن الملك الصليبي بلدوين الأول لما سمع بقدوم الجيش السلجوقي نحو مملكته دعا القوى الصليبية المتمركزة في الجبهة الشمالية لنجدته فقدم كل من أمير أنطاكية وكونت طرابلس للدفاع عن مملكتهم من خطر سلاجقة فارس [(5)]، وهنا يظهر لنا جليا أنه في الفترة المزامنة لحملتي مودود (505هـ/1111م)،(507هـ/1113م) انتقل الصراع الإسلامي - الصليبي إلى الجبهة الجنوبية لما أحدثته هاتان الحملتان من تهديد للوجود الصليبي في المنطقة.

وبظهور قوة الزنكيين في شمال الشام و الجزيرة، وقيام الدولة النورية التي نجحت في تحقيق الوحدة بين حلب و حماه و حمص و دمشق أُغلق باب التوسع أمام الصليبيين في الشمال الشرقي للشام، ولم يبق أمامهم سوى مصر في الجنوب الغربي، خاصة و أنها كانت تبدو غنيمة سهلة نتيجة لانحلال الخلافة الفاطمية واختلال الأحوال الداخلية للبلاد،لذلك توجه الملك الصليبي عموري الأول Amalric (557-569هـ/1163-1173م) لغزوها سنة 557هـ

---

(1) لقد توالت حملات الفاطميين على المملكة اللاتينية منذ سقوط بيت المقدس،و كانت البداية مع معركة عسقلان التي قادها الوزير الأفضل سنة 493هـ/1099م،وقد هزم شر هزيمة، ثم تتابعت انهزامات الفاطميين في موقعة الرملة الأولى 495هـ/1101م ثم موقعة الرملة الثانية 496 هـ/1102م ما أكد للأفضل أن ما ضاع منهم في الشام قد ضاع للأبد .**أنظر**:ابن الأثير،الكامل،ج9،ص21،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 151 ،رنسيمان، المرجع السابق،ج2،ص122-124 ،عاشور الحركة الصليبية،ج1،ص234-235.

(2) المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج3،ص24، أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية تفسير جديد،ص159.

(3) لقد تم ذكر الحملتين بالتفصيل في الفصل السابق.**أنظر** : ص 134-136.

(4) ابن القلانسي،تاريخ دمشق،ص284-298، ابن العديم، زبدة الحلب، ج2،ص158-163، الذهبي،العبر في أخبار من ذهب، ج 3،ص368، رنسيمان ، المرجع السابق، ج2،ص189-196.

(5) وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج2،ص300.

/1162م،ما أثار مخاوف نور الدين محمود الذي كان مدركا تماما لأهمية مصر في تحقيق الوحدة الإسلامية لمواجهة العدوان الصليبي[1]

إن جرأة الصليبيين في مهاجمة مصر اضطرت نور الدين للقيام بعدة حملات قوية في الشام عقب وفاة الملك بلدوين الثالث مباشرة لتحويل نظرهم عن مصر من جهة و الاستفادة من الموقف الناتج داخل بيت المقدس عن وفاة ملك وقيام آخر من جهة أخرى،و قد بدأ نور الدين غزواته في تلك المرحلة بمهاجمة حصن حارم [2] سنة557هـ/ 1162م فحاصره وجد في قتاله غير أنه امتنع عليه لحصانته وكثرة من فيه من مقاتلين فانسحب من أمامه و عاد أدراجه[3].

و كان في السنة الموالية 558هـ/1163م أن اغتنم نور الدين فرصة غياب الملك عموري الأول لغزو مصر وذلك بحجة أن الفاطميين لم يدفعوا للمملكة الصليبية الإتاوة التي قد تعهدوا بدفعها سابقا لأخيه الملك بلدوين الثالث،فهاجم-نور الدين- إمارة طرابلس وأغار على البقيعة (سهل البقاع) حتى يحاصر حصن الأكراد الذي كان يبعد عن حمص بحوالي 40 كم ، و قد تمتع هذا الحصن بأهمية كبيرة حيث كان يشرف على السهل الساحلي الضيق و يتحكم في الممر الهام بين سهول نهر العاصي و البحر المتوسط، كما أشرف على كل الأقاليم الواقعة بين أنطرطوس و طرابلس من ناحية و حمص من ناحية أخرى [4]. و قد كانت الرغبة في تأمين خطوط التجارة من أهم دوافع نور الدين للإغارة على هذا الحصن[5].

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص529-531.

(2) **حصن حارم**: حصن حصين غربي حلب بالقرب من أنطاكية، على بعد 16كم منها، و بعد فتحها على يد نور الدين سنة 559هـ/1164م صارت من أعمال حلب، فيها أشجار كثيرة و مياه غزيرة، وقد سميت بحارم لحصانتها بمعنى يحرمها العدو أو تكون حرما لمن بداخلها، وهي حاليا من مناطق محافظة أوليا في شمال سوريا و تبعد عن أوليا مسافة 53كم ، **أنظر**:ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج2،ص205،محمد مؤنس عوض، السياسة الخارجية لنور الدين،ص175.

(3) ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية، ص109 ،عاشور، الحركة الصليبية،ج1،ص531، الحويري، بناء الجبهة الإسلامية الموحدة،ص129.

(4) ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة،ج2،ص ،رنسيمان ،المرجع السابق،ج3،ص593.

(5) محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية، ص168.

إمارة طرابلس تعتبر أضعف الإمارات الصليبية في بلاد الشام [1]، غير أنه و لحسن حظ الفرنجة أن تصادف هجوم نور الدين على حصن الأكراد مع عبور جيش من الحجاج[2] سهل البقيعة فانحاز هذا الجيش مع ريموند Raymond أمير طرابلس، كما انضم إليه أمير أنطاكية وحاكم قليقية البيزنطي و مقدم الداوية،فحدث صراع عنيف بين الطرفين ، وعرفت المعركة بالبقيعة، وهزم الجيش النوري هزيمة فادحة بل أن نور الدين نفسه تمكن من الفرار بأعجوبة إلى حمص ، ويبدو أن عنصر المفاجأة لعب دورا كبيرا في انتصار الصليبيين[3]، وقد أوضحت هذه المعركة بعض القصور في تنظيمات الجيش النوري، وكذا تزايد اعتماد الصليبيين على الدعم الأوربي و عناصر الهيئات الدينية الحربية في معاركهم مع المسلمين[4].

بعد الهزيمة التي مني بها نور الدين في البقيعة ، بقي يتحين الحظة التي سيثأر فيها من الفرنجة[5]لما ألحقوه به من خسارة،و قد أتيحت له الفرصة سنة 559هـ /1164م حيث اغتنم فرصة غياب الملك عموري الأول الذي اتجه نحو مصر لتنفيذ مشروعه الصليبي هناك ومنع الجيش الذي بعث به نور الدين لإعادة الوزير شاور إلى منصبه من تحقيق أطماعه في البلاد ، وسترد تفاصيل ذلك فيما بعد ، وكان أن هاجم-نور الدين- هذه المرة إمارة أنطاكية حتى يجبر الملك الصليبي على ترك مصر[6].

اتجه نور الدين بجيش كبير في شهر رمضان559هـ/أوت 1164م إلى قلعة حارم التي تعتبر المعقل الرئيس لإمارة أنطاكية الصليبية و كان قد انضم إليه أخويه نصرة الدين و قطب الدين أتابك الموصل، وكذا فخر الدين قرا أرسلان

---

(1) لعل ما شجع نور الدين على مهاجمة طرابلس إضافة إلى ضعفها أنه في ذلك الوقت أحس بالنفور القائم بين ريموند أمير طرابلس و الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول بعدما قام ريموند بمهاجمة الأملاك البيزنطية لرفض مانويل الزواج من أخته ميليسند، **انظر**:مهدي سعيد عمران، معركة حارم، التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين محمود زنكي (1164م/559هـ)،(د،م،ن)، ص90.

(2) لقد ذكر وليام الصوري أنه قد قدم في هذا الوقت عدد كبير من النبلاء من بلاد" أكويتانيا "في رحلة الحج للعبادة وكان من بينهم نبيل يدعى" جودفرى" ويلقب بمارتل و هو أحد أخوة" كونت أنجوليم" و هيج اللوزياني و لما فرغوا من حجهم وفق العادة الجارية تابعوا سيرهم إلى أنطاكية علموا بتقدم جيوش نور الدين نحو طرابلس فساروا نحوه مع ريموند ، **أنظر**: الحروب الصليبية، ج4،ص30.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج9،ص467،الباهر،ص116-117،رنسيمان،المرجع السابق ،ج3،ص593، حسين مؤنس،نور الدين بن زنكي فجر الحروب الصليبية ،ص285، مهدي سعيد عمران،معركة حارم ، ص90-91.

(4) محمد مؤنس عوض،السياسة الخارجية لنور الدين،ص180-181.

(5) يذكر ابن الأثير أن نور الدين قد عزم على الثأر وقال" والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام و ثأري"، ثم أرسل إلى حلب و دمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة و الخيام، فأعطى جنده عوض ما فقدوه في المعركة.**أنظر**:الباهر، ص117.

(6) تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص159-160.

الأرتقي صاحب حصن كيفا،و نجم الدين ألبي صاحب ماردين وزين الدين كوجك حاكم أربيل، و حاكم سنجار و سيف الدين صاحب منبج، غيرهم [1]،وشرعوا في حصار حصن حارم و نصبوا حوله الآلات الحربية و بدءوا في الإغارة عليه[2].

و بالرغم أن الصليبيين قد حرموا من العون العسكري الكبير الذي كان من الممكن أن يقدمه لهم الملك عموري الأول[3]، إلا أنهم ما إن سمعوا بحصار نور الدين لحصن حارم حتى سارعوا لمساعدة سيده رينالد أوف سانت فاليري Reynald of saint valiry الذي كان قد استبسل في الدفاع عنه ، وكان صاحب أنطاكية بوهيمند الثالث Bohémond قد سارع في استدعاء كلا من ريموند كونت طرابلس و ثوروس thores صاحب أرمينية والقائد البيزنطي قسطنطين كولومان Constantin Colman حاكم قليقية[4] للنهوض معه و دحر المسلمين عن إمارته و قد بلغ عدد القوات المتحالفة ثلاثين ألفا [5]، فلما سمع نور الدين بقدومهم رفع الحصار عن حارم و انسحب بجيشه باتجاه أرتاح[6] و كان قصده استدراج العدو إلى أين يسهل القضاء عليه، فعبأ جنده تعبئة كاملة وفرق الكمائن في شعاب شعاب الجبال وانتظر قدوم الحلف الصليبي.[7].

و ما إن أنسحب نور الدين بجيشه حتى ظن الصليبيون أنه قد خاف حلفهم القوي فتقهقر، ولم يكتفوا بإنقاذ الحصن المحاصر،بل عزم أمير أنطاكية بوهيمند على اللحاق بالمسلمين مخالفا نصيحة صاحب حارم الذي كان يعلم أن جيش نور الدين يفوقهم عددا،خاصة وأنه لم يكن مع بوهيمند إلا ستمائة فارس،وتظاهر المسلمون بالفرار واستمر

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9،ص467، الباهر في الدولة الأتابكية، ص123،ابن واصل،مفرج الكروب، ج1،ص234،ابن كثير،البداية و النهاية ،ج12 ،ص196 ،رنسيمان، المرجع السابق، ج3،ص596، تيسير بن موسى،غزوات الإفرنج،ص159-160.

(2) وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج4،ص31.

(3) محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين،ص175.

(4) إن انضمام كل من ثوروس و كولومان إلى الجانب الصليبي يدل على عدم وجود أي نفور في هذه الفترة بين الأرمن و البيزنطيين و الفرنج،كما أن تقدم كولومان للدفاع عن حارم هي من ممتلكات إمارة أنطاكية يؤكد اهتمام البيزنطيين بأمر هذه الإمارة باعتبارها واقعة تحت سيادتهم،و من هنا يمكن القول أن البيزنطيين و الصليبيين و الأرمن قد تركوا خلافاتهم جانبا للقضاء على الخطر الإسلامي الداهم و هو نور الدين، **أنظر**: وليام الصوري، الحروب الصليبية، ج4،ص 31-32 ،مهدي سعيد عمران، المرجع السابق،ص92-93 .

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دراسة و تحقيق:محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ج57،دار الفكر للنشر والتوزيع،بيروت،1995.

(6) **أرتاح**: وتسمى كذلك بأرتاح و هي حصن منيع كان من عواصم أمال حلب،**أنظر**: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1،ص140.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج9،ص468،وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج4،ص31،رنسيمان، المرجع السابق، ج1،ص596،حسين مؤنس،المرجع السابق ، ص292 ،تيسير بن موسى،المرجع السابق،ص160،مهدي سعيد عمران،معركة حارم،ص93.

بمطاردتهم حتى ابتعد عن بقية زملائه ووصل إلى المكان الذي حدده نور الدين للمعركة وهو بالقرب من أرتاح و يدعى "عم"[1] ،وقد كان شديد الضيق كثير الوحل فلم يجد نفسه ومن معه إلا محاصرين من جميع الجهات فانهالت سيوف المسلمين على الجند الصليبي فأكثروا فيهم القتل و تابع المسلمون الكر على بقية الجيش الصليبي ووقع الصدام بين الجيشين في 18 رمضان/10 أوت، فهزموهم شر هزيمة[2].

ولم ينجو من الصليبيين إلا من وقع بالأسر و هم معظم قادتهم و أمرائهم مثل بوه يمند أمير أنطاكية و ريموند كونت طرابلس و كولومان البيزنطي، أما ثوروس فقد لاذ بالفرار بعد أن رأى أن الغلبة صارت لنور الدين فنجا بنفسه ، و يذكر أنه قد أشار على الصليبيين بعدم قتال المسلمين حتى عودة الملك عموري الأول من مصر لكنهم لم ينصتوا إليه[3]،و قد ذكرت المصادر الإسلامية[4] أن عدد القتلى في هذه المعركة قد بلغ العشرة آلاف قتيل إلى جانب ما يقارب يقارب الستة آلاف أسير.

لقد كانت الهزيمة التي حلت بالقوات المتحالفة هزيمة ساحقة، وانتصارا كبيرا لنور الدين ضد الوجود الصليبي في شمال الشام،و قد ترتب عليها نتائج متعددة أهمها أن المسلمين تشجعوا بهذا النصر فتقدموا لمهاجمة حارم و تمكنوا من الاستيلاء عليها بعد عدة أيام و ذلك يوم 21 رمضان 559هـ/12 أوت 1164م، كما عمل نور الدين على الإغارة على مناطق أنطاكية بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده و بلغت قواته اللاذقية كما شجع هذا النصر أيضا القوات الإسلامية على محاصرة مدينة بانياس قرب دمشق وكان هذا الحصار ضمن العوامل التي أرغمت القوات الصليبية التي كان يقودها عموري الأول في مصر على الانسحاب والعودة إلى الشام لإنقاذ المدينة، غير أنها وصلت متأخرة،فقد

---

(1) **عم**: قرية ذات عيون جارية و أشجار تقع بين حلب و أنطاكية و كل سكانها من النصارى،**أنظر**: ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج4،ص157.

(2) ابن الأثير، الكامل،ج 9،ص468،الباهر في الدولة الأتابكية، ص123،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 1،ص 362،ابن العديم،زبدة الحلب في تاريخ حلب ،ج2،ص318، ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص144-145،الذهبي، العبر،ج3،ص30،اليافعي،مرآة الجنان و عبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، مراجعة:خليل منصور،ج 3،دار الكتب،العلمية،ط 1، بيروت، 1997،ص258،أبو الفداء، المختصر،ج 3،ص41،ابن خلدون ،العبر،ج 5 ،ص288 ،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج 4،ص31-32،رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص596،عاشور،الحركة الصليبية،ج 1،ص534،حسين مؤنس، المرجع السابق،ص292،مسفر بن سالم عريج الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر (491-569هـ/1097-1173م)،دار المطبوعات الحديثة،ط1،جدة،1986،ص288،

(3) وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص32،رنسيمان، المرجع السابق،ح3،ص596،مهدي سعيد عمران، المرجع السابق،ص 92-93.

(4)ابن الأثير، الكامل،ج 9،ص469، ابن العديم، زبدة الحلب،ج 2،ص320،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 1،ص364،ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1 ،ص145.

كانت بانياس قد سقطت و ضمت إلى أملاك الدولة النورية، وهكذا نجح نور الدين في الاستيلاء على حارم و بانياس و ساعد على انسحاب الصليبيين من مصر[1].

و كان ما أحرزه نور الدين من انتصار على القوى المتحالفة في معركة حارم قد جعل الطريق مفتوحا أمامه إلى أنطاكية خاصة بعد أسر صاحبها الأمير بوهيمند،إلا أن نور الدين لم يجازف بمهاجمة المدينة برغم حث أصحابه له بالزحف عليها بعد أن أضحت مجردة من أسباب الدفاع، غير أنه رفض ذلك لإدراكه بثاقب نظره لطبيعة الظروف المحيطة به ،[2] و يذكر ابن الأثير[3]أن نور الدين قد قال لمن أشاروا عليه بالسير لأنطاكية:" أما المدينة فأمرها سهل و أما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية و سلموها إليه و مجاورة بيمند أحب إلى من مجاورة ملك الروم" .

و من الواضح أن نور الدين كان متخوفا من تدخل الإمبراطورية البيزنطية في شؤون إمارة أنطاكية و السيطرة عليها بذريعة حمايتها من خطر الغزو الإسلامي لها لذلك كان يرى عدم الاستيلاء عليها و ترك الأمور في هذه الإمارة على حالها حتى لا تلقي الإمبراطورية البيزنطية بثقلها العسكري في الإمارة، و بذلك يصبح على نور الدين أن يواجه البيزنطيين و الصليبيين في وقت واحد[4]،و يمكن القول أن نور الدين كان يعوزه الأسطول لمحاصرة المدينة من جميع الجهات بما فيها البحر لذلك فضل الانسحاب و العودة إلى دمشق .

و في الأخير يمكن القول أن نور الدين محمود قد تمكن بعد انتصاره في معركة حارم 559هـ/1164م من غلق باب التوسع و الصراع على الجهات الشمالية للشام، و أثبت للصليبيين أنه أصبح سيد الموقف و القوة الضاربة في المنطقة، واستطاع بعد هذه المعركة توجيه الصراع الإسلامي إلى الجبهة الجنوبية،جبهة بيت القدس و مصر حيث بعث

---

(1) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق،ج 57،ص122، ابن لأثير، الكامل،ج 9،ص 469، الباهر،ص 125،ابن العديم، زبدة الحلب،ج 2،ص321 ، أبو شامة،كتاب الروضتين،ج1،ص364،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص145-146، أبو الفداء،المختصر،ج3،ص41،ابن كثير،البداية و النهاية،ج 8 ،ص 196 ،ابن خلدون،العبر،ج 5،ص288-289،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج 4،ص33، رنسيمان، المرجع السابق،ج 3،ص596-597، حسين مؤنس،المرجع السابق،ص293،محمد مؤنس عوض،سياسة نور الدين الخارجية،ص 177، تيسير بن موسى،المرجع السابق،ص 161،مهدي سعيد عمران،المرجع السابق،ص95،إفرام عيسى يوسف،الحملات الصليبية كما يرويها المؤرخون السريان، ترجمة، فخري العباسي، دار الطليعة للنشر و التوزيع ،ط 1 ،بيروت،2010،ص169، محمد صالح منصور،أثر العامل الديني،ص219،

(2) أبو شامة، كتاب الروضتين،ج1 ،ص364،رنسيمان، المرجع السابق،ج3،ص597.

(3) الباهر في الدولة الأتابكية ،ص125.

(4) مهدي سعيد عمران، المرجع السابق، ص96.

بحملات متتالية إلى مصر و من ثم هدد المملكة اللاتينية نفسها ليعمل على إضعافها، فقد كانت سياسة نور الدين مع الصليبيين تسعى إلى التوازن معهم ثم إضعافهم ، وقد قطف صلاح الدين ثمار هذه السياسة و تمكن من القضاء عليهم وتشتيتهم في معركة حطين 583هـ/1187م.

المبحث الثاني: حملات نور الدين على مصر.

كان ضم دمشق و أعمالها إلى حوزة نور الدين سنة 549هـ / 1154، قد جعل الفجوة التي حجز ﻪ لزمن طويل عن مملكة بيت المقدس تنهار و تزول، و بعبارة أخرى فإن نجاح نور الدين في الاستيلاء على دمشق و التوحيد بينها و بين حلب تحت حكمه إضافة إلى تزايد نفوذه على أتباعه و حلفائه من أمراء الجزيرة، أصبحت تحت إمرته إمكانيات عسكرية كبيرة مكنه من التفكير في ضم مصر إلى دولته ليتحقق له تطويق المملكة الصليبية برا و فتح المجال لإيجاد أسطول لمحاصرتها بحرا .

وقد أدرك الصليبيون جليا أن سيطرة نور الدين على حلب و حماه و حمص و دمشق قد حالت دون توسعهم في الشمال ،خاصة و أن قواتهم لم تكن على قدم المساواة مع قواته في الشمال فكان الطريق الطبيعي الذي بقي مفتوحا أمامهم هو طريق مصر[1] حيث أين كانت الدولة الفاطمية تعاني آلام الموت البطيء بعد انتشار الفوضى و ضعف سلطة الخليفة على وزراءه و حكام أقاليمه[2].

أخذ نور الدين يتجه ببصره إلى مصر على أساس أن الجبهة الإسلامية في الشام لن تقو ى و تتماسك ضد الصليبيين إلا إذا انضمت إليها مصر بمواردها الاقتصادية و البشرية الوفيرة، وهي إذا اتحدت مع الشام و العراق كان ذلك إيذانا بتصفية الكيان الصليبي الدخيل، غير أن وقوع ممتلكات الصليبين في الطريق بين الدولة النورية ومصر جعل أمر وصول جيوش نور الدين إلى الدولة الفاطمية مستحيلا،لذلك فقد بقي نور الدين منشغلا بأموره الداخلية و صراعاته مع الفرنجة في الجبهة الشمالية ، غير أنه ظل متحينا الفرصة المناسبة لضم مصر إلى دولته.

كما لم تفت هذه الفكرة ملوك اللاتين (بلدوين الثالث و عموري الأول) الذين أدركوا حجم الخطر الذي سيسببه مثل هذا المشروع،لذلك حرصوا على أن يفلتوا من هذا الحصار بمنع نور الدين من تحقيق غرضه و يسبقوه هم إلى مصر و يتخذوا منها قاعدة لهم في حروبهم ضد المسلمين بالشام، و هكذا تطلع كل من نور الدين والصليبيين للاستيلاء على البلاد المصرية ، التي جعلت منها الظروف ميدانا للصراع والتنافس[3].

---

(1) أنظر الخريطة رقم (13).

(2) محمود الحويري،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة،ص122.

(3) ر.سي.سميل، فن الحرب،ص68،كلود كاهن،المرجع السابق،ص163،عزيز سوريال عطية،المرجع السابق،ص60.

و قد اجتمعت في تلك الفترة جملة من الدوافع الدينية و المذهبية و الاقتصادية و حتى السياسية و الإستراتيجية وجهت السياسة الخارجية النورية نحو مصر الفاطمية، حيث حققت هذه السياسة نجاحا كبيرا انتهى بإسقاط الخلافة الفاطمية نفسها، و إعادة مصر مرة أخرى إلى المعسكر السني. (1)

امتازت الدولة النورية منذ نشأتها بطابعها الجهادي، حيث سعى نور الدين محمود و من قبله والده عماد الدين زنكي لرفع راية الإسلام و تخليص البلاد الشامية من الغزاة الصليبيين ، ويمكن إدراج الدافع الديني كأول دافع لنور الدين في إرسال حملاته إلى مصر لأن أي تماطل منه كان سيجعل من البلاد المصرية غنيمة سهلة للفرنج الذين كانوا يتحينون الفرصة للتوسع جنوبا و الاستئثار بمصر، وقد حدث ذلك 558هـ/1163م عندما وصل الملك عموري إلى مشارف مصر لولا أن الوزير الفاطمي ضرغام حطم بعض سدود النيل فأجبره على الرحيل(2).

و قد سعى نور الدين كذلك للتمكين للسنة أمام الشيعة حيث ورثت الدولة النورية عن العباسيين المذهب السني كما ورثت عنهم العداء المستمر للشيعة الإسماعيلية، فبذلك تبنت الدولة النورية حركة الإحياء السني التي لقيت دعما عباسيا كاملا ، كما وجد نور الدين أن نشر المذهب السني في مصر كفيل بضرب الشيعة في عقر دارهم و بالتالي يسهل القضاء عليهم تماما(3).

كما يمكن إدراج الأهمية الاقتصادية لمصر كدافع مهم لاتجاه نور الدين نحوها، ذلك أن دولته كانت بحاجة للإ فادة من الثراء المعروف عنها و المتمثل في سهل النيل الفيضي وكثافته السكانية المرتفعة، والتي يمكن استغلالها في مشروعات الدولة النورية العسكرية و التوسعية كذلك تسهيل عملية توحيد الجبهة الإسلامية و القضاء على العدو الصليبي، خاصة و أن موقع مصر متوسط لقارات العالم آسيا وإفريقيا و أوربا و مسيطر على خطوط التجارة العالمية المارة بها(4).

---

(1) محمد مؤنس عوض،السياسة الخارجية لنور الدين،ص77

(2) ابن الأثير،الباهر في الدولة الأتابكية،ص137 ،أبو شامة كتاب الروضتين، ج1،ص354 ، ألبير شاندور،البطل الأنقى في الإسلام،ص76.

(3) مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية،ص 80، و قد اعتبر المستشرق أرنست باكر الدافع المذهبي كأهم دافع جعل من نور الدين يبعث بحملاته إلى مصر،**أنظر**: الحروب الصليبية،ص 79

(4) لقد لعبت مصر الفاطمية دورا هاما في النشاط التجاري، حيث انتقل حجم التجارة الإسلامية في أواخر القرن 4هـ/10م تدريجيا من العراق و الخليج الفارسي إلى مصر و البحر الأحمر بسبب الرخاء الذي عرفه الفاطميون، مقابل الاضطرابات السياسية التي غرق فيها العباسيون ،فقد سيطر الفاطميون على التجارة الكارمية،أو تجارة التوابل المربحة،حيث اختصت هذه التجارة باستيراد أنواع البهارات و التوابل من الهند إلى مناطق طلبها خاصة في القارة الأوربية، وكانت عدن وعيذاب و قوص والفسطاط من أكبر مراكز التجارة الكارمية في العصور الوسطى ،**أنظر**:ناصر خسرو،سفر نامة،ص46، ،محمد كرد علي ،الخطط، =

كما كانت حاجة الدولة النورية إلى منفذ بحري و أسطول حربي كبيرة، و ذلك لمواجهة الصليبيين الذين كانت الأساطيل الإيطالية الضخمة تعمل على حمايتهم و تسعى لسيطرة الغرب الأوربي على حوض المتوسط،و قد كانت مصر في تلك الفترة من أهم القوى البحرية بموانئها المزدهرة وأساطيلها القوية،وقد كان ميناء مدينة الفسطاط التجاري و ميناء الإسكندرية من أهم و أشهر الموانئ في البحر الشامي ،لذا فقد كانت حملات نور الدين على البلاد المصرية ذات فائدة كبيرة، فحتى لو لم تسيطر عليها سهلت نقل البضائع الشامية القادمة من دمشق إلى مصر ومن ثمة إلى سائر البلاد [1].

إضافة إلى هذه المزايا فقد كانت الدولة النورية ترغب في إيجاد طريق تجاري لا يمر بأراضي الصليبيين ،لأن نور الدين كان يريد إرجاع الطريق التجاري دمشق- مصر تجنبا لميناء صور الذي كانت تمر القوافل فيه بأراضي الصليبيين عبر ممر المنيطرة و مرجعيون أو عبر طبرية و بيت المقدس و تتعرض في كثير من الأحيان للمكوس و الضرائب الباهظة.

أما فيما يخص الدوافع السياسية فقد كانت الأوضاع الداخلية المتدهورة في مصر هي التي مهدت لنور الدين السبيل للتوغل في الشؤون الفاطمية [2] فقد أدت الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي حلت بها في أواخر عهد الخليفة المستنصر بالله و التي اضطرته للاستنجاد بوالي عكا بدر الجمالي إلى بداية عصر نفوذ الوزراء العظام في الدولة الفاطمية والذين سلبوا من الخليفة كل السلطات التي كان يتمتع بها فأصبح كمثيله العباسي لا حول له و لا قوة ، و قد ازدادت الفوضى في البلاط الفاطمي بعد ضياع عسقلان سنة 548هـ/1153م حيث استبد الوزير ابن سلار في عهد الخليفة الحافظ، و بعد مقتل هذا الأخير تولى الخليفة الفائز 555هـ/1160م و قد سيطر على دولته الوزير الصالح بن رزيك الذي وصف بأنه كان صاحب مصر و بعد موت الخليفة الفائز أقام ابن رزيك في الخلافة العاضد وهكذا استمر ابن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار حتى تمكن العاضد من تدبير مؤامرة قضى بها على وزيره ، فخلفه ابنه العادل الذي لم يحكم سوى خمسة أشهر حين قتله شاور و تولى بعده الوزارة [3].

=ج2،ص36 ،أرشيبالد لويس،القوى البحرية و التجارية في حوض المتوسط،ص 326،أيمن فؤاد السيد،المرجع السابق،ص308، محمد مؤنس عوض، السياسة الخارجية لنور الدين ،ص79.

(1) ناصر خسرو،سفر نامة،ص28 .

(2) محمد كرد علي، الخطط،ج2،ص،36.

(3) أسامة بن منقذ،كتاب الاعتبار، ص 18-19-20، ابن الأثير، الكامل ،ج 9 ،ص394-395-396،أبو شامة،كتاب الروضتين ، ج 1 ، ص 345 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان،ج2،ص526،ابن أيبك،كنز الدرر،ج6،ص600،النويري، نهاية الأرب،ج 28،ص210 ،الذهبي ،العبر في خبر من غبر،ج 3 ، ص5-6-11،ابن كثير، البداية و النهاية،ج7،ص182،المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج3،ص205،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص280 - 281 ، =

كانت السنوات الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية سلسلة من الحروب والصراعات بين ولاة الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة و القوى الخارجية التي استعانوا بها لتثبيت مكانتهم ،فبعد أن تولى شاور بن مجير السعدي والي الصعيد (قوص) الوزارة في الدولة الفاطمية سنة 558هـ/1163م ساءت أوضاع البلاد في ظل وزارته فخرج عليه الحاجب ضرغام بن عامر بن سوار، و تمكن من أخذ منصب الوزارة منه بعد تسعة أشهر من ولايته ، فقلده الخليفة العاضد و لقبه بالملك المنصور.[1]

اضطر شاور إلى الفرار من مصر قاصدا الشام في آخر رمضان 558هـ /أوت 1163 مستنجدا بالسلطان العادل نور الدين محمود صاحب دمشق، فوصل إليها في 6 ربيع الأول 559هـ/5 فيفري 1164م، وتعهد له إن هو ساعده في إعادته إلى منصبه و القضاء على منافسه ضرغام أن يدفع له ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر و أن يتصرف هو بأوامر نور واختياره.[2]

كانت محاولة شاور الاستعانة بأمراء الدول المجاورة هي مؤشر نهاية الدولة الفاطمية، فقد دلت أمراء الشام ثم ملوك الفرنجة بعد ذلك على مواطن ضعف الدولة و أغرتهم بالطمع فيها و الاستيلاء عليها[3].

و لم يحمل نور الدين على التفكير في إنفاذ حملة إلى وادي النيل جاذبية الثروات الأسطورية التي كانت تتدفق على القاهرة، و لا النداءات المتكررة لوزير معزول كان يعرض على سلطان دمشق مقابل مساعدته لاستعادة سلطته ثلث واردات مصر، بقدر ما كان يحفزه الاهتمام بحماية الإسلام من الهجمات الصليبية على هذ ا البلد[4] خاصة بعد أن علم أن ضرغام منافس شاور على الوزارة قد اتجه لطلب المساعدة من الملك الصليبي عموري الأول،بعد أن رفض نور الدين

=رنسيمان، المرجع السابق،ج3،ص590،محمد مؤنس عوض، السياسة الخارجية لنور الدين،ص 80-81،عاشور،الحركة الصليبية،ج1، ص530، جمال الدين سرور،تاريخ الدولة الفاطمية،ص101-103.

(1)ابن الأثير، الباهر في الدولة التابكية،ص 120 ،ابن شداد النوادر السلطانية،ص 75،ابن كثير، البداية و النهاية،ج 7،ص197،المقريزي، الخطط، ج3 ،ص358 ،اتعاظ الحنفا،ج3،ص261-262، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج 5،ص323،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص100 ،مؤنس عوض،السياسة الخارجية لنور الدين،ص87.

(2)ابن الأثير،الباهر،ص 120، الكامل،ج 9،ص 465 ،البنداري،سنا البرق الشامي،ص 19،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 1،ص355،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص137-138.

(3) أيمن فؤاد السيد، المرجع السابق، ص222.

(4) ألبير شاندور، صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام،ص76 .

دعمه و تأييده في الحفاظ على منصبه الجديد و فضل مساعدة شاور، وقد عرض ضرغام على ملك القدس مبلغا كبيرا من المال .[1]

1/الحملة النورية الأولى:

لقد كان نداء شاور لنور الدين نقطة تحول هامة في مستقبل سياسة الدولة النورية ، فقد وجه أنظار الأمير الشامي صوب مصر، وكانت الظروف مواتية للتدخل، حيث كانت الدولة الفاطمية تحتضر ولم تكن تحتاج سوى قليل من الوقت لتلقى حتفها، و من ناحية أخرى فإن أي استقرار لعناصر شامية في مصر أو فرض رقابة على حكومة الفاطميين كان سيسمح بمحاصرة المملكة اللاتينية في بيت المقدس و التي كان عليها مواجهة جبهتين واحدة في الشمال و الأخرى في الجنوب، كما يمكن لنور الدين في حالة استيلائه على مصر أن يستخدم أسطولها ضد السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين، الأمر الذي يترتب عليه قطع خطوط مواصلاتهم مع أوربا الغربية [2] .

إن العرض المغري الذي قدمه شاور لنور الدين جعله يتردد بين القبول والمغامرة و بين الرفض، و قد أكد ابن الأثير[3] ذلك بقوله"وكان يقدم في ذلك رجلا و يؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاور و طلب الزيادة في الملك و التقوي على الفرنج ، و تارة يمنعه خطر الطريق و كون الإفرنج فيه"،كما اتجه جمع من المؤرخين القدامى و المحدثين [4] إلى تأييد ذلك،غير أن رأيا آخر[5] اتجه إلى أن طلب شاور لم يجد أدنى تردد من طرف نور الدين إذ جاء بالمبرر السياسي للتدخل في مصر، وهو الذي أدرك مدى ثراها و ضعفها السياسي في ذات الوقت.

على أنه من المرجح أن نور الدين قد تردد فعلا في قبول عرض شاور،إذ أنه خشي المخاطرة بجيشه على امتداد الطرق التي يسيطر عليها الفرنج وراء الأردن و التي تمر بالقلاع و الحصون الصليبية خاصة حصني (الكرك و الشوبك)،كما كان نور الدين متخوفا أيضا من أن يتورط في هذا المشروع و هو لا يزال أمام أعداء أقوياء في الشام

---

(1) المقريزي،اتعاظ الحنفا، ج3،ص266-267. .

(2) تيسير بن موسى،نظرة عربية على غزوات الإفرنج،ص 164، أيمن فؤاد السيد، المرجع السابق،ص 222-223،الحويري،بناء الجبهة الإسلامية الموحدة،ص131.

(3) الباهر، ص120.

(4)أبو شامة،كتاب الروضتين، ج 1،ص356،ابن واصل،مفرج الكروب، ج 1،ص138،المقريزي،اتعاظ الحنفا، ج3،ص264.الحريري،الأخبار السنية في الحروب الصليبية،ص119،تيسير بن موسى،المرجع السابق،ص164،الحريري،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة،ص130.

(5) ، حسين مؤنس، نور الدين محمود، ص287،محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الداخلية، ص88

، غير أنه قد وجد عاملا هام ا ساهم في دعم الخيار العسكري أمام الدولة النورية ألا و هو قيادة عسكرية في الجيش النوري ذات طموحات واسعة متمثلة في أسد الدين شيركوه ،و الذي كان له دور أساسي في اتخاذ نور الدين لقرار الحملة نحو مصر و إعادة شاور لمنصبه.(1)

قرر نور الدين إرسال حملة عسكرية إلى مصر لإعادة الوزير الفاطمي المخلوع شاور إلى منصبة،وفي نفس الوقت أراد الوقوف على أحوال مصر تمهيدا لضمها و توحيد الجبهة الإسلامية، و يتضح ذلك فيما ذكره المؤرخان ابن شداد و أبو شامة(2)من أن نور الدين استجاب لطلب شاور قضاء لحق الوافد المستصرخ و جسا لأوضاع البلاد و تطلعا على أحوالها، و قد أوكل نور الدين أمر قيادة الحملة إلى أسد الدين شيركوه مقدم عسكره و أكبر أمراء دولته و أشجعهم ،الذي اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين و لم يكن يتجاوز حينها السابعة و العشرين من العمر (3)، و قد كان مسير الجيش في جمادى الأولى 559هـ/مارس1164م.(4)

لم يكن ضرغام يجهل أن جيش نور الدين جاء ليعيد منافسه شاور إلى الوزارة فأستنجد بالصليبيين و عرض على عموري– إذا استطاع أن يقطع الطريق على شيركوه – عقد تحالف معه يجعل بمقتضاه مصر مقطعة لمملكة بيت المقدس بدلا من أن تكون تابعة لنور الدين، و قد قبل عموري هذا العرض و استعد للتدخل و لكنه لم يكن يملك قوات كافيه فقد نجح نور الدين في تحويل أنظار الفرنج إلى ناحية بانياس ليحمي تقدم قوات شيركوه،و جعلهم مضطرين إلى استبقاء

---

(1) رنسيمان، المرجع السابق،ج 3،ص594،عاشور،الحركة الصليبية،ج 1،ص532،الحريري، بناء الجبهة الإسلامية،ص 131-132،عاشور، الحركة الصليبية،ج1،ص532.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية ،ص 75 ، أبو شامة، ج1، ص356.

(3) ذكر أغلب المؤرخين القدامى و المحدثين أن صلاح الدين قد ذهب إلى مصر و هو كاره، فلم يكن حريصا على الخروج في الحملة لولا أن أصر نور الدين و عمه شيركوه على ذهابه و مرافقته للجيش،على أن مؤنس عوض في تحليله للموضوع ذكر أن ما ذهبت إليه المصادر لا يستقيم البتة مع طموحات صلاح الدين التي أسفرت عنها الأحداث بجلاء،و لا ريب في أنه أدرك أن في مقدمه إلى مصر فرصة سانحة لتحقيق أطماعه العريضة ،**أنظر**:أبو شامة،كتاب الروضتين،ج1،ص360-361، ابن شداد، النوادر السلطانية،ص، 7 ،عاشور،الحركة الصليبية،ص 532، تيسير بن موسى،المرجع السابق،ص 164-165،السياسة الخارجية لنور الدين،ص89.

(4) محمد كرد علي، الخطط، ج2،ص36،

بعض القوات هناك[1] كما أن مسير شيركوه بلغ من السرعة أنه أجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الفرنج للتدخل رغم كبر سنه.[2]

سلك الجيش النوري في هذه الحملة طريق شرقي الكرك و الشوبك تجنبا للاشتباك مع القوات الصليبية، ومن ثمة اتجهوا جنوبا إلى عقبة أيلة ثم إلى صدر [3] و السويس، و بعدها اخترقوا شبه جزيرة سيناء القاحلة مارين بطريق الرمل (الدرب السلطاني) لأن الطريق الساحلي المعروف كان مكشوفا للصليبيين و قد كانت جيوش هم فقط هي التي تمر من خلاله [4].

و يذكر المقريزي[5] أن الطريق الساحلي لشبه جزيرة سيناء هو الطريق القديم بين مصر و الشام إلا أن المسلمين لم يستعملوه بعد الخمسمائة من الهجرة(أي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) في نهاية العصر الفاطمي حين أغار الفرنجة على الساحل سنة 490هـ/1094م و أخذوا العريش فبطل السفر على الساحل(بالنسبة للمسلمين) ، وهو يبدأ من رفح و يسير على ساحل البحر أو قريبا منه إلى أن يأتي على بحيرة البردويل فيسير حذاء سواحلها فيمر بالزرانيق ثم إلى تل الفلس ثم يسير الطريق إلى غربيه إلى أن يصل إلى طرف البحيرة الغربي ثم يسير بمحاذاة الساحل حتى أكوام الفرما. [6]

أما طريق الرمل (الدرب السلطاني) الذي سلكته جيوش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين فقد بدأ استعماله بعد سنة 490هـ/1094م و إن كان ابن خرداذبة [7] المتوفى سنة 300هـ/ 912م يؤكد في كتابه المسالك والممالك وجود طريق الرمل بأرض الجفار قبل التاريخ الذي حدده المقريزي،و على ما يبدو أن استعمال هذا الطريق قد شاع بعد سيطرة الفرنج على الطريق الساحلي المعروف ومراحل هذا الطريق تبدأ من العريش إلى الواردة إلى

---

(1)ابن الأثير،الباهر في الدولة الأتابكية،ص 121،ابن العديم،زبدة الحلب، ج 2،ص316، ابن واصل، مفرج الكروب، ج 1،ص138،المقريزي،اتعاظ الحنفا ، ج3،ص266،كلود كاهن،الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية،أيمن فؤاد السيد،المرجع السابق،ص 223-224،عبد الرحمان زكي، الجيش،ص 70،حسين مؤنس،المرجع السابق،ص288.

(2) رنسيمان ،المرجع السابق، ج3،ص594،

(3) **صدر**:قلعة خراب بين القاهرة و آيلة،**أنظر**:ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج3،ص397.

(4)ابن واصل،مفرج الكروب، ج1،ص138،المقريزي،اتعاظ الحنفا، ج3،ص266،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص105،مؤنس عوض،سياسة نور الدين الخارجية،ص89.

(5) الخطط، ج1،ص632.

(6) المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ص213-214،ابن خرداذبة،المسالك و الممالك،ص219.

(7) ص219.

البقارة إلى العذيب و العثامة و ينتهي عند الفرما، و هو من الطرق الوعرة حيث يسير القاطع له من رفح في منطقة الكثبان الرملية جنوبي الطريق الساحلي حتى يقطع مصب وادي العريش و يستمر في الجفار إلى أن ينتهي إلى حدود سيناء الغربية عند الفرما(1).

سلك أسد الدين شيركوه هذا الطريق، فاجتاز برزخ السويس حتى وصل الشرقية قبل الصليبيين، و انتصر عند تل بسطة قرب الفرما على جيش أرسله ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين فعاد أدراجه إلى القاهرة أين لحق به الشاميون و اصطدموا بضرغام و قواته عند أسوار القاهرة فهزموهم ، ولم يلبث أن تخلى الجيش و الناس و الخليفة عن ضرغام فقتل أثناء محاولته الفرار في جمادى الآخرة 559هـ/أفريل 1164م، و تولى شاور الوزارة.(2)

على أن شاور نقض عهده مع شيركوه بعد عودته إلى الحكم،وطلب إليه الرجوع إلى الشام، فرفض شيركوه ذلك و سارع بإرسال قواته للاستيلاء على البلاد الشرقية و بلبيس (3)،التي تبعد عن الفسطاط بحوالي 55 كم(4)،وهي مدينة محصنة في دلتا النيل شمال القاهرة، على طريق الشام،و قد وصفت بكثرة القرى و المزارع العامرة، و منها تحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق و الحبوب،كما اعتبرت المدخل الشرقي لعاصمة الخلافة الفاطمية (5)،فما كان من شاور إلا أن لجأ كسلفه ضرغام واستنجد بالصليبيين، وأرسل يخوفهم من نور الدين إن ملك مصر (6) .

و لم يلبث أن عاد عموري الأول على رأس جيش كبير إلى مصر مرة أخرى،لا سيما بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال يناهز الألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل التي يبلغ عددها سبعا و عشرين مرحلة،و بعد أن هيأ الملك الصليبي لمملكته أسباب الدفاع القوية،بادر بالمسير في أوائل شهر رمضان 559هـ/أوت1164م إلى فاقوس الواقعة على فرع نهر النيل، فلحق به عندها شاور من القاهرة على رأس جيشه،ثم تحركا

---

(1) نعوم شقير،تاريخ سيناء،ص254،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص75.

(2) ابن الأثير، الباهر،ص 121،الكامل،ج9،ص465-466،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 1،ص357 عاشور،الحركة الصليبية،ج 1،ص532،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص105.

(3) ابن الأثير،الباهر،ص121،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص 139 ،النويري،نهاية الأرب،ج28،ص 220 ،ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية،ص101 ،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص28.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص479.

(5) المقدسي،أحسن التقاسيم،ص145،أنتوني بردج ،تاريخ الحروب الصليبية،ص171.

(6) ابن الأثير، الباهر، ص121،ابن العبري،تاريخ مختصر الدول،ص368.

معا لحصار شيركوه في بلبيس [1]، و كان هذا الأخير قد حصل على مساعدات من عرب كنانة ساهمت في صمود الدماشقة لما يقارب الثلاثة أشهر[2]

و من خلال الحصار الصليبي الفاطمي المشترك للمدينة، أثرت الأحداث العسكرية في الجبهة الشمالية على وقائع الجبهة الجنوبية فقد تمكن الجيش النوري في الشام من تحقيق انتصار كبير على الصليبيين في معركة حارم عام 559هـ /1164 م ما دفع الملك عموري الأول إلى رفع الحصار، وقد تم الاتفاق أخيرا على أن يغادر شيركوه و عموري الأول مصر،بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف دينار[3].

على أن المعركة الحقيقية لم تحدث في مصر في هذه السنة بل في الشام،حيث أن الحصار في بلبيس لم يحسم عسكريا فقد تم اللجوء إلى المفاوضات و اختلفت المصادر فيمن بدأ بالمراسلة في طلب الصلح، و تؤكد المصادر الإسلامية[4] أنه عقب انتصارات حارم و بانياس سعى الصليبيون إلى مراسلة شيركوه، بينما ذكر وليام الصوري [5] أن الإجهاد ونقص المؤن جعلا شيركوه يسلم المكان و سمح له بمغادرة بلبيس و معه قواته.

و عند مقارنة الوضع العسكري للجانبين نجد أن الصليبيين رغبوا في العودة سريعا لتدارك الموقف المتدهور على الجبهة الشمالية أما شيركوه فقد أنهكه الحصار الطويل، غير أن وضع نور الدين العسكري لم يكن سيئا على نحو يطلب فيه استقدام باقي قواته من مصر لمواجهة أعدائه خاصة أنه حقق انتصارا كبيرا عليهم،و يبدو أن الصليبيين سعوا إلى الصلح لأن وضعهم في الشمال كان أكثر خطورة من وضع شيركوه ، خاصة أنهم واجهوا جبهتين معاديتين في الشمال والجنوب .

---

(1) أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 1،ص360،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص 140 ،رنسيمان، المرجع السابق،ج 3،ص595،عاشور،الحركة الصليبية، ج1،ص533.

(2) ابن العديم،زبدة الحلب،ج2،ص317 ،الفتح البنداري،سنا البرق الشامي،ص19 .

(3)ابن الأثير،الباهر،ص122،الكامل،ج9،ص466،ابن العديم،زبدة الحلب،ج2،ص317،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص140،ابن قاضي شهبة ،الكواكب الدرية في السيرة النورية،ص102.

Grousset,l épopée des croisades, p150.

(4)ابن العبري،تاريخ مختصر الدول،ص368-369،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج1،ص360 ،المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج3،ص277 ،ابن قاضي شهبة ،الكواكب الدرية،ص102 ،ابن خلدون، العبر،ج5،ص 328.

(5) تاريخ الحروب الصليبية،ج4،ص29. .

و على الرغم من انسحاب الجيش النوري من الجبهة الجنوبية إلا أنه حقق بعض المكاسب المهمة،تمثلت في استطلاعه لأوضاع مصر السياسية و العسكرية و حتى الاقتصادية، كما درس عن كثب المواقع التي مر بها و التي سيتكرر الصراع حولها، كما أن ذلك الجيش برهن على قدرته على التغيير السياسي في مصر الفاطمية و هذه الناحية لازمت التطور السياسي للخلافة الفاطمية في مصر حينذاك و مثلت عاملا حاسما في إسقاطها في نهاية المطاف [1].

الحملة النورية الثانية:

عاد أسد الدين شيركوه إلى الشام ،إلا أنه ظل يفكر تفكيرا جديا في العودة إلى مصر،و أخد يلح على سيده نور الدين أن يزوده بجيش أكثر عددا و أوفر عدة للمسير إليها،فاستجاب نور الدين لطلبه [2] و هكذا جاءت حملة شيركوه الثانية على مصر في ربيع الأول 562هـ/ جانفي 1167م ،وقد سير معه جمعا من الأمراء ، بلغت عدتهم ألفي فارس و سار معه نور الدين محمود إلى أطراف البلاد خوفا من غدر الفرنج،و كان صلاح الدين بن يوسف مع عمه شيركوه في الحملة. [3]

كان شاور في ذلك الوقت قد أيقن من استقراء الأحداث أن شيركوه إذا قدم إلى مصر في هذه المرة فإنه هالك لمحالة،لذلك فإنه لم يتوان عن الاستنجاد للمرة الثانية بالملك عموري الذي رحب بدعوة شاور طمعا في تملك مصر ،و خوفا من استيلاء نور الدين لها فبذلك يتمكن من تطويق المملكة اللاتينية و يقضي على وجودها تماما،و قد كان

---

(1) محمد مؤنس عوض،السياسة الخارجية لنور الدين،ص92-93.

(2) لقد أظهرت المصادر الإسلامية أسد الدين على أنه المحرك الرئيسي للحملة النورية الثانية، ومع تسليمنا بدوره الفعال في كافة الأنشطة العسكرية القادمة،إلا أنهم أرادوا بذلك إبعاد نور الدين محمود عن دائرة المطامع المحيطة بمصر، و المنطق يدعونا إلى تصور دور اكبر لنور الدين في هذه الحملة،فبديهي أن شيركوه ما كان ليفعل شيئا دون موافقة سيده على تحركاته العسكرية، **أنظر**:ابن الأثير، الباهر، 132،ابن العديم،زبدة الحلب،ج 2،ص322،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص148،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 1،ص 7،ابن كثير،البداية و النهاية،ج 7،ص199،محمد مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية،ص 93 .

(3) ابن شداد النوادر السلطانية،ص76-77،ابن و اصل،مفرج الكروب،ج1،ص148 ،ستانلي لين بوول،صلاح الدين و سقوط مملكة بيت المقدس ص92 ، ،محمد كرد علي،خطط الشام،ج 2،ص37،محمد فريد أبو حديد،صلاح الدين الأيوبي و عصره،دار الكتب المصرية،القاهرة، 1927،ص52،أحمد الشامي،صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الأيوبية)،مكتبة النهضة العربية،ط 1،القاهرة،1991،ص64،شاكر مصطفى،صلاح الدين الفارس المجاهد الملك الزاهد المفترى عليه ،دار القلم،ط1،دمشق،1998،ص67.

عموري وقتذاك بنابلس، فدعا باروناته لاجتماع به ومناقشة الأمر فتمت موافقة المحكمة العليا على توجيه حملة كاملة العدة و العدد لإنقاذ شاور.(1)

و قبل أن يتم الجيش الصليبي استعداده،وردت الأنباء بأن شيركوه يجتاز فعلا صحراء سيناء،فلم يسع عموري إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من العساكر،لعرقلة مسيره غير أن ذلك جاء متأخرا، و على الرغم من أن عاصفة رملية شديدة كادت تقضي على جيش شيركوه ، إلا أنه و صل سالما ، إلى برزخ السويس في أوائل شهر ربيع الأخر 562هـ/ فيفري 1167م،و هنا علم أن جيش الفرنج شرع في المسير من بيت المقدس نحوه فاجتاز بجيشه صحراء سيناء على نفس الطريق التي سلكها في الحملة السابقة و يبدو أن شيركوه لما علم باستنجاد شاور بالصليبيين وجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة، و اختار أن يتجه إلى الجنوب الغربي حتى بلغ إطفيح (2) على مسافة 64كم جنوبي القاهرة ثم إلى الجيزة حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل.(3)

سار الصليبيون في الطريق المألوف (الساحلي) من غزة إلى العريش ،ثم اخترقوا صحراء سيناء إلى بلبيس،حيث خف شاور للقاء حلفائه و أخذهم إلى حيث عسكروا في الضفة الشرقية للنيل على بعد كيلومترين من أسوار القاهرة،في حين كان شيركوه لا يزال مرابطا على الضفة الغربية،و قد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة الجيش النوري (4) ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار على أن يدفع نصفها و يؤجل النصف الثاني في وقت آخر.(5)

---

(1)وليام الصوري،تاريخ الحروب الصليبية،ج 4،ص39-40 ،رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص601،أيمن فؤاد السيد،المرجع السابق،ص 226،العبادي، في التاريخ العباسي و الفاطمي،ص361.

Grosset, op, cit, p151.

(2) **إطفيح**:بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقيه،**أنظر**:ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج1،ص218.

(3) ابن الأثير،الباهر،ص132،الكامل،ج10،ص3،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج2،ص7،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية،ص104،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،ج5،ص ،وليام الصوري،تاريخ الحروب الصليبية،ج4،ص ،رنسيمان،المرجع السابق،ص601-602،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص 92 ،عاشور ،الحركة الصليبية،ج1،ص536،السيد الباز العريني،الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيين)،دار النهضة العربية للطباعة و النشر،بيروت،1967 ،ص34.

(4) أبو شامة،كتاب الروضتين،ج2،ص8،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص92،عاشور، الحركة الصليبية،ص537.

(5) لقد ذكر وليام الصوري أن الملك عموري الأول قد أنفذ سفارة غلى القاهرة إلى القاهرة،للحصول على الموافقة الرسمية على المعاهدة من الخليفة الفاطمي نفسه، و قد وصف بالتفصيل ما احتواه القصر من جواهر و كنوز و مدى ثراء الفاطميين،أنظر:الحروب الصليبية،ج4،ص46-47-48.

ظل الجيشان شهرا يرقب أحداهما الآخر، و لم يستطع كل منهما أن يجتاز النهر،حتى استطاع الملك عموري أن يعبر إلى جزيرة الروضة عند رأس الدلتا على مسافة قصيرة إلى الشمال، و منها عبر إلى الضفة اليسرى للنيل،فانسحب شيركوه إلى الصعيد جنوبا ملتزما النيل في سيره،بعد أن تبين له تفوق جيش الصليبيين و الفاطميين في العدد،و على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا في مصر الوسطى عسكر الجيش النوري قرب الأشمونيين،و في هذا الموضع ضيق جيش الصليبيين و الفرنج الخناق عليه بعد مطاردة طويلة.[1]

لقد تألف جيش شيركوه أساسا من الفرسان الترك،بينما قاد عموري جيشا مؤلفا من بضعة مئات من الفرسان(374 فارس مسلح من مختلف الصنوف) مع عناصر كثيرة العدد قليلة القيمة عسكريا من الرجالة المصريين ،و بعد أن أدرك شيركوه حرج موقفه عزم على أن ينشب معركة- برغم تحذير أمرائه له- و باغت الصليبيين في أرض اختارها بمهارة عند مشارف الصحراء تعرف بالبابين تقع جنوبي المنيا بحوالي 16كم ،انتفت فيها الحياة الزراعية،على أمل أن تخفف السفوح شديدة الانحدار و الرمال الناعمة من قوة الهجوم اللاتيني[2].

كانت خطة شيركوه للمعركة تنصب على خداع الفرنجة بحيث يوهمهم بأنه موجود مع النخبة من قواته في وسط ترتيب القتال،و لكن الحقيقة أن صلاح الدين مع عدد قليل من أتباعه اتخذ مواقعه هناك [3]، و صدرت إليه الأوامر بالتراجع أمام الفرنجة الذين يهاجمون و التوجه بهم بعيدا عن ميدان القتال و هي الطريقة الحربية المألوفة لدى الأتراك في القتال، بعد ذلك قذف شيركوه بجناحه الأيمن لقتال الجناح الأيسر للجيش الفرنجي المصري الذي تبدد و تحطم ، و عندما عاد عموري من المطاردة وجد عددا كبيرا من فرسانه قد لقوا مصرعهم فجمع ما استطاع من رجاله و شكل رتلا سار به بالخطوة البطيئة المألوفة و التشكيل المتراص مبتعدا عن ميدان القتال [4]، و قد عرفت هذه المعركة بموقعة البابين في 25 جمادى الآخرة 562 هـ/18 مارس1167م[5].

---

(1) ابن الأثير،الباهر،ص132-133،الكامل،ج10،ص3-4،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص150-151 ،ابن قاضي شهبة،الكوكب الدرية ، ص 105 ،أيمن فؤاد السيد،المرجع السابق،ص227.

(2) أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 2،ص7-8 ،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج 4،ص62-63،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص 94،عاشور،الحركة الصليبية،ج1،ص537،حسين مؤنس،المرجع السابق،ص298-299، فريد أبو حديد،المرجع السابق،ص55.

(3) ذكر وليام الصوري أن شيركوه هو من كان في قلب الجيش،و أنه لاذ بالفرار لكن الحقيقة أن صلاح الدين من كان هناك،أنظر:الحروب الصليبية،ص93

(4) ر،سي،سميل،فن الحرب عند الصليبيين،ص ،رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص604-605

(5) عن معركة البابين **أنظر**:ابن الأثير،الباهر،ص132-133،الكامل،ج10،ص3-4،ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج7،ص148-149،أبو شامة =

أحرز شيركوه انتصارا باهرا غير أنه لازال بساحة المعركة جيش متحالف عسكر قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل،أما الجيش النوري فقد عجل بالمسير صوب الشمال الغربي إلى الفيوم و منها إلى الإسكندرية بهدف السيطرة على أكبر مركز بحري تجاري فاطمي على ساحل البحر الشامي لكي يساوم بها الفرن وشاور وقد فتحت له المدينة أبوابها،نظرا لما يكنه أهلها لشاور من عداوة بعد تحالفه مع الفرنجة ضد إخوانه المسلمين،كما وجد شيركوه في الإسكندرية قوة دعم له باعتبارها معقل من معاقل السنة في مصر،و قد أرسل إليه رؤسا ؤها يعرضون عليه تسليمها إليه و يعرفونه أنه سيجد فيها أنصارا مخلصين فاستناب بها صلاح الدين وعاد هو إلى الصعيد حيث ملكه و جبا أمواله[1] .

كان تقسيم شيركوه للجيش إلى مجموعتين إحداها تركه بالإسكندرية بقيادة صلاح الدين و سار بالقسم الأخر إلى الصعيد في غير صالحه ،فقد نجح شاور و الفرنج في إعادة تنظيم قوتهما و توجها لمحاصرة الإسكندرية،وعندما رأى صلاح الدين إصرار الصليبيين على الحصار و خشي عاقبة ذلك أرسل إلى عمه يطلب النجدة العاجلة فاضطر شيركوه إلى العودة شمالا في أواخر رمضان 562هـ/جوان 1167م وفي الطريق أدرك صعوبة الاستيلاء على مصر و أنه لم يعد بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل، فأرسل إلى الصليبيين يطلب عقد الصلح[2]على أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد[3].

3/الحملة النورية الثالثة:

لم يكن أسد الدين شيركوه هو السباق إلى دخول مصر في هذه الحملة كما فعل في الحملتين السابقتين،و إنما كانت الحامية الصليبية التي أبقاها عموري الأول في مصر هي السبب في دفع القوات الصليبية للمجيء إلى مصر لامتلاكها

=،الروضتين،ج2،ص7-8،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص150-151،النويري،نهاية الأرب،ج 28،ص221،المقريزي ،اتعاظ الحنفا،ج 3،ص283-284،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية في السيرة النورية،ص 105

(1)البنداري،سنا البرق الشامي،ص 20،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،ج 5،ص332،أيمن فؤاد السيد،المرجع السابق،ص 227 ،محمد مؤنس عوض،السياسة الخارجية لنور الدين،ص96.

(2)كانت بنود الصلح تنص على أن يسلم شاور خمسين ألف دينار لكل من شيركوه و عموري، شريطة أن تنسحب كل قوات الشاميين من مصر و خاصة الإسكندرية،و أن لا يسيطر الفرنج على أي منطقة من مصر،كما جرى تبادل الأسرى بين الفريقين،و كان الصليبيون قد اتفقوا مع شاور على أن تكون لهم بالقاهرة شحنة، و أن تكون أبوابها بأيدي فرسانهم،لمنع نور الدين من إنفاذ عسكره إليهم،إضافة إلى أن يكون للفرنج من دخل مصر مائة ألف دينار كل سنة،**أنظر**:ابن الأثير،الباهر،ص134،أيمن فؤاد السيد،المرجع السابق،ص228.

(3)أبو شامة،الروضتين،ج2،ص10-9 ،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 77 ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص152-151 ،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية،ص106 ،محمد كرد علي،المرجع السابق،ج2، ص38 ،محمد فريد أبو حديد،المرجع السابق،ص57-58 ،أحمد الشامي،المرجع السابق،ص66-67.

، فقد تمكنت هذه القوات من الإطلاع على عورة مصر و طمعوا فيها وأخبروه بخلوها من التحصينات، و هونوا عليه أمرها و أيقنوا أنه ليس لديها القوة التي تذود و تدافع بها عن نفسها أمام أي راغب أو طامع فيها ، و أنضم إلى هؤلاء الصليبيين نفر قليل من أعيان المصريين ممن غلبت مصالحهم الشخصية و حقدهم على شاور و كيدهم له على خيانة أوطانهم و دينهم[1] .

لكن الملك عموري كان يدرك أنه في حاجة إلى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير في الاستيلاء على مصر،و بذلك فكر من جديد في تقوية الرابطة من الإمبراطورية البيزنطية،و الواقع أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا في غفلة عما جرى في مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية و تنافس نور الدين و عموري للفوز بوادي النيل،و لم يلبث الإمبراطور البيزنطي أن أرسل مبعوثين سنة 563هـ/1167م إلى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك، فتقوم القوات البيزنطية – الصليبية بفتح مصر على أن يكون الثمن الذي يتقاضاه الإمبراطور لقاء مساعدة الصليبيين هو إعطاؤه جزءًا من مصر فضلا عن أنطاكية، فوافق الملك الصليبي على تلك الشروط و أرسل بالمؤرخ الشهير وليام الصوري كمبعوث للقسطنطينية و قد عقدت الاتفاقية في ذو الحجة 563هـ / سبتمبر1168م.[2]

على أن الاتفاقية السابقة بين البيزنطيين و الصليبيين لم تنفذ إذ لم يشأ الملك عموري الأول أن ينتظر موعدها[3] و انفرد دون شركائه البيزنطيين بالهجوم على مصر و سارت قوات الفرنج من عسقلان في منتصف محرم 564هـ / 20 أكتوبر1168م حيث وصلوا بلبيس في أول صفر/ نوفمبر و تمكنوا من حصارها وتملكها و سبوا أهلها و أقاموا بها خمسة أيام،و قد أدى سقوط بلبيس على ذلك النحو إلى أن أسرع شاور إلى تحصين القاهرة و عمل على إخلاء الفسطاط و إحراقها حتى لا تقع في قبضة الصليبيين و باعتبارها مركزا حضاريا هاما، و قد ظلت النيران مستعرة فيها مدة أربعة و خمسين يوما.[4]

---

(1) ابن واصل،مفرج الكروب، ج 1،ص155-156 ،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج 5،ص333 ،ستانلي لين بوول،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس ،ص 96-97،أحمد الشامي،صلاح الدين و الأيوبيين،ص68.

(2) وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج4،ص ،رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص6122-613،كلود كاهن،العلاقات بين الشرق و الغرب،ص163.

(3) لم يرغب الملك عموري انتظار القوات البيزنطية لأنه رأى أن شروط الاتفاقية مجحفة بالنسبة للصليبيين من جهة ، و من جهة أخرى فإن الملك اللاتيني قد سارع بمهاجمة مصرلما سمعه من أخبار عن تغيير شاور لسياسته و ما جرى من إتصالات بين ابنه الكامل و شيركوه خاصة و أنه طلب الزواج من أخت صلاح الدين ،**أنظر**:عاشور،الحركة الصليبية، ج1،ص541،الحريري،بناء الجبهة الإسلامية ،ص144.

(4) وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج 4،ص104 ،ابن الأثير،الباهر،ص 137 ، ابن واصل،مفرج الكروب، ج 1،ص 157،محمد مؤنس عوض،سياسة نور الدين محمود الخارجية،ص97.

و أمام تلك الأحداث استنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود ووعده بثلث البلاد إلى جانب الإقطاعات و السلطة مقابل تدخله العسكري ضد القوات الصليبية،فما كان من نور الدين إلا أن أرسل أسد الدين شيركوه في حملة ثالثة إلى مصر و أمده بثمانية آلاف فارس و أمر صلاح الدين بأن يسير في صحبة عمه،و في ذلك الوقت كان عموري قد توجه من بلبيس نحو القاهرة لإسقاطها طمعا في تحقيق أكبر انتصاراته،غير أن مذبحة بلبيس جعلت أهالي العاصمة يجدون في الدفاع عنها ضد العدو الغازي ما جعل عموري يتراجع عنها .(1)

وقد حاول الملك الصليبي الانقضاض على شيركوه عند خروجه من الصحراء و تحرك بجيشه إلى برزخ السويس غير أن شيركوه قد صار خبيرا بمسالك و دروب المنطقة، فتجاوزه و تسلل إلى الجنوب من موضعه، فلم يعد لدى الفرنج من سبيل آخر سوى الجلاء عن مصر،فشرع عموري في الارتداد في ربيع الآخر 564هـ/ جانفي 1169م ،بعد أن أمر الحامية المرابطة ببلبيس للحاق به(2).

دخل شيركوه القاهرة أين استقبل استقبال الأبطال،و قلده العاضد الوزارة غير أن بقاء شاور قد مثل تهديدا كبيرا للوجود العسكري النوري بمصر،فكان لا بد من التخلص منه،و بالفعل قام صلاح الدين بقتله في عام 569هـ / 1169م(3).

---

(1) ابن العديم،زبدة الحلب في تاريخ حلب،ج 2،ص326-327 أبو شامة،الروضتين،ج 2،ص ،المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج 3،ص ،حسين مؤنس،المرجع السابق،ص309-310.

(2) رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص ،عاشور،الحركة الصليبية،ج1،ص544.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية،ص ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص .

المبحث الثالث:حملات نور الدين على بيت المقدس.

مثلت مملكة بيت المقدس العدو الرئيسي للدولة النورية التي حرصت على مواجهة عدوها الصليبي بشتى الوسائل الممكنة سواء الحربية أو السلمية ، على أن سياسة نور الدين تجاه المملكة اللاتينية حاولت أن تتوازن معها عسكريا و لم تحاول إسقاطها،على اعتبار أن ذلك في حد ذاته يمثل مقدمة لمرحلة تالية من شانها أن تحسم الصراع لصالح المسلمين على حساب الصليبيين[1] .

كان الوازع الديني هو المحرك الأساسي لحملات نور الدين على المملكة الصليبية، ذلك أن تلك المرحلة من الصراع الإسلامي – الصليبي تمثل إحدى صفحات حركة الجهاد آنذاك، و قد فاضت كتابات المؤرخين القدامى و حتى المعاصرين[2] بالحديث عن طابع الجهاد الواضح في حروب نور الدين ضد الصليبيين،حيث وصف بالزهد و التصوف دون ركونه للفتور و الاستهتار خاصة و أن حدود دولته كانت محاطة بالأعداء فرأى في نفسه المدافع الرئيسي عن الإسلام ،وواصل الحرب على أساس ديني مع عدم إغفال أهمية الدوافع الأخرى الاقتصادية و السياسية و حتى العسكرية بطبيعة الحال.

و تأتي الدوافع الاقتصادية في المرتبة الثانية فطبيعة الموقع الجغرافي لكل من الدولة النورية و مملكة بيت المقدس الصليبية حتم على الطرفين استمرار الصراع ،إذ و صفت الأولى بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي و المنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامي تم إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوربا و حصولهم على الدعم البشري و المالي و المعنوي و كان تصريف قسم كبير من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية،كذلك أرادت تلك الدولة المحافظة على سلامة الطرق التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية و منطقة الجليل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلى الساحل الشامي البالغ الحيوية.[3]

---

(1) مؤنس عوض، سياسة نور الدين الخارجية،ص137.

(2) ابن الأثير، الباهر،ص 163-164 ،ابن العديم ،زبدة الحلب،ج 2،ص315 ، البنداري،سنا البرق الشامي،ص 32 ،ابن واصل،مفرج الكروب ،ج 2 ، ص144 ،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية،ص4-5،حسين مؤنس،المرجع السابق،ص182 ،على محمد محمد الصلابي،موسوعة تاريخ العصور الوسطى الغزو الصليبي في عصر الدولة الزنكية،دار الكتاب الحديث،ط1،القاهرة،2012،ص405.

(3) ابن جبير،الرحلة،ص201-211،محمد مؤنس عوض،سياسة نور الدين الخارجية،ص139-140.

مثل الصراع مع مملكة بيت المقدس الصليبية أهمية خاصة للدولة النورية ولا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضروريا من أجل أن يقوم نور الدين بدوره في مجاهدة الكفار و مثل هذا واجبا شرعيا ضروريا لدعم حكمه و توفير الاستقرار السياسي له و عدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوي، أضف غلى ذلك أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام و الجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس الصليبية منافسا سياسيا خطيرا ،فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن هذا المنافس هو كيان دخيل على المنطقة أدركنا حتمية شن نور الدين لحملات متواصلة على أراضي المملكة اللاتينية.[1]

وقد أدرك نور الدين أن قيامة بحملات على مملكة قوية و مدعمة من الغرب الأوربي وحتى من الإمبراطورية البيزنطية في كثير من الأحيان،يتطلب عناية خاصة من الدولة بتجييش الجيوش و تنظيمها و قد كانت هنالك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية و تحركاتها السياسية،كما حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع و الحصون الإستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة اللاتينية عسكريا و تأمين حدود الدولة النورية و لإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور في المستقبل إلى ما هو أبعد من هذا في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي و هو ما حدث فعلا في عهد السلطان صلاح الدين.[2]

لقد ظلت دمشق لزمن طويل الحاجز الطبيعي بين أملاك الزنكيين شمال الشام و المملكة الصليبية،خاصة و أن حكامها كانوا ينتهجون سياسة التحالف مع الصليبيين في سبيل الاستئثار بحكم المدينة،وخوفا من امتداد السيطرة الزنكية على بلادهم غير أنه بعد ضم نور الدين لدمشق عام 549هـ/1154م انهار ذلك الحاجز الذي طالما منعه من توجيه الضربات للمملكة اللاتينية،كما أن النتائج الحاسمة التي حققها الجيش النوري في معركة حارم و حدت الجبهة الشمالية و أنهت الصراع فيها و لم يبق أمام نور الدين سوى أن يوجه أنظاره إلى الجبهة الجنوبية التي كانت بها أكبر قوة صليبية كما كانت تعتمد على إمدادات مستمرة من الغرب و قوة اقتصادية كبيرة ممثلة في المدن الإيطالية.

يمكن القول أن حملات نور الدين على المملكة الصليبية خلال الفترة الممتدة(559-570هـ/1164-1174م)، لم تكن غايتها إسقاطها كما حدث في حملاته على مصر و التي انتهت بسقوط الخلافة الفاطمية و ضمها إلى أملاك الدولة النورية،بل كان هدف نور الدين من ذلك أن يستمر الطريق مفتوحا على مصر خاصة و أن الصليبيين

(1) الصلابي، المرجع السابق،ص406.

(2) محمد مؤنس عوض،سياسة نور الدين الخارجية،ص140.

قد أكثروا من تشييد القلاع و الحصون في تلك المنطقة أهمها الكرك و الشوبك ، حتى يقطعوا أي اتصال بين بلاد الشام و مصر لإدراكهم الكامل أن أي علاقة وحدة بينهما ستنهي الوجود الصليبي في الجبهة الجنوبية،و سنرى من خلال ما سنتعرض له من حملات خاصة في إقليم المنخفضات الشرقية أن ما قام به نور الدين قد سمح لجيوشه أن تخترق مملكة بيت المقدس من دمشق إلى مصر و كأنها تعبر بلادها.[1]

1/ حملات نور الدين على فلسطين و الجليل.

لقد أدرك نور الدين محمود منذ توليه حكم حلب 540 هـ/1146م أنه محاط بالأعداء من كل جهة فلم يكن البيزنطيون أقل خطرا عليه و على مشاريعه من الصليبيين، لذلك حرص على تجنب أمرين مهمين ليتمكن من الوصول لغايته بتوحيد الجبهة الإسلامية، و أولهما هو تجنب مجيء حملة صليبية جديدة، أما الثاني فهو اتحاد مملكة بيت المقدس و الدولة البيزنطية عليه،و لكي يتحاشى الأمر الأول حرص على ألا يهاجم مملكة بيت المقدس هجوما عاما يؤدي إلى إسراع غرب أوروبا لنجدتها ، و لكي يتجنب الأمر الثاني ترك أنطاكية باقية كالحاجز ،لأنها- من الناحية الاسمية-كانت تحت سلطان الإمبراطورية البيزنطية أما من الناحية الفعلية فكانت تدور في فلك مملكة بيت المقدس،و هذا ما حصل فعلا بعد النصر الذي حققه نور الدين في حارم فقد أشاروا عليه بأخذ أنطاكية التي كان صاحبها أسيرا عنده و لا يوجد من يدافع عنها غير أنه أبى لمعرفته بعواقب مجاورة الروم و إتحاد الأعداء عليه فيضطر إلى توزيع قواته بين الشمال و الجنوب.[2]

سعى نور الدين طوال الفترة التي سبقت ضمه لمصر سنة 569هـ/1169م ألا تكون سيطرة مملكة بيت المقدس على أراضيها كاملة، فكان يقوم بغارات سريعة في بلادها و يرسل قواده فيوغلون حتى الرملة و عسقلان، و يبعث بجماعات من خيالة التركمان السريعة تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب، و منها ما كان يتخذ معسكرات متنقلة داخل أراضي مملكة بيت المقدس نفسها،كلما طاردها جند الصليبيين في ناحية انتقلت إلى ناحية أخرى،و كان هدف نور الدين من ذلك أن يستمر الطريق مفتوحا ليسهل على الجيش النوري بعد ذلك العبور الآمن من دمشق إلى مصر.[3]

---

(1) سميل،فن الحرب عند الصليبيين،ص53،أرنست باكر،الحروب الصليبية،ص50-51،حسين مؤنس،المرجع السابق،ص280.

(2) ابن الأثير،الباهر في الدولة الأتابكية ،ص 125،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج1،ص364،رنسيمان،المرجع السابق،ج3،597،مهدي سعيد عمران،معركة حارم،ص96.

(3) حسين مؤنس،المرجع السابق،ص279-280

كما قام صلاح الدين بهجوم مفاجئ على الطرف الجنوبي من لمملكة بيت المقدس ردا على هجوم الحلف الصليبي – البيزنطي على السواحل المصرية و حصار دمياط سنة 565هـ/1169م[1]، ففي أواخر ربيع الأول 566هـ /أوائل ديسمبر 1170م اتجه الجيش المصري إلى غزة و في طريقه إليها حاصر قلعة الداروم الصغيرة التي تقع في أقصى الجنوب على ساحل البحر الشامي و هي تبعد عن غزة بحوالي 8كم و عن البحر 6كم ،و لم تكن استحكامات هذه القلعة قوية رغم أن عموري قد حصنها مؤخرا و أعطاها لفرسان المعبد (الداوية) لحمايتها،ومع أن صلاح الدين لم يكن يملك أيا من أدوات الحصار إلا أنه أوشك على إسقاط القلعة لولا دفاع قائد الحصن أنسل دي باس Ansel de pass الذي منح فرصة لعموري حتى يتقدم إلى عسقلان في قوة بالغة التدريب برغم قلة عددها [2] ،و قد وصل الجيش الصليبي عسقلان في 6 ربيع الآخر 566هـ/18 ديسمبر 1170م و منها تحرك إلى غزة مع من كان فيها من الداوية نحو حصن الداروم.

لم يسع صلاح الدين لما سمع باقتراب الجيش الصليبي إلا أن يرفع الحصار عن الداروم بعد أن هدم جزءًا من سورها،ثم اتجه إلى غزه فاستولى على أسفل المدينة و قتل عددا كبيرا من جنود حاميتها،و لم يفكر صلاح الدين في حصار المدينة مدة طويلة لتستسلم القلعة بل إنه عاد إلى مصر بعد أن سلب ما فيها من غنائم [3]،و تذكر المصادر الإسلامية[4] أن صلاح الدين قد أغار في هذه الحملة على أعمال عسقلان و الرملة و هجم على ربض غزة فنهبه و لما سمع ملك الفرنج بما حل ببلاده جاء في قلة من عساكره و قاتل صلاح الدين و هزم الملك الصليبي و كاد يؤخذ أسيرا.

لقد كانت هذه الحملة أول خروج لصلاح الدين من مصر للجهاد،و قد كان يسعى من خلالها لإكمال مشروع سيده نور الدين في فتح الطريق بين الشام و مصر لضمان مرور التجارة و الفرق العسكرية بين القطرين في

(1) طلب الملك الصليبي عموري من الإمبراطور البيزنطي مساعدته في غزو مصر و إخراج صلاح الدين و الجيش النوري منها والاستئثار بها لأنفسهم،فقبل الإمبراطور و بعث بأسطول ضخم خرج من مياه الدردنيل 565هـ/1169م و في شهر صفر/أكتوبر كان الجيش الصليبي و الأسطول البيزنطي أمام مدينة دمياط المصرية، وكان نور الدين قد أرسل المساعدات لنائبه كما أرسل العاضد ألف ألف دينار لتجهيز الجيش،و بعد مقاومة شديدة للحصار الذي دام شهرين نفذت أقوات المحاصرين ما دفعهم للعودة بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة .**أنظر**:ابن الأثير ،الباهر،ص 143-144 ،أبو شامة،الروضتين،ج 2،ص91-94 ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص179 ،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص116-125 ،رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص622-628.

(2)كان مع الملك عموري 250 فارسا و ألفين من المشاة و العساكر،**أنظر**:ستانلي لين بوول،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس،ص106.

(3) أبو شامة،الروضتين،ج2،ص ،ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج2،ص424،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص130-133،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص106،رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص630-631

(4)ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص31،البنداري،سنا البرق الشامي،ص 57،أبو شامة،الروضتين،ج 2،ص118 ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص198 ،المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج3،ص320،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية،ص 122،ابن كثير،البداية و النهاية،ج7،ص208.

أمان،كما كان من الضروري إظهار القوة للفرنج بعد هزيمتهم في دمياط،بالإضافة إلى تحذيرهم من التعرض للقوافل التجارية الإسلامية المارة من مصر إلى الشام،و تحذير البدو كذلك في جنوب فلسطين و سيناء من التعرض للتجار ونهب القوافل[1] و قد كان من بين هذه القبائل جرم و ثعلبة الذين اشتهروا بالتعاون مع الفرنج و نهبهم للقوافل.[2]

أما عن إقليم الجليل المتاخم لحدود الدولة النورية فقد تمكن نور الدين بعد ضمه لدمشق أن يستولي على إقليم حوران الخصب،كما اهتم اهتماما خاصا ببصرى أكبر معاقله،وثبت حدوده الجنوبية بالاستيلاء على صرخد،فأصبحت بذلك مملكة بيت المقدس شريطا ساحليا ينتهي عند المجرى الرئيسي لنهر الأردن و يمتد بعض الشيء شرقي البحر الميت[3]،لذلك وفي ربيع 568هـ/1173م أغار الصليبيون على إقليم حوران و لما بلغ نور الدين الخبر سار إليهم فلما صار على مقربة منهم دخلوا أرض السواد فلحق بهم جيشه،و نالوا من مؤخرتهم (الساقة)،و سار نور الدين إلى عشترا و منها سير حملة على أعمال طبرية للإغارة، فغنموا و نهبوا و عادوا ثم عبروا نهر الأردن و أدركهم الفرنج فتصدى لهم المسلمون و دار قتال عنيف تمكن خلاله جيش نور الدين من الإفلات بالغنائم التي كانت هدف الصليبيين فتراجعوا[4].

بعد النصر الذي حققه نور الدين في معركة حارم سنة 559هـ/1164م تمكن من ضم مدينة بانياس التي كانت بيد الفرنج منذ عام 543هـ/1148م و قد امتازت هذه المنطقة و ما جاورها من أقاليم بأهميتها الزراعية و الرعوية ، مستغلا غياب الملك عموري في مصر، ،و كان نور الدين قد استغل غياب الملك عموري الأول في مصر و أظهر أنه يريد طبرية فأتجه من بقي من الفرنج في الشام لحفظها و تقويتها و سار هو إلى بانياس وحاصرها و ضيق عليها،و لما سمع من اتجه إلى طبرية من فرنج كانت المدينة قد صارت في قبضة نور الدين.[5]

و من هنا يمكن القول أن حملات نور الدين على إقليم الجليل كانت تعود خاصة لأهميته الاقتصادية سواء التجارية أو الزراعية، و رغبة نور الدين في تأمين طرق التجارة و توفير و المساحات الرعوية و المحاصيل الزراعية المتنوعة التي تزخر بها المنطقة خاصة القمح.

(1) شاكر مصطفى،صلاح الدين ،ص106.
(2) العمري،مسلك الأبصار،ج4،ص300.
(3) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص279.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص469.
(5) ابن العديم،زبدة الحلب،ج2،ص 222.

2/ حملات نور الدين على المنخفضات الشرقية.

لقد ظل إقليم المنخفضات الشرقية التابع لمملكة بيت المقدس بعيدا عن غارات نور الدين و حملاته، برغم أهميته التجارية الكبيرة و سيطرته على طرق المواصلات من خلال القلاع (الكرك و الشوبك) التي عكف ملوك اللاتين (بلدوين الأول و فولك الأنجوي) على بنائها للإفادة من حركات التنقل الطبيعية التي يسلكها التجار و الحجيج و البدو و المسافرين مابين بلاد الشام و مصر و الجزيرة و فرض الرسوم أو ما يعرف بضريبة العبور التي اعتبرت المصدر الأساسي لثروتهم.

و يمكن القول أن نور الدين لم يوجه حملاته إلى تلك المنطقة برغم ما تحدثه من عرقلة لحركة التجارة في دمشق لانشغاله بمحاربة كل من إمارة أنطاكية و طرابلس و حتى جيرانه من الأتراك لتأمين حدود دولته و توحيد الجبهة الشمالية لتتمكن من الصمود ضد العدو الصليبي، و لم توجه أنظاره إلى إقليم المنخفضات الشرقية إلا بعد ضم مصر إلى دولته فاعترض هذا الإقليم سبل المواصلات بين شطري الدولة،ما دفع كل من نور الدين و صلاح الدين نائبه على مصر لشن حملات متواصلة على قلاعه لتأمين مرور القوافل و القوات العسكرية من دمشق إلى البلاد المصرية.

و قد نال حصن الكرك الذي شيده الملك الصليبي فولك الأنجوي عام 537هـ/1142م على تل البتراء في صحراء مؤاب الجانب الأوفر من حملات نور الدين على الإقليم لسيطرته على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر و غربي بلاد العرب إلى بلاد الشام فضلا على أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الأردن الأدنى،كما اهتم الصليبيون كثيرا بإدخال دفاعات جديدة للحصن و شحنه المستمر بالكثير من الأسلحة و القوات ما جعله يقف في وجه أي اتصال بين دمشق و مصر خاصة و أن المملكة اللاتينية كانت مدركة تماما أن اتحاد الجبهة الإسلامية هو بمثابة بداية النهاية للكيان الصليبي من بلاد الشام .[1]

كانت أول حملة شنها نور الدين على حصن الكرك في شعبان 565هـ / أفريل 1170م ،و ذلك بغرض تخفيف الضغط على مدينة دمياط التي كان الحلف الصليبي البيزنطي يحاصرها برا و بحرا،و كان صلاح الدين قد أرسل إلى سيده يستنجد و يبين له الحال و يطلب منه المعونة ،فما كان من نور الدين إلا أن جمع عساكره كلما تجهزت طائفة أرسلها

---

(1) رنسيمان،المرجع السابق،ج 2،ص370-371،سميل،المرجع السابق،ص53،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص 178 ،علي السيد علي،العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين،ص16،محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك في العهد المملوكي،ص6،مرفت عثمان،التحصينات الحربية و أدوات القتال،ص166، Ronnie Ellenblm ,crusader castles and modern historie, pp 63-64.

،و ذهب هو إلى حصن الكرك لحصاره،و قد صدق ظنه فعلا فبعد أن أقام عليه أربعة أيام توافدت النجدات من بيت المقدس، و قبل أن تصل إليه فك الحصار و خرج لمقابلتها إلا أنه لم يشتبك معها في القتال [(1)]، و استطاعت هذه النجدات أن تصل إلى الكرك أما نور الدين فقد عاد إلى دمشق و في طريقه هاجم المدن الصليبية للضغط على الصليبين و إجبارهم على الانسحاب و ترك دمياط ، فما كان منهم إلا أن رفعوا الحصار ليحافظوا على مدنهم في الشام بعد خمسين يوما من الحصار. [(2)]

كما تعرض حصن الكرك لحملة قوية من نور الدين في شهر جمادى الآخر /فيفري من نفس السنة و كان سبب ذلك أن صلاح الدين بعث إليه يطلب إرسال والده نجم الدين أيوب لإعانته على أمره في مصر،و لما علم نور الدين بغزواته على جنوب المملكة إضافة إلى صموده في وجه الحلف الصليبي – البيزنطي و حفاظه على مصر، أجاب رغبته و جهز أهله مع قافلة كبيرة من تجار دمشق و عدد كبير من العساكر لحمايتهم، و توجه هو إلى حصن الكرك مع الجيش حتى يهيئ للقافلة الضخمة أن تجتاز في أمن إقليم ما وراء نهر الأردن، فحاصر الحصن و ضيق عليه و نصب عليه المنجنيقات و عند قدوم النجدة إلى فرنجة الكرك رحل نور الدين عنها إلى دمشق التي في عودته إليها هاجم أطراف المملكة اللاتينية و نهبها،أما نجم الدين أيوب و من معه في القافلة فقد وصلوا مصر سالمين[(3)].

أما ما تبقى من الحملات التي شنها نور الدين على حصن الكرك فقد جاءت بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة 567هـ/1171م التي لم تلبث أن دبت الخلاف بعدها بين نور الدين و صلاح الدين بسبب تحديد العلاقة بين الأول و الثاني، أو إبراز الخيوط التي تربط صلاح الدين بنور الدين،فحتى ذلك الوقت كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلي من مصر بوصفه نائبا عنه و قائدا لقواته بمصر،و لكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد بعد

---

(1) ابن شداد،النوادر السلطانية،ص83،محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك،ص6.

(2) ابن الأثير،الباهر،ص 143-144 ،الكامل،ج 10،ص22 ،أبو شامة،الروضتين،ج 2،ص92 ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص181 ،النجوم الزاهرة،ج6،ص7،ابن قاضي شهبة ،الكواكب الدرية،ص 116،عاشور،الحركة الصليبية،ج 2،ص560،حسين مؤنس،نور الدين،ص 324،السيد الباز العريني،الشرق الأدنى في العصور الوسطى،ص42،محمد فريد أبو حديد،المرجع السابق،ص68،أحمد الشامي،المرجع السابق،ص87.

(3) ابن الأثير،الكامل،ج10،ص23،البنداري،سنا البرق الشامي،ص57 ،ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج7،ص156، ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 85 ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،185، ،المقريزي،اتعاظ الحنفا،ج 3،ص 315،رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص627-628 ،محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك،ص6 ،

ذلك بأيام صفت البلاد لصلاح الدين الذي حرص على توطيد نفوذه فيها ،و قد كان لزاما عليه في ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ،إما أن يبقى على ولائه له وإما أن ينفصل بمصر عنه مما يعرضه لهجوم جيوش نور الدين. [1]

لقد كانت لهذه الوحشة بين القائدين دور كبير في استمرار صمود حصن الكرك أمام تلك الهجمات التي وجهت إليه و التي كانت تفتقد إلى التنسيق بين نور الدين و نائبه في مصر،و قد أمد ذلك في عمر الحصن سنوات طويلة كان يقوم فيها بدوره في قطع الطريق بين الجبهة الشمالية و الجنوبية،مؤجلا بذلك مشروع الوحدة الإسلامية و القضاء على الكيان الصليبي الدخيل.

كانت أول حملة شنها نور الدين على الكرك بعد سقوط الدولة الفاطمية في شهر محرم 567هـ/ سبتمبر 1171م،حيث أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية و المسير بها إلى الحصن أين يلتقيان هناك لحصاره،غير أن ما حدث أن نور الدين و صل إلى الكرك و بقي بانتظار الجند المصري لكن صلاح الدين بعث إليه يعتذر عن المجيء باختلال أحوال البلاد و أنه يخاف طول الحصار فتحاك المؤامرات في غيابه و هو حديث عهد بالحكم ، غير أن نور الدين لم يقبل عذره هذا و عاد إلى دمشق و هو مغتاظ من نائبه الذي عصى أمره [2]،أما رواية ابن الأثير[3] فتذكر أن صلاح الدين كان متخوفا من الاجتماع بنور الدين عند الكرك فيكون عند ذلك هو المتحكم فيه إن شاء عزله عن حكم مصر و إن شاء تركه عليها ففضل العودة إلى مصر و أرسل يعتذر لنور الدين الذي لم يقبل منه ذلك.

و مهما تكن نية صلاح الدين عند رجوعه إلى مصر فإن الذي يهمنا هنا أنه أمام حصانة الكرك اضطر نور الدين بمن معه من العساكر الشامية إلى رفع الحصار عن الحصن و العودة إلى دمشق،و بهذا لم تحقق هذه الحملة أية

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 19، عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص570.

(2) أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 2،ص148،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص221 ،الحريري،الأخبار السنية في الحروب الصليبية،ص 150،محمد كرد علي،الخطط،ج2،ص42،رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص ،الحويري،الجبهة الإسلامية المتحدة،ص 160-161،محمد فريد أبو حديد،المرجع السابق ،ص77 ،محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك،ص7.

(3) الباهر، ص،158 الكامل، ج10، ص 35-36.

نتيجة تذكر و لم تفتح الطريق بين شطري الدولة النورية كما كان منتظرا منها [1]،و قد أتهم صلاح الدين في هذه الحملة بأنه لم يكن راغبا في مساعدة نور الدين لإسقاط الحصن وذلك بسبب موقعه بصحراء البتراء و الذي جعله بمثابة الحاجز الذي يفصل أراضي الدولة النورية عن مصر،فإن تم لنور الدين فتحه أصبحت الطريق مفتوحة أمامه إلى البلاد المصرية و لم يبق لصلاح الدين بها مقام، لذا تعمد هذا الأخير العودة إلى مصر حتى لا يساعد سيده في حصار الحصن و تبقى أملاك الفرنج حاجزا بينهما[2].

أراد صلاح الدين أن يعوض عن تخاذله في نصرة نور الدين، فشن في السنة التالية 568هـ/1172م هجوما قويا على الكرك و في تلك الأثناء هبط نور الدين بجيشه من دمشق و سار باتجاه الحصن حتى وصل الرقيم التي تبعد عن الكرك بمرحلتين كان صلاح الدين قد رفع الحصار عن الحصن و قفل راجعا إلى مصر،و عند وصول الجيش الشامي عسكر نور الدين بدوره أمام الحصن الذي كان يعتبر في ذلك الوقت حاضرة إقطاع ما وراء نهر الأردن الذي ورثته ستيفاني ميللي عن زوجها الأول همفري سيد تبنين،و كان زوجها الثاني مايلز بلانسي أثناء هجوم نور الدين بصحبة الملك عموري الأول بعيدا عن إقطاعه ،فنهض لنجدتها صهرها الأول الكندسطبل السابق همفري الثاني صاحب تبنين ، فلم يسع نور الدين إلا الانسحاب عند تعبئة ما تبقى بالمملكة من قوات[3].

و هكذا كتب للكرك النجاة مرة أخرى من قبضة نور الدين،بسبب ما كان من انسحاب الجند المصري من أمام الحصن،و هنا نجد الآراء قد انقسمت إلى قسمين، أولهما نظر إلى صلاح الدين بعين الخائن الذي هرب من لقاء سيده نور الدين متحججا بمرض أبيه وذلك خشية أن يقبض عليه و يعزله ثم يعين على مصر أميرا من أتباعه و بذلك تضيع أطماعه و مصالحه الشخصية في مصر [4]،أما ثانيها فقد اعتبر ما قام به صلاح الدين استنادا إلى الظروف التي كانت محيطة به تصرفاً معقولاً فقد ذهب إلى حصار الكرك تلبية لرغبة نور الدين و حتى لا يسيء به الظن ،و استخلف على مصر أباه نجم الدين أيوب ثم كان هو السباق فوصل الحصن و ظل على حصاره لوحده مدة شهرين (شوال- ذي الحجة

---

(1) رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص237-238 .
(2) ابن الأثير،الكامل، ج10 ،ص35-36 . محمد مؤنس عوض،سياسة نور الدين الخارجية،ص104،
(3) ابن شداد،النوادر السلطانية،ص86، ابن واصل،مفرج الكروب، ج2،ص226، وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج4،ص153.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص36،أبو شامة،الروضتين، ج2،ص 155،محمد مؤنس عوض،سياسة نور الدين الخارجية،ص104.

/ ماي- جويلية) و لما وصلته الأخبار بمرض أبيه و قرب أجله أسرع إلى البلاد خوفا من خروجها عن سيطرته [1] ،و الظاهر أن بعض الحاقدين على صلاح الدين قد سعوا إلى شحن القلوب بينه و بين سيده بعد أن صار له ملك مصر غير أنه من حسن حظ صلاح الدين أن المنية وافت سيده نور الدين سنة 569 هـ/ 1174م قبل أن تشتعل نار الحرب بينهما و ينشغلا عن قتال الفرنج[2] .

أما الشوبك فقد ظهرت أهمية هذا الحصن الواقع في صميم صحراء الأردن عند وادي عربة و شمالي خليج العقبة بعد حدوث الصراع بين شاور و ضرغام و تدخل نور الدين لإنقاذ مصر من الصليبيين، فبعث بقائد جيشه أسد الدين شيركوه و ابن أخيه صلاح الدين صحبة الجيش إلى البلاد المصرية،و كان الجيش النوري قد سلك طريقا بمحاذاة حصن الشوبك سنة 563هـ/1167م فتعرضت لهم حامية القلعة و أرادت قطع الطريق على الجيوش الإسلامية غير أن خبرة شيركوه و مهارته مكنت الجيش من الفرار و عبور صحراء الأردن بأمان،كما كانت هذه القلعة تشكل خطرا جسيما بالنسبة للمسلمين لوقوعها على الطريق بيت القاهرة و دمشق و الأراضي المقدسة في بلاد العرب كم سيطرت على طريق القوافل بين الأقطار الإسلامية فمثلت بذلك الحارس للحدود الجنوبية الشرقية للمملكة اللاتينية.[3]

وبعد أن تم لنور الدين ضم مصر 567هـ/1171م أرسل إلى نائبه صلاح الدين بضرورة مهاجمة حصن الشوبك ، فخرج صلاح الدين بالجيش المصري في أواخر محرم /سبتمبر من القاهرة و نزل البئر البيضاء و هي من كور الشرقية ثم اتجه شمالا و ضرب الحصار على الحصن الذي كان يعتبر من أمنع قلاع إقليم المنخفضات الشرقية و أهمها خاصة و أنه كان واقعا على سفح التل في بقعة منحدرة ، هذا إلى جانب ما كان عليه من المناعة بفضل أسواره و أبراجه و استحكاماته مما يجعله آمنتا من الغارات و الهجمات عليه بالآلات الحربية و كان سكانه جميعا مسيحيين مما صعب على صلاح أمر الاتصال بهم ،كما كانت القلعة مجهزة بالسلاح و الذخيرة و الرجال للدفاع عنها[4].

---

(1) البنداري،سنا البرق الشامي،ص 62 ،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 86 ،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،ج 6،ص21، محمد فريد أبو حديد،المرجع السابق،ص77-78،شاكر مصطفى،صلاح الدين المفترى عليه،ص132،

(2) تيسير بن موسى، غزوات الإفرنج، ص 173،عبد الله ناصح علوان،صلاح الدين الأيوبي بطل حطين و محرر القدس من الصليبيين (532-589هـ)،دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع،ط1،(د.ت)،ص28.

(3) ستانلي لين بول،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس،ص117، مرفت عثمان،التحصينات الحربية،171-172.

(4) وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص153،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى،ص109.

ظل صلاح الدين يحاصر الشوبك و ضيق على من به من الفرنج رغم حصانته و مناعة أسواره، و لم يغادر الملك الصليبي عموري الأول إلى نجدته إلا متأخرا، نظرا لما بلغه من أخبار ليست صحيحة على أن نور الدين ظهر فجأة على الطريق المؤدي إلى الكرك، فما كان من حامية القلعة بعد طول حصار الجيش المصري إلا أن تطلب هدنة لمدة عشرة أيام استعدادا لإجراء اتفاق التسليم،و الراجح أنها للحصول على فترة من الوقت لوصول الإمدادات من بيت المقدس،غير أن صلاح الدين رفع الحصار عن الشوبك و قفل راجعا إلى القاهرة في أواخر صفر/أكتوبر ثم بعث إلى نور الدين يعتذر عن انسحابه باختلال أمور البلاد المصرية و أن حروب إخوته في الصعيد قد أرغمته على العودة إلى مصر إضافة إلى أن صلاح الدين قد علم بخروج الملك عموري و جنوده مابين الداروم و عسقلان فخشي أن يقطع عليه طريق العودة إلى مصر إذ استمر الحصار[1] و يذكر ابن الأثير[2] أن نور الدين لم يقبل عذر نائبه و تغير عليه.

كما اتجه صلاح الدين في سنة 566هـ/1170م قاصدا أيلة الواقعة على خليج العقبة،و قد كانت بها قلعة في البحر وقد أطلق عليها اسم جزيرة فرعون حصنها الصليبيون عقب احتلال بلدوين الأول لها سنة 510هـ/1116م ،و الظاهر أن فكرة استرداد أيلة قد تولدت عند صلاح الدين عقب غزواته بجنوب فلسطين ،إذ أدرك بعد ذلك استحالة توغله بين القلاع اللاتينية في صحراء النقب و استحالة و صل الطريق بين دمشق و مصر طالما ظلت أيلة في حوزة الصليبيين[3].

أنشأ صلاح الدين مراكب مفصلة و حملها على الجمال و أرسلها من القاهرة في عسكر كبير للاستيلاء على أيلة و قلعتها سالكا درب الشعوي شرق شبه جزيرة سيناء لاعتباره أقصر الطرق من السويس إلى نقب العقبة و أقدمها عهدا و أخصبها مرعى،و على مقربة منها أمر صلاح الدين بتركيب المراكب و شحنها بالمقاتلة و زحف بها على القلعة برا و بحرا في ربيع الثاني 566هـ/ديسمبر 1170م،و مازال حتى استولى عليها و أفنى حاميتها الصليبية و أسكن بها

---

(1) أبو شامة،الروضتين،ج 2،ص148 ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 1،ص221 ،ابن كثير،البداية و النهاية،ج 7،ص212،ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة،ج6،ص19،ابن قاضي شهبة،الكواكب الدرية،ص 136، رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص637،لين بول،المرجع السابق،ص 117،شاكر مصطفى،المرجع السابق،ص116

(2)ابن الأثير،الباهر،ص158 ،الكامل،ج10،ص36 .

(3) وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج 2،ص226،رنسيمان،المرجع السابق،ج 2،ص160،ستانلي لين بول،المرجع السابق،ص 106،أرنست باكر،الحروب الصليبية،ص45،محمد عدنان البخيت،المرجع السابق،ص5.

جماعة من ثقاته و قواهم بما يحتاجون إليه من سلاح ،و ظل صلاح الدين على أيلة حتى اجتمع بأهله الذين كان نور الدين قد بعث بهم إليه من دمشق[1] .

(1) ابن الأثير،الكامل، ج 10،ص31،أبو شامة،الروضتين، ج 2،ص118،ابن واصل،مفرج الكروب، ج 1،ص199،المقريزي،اتعاظ الحنفا، ج 3،ص320،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص 108-109،مرفت عثمان ،المرجع السابق،ص128.

المبحث الرابع:صلاح الدين و الصليبيون في الجبهة الجنوبية.

لقد حاولنا في المباحث السابقة دراسة المرحلة الأولى من الصراع بين المسلمين و الصليبيين على الجبهة الجنوبية و التي امتدت طوال عشر سنوات من (559-569هـ/1164-1174م)، و قد سعى خلالها نور الدين محمود إلى نقل الصراع من الجبهة الشمالية التي تم له توحيدها بعد معركة حارم 559هـ/1164م إلى الجبهة الجنوبية التي كانت تتمركز بها المملكة اللاتينية،و التي ظلت مدة من الزمن بعيدة عن الصراع، فاتجه أولا إلى توحيد البلاد الإسلامية تحت رايته حيث تكن من ضم مصر و بلاد النهرين ثم أخذ يوجه الضربات إلى بيت المقدس بعد أن صارت بين شطري دولته ، غير أن الحظ لم يحالفه لتحقيق هدفه و طرد الصليبيين من بلاد المسلمين فقد وافته المنية في 11 شوال 569هـ/15 ماي 1174م و سادت التفرقة البيت الزنكي [1] من بعده خاصة و أن ولي عهده الصالح إسماعيل كان طفلا صغيرا لم يتجاوز الحادي عشر من عمره ما سمح لأمرائه التحكم في الدولة حسب أهوائهم.

لقد كان هذا الوضع مثاليا بالنسبة لصلاح الدين الذي أدرك أنه صار لزاما عليه مواصلة السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي و جري عليها نور الدين محمود و التي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين و القضاء على القوات الصليبية و إلا ذهب كل ما بناه هؤلاء لتحقيق الوحدة هباء[2]، و سيستسلم الحكام المسلمون من جديد إلى مصالحهم و أطماعهم ما سيدعم من مركز الصليبيين و يثبت أقدامهم في بلاد الشام، لذلك فقد اتجه صلاح الدين إلى دمشق و ضمها إليه و انتهت جولته في شمال الشام بمعركة قرون حماة في شوال 570هـ/ أفريل 1175م ضد العساكر المتحالفة من الموصل و حلب لصالحه و انتهى الأمر بأن قطع صلاح الدين الخطبة على الصالح إسماعيل بعد أن أتته التشريفات السلطانية و التقليد الجامع بمصر و الشام و المغرب و اليمن من الخليفة العباسي المستضيء بالله (566 -575 هـ/1170-1180 م)في بغداد[3].

---

(1) أنظر الملحق رقم (20).

(2) السيد الباز العريني ،الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)،ص47.

(3) يذكر ابن واصل أن صلاح الدين قد بعث برسالة إلى الخليفة العباسي المستضيء بنور الله تتضمن الإشارة إلى ما بذله من جهود لخدمة الخلافة العباسية ،و جهاده للعدو الصليبي زمن نور الدين و فتح مصر و اليمن و بلاد من أطراف المغرب،و تأمين الطريق إلى الحجاز و اليمن ،و القضاء على الفتن الداخلية في مصر ،و أنه لا يستطيع فتح بيت المقدس و منازلة الصليبيين و هو بمصر لبعد المسافة و انقطاع العمارة ،فإذا جاورناهم كانت المصلحة بادية و المنفعة جامعة و اليد قادرة و البلاد قريبة و الغزوة ممكنة و الميرة متسعة ، و الخيل مستريحة و العساكر كثيرة،و أنه قدم إلى الشام لإصلاح الأمور و حفظ الثغور،ثم طلب من الخليفة تقليدا جامعا بكل ما تشتمل عليه الولايات النورية و كل ما يفتحه الله للدولة العباسية و لمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده .**أنظر**:مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج2،ص25-29.

و بعد أن صار صلاح الدين سلطان مصر و الشام [1]عقد هدنة مع مملكة بيت المقدس في صفر 571هـ/ أوت 1175 م كي يتفرغ لتثبيت أقدامه في بلاد الشام و لا يضطر لمحاربة جبهتين متفرقتين في وقت واحد،الزنكيون في الشمال و الشرق و الصليبيون في الجنوب و الغرب ،و ما أن أنزل الهزيمة الثانية بالحلفاء الزنكيين (الموصل و حلب) في ربيع 571هـ/1176م عند تل السلطان الواقع بين حلب و دمشق [2] على الطريق بين حلب و حماه، و قطع طريق المواصلات بين حلب و الموصل باستيلائه على بعض الحصون ثم عقد الصلح مع حلب،حتى اتجه نظره من جديد إلى الجهاد ضد العدو الصليبي الذي كان يتربص به[3].

1/حملات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس.

أ/ حملاته على بيت المقدس

لم يحالف الحظ الصليبيين في استغلال الوضع المتأزم في البلاد الإسلامية عقب موت نور الدين و تسابق أمرائه على اقتسام تركته الشاسعة ، و يعود ذلك إلى الموت المفاجئ للملك اللاتيني عموري الأول الذي ترك وراءه وضعا داخليا متأزما، فقد خلفه ابنه بلدوين الرابع Baldwin (569-581هـ/1174-1185م)،الذي لم يتجاوز الثانية عشر من عمره و قد كان مريضا بالجذام ،و من المؤكد أن بارونات مملكة بيت المقدس الصليبية قد تطلعوا بأفكارهم للبحث على شخصية أخرى تتولى عرش المملكة و تقوم بأعبائها ،و لكنهم لم يعثروا على تلك الشخصية لأن بلدوين الرابع كان الشخصية الوحيدة المتبقية من البيت الملكي.[4]

لقد كان بلدوين الرابع مضطرا في كثير من الحالات - بسبب صغر سنه و مرضه- إلى عدم تركيز السلطة في يده ، وإلى ترك الكثير منها لأمراء المملكة ،ما جعل مملكة بيت المقدس تبدو في ذلك العهد و قد غلبت عليها مسحة من الفوضى الإقطاعية بسبب تنازع أمرائها و تنافسهم حول النفوذ و السلطان، و قد كانت أول مرحلة من ذلك النزاع و التنافس حول الوصاية على الملك القاصر، و التي آلت في النهاية لصالح كونت طرابلس ريموند الثالث Raymond

---

(1) أنظر الخريطة رقم (21).

(2) ياقوت الحموي،معجم اللبلدان،ج2،ص42.

(3)ابن الأثير، الكامل، ج10، ص74، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص38، عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص588.

(4) وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص 213 ،رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص ،الحويري،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة،ص178، René Grosset, op, cit, p160.

نظرا لقرابته من ملك بيت المقدس من ناحية،و لنجاحه في ضم طبرية و إقليم الجليل إلى أملاكه –بعد زواجه من وريثته– من ناحية أخرى [1]،غير أن مهمته كانت شاقة لأن البارونات كانوا لا يعبؤون بأوامر الملك و انصرفوا يشيدون القلاع بهدف حماية اقطاعاتهم من المسلمين و الاستقلال عن السلطة المركزية على حد سواء،كما أن التنظيمات الدينية شاع فيها الفساد و لم يعد يشغلهم سوى البحث عن الثراء و حيازة الإقطاعات. [2]

أمام هذا الوضع المزري الذي كانت تعاني منه المملكة الصليبية وجد صلاح الدين الذي ثبت سلطانه في بلاد الشام أن الوقت قد حان لبداية مشروعه الجهادي ضد الصليبيين في الجبهة الجنوبية، خاصة و أن الجيوش الصليبية كانت آنذاك في الشمال تساعد إمارتي أنطاكية و طرابلس في تنفيذ مشاريعهما ضد المسلمين [3]،حشد صلاح الدين الجيوش المصرية و قطع بها شبه جزيرة سيناء عند الدرب الشعوي الذي يمر ببلاد التيه اجتنابا لأي خطر على الطريق الساحلي حتى و صل العريش في جمادى الأولى 573هـ/ نوفمبر 1177م و أخذ في مهاجمة المراكز الصليبية على شاطئ فلسطين الجنوبي [4].

و الظاهر أن صلاح الدين كان يرجو من هذه الغزوة فتح الطريق الساحلي بين مصر و فلسطين لتأمين مدخل مصر الشمالي الشرقي من خطر الصليبيين كما فعل بالطريق المار بوسط شبه جزيرة سيناء (درب الشعوي)،لذلك قام بمهاجمة الداروم و غزة الواقعتين في أقصى الجنوب الغربي للمملكة،كما رغب في اجتذاب أكبر قدر ممكن من القوا ت

---

(1) ستانلي لين بول،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس،ص127،عاشور، الحركة الصليبية، ص579-580،
Club du millénaire, zénith et nadir du royaume de Jérusalem ; Baudouin et saladin, p p 6-7.

(2) ألبير شاندور،صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام،ص130.

(3) اتجه جيش المملكة الصليبية بقيادة فيليب الألزاسي كونت فلاندرز الذي قدم إلى بيت المقدس في أواخر 573هـ/1177م على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين إضافة إلى عدد من فرسان و مشاة المملكة الذين بعث بهم الملك بلدوين الرابع، اتجهوا إلى الحدود الشرقية لإمارتي طرابلس و أنطاكية بناء على دعوة أمراء الإمارات الذين أرادوا الاستفادة من الحملة الفلمنكية، فأغاروا على أقاليم حمص و حماة مستغليين غياب صلاح الدين في مصر،ثم اتجهوا وحاصروا قلعة حارم بعد أن فشلوا في اقتحام حماة غير أن القلعة أبدت مقاومة كبيرة فعادوا يجرون أذيل الخيبة بعد أن أضاعوا الجهد و الوقت،**أنظر**:وليام الصوري،تاريخ الحروب الصليبية، ج4،ص213، عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص594.

(4) ابن الأثير،الكامل، ج 10،ص85،ابن خلكان،وفيات الأعيان، ج 7،ص168،الذهبي،العبر في خبر من غبر، ج 3، ص63 -64،الحريري،الأخبار السنية،ص177،عاشور،الحركة الصليبية، ج2، ص595،الحويري ،بناء الجبهة المتحدة،ص181،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص122،

الصليبية إلى تلك الجبهة الجنوبية،لتخفيف الضغط على الحاميات الإسلامية المرابطة بحماه و حارم ، و هما المدينتان اللتان اتجه إليهما الجيش الصليبي.[1]

كانت حركة صلاح الدين خاطفة و سريعة ليكسب الوقت قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال،غير أنه وجد الداوية في غزة استعدوا لمواجهة هجومه و حصنوا قلعتهم ،فاتجه بسرعة نحو عسقلان، في حين خف بلدوين الرابع يجمع الفرسان الخمسمائة المتبقين لديه لحماية مملكته و هرع إلى عسقلان لسد الطريق في وجه صلاح الدين بعد أن جاءته الأخبار باقتراب قواته من المدينة ثم دخل الحصن (عسقلان) و استدعى كل رجل قادر على حمل السلاح لينحاز إليه ،غير أن بلدوين الرابع ارتكب خطأ كبيرا عندما تسرع في دخول دمشق،لأن صلاح الدين حصره هو و قواته داخل أسوار المدينة و من ثمة غدت مملكة بيت المقدس بلا ملك أو جيش يحميها.[2]

عند وصول صلاح الدين أمام أسوار عسقلان في 24 جمادى الآخرة 573هـ/18 ديسمبر 1177م اعترض طريق الدفاعات الأولى للحصن و أوقع بكثير من عساكر بلدوين الرابع في الأسر،و بعد أن ترك صلاح الدين قوة صغيرة للتضييق على المدينة، أخذت جيوشه تغير على المدن و المعاقل الصليبية القريبة فاستباحوها و قتلوا وأسروا وغنموا و انبسطوا في البلاد آمنين،و هم يعلمون أنها خاوية من أي دفاعات،ثم اتجهوا إلى الرملة و أحرقوا الرملة و هاجما اللُّد حتى وصل الجيش الأيوبي إلى الجهات الواقعة بين أرسوف و نابلس و لم يصادفوا في طريقهم فرنجيا واحدا.[3]

على أن صلاح الدين كان قد اقترف خطأ استراتيجيا فادحا إذ أنه لم يؤمن مؤخرة جيشه عندما لم يحفل بالحامية الصغيرة المحاصرة داخل عسقلان ،وكان باستطاعته أخذها سلما بعد حصار بضعة أيام فقط، لأنها كانت خاوية من أي

---

(1) وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج 4،ص213،قدري قلعجي،صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق و الغرب خلال القرنين الثالث عشر و الرابع عشر للميلاد،شركة المطبوعات للتوزيع و النشر،ط1،بيروت،1992،ص281.

(2) أبو شامة،كتاب الروضتين، ج 2،ص304، وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج 4،ص213- 214،رنسيمان،المرجع السابق، ج 3،ص671-672،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص150،عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص595-596،

(3) البنداري،سنا البرق الشامي،ص 129، ابن الأثير،الكامل، ج 10،ص85،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 97،ابن واصل،مفرج الكروب، ج 2،ص59 ، أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر، ج3،ص59،اليافعي،مرآة الجنان، ج4،ص301، ابن الكثير،البداية و النهاية، ج7،ص236،ا،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة ،ج6،ص24بن العماد،شذرات الذهب، ج6. ص405.

Hamilton Gibb, the life of Saladin from the Works of Imad ad-din and Baha ad-din, oxford at. The clarendon press, 1973, p21-22 .

احتياطي للمؤن[1]،غير أن هذا الخطأ قد كلفه كثيرا فقد نجح الملك الصليبي في إنفاذ رسالة إلى الداوية في غزة يأمرهم بترك المدينة و اللحاق به إلى عسقلان لأنه تأكد من ابتعاد صلاح الدين و انشغاله بالإغارة على القرى و المدن،ثم خرج من عسقلان حيث اجتمعت حوله فلول الصليبيين و حتى حاميات المدن الصليبية القريبة و ثمانين فارسا من الداوية و بذلك توفر لديه ثلاثمائة و خمسة و سبعون فارسا فضلا عن المشاة الذين كانوا كثيري العدد،و ركب مع جميع رجاله ،و التزموا الساحل في سيرهم حتى بلغوا يبنه،ثم انحرفوا قليلا إلى الداخل و أخذوا في تعقب جيش صلاح الدين المتفرق.[2]

لقد فقدت قوات صلاح الدين تماسكها لانشغالها بالسلب و النهب [3]، و في 29جمادى الآخرة573هـ/23 ديسمبر1177م و بينما كان الجيش المصري يجتاز منخفضا قرب قلعة تل الجزر(montgisard) عند تل الصافية على مسافة بضعة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من الرملة انقض عليه فجأة فرسان الفرنج و ألحقوا بالمسلمين الهزيمة فلاذ عدد كبير منهم بالفرار،و هزموا هزيمة عظيمة، و لم يكتف الصليبيون بذلك بل أخذوا في مطاردة ما تبقى من جيش صلاح الدين حوالي 20كم،و استطاع صلاح الدين نفسه النجاة بصعوبة ، خاصة و أنه لم يكن في المنطقة حصن قريب يأوون إليه فطلبوا جهة الديار المصرية ،غير أن اجتياز صحراء سيناء كان شاقا و مؤلما فقد تعرض الناجون إلى مضايقات البدو، و وصل صلاح الدين و من معه مصر في حالة سيئة .[4]

و قد عرفت معركة تل الجزر في المصادر الإسلامية [5] بوقعة أو كسرة الرملة ،ووصفت بأنها كانت يوما عظيما على الإسلام لم يجبره إلا حطين،و على الرغم من اختلاف المؤرخين القدامى في تفسير سبب الهزيمة إلا أنها تدور جميعها حول عوامل جغرافية [6]،فقد أشار البنداري [7] إلى حرص صلاح الدين على اصطحاب الأدلاء معه عند خروجه من

---

(1) ألبير شاندور،المرجع السابق،ص151.

(2) وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج4،ص 214،جوناثان ريلي سميث،الإسبتارية،ص76-77،رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص672،عاشور،الحركة الصليبية ،ج2،ص596،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص122،

(3) ر.سي.سميل،فن الحرب عند الصليبيين،ص128.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج 6،ص24، وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج 4،ص218-219-220،رنسيمان،المرجع السابق، ج 3،ص672-673،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص 152،ستانلي لين بوول،المرجع السابق، ص 140 محمود سعيد عمران ،المرجع السابق، ص 122،عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص596،الحويري،بناء الجبهة ، ص 182،أحمد الشامي،المرجع السابق،ص112،محمد فريد أبو حديد،المرجع السابق،ص102-103،

(5) ابن الأثير،الكامل، ج10،ص85،أبو شامة،الروضتين، ج2،ص304،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص97،ابن واصل،مفرج الكروب، ج2،ص58.

(6) حسن عبد الوهاب حسين،مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية،ص311.

(7) سنا البرق الشامي،ص130 .

مصر و في يوم المعركة اعترضه نهر عند تل الصافية فازدحمت العساكر للعبور على الجسر و لم يشعروا إلا بالعدو يهاجمهم و هكذا حلت الهزيمة بالمسلمين بسبب هذا العائق الطبيعي،أما أبو شامة [(1)] فيذكر نفس الرواية و يضيف عليها أخري نقلا عن ابن شداد [(2)] حيث أشار إلى أن المسلمين رغبوا في تعديل تشكيل القوات ليكون حال لقاء العدو عند تل معروف بأرض الرملة،وبينما هم كذلك إذ فاجأهم العدو فـهزموا شر هزيمة ،أما وليام الصوري [(3)] مؤرخ المملكة الصليبية فيذكر أن سبب هزيمة صلاح الدين هو سقوط الأمطار الغزيرة فجأة و لمدة عشرة أيام متتالية، مما أدى إلى فقد قوات صلاح الدين لخيولهم ،إضافة إلى جهلهم بالمنطقة و عدم و جود أدلاء معهم.

و تجدر الإشارة إلى أن وليام الصوري هو الذي انفرد بذكر سقوط الأمطار،و هو احتمال قائم لأن المعركة حدثت في شهر ديسمبر،و يتفق في باقي روايته مع باقي المصادر الإسلامية في أمر فقدان الأدلاء و أن عددا كبيرا من المسلمين قد ظل الطريق و دخل إلى المناطق الصليبية معتقدا أنه في أراضي إسلامية،و برغم هزيمة المسلمين و انتصار بلدوين في هذه المعركة إلى حد القول أنه أنقذ مملكة بيت المقدس ،إلا أنه يمكن القول أنها كانت معركة بدون نتائج تذكر،فلا زال الصليبيون يعانون من قلة المحاربين و لم يكن بوسعهم متابعة قوات صلاح الدين أو الهجوم على دمشق، أما صلاح الدين فقد تأكد له في أعقاب هذه المعركة ضرورة جعل بلاد الشام و بخاصة دمشق قاعدة عملياته العسكرية ضد الصليبيين نظرا لقرب المسافة منها إلى مناطقهم ،أما مصر فهناك عقبة بعد المسافة بينها و بين فلسطين لاسيما فيما يتعلق بتأمين خطوط التموين للقوات المحاربة [(4)]،و لعل بناء صلاح الدين لقلعة بئر السبع في صحراء النقب بعد معركة تل الجزر لغرض إيجاد قاعدة عسكرية في صحراء سيناء يمكن الرجوع إليها وقت الحاجة .

ب/ حملاته على الجليل.

إن الانتصار الذي حققه الصليبيون في تل الجزر 573هـ/1177م لم يثمن بهجوم على دمشق أو مصر لتحطيم قوة صلاح الدين نهائيا ،و ذلك لقلة ما تملكه المملكة الصليبية من جنود فلم يكن بوسع بلدوين الرابع أن يخاطر بجيشه الصغير في مهاجمة العدو ما لم يحصل على مساعدة خارجية، فاستعاض عن ذلك بأن قرر تشييد استحكامات متينة

(1) الروضتين، ج2،ص304.
(2) النوادر السلطانية،ص97 .
(3) تاريخ الحروب الصليبية، ج4،ص221.
(4) حسن عبد الوهاب حسين،المرجع السابق،ص ،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص ،محمد مؤنس عوض،العلاقات بين الشرق و الغرب،ص211.

على امتداد حد إمارة دمشق،حيث أدى ضياع بانياس 559هـ/1164م إلى قلب نظام الدفاع عن المملكة رأسا على عقب لأنها كانت تمثل الخط الدفاعي الأول أمام دمشق،ما جعل الملك عموري الأول يحاول استرجاعها مستغلا موت نور الدين569هـ/1174م واضطراب الوضع في دولته لكنه لم يتمكن من أخذها بسبب مرضه المفاجئ أثناء الحصار و الذي انتهى بموته بعد شهرين من ذلك.(1)

لقد شرع بلدوين الرابع في تشييد قلعة بيت يعقوب أو مخاضة الأحزان (2) في جمادى الأولى 574هـ/أكتوبر 1178م على المجري الأعلى لنهر الأردن،و هي واقعة بين بحيرة الحولة و بحيرة طبرية على ستة عشر كيلومتر من مدينة بانياس، و على الطريق بين طبرية و صفد،كما أنها تبعد بيوم عن دمشق و بنصف يوم عن كل من صفد و طبرية،و هي مورد غذاء دمشق حيث حقول القمح و الأرز و القطن (3)،و قد تمتعت هذه القلعة بأهمية إستراتيجية كبيرة إذ تحرس الطريق الآتي من دمشق حيث دأب المسلمون التوجه غربا و تهديد ملاك الجليل،كما أن هذه القلعة تتحكم في سهول بانياس الخصبة ،و يمكن من خلالها مراقبة الفرسان الذين يأتون من بانياس أسفل وادي الأردن المفتوح،و قد أراد الصليبيون من بناء هذا الحصن ألا يكون مركزا للدفاع فحسب بل أيضا قاعدة للهجوم على قوافل المسلمين ومنعها من المرور.(4)

و قد اهتم الصليبيون بتحصين هذه القلعة حتى غدت من أمنع حصون بلاد الشام،فعهد بلدوين الرابع بها إلى الداوية، و لما أدرك صلاح الدين خطورة هذا الحصن على المسلمين كاتب الصليبيين و طالب بهدمه لما يسببه من ضرر لمصالح المسلمين و تجارتهم،و لكنهم طلبوا النفقات التي بذلوها في تشيده،و عندئذ عرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار مقابل هدمه، ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف دينار غير أنهم رفضوا ،و لم يكتفوا بذلك بل شيدوا في السنة التي تليها 575هـ/1179م حصنا في الشمال الغربي من بحيرة الحولة على جبل هونين ،يتحكم في منابع الأردن و سهوله العليا ،

---

(1) ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص60،أبو شامة،الروضتين،ج 2،ص211-212،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 2،ص7، رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص 674،الحريري،الأخبار السنية،ص161،يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين ،ص 339-340.

(2) يعتقد أن المنطقة التي بني عليها الحصن كانت بيت سيدنا يعقوب عليه السلام أيام فراقه سيدنا يوسف عليه السلام ، حيث كان يصعد إلى قمة التلة و يبكي حزنا على فقدانه لذا سميت كذلك ببيت الأحزان،**أنظر**،ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج1،ص519،ابن كثير،البداية و النهاية،ج7،ص239.

(3) البنداري،سنا البرق الشامي،ص159،أبو شامة،الروضتين،ج3،ص13، ولیام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص227،رنسيمان،المرجع السابق،ج3 ،ص674، ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص141.

(4) الحويري،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة،ص183.

Grosset, op, cit, p166.

و إن نظرة على الخريطة لتوضح لنا أن حصني بيت الأحزان و هونين صارا بمثابة خط دفاعي لحماية مملكة بيت المقدس من ناحية دمشق.[1]

أدرك صلاح الدين أن الحصون التي شيدها الصليبيون في إقليم الجليل ستقف في وجه حركة الجهاد في الجبهة الجنوبية لتوسطها الإقليم ،فما كان منه إلا أن اتجه في ربيع 574هـ/1179م إلى حصار قلعة مخاضة الأحزان ،غير أن استحكاماتها الدفاعية بلغت من المناعة ما حمله على الارتداد عنها بعد مضي بضعة أيام لكنه عاود الكرة و حاصر الحصن بعد الانتصار الذي حققه في مرجعيون في محرم 575هـ/ جوان 1179،و تمكن هذه المرة بعد حصار لم يستمر سوى خمسة أيام من29 إلى 30 ربيع الأول/ 24إلى 25 أوت ،أن ينقب أسوار القلعة بعد أن نصب عليه المنجنيقات و قد ألح المسلمون في القتال خوفا من وصول إمداد للداوية فتمكنوا من الدخول إليها ،و لقي المدافعون عنها مصرعهم ، فحصل الجيش الأيوبي على غنائم كثيرة ،و تم تدمير القلعة عن آخرها حتى تساوت بالأرض[2] .

و كان الصليبيون بعد أن أتموا بناء الخط الدفاعي تبنين (toron) بيت الأحزان لحماية المملكة الصليبية من أي هجوم مباغت من دمشق، اتجهوا في ذي القعدة 574هـ/ أفريل 1179 م بقيادة الملك الصليبي بلدوين الرابع و همفري سيد تبنين Humphrey of toron إلى سهول دمشق أين تتمركز المراعي الخصبة القريبة من بانياس ليعترض قطعان الأغنام القادمة من سهول دمشق إلى بانياس و يستولي عليها ،و هنا يتضح لنا جليا ما كانت تعانيه المملكة من نقص الموارد الاقتصادية نتيجة لوقوعها في منطقة شبه صحراوية على عكس الدولة الأيوبية التي تتربع على أراضي شمال الشام الخصبة إضافة إلى مصر التي تزخر بالثروات الطبيعية و البشرية[3].

لما علم صلاح الدين-الذي كان بدمشق عندئذ- بتحركات عدوه، عهد إلى ابن أخيه عز الدين فروخشاه بالخروج لقتالهم على رأس ألف فارس،و أمره بعدم الاشتباك معهم إلا بعد التيقن من دخولهم الأراضي الإسلامية ،وبعد أن غنموا و نهبوا و أسروا ما أمكنهم انقض فروخشاه عليهم فجأة و هم يعبرون واد ضيق في غابة بانياس ،فأخذ الملك على غرة و لم يستطع أن يخلص جيشه إلا بفضل بسالة همفري سيد تبنين الذي استمر مع حرسه في مقاومة المسلمين حتى أفلت

---

(1) البنداري،سنا البرق الشامي،ص 158-159 ،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 2،ص82 عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 597-598،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص141.

(2)ابن الأثير،الكامل، ج10،ص95،أبو شامة،الروضتين، ج3،ص25-26،ابن واصل،مفرج الكروب، ج 2،ص80-85 ،السيد الباز العريني،الشرق الأدنى في العصور الوسطى،ص85،محمد كرد علي،الخطط، ج2،ص54.

(3) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص598،

جيش الملك بلدوين الرابع الذي أصيب إصابات خطيرة ،في حين أصيب همفري بإصابة بالغة أدت بحياته بعد عدة أيام من المعركة.[1]

و لم يلبث صلاح الدين بعد هذا النصر الذي حققه أن عسكر عند تل القاضي غربي بانياس حيث اتخذها قاعدة لتحركاته،و منها أرسل المغيرين إلى الجليل، و إلى سواحل الشام لتدمير محاصيل الأراضي الواقعة بين صيدا و بيروت،فكان يركب كل يوم بحجة الصيد و يجرد العساكر و قبائل العرب إلى صيدا و بيروت حتى يحصدوا غلات العدو ،بعد أن عهد إلى ابن أخيه تقي الدين عمر بمراقبة الصليبيين عند حماه خوفا من غدر بوهيمند الثالث أمير أنطاكية و إلى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن جبهة حمص ضد ريموند الثالث أمير طرابلس،في حين أرسل إلى أخيه العادل في مصر يطلب منه إرسال المدد.[2]

فلما سمع الملك بلدوين الرابع بغارات صلاح الدين قام بحشد كل قوات المملكة رغم مرضه الشديد ،ودعا ريموند كونت طرابلس للانحياز إليه ،فسارا معا مجتازين طبرية و صفد إلى تبنين toron حيث علموا أن فروخشاه و جماعة من المغيرين في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة ،فتحركا صوب الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون بين نهر الليطاني و المجرى الأعلى لنهر الأردن،و بينما كان الجيش الصليبي ينزل الهزيمة بفروخشاه فاجأهم صلاح الدين من الخلف عند مدخل وادي الأردن في مكان يعرف بتل القاضي في سهل مرجعيون و أوقع بهم هزيمة نكراء و ذلك في 3 محرم 575هـ/10جوان 1179م،غير أن الملك بلدوين الرابع و الكونت ريموند و عدد من رجالهم تمكنوا من الفرار و عبور نهر الليطاني،و قتل صلاح الدين عددا كبيرا منهم و وقع في الأسر ما يزيد عن مائتين و سبعين من الفرسان و البارونات،و كان ممن وقع بالأسر أودو أف سانت أماند Odo Of Saint Amand مقدم الداوية[3]،و بلدوين أف أبلين Baldwin Of Ibelin،و هيو حاكم الجليلhugh of Galilée .[1]

---

(1)البنداري،سنا البرق الشامي،ص160-161،ابن الأثير،الكامل،ج10،ص92-93،أبو شامة،الروضتين،ج3،ص14، وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج4 ،ص230-231،رنسيمان ،المرجع السابق،ج3،ص676، الحويري،بناء الجبهة، ص183.

(2)ابن واصل،مفرج الكروب،ج3،ص 73-74 ،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص123،عاشور،الحركة الصليبية،ج2،ص598، Gibb ,op ,cit ,p 25.

(3) لقد أراد صلاح الدين مبادلة مقدم الداوية أودو أف سانت أماند بأحد كبار الأسرى المسلمين،غير أن هذا الأخير رفض هذا العرض قائلا أن الداوي لا يفدي نفسه إلا بحزامة أو بخنجره و في هذا الرد إهانة لصلاح الدين لأنه لم يقبل أن يساويه احد في القيمة،فأرسله إلى دمشق أين مات هنالك في الأسر و يذكر وليام الصوري أنه لم يحزن عليه أحد لتكبره و غروره، **أنظر**: الحروب الصليبية، ج 4،ص236،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص 123،الحويري،الجبهة الإسلامية ،ص184.

لقد كان في وسع صلاح الدين أن يتبع انتصاره في مرجعيون بمهاجمة طبرية و بيت المقدس ،كما فعل فيما بعد عقب انتصاره في حطين 583هـ/1187م،و لكن يلاحظ أن ملك بيت المقدس نجا من الأسر مما يجعل مهمة صلاح الدين عسيرة،فمادام الملك طليقا فإن عناصر المقاومة ستجتمع حوله ،غير أن صلاح الدين تابع انتصاراته في سرعة مذهلة فلم يكتف بتدمير حصن بيت الأحزان بل استطاع أسطوله أن يخرج من الموانئ المصرية في جمادى الأولى 575هـ/أكتوبر 1179م ليهاجم عكا ذاتها،و لم يسع الملك بلدوين الرابع إزاء الضربات القوية التي أخذ صلاح الدين يوجهها ضد الصليبيين سوى أن يطلب عقد الهدنة التي وافق عليها صلاح الدين محرم576هـ/ ماي 1180م [2].

لم تدم هذه الهدنة طويلا ذلك أن صاحب الكرك و الشوبك رينو دو شاتيون Renaud De Chatillon خرق الهدنة المعقودة بين صلاح الدين و مملكة بيت المقدس و أخذ يهاجم القوافل الإسلامية المارة في حدود إقطاعيته و ذلك في صيف 577هـ/1181م،فخرج صلاح الدين من مصر لقتاله،وفي تلك الأثناء احتشدت جيوش المملكة في الأردن لسد الطريق أمام الجيوش الأيوبية [3]التي عبرت صحراء شبه جزيرة سيناء ثم سلكت طريق أيلة و من هناك زحفت شمالا على السهول الجرداء و الصخرية بالقرب من جبال الشراة مستطلعا للبحث عن العدو،ثم نهب البلاد بالقرب من الشوبك بينما كان الجيش الصليبي يراقبه من خنادقه القريبة من الكرك.[4]

في تلك الأثناء كان فروخشاه نائب صلاح الدين على دمشق قد انتهز فرصة انتقال الجيوش الصليبية إلى الأردن ،وأغار على طبرية و نهب دبورية القريبة منها و عكا ما جاورها من قرى وأسر أكثر من ألف أسير، بعد ذلك انتقل إلى الضفة الشرقية للأردن شرقي بحيرة طبرية فأغار على السواد،و في أثناء عودته أغار على حصن الشقيف أرنون (حبيس جلدك) الذي يطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن و تسلمها دون مقاومة .[5]

---

(1) أبو شامة،الروضتين، ج3،ص19-20،ابن واصل،مفرج الكروب،ص164-166،السيد الباز العريني،المرجع السابق ، ص58 .

(2) عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص604-605 .

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص110،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص149.

(4) ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق و سر الخلائق، تحقيق:حسن حبشي، عالم الكتب للنشر، القاهرة، (د.ت)،ص 93، ستانلي لين بوول،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس،ص139.

(5) ابن شاهنشاه،مضمار الحقائق،ص 94،ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج 2،ص115، ابن واصل،مفرج الكروب، ج 2،ص115، محمد كرد علي،ا لخطط ،ج2 ،ص54-55،

Archer, op, cit, p 258.

و لما وصل صلاح الدين إلى دمشق،نفذ إلى فلسطين في ربيع الأول 578هـ/ جويلية 1182م و نصب معسكره في سهل الأقحوانة عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية،و في الوقت نفسه أرسل ابن أخيه فروخشاه للإغارة على إقليم الغور فسار على طريق رأس العين و عبر الأردن نحو بيسان ، التي دخلها قهرا و غنم ما فيها و قتل و سبى ، و بعد أن قام صلاح بحركة سريعة مكنته من الانضمام إلى فروخشاه حيث شرع الاثنان في مهاجمة حصن الكوكب الذي يشرف على إقليم الغور و الطريق المؤدي إلى الناصرة،و كان أن أسرع الصليبيون إليه حيث شنوا عليه هجوما على المسلمين عند –عفر بلا[1]– جنوبي حصن الكوكب الذي كان تابعا للإسبتارية،وقد انتصر صلاح الدين عليهم غير أنه أدرك عدم جدوى تلك المعارك المحلية ضد الصليبيين ،و آثر أن يحتفظ بقواته سليمة للمعركة فانسحب إلى دمشق.[2]

و لم يلبث صلاح الدين أن أعاد الكرة و أغار على بيسان في جمادى الأولى 579هـ/سبتمبر1183م،حيث جمع جيشا كثيفا و عبر نهر الأردن ثم دخل مدينة بيسان و أحرقها و خربها،ففر سكانها إلى طبرية و تحصنوا بها ،كما نهبوا البلاد و ما حولها حتى جبل طابور و التلال في أعالي الناصرة،و لما علم جاي لوزيجنان Guy Of Lusignan- الذي تولى الوصاية على الملك بلدوين لمرضه- بقدوم القوات الإسلامية استدعى على الفور كل قوات المملكة اللاتينية غير أن المسلمين كانوا قد نصبوا الكمائن للصليبيين على منحدرات جبل جلبوع قرب الناصرة فقتل الكثير منهم،و أنفذ صلاح الدين سرايا للاستيلاء على المعاقل الصغيرة في الجهات المجاورة و تدميرها بينما وجه سرايا أخرى لنهب دير اليونانيين على جبل الطور ،غير أنها لم تستطع اقتحام الأسوار المنيعة لدير اللاتين على قمة التل.[3]

أعاد الصليبيون تجميع قواتهم عند صفورية شمالي الناصرة و منها اتجهوا إلى سهل زرعين و مع بداية شهر جمادى الأخر/أكتوبر تحركت الجيوش الصليبية لمنازلة المسلمين فنصبوا معسكرهم عند الفولة la fève و هي قرية معروفة بفلسطين قرب أغوار عين جالوت في الشمال الشرقي من بيسان حيث أصبحوا في مواجهة صلاح الدين فالتزموا الدفاع من كثرة جيش صلاح الدين،و حاول صلاح الدين إغراء القوات الصليبية للخروج من مواقعها غير أنه فشل،و في النهاية عاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن قتل و أسر كثيرا من الصليبيين،و خرب من حصونهم بيسان و عفر بلا و زرعين ،فضلا عن عدد من الأبراج و القرى،في حين عاد الصليبيون إلى مراكزهم بصفورية،و قد كان سلوك جاي لوزيجنان في

---

(1) **عفر بلا**:بلد بغور الأردن قرب بيسان و طبرية،**أنظر**:ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج4،ص131.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص112، ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص115.

(3) ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص156،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص،126

عدم مهاجمة القوات الإسلامية أبلغ الأثر في نفوس الصليبيين ة اتهموه بالجبن،و كان لذلك أثره في الصراع داخل مملكة بيت المقدس و انتهى الأمر بعزله من الوصاية عن الملك بلدوين الرابع[1].

ج/حملاته على المنخفضات الشرقية.

لقد أدرك صلاح الدين منذ أن كان وزيرا في مصر الأهمية الكبيرة التي تمتع بها إقليم المنخفضات الشرقية، لذلك سعى إلى مهاجمة قلاعه باستمرار، و ذلك لضمان ربط خطوط المواصلات بين مصر و الشام و الحجاز،و قد زادت تلك الرغبة بعد أن صار هو السلطان الذي امتدت ممتلكاته من جبال طوروس شمالا غلى بلاد النوبة جنوبا و أصبح هذا الإقليم حجر عثرة في طريق الجيوش و التجارة الإسلامية.

و بتولي رينو دي شاتيون ،أو أرناط كما يسميه العرب مقاليد الحكم في إقليم ما وراء الأردن –بعد تزوجه من وريثة صاحب الأردن إتينت دي ميلي Etiennette De Milly–،سيطر على قلعة الكرك و غيرها من القلاع حول البحر الميت ،و من هذا المركز الإستراتيجي الهام قام بعدة غزوات و صفت بأنها أجرأ ما قام به الصليبيون ضد المسلمين في العالم الإسلامي و بلاد الشام عامة و في الجبهة الجنوبية خ لال طول مدة إقامة الصليبيين في الشرق،و يقال أن شخصية أرناط قد ملأت إلى حد كبير ذلك الفراغ الذي خلا بوفاة عموري الأول ملك بيت المقدس 570هـ/1174م،غير أن ظهوره لم يستطع أن يحل الخلافات و يوجد الآراء بين الصليبيين و ذلك لتعدد الأمراء الطامعين في عرش بيت المقدس،هذا بالإضافة إلى اختلافهم فيما بينهم على طرق الحروب التي يريدون اتخاذها مع جيوش المسلمين[2].

و من ثمة فقد انقسموا إلى حزبين كبيرين الأول يدعو إلى قتال المسلمين دون هوادة و يتزعم هـالملك بلدوين الرابع و أخته سبيلا و زوجها جاي لوزيجنان و انضم إليهم أرناط،أما الحزب الثاني و يتزعمه ريموند الثالث فكان يدعو لمهادنة المسلمين ،الأمر الذي جعل المتطرفين من الصليبيين يتهمونه بالتخاذل و التهاون في الجهاد ضد المسلمين [3]،و يجدر بنا

---

(1) ابن شاهنشاه،مضمار الحقائق،ص95،أبو شامة،الروضتين،ج3،ص120-121،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص107-108،ابن واصل،مفرج الكروب ، ج2،ص148-151،وليام الصوري، الحروب الصليبية ،ج4،ص290-291.

(2) عاشور،الحركة الصليبية،ج2،ص613، رنسيمان،المرجع السابق،ج708،3-709.

(3) أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص 113،عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق و الغرب،ص 64،عبد العظيم رمضان،الصراع بين العرب و أوربا،ص487.

grousset,op,cit,p169.

قبل أن نخوض في سير المعارك التي وقعت بين أرناط و صلاح الدين الجبهة الجنوبية (المنخفضات الشرقية و سيناء) ،أن نشير إلى أن الأجناد و العساكر التي كان يتكون منها جيش صلاح الدين كان ت ضم بعض القبائل العربية المتمركزة في شبه جزيرة سيناء الذين اعتمد عليهم في حروبه الصحراوية التي خاضها ضد الصليبيين.

لقد كانت قبائل سيناء تشكل جزءا هانا من البدو الذين يرجح أن يكون صلاح الدين قد كون منهم جيشا قائما بذاته،لأنه من المستبعد أن يكون قد أدمج القبائل العربية الرحل بالجند ،و قد ذكر المقريزي [1] أن صلاح الدين في سنة 567هـ/1171م قد عرض العربان الجذاميين و كانت عدتهم سبعة آلاف فارس ،فاستقرت على ألف و ثلاثمائة فارس لا غير ،و كلف الثعالبة مثل ذلك فامتعضوا (امتنعوا) و تحيزوا للصليبيين ،و حين خرج صلاح الدين إلى عسقلان سنة 573هـ/1177م حشد معه من العرب عشرين ألف مقاتل.

كان جيش البدو بالنسبة لصلاح الدين سلاحا ذو حدين ،فقد كانوا في بعض الأحيان عونا له و نصيرا قويا ضد الصليبيين و أحيانا أخرى شوكة في ظهره،أما عن الحروب و المعارك التي عاون فيها البدو فقد ساهمت قبيلة بني منقذ النازلة في دمياط و ضواحيها في غزوة صلاح الدين لغزة و عسقلان سنة 574هـ/1177م و التي دلته على المسالك و الطرق في شبه جزيرة سيناء،أما عن المواقف المخزية التي وقفها البدو من صلاح الدين ،فهي خروجهم على النظام و الطاعة و سلبهم المعسكر الإسلامي إذا ما انهزم المسلمون في المعركة و لم ينالوا منهم غنيمة،فقد تعاون قبائل جنوب فلسطين و الأردن مع العدو ضد صلاح الدين و كذا عرب جذام و ثعلبة بالشرقية حيث أنشأوا أسطولا للقراصنة في بحيرة المنزلة لتهريب الغلال إلى الإمارات الصليبية ،فأمر صلاح الدين بسلب إقطاعاتهم و ترصد حركات أسطولهم ،ثم قام بترحيلهم غلى مديرية البحرية الحالية سنة 579هـ/1183م حيث قاموا بثورة بعد ذلك بثلاث سنوات لكن تم إخمادها.[2]

على أنه يمكن القول أن البدو على العموم قد أبلوا بلاء حسنا في المعارك العامة و في حرب العصابات و الغارات الليلية و الكمائن،فضلا عن جماعة الأدلاء منهم أصحاب الدراية باختراق الصحاري و معرفة الدروب و المسالك المستعملة بها ،فاستخدمهم صلاح الدين في مواضع كثيرة ،واستعان بهم في كشف الطرق و الوديان و خاصة في سيناء،هذا و يجب أن لا نغفل أن بعضهم لم يكن مخلصا الإخلاص كله لجيوش المسلمين ،فطعنوهم من الخلف و آذوهم

---

(1) المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك،تحقيق:محمد عبد القادر عطا، ،دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،1997، ج1، ص105.
(2) أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص113-114.

في خطوط تموينهم و طرق مواصلاتهم ،و آثروا العمل في صفوف الصليبيين طمعا في المال و الكسب [1]،إذ لولاهم لما تمكن القائد الصليبي أرناط صاحب الكرك أن يقوم بحملته البرية و البحرية لغزو مكة و المدينة سنة 578هـ/1182م.[2]

و لما أدرك صلاح الدين ما لهؤلاء البدو من أهمية في الصراع مع الصليبيين على الجبهة الجنوبية و خاصة سيناء و المنخفضات الشرقية،وجد أن الحل لهذه المشكلة هو تنفيذ ما قد أمر به نور الدين من قبل،و هو إقطاع مشايخهم و أمرائهم القطائع لئلا يتعرضوا لمصالح الدولة،و قد كانت تلك القطائع في شبه جزيرة سيناء ،مما جعل الكثير من القبائل المصرية التي أسكنها هنالك تخلص في الدفاع عن إقطاعياتها خاصة و عن الجيش الإسلامي عامة.[3]

وبعد النصر الذي حققه صلاح الدين في موقعة مرجعيون 575هـ/1179م و استيلائه على حصن مخاضة الأحزان لم يجد الملك بلدوين بدا من طلب الهدنة خاصة و أن الأسطول المصري قد بدأ في الهجوم على مدينة عكا،و قد تم عقد الهدنة بين الطرفين الإسلامي و الصليبي في محرم 576هـ/ ماي 1180م فرحل صلاح الدين إلى القاهرة [4]، و قد ذكر ابن أيبك[5] شروط الصلح فقال:" و وقع الصلح بينهم إلى وقت معين بشرط أن المسافرين يسافرون و القفول لا تنقطع و التجار لا تتعوق من الشام إلى مصر" ،و قد انشغل صلاح الدين منذ وصوله في استكمال تحصين مصر و خاصة القاهرة و الموانئ الساحلية خوفا من حدوث خطر داخلي أو خارجي.[6]

و بينما كان صلاح الدين مشغولا بالتحصينات الحربية و توطيد أركان الجبهة الداخلية، لم تحافظ المملكة اللاتينية على الهدنة،ذلك أن أرناط صاحب إقطاع ما وراء الأردن لم يحافظ على أهم بند في شروطها و هو أن تكون للتجار المسلمين و الصليبيين حرية الانتقال بين أملاك الدولة الأيوبية و مملكة بيت المقدس،و أستغل موقع إمارته حيث كان حصن الكرك على بعد ثلاثين كيلومترا شرقي البحر الميت في قلب الإمارة كما كان يشرف على السهل الممتد أمامه و ينتهي إلى أربعمائة قرية ،و هذا السهل يمر به الحجاج بين مكة و دمشق،فلم يكتف بتحصيل رسوم المرور من قوافل

---

(1) أبو شامة،الروضتين، ج2،ص176،المقريزي،السلوك، ج1،ص105،أحمد رمضان،سيناء،ص114-115.

(2) ابن جبير،الرحلة،ص57.

(3) المقريزي،الخطط، ج1،ص،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص115-116.

(4) أنتوني بردج،تاريخ الحروب الصليبية،ص 183،الحويري ،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة،ص 185،محمد مؤنس عوض،العلاقات بين الشرق و الغرب ،ص212.

(5) كنز الدرر و جامع الغرر، ج7،ص50-51.

(6) محمد فريد أبو حديد،صلاح الدين الأيوبي و عصره،ص108.

الحجاج المارة بهذه القلعة وقطع الطريق على تلك القوافل الآمنة و حرمانها من الماء المحمول إليها بحراسة قوات صلاح الدين هناك بل ركبه الغرور و خيل إليه أنه بلغ من القوة ما يمكنه من طعن الإسلام و المسلمين في مقدساتهم فاتجه إلى أراضي الحجاز لغزوها.(1)

خرج أرناط في صيف 577هـ/1181م مخترقا بقواته الصحراء العربية جنوبا،فتوغل فيها مسافة ألف كيلومتر حتى وصل تيماء الواقعة في أطراف الشام ووادي القرى و قد كانت لهذه الواحة أهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الأردن و المدينة المنورة حتى وصفها صلاح الدين نفسه في رسالته إلى الخليفة بأنها "دهليز المدينة"(2)،و قرب الواحة انقض على قافلة كانت مطمئنة إلى مكة ،و استولى على كل ما كانت تحمله من سلع تجارية و قطع طريق الحج و لعله فكر أيضا في المضي لمهاجمة المدينة المنورة و ما إن سمع صلاح الدين الذي كان آنذاك في مصر بادر إلى إرسال حملة عاجلة بقيادة عز الدين فروخشاه ابن أخيه و نائبه بدمشق فجمع هذا الأخير العساكر و أغار على إمارة الكرك و نهبها و خربها و اكتسح نواحيها،فلم يسع أرناط إلا أن يسرع بالعودة إلى إقطاعه(3).

ولم تقف الأمور بالصليبيين عند هذا الحد، بل عقدوا العزم على ضرب المسلمين في أعز مقدساتهم و ذلك بمحاولة الاستيلاء على المدينة المنورة مرة أخرى و قطع طرق الحجيج من مصر و الشام عبر سيناء ،فبينما كان صلاح الدين يتأهب للذهاب إلى دمشق سنة 578هـ/1182م عبر طريق سدر ،أيلة سالكا طرق سيناء الوسطى على الجسر ووادي موسى و حثا و عقبة و أيلة و بينما هو في الطريق جاءه البريد باجتماع الصليبيين بالكرك لقطع طريقه إلى دمشق(4).

لم يكن أمام صلاح الدين إزاء هذا الموقف إلا أن يلجأ إلى الحيلة و المكر،فأرسل إلى ابن أخيه فروخشاه يأمره باغتنام فرصة اجتماع الصليبيين بالكرك للإغارة على إقليم الجليل-كما ذكرنا سابقا-،أما هو فقد سار من أيلة بالعساكر

---

(1) ابن جبير،الرحلة،ص201،عاشور،الحركة الصليبية،ج2،ص،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص116-117.

(2)أبو شامة،كتاب الروضتين،ج2،ص.

(3)ابن الأثير،الكامل،ج10،ص105،ابن شداد،الأعلاق الخطيرة في ذكر ملوك الشام والجزيرة،ج137،2،ابن واصل،مفرج الكروب ،ج2 ،ص 101-102 ، رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص696-697،عاشور،الحركة الصليبية،ج 2،ص606،الحويري،بناء الجبهة،ص 187،السيد الباز العريني،المرجع السابق ، ص 74،محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك،ص7،محمود السيد،تاريخ الحروب الصليبية،ص158.

Gibb, the life of Saladin, p21.

(4) أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص117. ،أنظر الخريطة رقم (6).

Grousset, op, cit, p170-171 .

المقاتلة و أخذ يشن الغارات بأطراف بلاد العدو ،فمر بحمى ثم قبه اشتار ثم القربتين قرب الشوبك ،و بينما كان صلاح الدين يقوم بهذه العمليات على الأطراف أمر أخاه تاج الملوك بوري أن يسير بالأثقال و أصحاب المتاجر على يمينه لحمايتهم ،و بعد أسبوع التقى بأخيه عند بلدة الأزرق قرب الكرك و لم يجرؤ أحد من الصليبيين على الخروج إليه.(1)

على أن أرناط لم يسكت على غارات صلاح الدين للجليل و الساحل، وانتهز فرصة انشغاله في الشمال (بلاد الجزيرة) و أخذ يفكر من جديد في الإغارة على بلاد الحجاز و تحقيق سيادة الفرنج على بحر القلزم (الأحمر) و طعن الإسلام و المسلمين بغزو الحرمين ،ففي خريف 578هـ/1182م اتجه أرناط إلى خليج العقبة و استولى على أيلة التي تتمتع بأهمية إستراتيجية كبيرة،و التي كان بلدوين الأول قد استولى عليها سنة 510هـ/1116 ثم استردها صلاح الدين سنة 566هـ/1170م ،و من الواضح أن استيلاء صلاح الدين على أيلة كان يمكنه من تهديد الشوبك و الأراضي الصليبية في وادي عربة(2).

و قد كان أرناط قبل أن يغادر إقطاعه متجها إلى أيلة قد صنع له أسطولا خاصا لكي يهاجم الأراضي المقدسة من ناحية البحر،فاخذ يقطع أشجار إقليم الكرك و أكثر نخيل مدينة العريش و حمله إلى حصن الكرك و هناك عهد إلى دير الرهبان بصنع المراكب ،كما عهد إلى صليبي عسقلان بصنع بعض مراكب الأسطول حتى توافر لديه خمس سفن حربية كبيرة و عدد من المراكب الخفيفة،فنقلها جميعها مفككة على جمال البدو إلى الساحل بعد أن أغراهم بالمال،ثم ركب السفن و شحنها بالمقاتلين و السلاح.(3)

ولم يكد يتم تركيب تلك السفن حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) ثلاثة كيلومترات جنوب أيلة ،بينما انطلقت بقية سفن الأسطول ملتزمة في سيرها الساحل الإفريقي للبحر الأحمر،و أخذوا يغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم من البلدان الصغيرة ،فهاجموا و نهبوا ميناء عيذاب و هو ميناء كبير للنوبة يقع قبالة جدة ،و به

---

(1) البنداري،سنا البرق الشامي،ص 195، ابن شاهنشاه،مضمار الحقائق،ص 93،أبو شامة ،كتاب الروضتين،ج 2،ص38، ،ابن كثير،البداية و النهاية ،ج 7 ،ص248، ،المقريزي،السلوك،ج1، ص77.

Archer, op, cit, p258.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص127، عاشور، الحركة الصليبية،ج2، ص618، عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص486،كلود كاهن، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية،ص191، سحر السيد عبد العزيز سالم، مصر في العهد الأيوبي و المملوكي، ص101-102.

Gibb, op, cit, p35.

(3) ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص155،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص118.

استولوا على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من عدن و من الهند وقد هبطت إلى البر جماعة من الصليبيين أغاروا على قافلة ضخمة ،ثم اجتازوا البحر الأحمر من عيذاب إلى ساحل بلاد العرب ،فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية بالحوراء و ينبع منائي المدينة ثم أوغلوا حتى بلغوا موانئ مكة المكرمة و أغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقلها الحجاج و لم يبق بينهم و بين المدينة المنورة سوى مسيرة يوم واحد .[1]

ارتاع العالم الإسلامي كله لما سمع بما قام به الفرنجة من انتهاك لمقدساتهم، بل أن صاحبي حلب و الموصل اللذين التمسا مساعدة الفرنج خجلا لاتخاذهما حلفاء دبروا انتهاك حرمة الدين،[2] و لما بلغت هذه الأخبار الملك العادل —أخو صلاح الدين– الذي كان نائبه بمصر،أسرع إلى إعداد أسطول قوي أسند قيادته إلى الحاجب حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصري، كان على رأس هذا الأسطول بحارة مغاربة ،وقد قسم حسام الدين لؤلؤ أسطوله إلى قسمين ،القسم الأول منه سار إلى قلعة أيلة فاستولى على مراكب العدو و قتل من كان بها من صليبيين، أما القسم الثاني فقد أسرع بتعقب بقية السفن الصليبية عند عيذاب ،و قد كان الجزء الأكبر من السفن الصليبية موجودا على ساحل الحوراء ،عندما دهمها حسام الدين فدمرها وأسر من بها من الفرنج بعد أن أطلق من فيها من التجار المأسورين .[3]

و لما كان موسم الحج قد أزف أرسل حسام الدين أسيرين من الصليبيين إلى منى ليذبحا عقوبة لهم على انتهاك حرمة الأراضي المقدسة،في حين عاد هو و معه بقية الأسرى الذين قدروا بمائة و سبعون إلى مصر ،و قد أمر صلاح الدين بقتل أولائك الأسرى ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الاعتداء على "حرم الله و حرم رسوله" و تم قتلهم فعلا بعد استعراضهم في شوارع القاهرة و الإسكندرية و غيرهما من المن الكبرى [4]،و كان الرحالة ابن جبير [5] في زيارة الإسكندرية عندئذ فشاهد ما حدث لهؤلاء من عقاب ،أما أرناط الذي تمكن من الإفلات من الأسر و العودة إلى حصن الكرك ،فقد أقسم صلاح الدين ألا يغفر له فعلته و نذر دمه.

---

(1) ابن الأثير،الكامل، ج10،ص117-118،أبوشامة،كتاب الروضتين، ج3،ص88-89،ابن واصل،مفرج الكروب، ج2،ص127-128 ، ابن كثير ،البداية و النهاية، ج7،ص248،ابن أيبك الداواداري،كنز الدرر و جامع الغرر، ج7 ،ص71-72 ،المقريزي، السلوك، ج1، ص79-88، محمد كرد علي ،خطط الشام ،ج2،55،محمد مؤنس عوض،العلاقات بين الشرق و الغرب،ص213،سعيد عمران،المرجع السابق،ص125،الحويري،بناء الجبهة ،ص 197،الحريري،الأخبار السنية ،ص187،محمد فريد أبو حديد،المرجع السابق،ص119-120.

(2) رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص707.

(3) ابن جبير،الرحلة،ص57،أبو شامة، كتاب الروضتين، ج2،ص،ابن خلدون،العبر، ج5،ص،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص125-126.

(4) المقريزي،السلوك، ج1،ص79،القلقشندي،صبح الأعشى، ج4،ص156،عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص620.

(5) الرحلة، ص57.

و يمكن القول أن الصليبيين قد استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية تحقيق ثلاثة أهداف، أولهم قطع طريق الحج و ضرب العالم الإسلامي و المسلمين بطعنهم في قبلتهم، و ثانيهم أنهم كانوا يرغبون في الاستيلاء على عدن جنوب البحر الأحمر و بذلك يتمكنون بفضل السيطرة على أيلة في الشمال و عدن في الجنوب من إغلاق البحر الأحمر في وجه المسلمين و احتكار تجارة الشرق الأقصى،أما الهدف الثالث فيرجح أن الصليبيين أرادوا إقناع مملكة الحبشة المسيحية بالعمل على المشاركة في الحروب الصليبية،كما يمكن القول أن أرناط كاد يحقق بعض تلك الأهداف لولا البحرية الأيوبية ،فقد ظلت سيادة مصر مقررة و معترفا بها طوال العصر الوسيط بفضل القواعد و الموانئ البحرية التي أسسها صلاح الدين على شواطئ البحر الأحمر.[1]

بعد محاولة أرناط الجريئة أدرك صلاح الدين أن بقاء حصن الكرك في يد الصليبيين يشكل خطرا دائما على أمن القوافل التجارية و الحجاج المارين بجانب القلعة لذلك سعى صلاح الدين بعد أن تم له ضم حلب في صفر 579هـ/ جوان 1183م و توحيد الجبهة الإسلامية للجهاد ضد الصليبيين إلى الاستيلاء على الكرك ،فاتجه لحصاره وفي الطريق تقابل مع العساكر المصرية بقيادة أخيه الملك العادل و كان ذلك في 2 شعبان 579هـ/20 نوفمبر 1183م- كانت تلك المرة الرابعة التي يحاصر فيها صلاح الدين هذا الحصن - فحاصر الحصن و نصب عليه سبع منجنيقات تقذفه بالحجارة ليلا و نهارا،[2]و عندما بلغ بلدوين الرابع أحداث حصار الكرك استدعى قواته وولى قيادتها للأمير ريموند كونت طرابلس،وعند سماع صلاح الدين بقدوم النجدة الصليبية آثر العودة إلى دمشق و الاكتفاء بما حققه من تخريب بمدينة الكرك أو أنه لم يشأ أن يشتبك مع القوات الصليبية في هذه المرحلة ريثما يكون لديه الاستعداد الأفضل[3].

ولما أدرك صلاح الدين أن نقص استعداداته و ما كان معه من آلات الحصار، كان له دور كبير في فشل حملته على حصن الكرك الذي يعتبر من أمنع الحصون التي عرفتها الجبهة الجنوبية خاصة و بلاد الشام عامة في العصور الوسطى، لم يجد بدا من إعادة الكرة و حصار الحصن مجددا و للمرة الخامسة لكنه هذه المرة بعث إلى أطراف مملكته

---

(1) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص620، أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص121-122.

(2)ابن الأثير،الكامل،ج10،ص125،ابن شداد،الأعلاق الخطيرة،ج 2،ص137،النوادر السلطانية،ص110،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 2،ص151 ،محمد عدنان البخيت،المرجع السابق،ص8.

(3) وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج4،ص334،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص158،محمد سعيد عمران،المرجع السابق،ص127.

يطلب المدد و العساكر،فجاءه تقي الدين عمر [1] و القاضي الفاضل بالعساكر المصرية ،كما وصله الملك العادل بالعساكر الحلبية و نور الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا و آمد و صاحب سنجار و عسكر ماردين.[2]

في الحقيقة لقد كان دافع صلاح الدين لإعادة حصار الكرك هو فشل الاجتماع الذي عقده بدمشق في ذي القعدة 579هـ/ فيفري 1184م مع عز الدين صاحب الموصل بشأن ضم هذه الأخيرة تحت سلطة الدولة الأيوبية و توحيد الجبهة الإسلامية ضد العدو الصليبي- خاصة و أن قوة الموصل لا يستهان بها – لذلك فقد رأى صلاح الدين أنه صار لزاما عليه قبل أن يتجه إلى الشرق أن يفتح حصن الكرك الصليبيي ،حتى لا تصبح خطوطه الخلفية مع مصر مهددة[3].

اتجه صلاح الدين إلى قلعة الكرك وشدد الحصار على الحصن في 21 جمادى الأولى 580هـ/ 23 أوت 1184م [4]،و قد ذكر أبو شامة [5] في شيء من التفصيل خطة سير صلاح الدين إلى حصن الكرك فقال"رحل السلطان من رأس الماء على طريق الظليل و الزرقاء،و عمان و البلقاء ثم الرقيم و زيزاء و النقوب و اللجون ،ثم أدر ثم الربة و ذلك من بلد مآب،فلما تلاحقت العساكر نزل على وادي الكرك".

و يصف ابن جبير [6] الاستعدادات العسكرية لهذه الحملة خاصة و أنه كان وقتذاك في دمشق و شهد خروج صلاح الدين بكل تلك العساكر إلى الكرك و معه من آلات الحصار ما يتراوح بين تسعة و أربعة عشر منجنيقا ،ثم ضرب المسلمون الحصار على الحصن و أخذت المنجنيقات تدق أبراج الحصن و أسواره و ستائره حتى تهدمت ،و لم يحل دون دخول المحاصرين الحصن إلا خندق واسع يبلغ عمقه ستين ذراعا و لا سبيل لاجتيازه إلا بردمه ،فأمر صلاح الدين بضرب اللبن و جمع الأخشاب لبناء سرداب تحت الخندق ،و سرعان ما بنيت ثلاثة سراديب مسقفة بالخشب اتخذوها

---

(1) لقد نقل صلاح الدين أخاه العادل بناء على طلبه من حكم مصر إلى حكم حلب،و جعل مكانه ابن أخيه تقي الدين عمر،أنظر: ابن شداد،النوادر السلطانية،ص111، ابن واصل،مفرج الكروب، ج2،ص152.

(2) رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص714،

(3)أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص123-124،السيد الباز العريني،المرجع السابق،ص74.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 10،ص127،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 113،ابن شاهنشاه،مضمار الحقائق،ص 153-154،محمد عدنان البخيت،المرجع السابق،ص8.

(5)كتاب الروضتين، ج3،ص133.

(6) الرحلة، ص201،

طرق آمنة يسيرون بداخلها إلى سور الحصن ،ثم تسارع المسلمون إلى ردم الخندق لولا صدور الأمر إليهم بوقف العمل[1].

لقد كانت الفرصة سانحة لصلاح الدين حتى يستولي على الكرك غير أن سبب انسحابه من الحصار هو سماعه بالإمدادات الضخمة التي بعثت بها مملكة بيت المقدس إلى الحصن فأدرك أن أمره سيطول و آثر العودة إلى دمشق و الاهتمام بأمر توحيد الجبهة الإسلامية،و في طريقه قام بالعديد من الأعمال التخريبية في أراضي المملكة اللاتينية لتقديمها الإمدادات للكرك،فقصد نابلس و نهب كل الأراضي الصليبية الواقعة على طريقها و لما وصلها أحرقها و نهبها ،و ألحق التخريب بسبسطية و جنين و عاد إلى دمشق في 7 جمادى الآخرة 580هـ/15 سبتمبر 1184م.[2]

2/ معركة حطين و نهاية الوجود الصليبي في الجبهة الجنوبية.

نجح صلاح الدين في بناء أعظم دولة متماسكة البنيان في مصر و الشام و الجزيرة ،فبعد أن استولى على دمشق عام 569هـ/1174م فتح حلب سنة 575هـ/1182م،ثم اعتبر صاحب الموصل نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين في عام 581هـ/1186م،و بذلك دانت له كل الأقاليم الإسلامية و أتم هدفه بتوحيد الجبهة الإسلامية التي كانت القاعدة الصلبة التي حققت وحدة المسلمين تحت زعامته ،و هي الوحدة التي غرس بذورها عماد الدين زنكي و بلغ بها ابنه نور الدين محمود شأوا بعيدا ثم جاء صلاح الدين فأتم بناء صرحها و لم يعد أمامه من شاغل إلا أن يخطو بقدم ثابتة في طريق الجهاد.

و قد هيأ أرناط صاحب الكرك الفرصة لصلاح الدين لمحاربة الصليبيين و ذلك بنقض الهدنة التي كان قد تم إبرامها بين المسلمين و الصليبيين سنة 580هـ/1185م لمدة أربع سنوات فأنقض على قافلة مصرية قرب الكرك كانت في طريقها إلى دمشق تحرسها فرقة من الجيش في عام 583هـ/1187م، فاستولى على جميع متاعها ورجالها مدنيين و عسكريين و ألقى بهم أسرى في حصن الكرك ،و قد كانت مهاجمة أرناط لهذه القافلة هي الشرارة التي أشعلت نار

---

(1) أبو شامة،الروضتين،ج3،ص133-134، ابن واصل،مفرج الكروب،ج2،ص157-158،ابن خلدون،العبر،ج5،ص353،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص124.

(2) ابن شاهنشاه،مضمار الحقائق،ص160-161، ابن الأثير، الكامل،ج 10،ص127-128،ابن واصل،مفرج الكروب،ج2،ص158-159،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص159،الحويري،بناء الجبهة،ص200.

Gibb,op,cit,p39.

الحرب بين الفريقين [1]،ولم تلبث أنباء الاعتداء أن بلغت صلاح الدين الذي طلب من أرناط إطلاق سراح جميع الأسرى و بذل تعويض عن خسائرهم غير أنه رفض و أصر على عصيانه كما لم يتمكن الملك الصليبي جاي لوزجنان من إقناعه برد ما سلب و احترام شروط الهدنة،و هكذا لم يعد أمام صلاح الدين إلا أن ينهي الهدنة و يعلن عن الحرب خاصة و أن أرناط أعلن عن عزمه على التعرض لقوافل الحجاج هذا العام[2].

و في أواخر ربيع 583هـ/1187م أخذ صلاح الدين في تعبئة قواته تعبئة شاملة و أعلن النفير للجهاد،و أرسل لأمراء الجزيرة الفراتية و أتباعه و خدمه و نوابه في ديار بكر و بلاد الشام و مصر يطلب منهم حشد مقاتليهم ،ثم خرج من دمشق في 15 محرم/27 مارس فسار إلى رأس الماء على بعد ثلاثين كيلومتر شمالي درعا حيث أقام معسكره هناك وترك ابنه الأفضل في انتظار اجتماع العساكر من أطراف البلاد بينما تقدم هو إلى موضع يسمى قصر السلام بين بصرى و الكرك و هو واقع في الشمال الغربي من إقليم حوران جنوبي دمشق و ذلك ليمنع أرناط من اعتراض الحجاج و لما سمع هذا الأخير بقرب صلاح الدين من الكرك لم يتحرك و خاف العاقبة ،و لم يكد صلاح الدين يطمئن على وصول قافلة الحجاج حتى هاجم الكرك و الشوبك و خربهما .[3]

ولما بلغت أصداء هذه الاستعدادات القدس كان الملك جاي لوزيجنان قد نجح في مصالحة خصمه كونت طرابلس ريموند الثالث و دعوته إلى الوحدة المقدسة ،ولم يلبث أن عقد مجلس في بيت المقدس لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بالدفاع عن المملكة اللاتينية وانتصر الرأي القائل بالتجميع الفوري للقوات العسكرية و أعلنت التعبئة العامة للقوات الصليبية، فاستدعى جميع القوات القادرة على حمل السلاح للتجمع ، فدعا كبار البارونات و أتباعهم و أرسلت الحصون حامياتها،كما وصلت مجموعات صغيرة مسلحة من أنطاكية و طرابلس،و أرسل بطريرك بيت المقدس بقايا الصليب

(1) البنداري،سنا البرق الشامي،ص 289-290،أبو الفداء،المختصر،ج 3،ص71،المقريزي،السلوك،ج1،ص92-93،رنسيمان،المرجع السابق،ج 3، ص 727.عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق و الغرب،ص65محمد سعيد عمران،الحروب الصليبية،ص124، Grousset,op,cit,p181-182.

(2) ابن واصل،مفرج الكروب،ج 2،ص185،جيمس ريستون،مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي و ريتشارد قلب الأسد و الحملة الصليبية الثالثة،ترجمة:رضوان السيد،مكتبة العبيكان،ط 1،الرياض،2002،ص53-54-55، و الحريري،الأخبار السنية ،ص 193، إسمت غنيم ،الدولة الأيوبية و الصليبيون،ص34،أحمد رمضان أحمد شبه جزيرة سيناء،ص128-129.

(3)ابن شداد،النوادر السلطانية،ص125،المقريزي،السلوك،ج1،ص87-88،ألبير شاندور،صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام،ص 195-196،محمد فريد أبو حديد،صلاح الدين،ص 132،إسمت غنيم،الدولة الأيوبية و الصليبيون،ص 35،إفرام عيسى يوسف،الحملات الصليبية كما يرويها المؤرخون السريان ،ص211،عبد الله صالح علوان،صلاح الدين بطل حطين،ص47.

المقدس،و قد ساهمت الداوية بكل محاربيها تقريبا،بينما يجهل مقدار مساهمة الإسبتارية،و عسكر الجيش الصليبي حول آبار الماء في صفورية على خمسة كيلومترات شمال الناصرة في انتظار جيوش صلاح الدين ،و يرجح بأن عدد هذا الجيش كان قرابة العشرين ألف رجل ،فكان بذلك يوازي عدد جيش صلاح الدين ،فقد كان مؤلفا من حوالي 1200 فارس ثقيلي التسليح و من 3-4 آلاف من الخيالة الوطنيين خفيفي التسليح و المعروفين بالتركبولية (Turcoples)، و من عدة آلاف من الجنود المشاة ،و قوات محلية مزودة برماة السهام.

و في صبيحة يوم السبت 24 ربيع الثاني/ 4 جويلية 1187م بدأ ت المعركة عند الهضبة التي تشرف مباشرة على حطين مباشرة حيث أمامهم تل صخري تعلوه قمتان و اشتهر هذا الموقع بقرون حطين [1]و هو شمال صفورية إلى الشرق من بيت المقدس [2] و قد ألحق المسلمون خسائر فادحة بالصليبيين في هذه المعركة حيث دحر الجيش الميداني الصليبي متبوعا بتقليص نقاط الاستيناد القوية و نتج نقص ملموس في الفرسان المحاربين بعد أن سقطت زهرة فرسان اللاتين و غالبية جيش مملكة بيت المقدس و بلغ عدد القتلى حوالي ثلاثين ألفا،و زاد عدد الأسرى عن ذلك [3]،و قيل أنه من شاهد القتلى يقول ما هنالك أسير،و من عاين الأسرى قال ما هنالك قتيل، و قد حفظ صلاح الدين حياة غالبية الأسرى بما فيهم الملك جاي و أخوه الكندسطبل عموري و مقدم الداوية باليان و أخذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو بيعوا في الأسواق أو أتى من افتداهم فيما عدا أرناط الذي كان السلطان قد نذر دمه فقطع رأسه و كذا فرسان الداوية و الإسبتارية الذين اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب فأمر بإعدامهم،و قد تم إعدام حوالي مائتي فارس منهم ،و هكذا كانت نهاية المؤسسة العسكرية الصليبية[4].

لقد تم في حطين تدمير أضخم جيش للمملكة اللاتينية وأصبحت بدون مدافعين ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك إلا قطف ثمار النصر و استكمال مسيرته باستعادة الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون ،و كانت بداية هذه الأعمال قلعة طبرية التي اتجه إليها في اليوم الموالي لموقعة حطين مباشرة يوم الأحد 25 ربيع الثاني/ 5 جويلية و تسلم

---

(1) أنظر الخريطة رقم (14).

(2) وليام الصوري،ذيل وليم الصوري،ص64،ألبير شاندور، صلاح الدين،ص202-206،رنسيمان، المرجع السابق،ج3،ص734،جوناثان ريلي سميث ،الإسبتارية، ص91-92.

(3) ابن الأثير،الكامل ،ج10،ص144-145-146، ابن شداد،النوادر السلطانية،ص129،سهيل زكار،حطين،ص161ألبير شاندور،المرجع السابق ،ص 211 ،أنظر الخريطة رقم (15).

(4) رنسيمان،المرجع السابق،ج3،ص742،عاشور،الحركة الصليبية،ج2،ص637،كمال بن مارس،المرجع السابق،ص247،

القلعة من إيشيف زوجة ريموند الثالث بعد أن حصلت على الإذن بالخروج سالمة مع متاعها و حاشيتها و الاتجاه نحو طرابلس.[1]

بعد ذلك بثلاثة أيام 28 ربيع الثاني/8 جويلية،كان جيش صلاح الدين وراء أسوار عكا القوية،و ذلك عكس ما توقعه الصليبيون فبدلا من أن يتجه إلى بيت المقدس ليستولي عليها ،اختار أن يبدأ أولا بالاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي و بخاصة الغرب الأوربي ،كما سيمكنه ذلك من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر و الشام، و لم يكد ينتهي فصل الصيف حتى استولى صلاح الدين على عكا و يافا و صيدا و صرفند و بيروت و جبيل و حيفا و عسقلان،كما أرسل بعض من فرق جيشه التي تمكنت من إخضاع الناصرة و صفورية و الفولة و نابلس و سبسطية ،و قد حاصر صلاح الدين حصن تورون Toron الذي استسلم في 17جمادى الأولى/26 جويلية[2].

و بهذا فقد الصليبيون جميع الموانئ الواقع جنوبي طرابلس أي من بيروت شمالا إلى غزة جنوبا ،باستثناء مدينة صور التي استعصت على جيش صلاح و ذلك لموقعها الجغرافي الحصين المدعم بأسوار منيعة،كما كانت بداخلها حامية صليبية ضخمة فقد هلع إليها كل من بقي على قيد الحياة من معركة حطين ،و بذلك فشلت محاولة صلاح الدين لاقتحامها ،أو أنه فضل عدم إرهاق قواته مقابل مدينة واحدة فتجاوزها إلى غيرها من المدن،كما بقيت بعض القلاع في الجبهة الجنوبية تحت سلطة الداوية و الإسبتارية و هم قلاع كوكب و الشقيف أرنون و صفد إضافة إلى الكرك و الشوبك اللذان بقيا في أيدي الصليبيين،و قبل أن يتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس أراد تأمين الجبهة من أي هجوم صليبي قد يشنه الغرب أثناء تقدم الجيوش الأيوبية إلى بيت المقدس كرد فعل مسيحي على انتصر المسلمين في حطين ،لذلك أمر حسام الدين لؤلؤ بالتوجه بالأساطيل الإسلامية نحو السواحل الشامية لقطع الطريق على السفن الدخيلة.[3].

و بعد مرور شهرين و نصف، أمضاها صلاح الدين في فتح أغلب مدن و قلاع الجبهة الجنوبية،توجه في يوم الأحد 15 رجب 583هـ/20 سبتمبر 1187م إلى حصار بيت المقدس،بعد أن رفض أهلها تسليم المدينة بشروط

---

(1) الأصفهاني،الفتح القسي،ص48،ابن واصل،مفرج الكروب،ج2،ص195-196،ابن خلدون،العبر،ج5،ص357، ألبير شاندور،المرجع السابق ،ص 214،محمود سعيد عمران،المرجع السابق،ص134،أحمد الشامي،المرجع السابق،ص131.

(2) عاشور،الحركة الصليبية،ج2،ص639،ستانلي لين بوول، المرجع السابق،ص177،

(3) عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية،ص67، حمدي عبد المنعم محمد حسنين،دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك،دار المعرفة الجامعية،القاهرة، 2000 ،ص73 ،مصطفى شاكر،صلاح الدين المفترى عليه،ص265،

الأمان كأغلب المدن الصليبية، والتي كانت حفظ النفس و المال و السماح لمن شاء منهم بالخروج آمنا، فنزل صلاح الدين بالجانب الغربي من المدينة من بوابة داود إلى بوابة القديس ستيفن في ستين ألفا بين خيالة و رجالة،و لكنه و جد ذلك الجانب قوي التحصين مشحونا بالمقاتلين و يحاذي سوره واد عميق يصعب عملية الحصار [1]، كما و أن الأبراج العالية المنصوبة به (برج داود و تنكرد) عارضت نصب المجانيق و أعاقتها عن القذف،أضف إلى ذلك أشعة الشمس التي كانت في جهة عساكر المسلمين و التي حجبت عنهم الرؤية للقتال حتى بعد الظهر. [2]

أمام هذه العوائق التي واجهت المسلمين في حصار المدينة من تلك الجهة لم يجد صلاح الدين بدا من نقل معسكره منها وظل يطوف حول المدينة خمسة أيام و يتحسس مواطن الضعف في أسوارها ،حتى استقر رأيه أخيرا على أن يركز هجومه في الجهة الشمالية عند باب العمود أو كنيسة صهيون،و ذلك لاتساع تلك المنطقة (شمال بيت المقدس) و ملاءمتها لنصب آلات الحصار الضخمة كما لاحظ صلاح الدين أن أسوارها أقل متانة من الأسوار الأخرى،و في صبيحة يوم الجمعة 20رجب / 26 سبتمبر اتخذ الجيش الإسلامي مواقعه عند جبل الزيتون المقابل الأسوار الشمالية ، حيث اعتقد المدافعون عن المدينة لفترة وجيزة أن صلاح الدين قد رفع عنهم الحصار غير أن آمالهم قد تلاشت عندما رأوا في الصبيحة رايات المسلمين ترفرف فوق أسوار مدينتهم[3].

و قاد عملية الدفاع عن مدينة بيت المقدس باليان صاحب الرملة الذي نجا من حطين [4]،و بذل كل جهده لزيادة عدد المدافعين و الأسلحة بتجنيد سكان المدينة القادرين على حمل السلاح و استغلال كل الثروات المتبقية ، كما حصن

---

(1) ابن الأثير،الكامل، ج 10،ص154-155،ابن واصل،مفرج الكروب، ج 2،ص212، بيبرس المنصوري،مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية و دولة المماليك حتى سنة 702هـ،تحقيق:عبد الحميد صالح حمدان،الدار المصرية اللبنانية،ط1،ص1993،ص4،عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص644،

(2) رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص750،

(3) البنداري،سنا البرق الشامي،ص309،ابن الأثير،الكامل، ج10،ص155،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص134،أبو شامة،كتاب الروضتين ، ج3، ص212 ،ابن واصل،مفرج الكروب، ج2،ص212،رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص750،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص192-193.

(4) كان باليان أبلين من زمرة الفرنج اللاجئين بصور ،و قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الأمان للدخول إلى بيت المقدس نظرا لأن زوجته الملكة ماريا لجأت مع أطفالها إلى المدينة بعد أن غادرت نابلس و أراد باليان أن يحملهم معه إلى صور،فأجابه صلاح الدين إلى طلبه بشرط أن لا يمضي فيها أكثر من ليلة واحدة،فلما ذهب إلى بيت المقدس وجد البطريرك و من بقي من الداوية و الإسبتارية يحاولون إعداد أسباب الدفاع عن المدينة ولم يكن لهم قائد فطلبوا منه أن يبق و يتسلم هذه المسؤولية،فكتب باليان إلى صلاح الدين بأن الواجب يحتم عليه البقاء و اهمال اليمين الذي بذله،فعفا عنه و أرسل حرسا مع ليرافقوا زوجته و أطفالها إلى صور. **أنظر**: وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج4،ص311،رنسيمان،المرجع السابق، ج3،ص748.

المدينة و نصب المجانيق و قوى في السكان روح المقاومة حتى لا يستسلموا للمسلمين (1)،لذلك أدرك صلاح الدين ضرورة تشديد الحصار عليهم فنصب المنجنيقات و رمى الأسوار بها ،ثم حمل عليهم الجيش حملة رجل واحد حتى وصلوا إل الخندق الذي يجاور السور فجاوزوه و أخذوا في نقب السور الخارجي الواقع قرب باب العمود على مسافة ليست بعيدة من المكان الذي اقتحم منه جودفري كونت اللورين المدينة قبل ثماني و ثمانين سنة عام 491هـ/1099م. (2)

واصل المسلمون نقب السور في الوقت الذي كان الرماة يطلقون سهامهم و المنجنيقات توالي الرمي ليكشف العدو عن الأسوار،و قد ظل النقابون في ظل تلك الحماية من الرماة و المنجنيقات و النيران الإغريقية يواصلون عملهم ،و في خلال يومين كان هناك ثلاثون أو أربعون موضعا قد نقب من الأسوار و كان المسلمون يقومون بحشو تلك النقوب بالأخشاب لإشعال النيران بداخلها، و في اليوم الثالث من الحصار 23 رجب/29 سبتمبر اشتدت ضربات صلاح الدين على السور حتى أحدثت ثغرة كبيرة به فشحنها المدافعون بكل ما استطاعوا حشده من الرجال غير أنهم لم يكونوا من الكثرة ما يجعلهم يصمدون طويلا إزاء حشود المسلمين الضخمة،و أضحت بيت المقدس تحت رحمة صلاح الدين فأدرك باليان استحالة المقاومة فسلم بشروط الأمان للحفاظ على أهل المدينة و كان ذلك في يوم الجمعة 27 رجب /2 أكتوبر يوم الإسراء و المعراج. (3)

و بفتح بيت المقدس و دخول الجيوش الإسلامية إليها، لم يتعرض الفرنجة للقتل و النهب كما فعلوا هم بالمسلمين من قبل سنة 491هـ/1099م،كما سمحوا للمسيحيين الأرثوذكس عامة و اليعاقبة و السريان (المسيحيين الوطنيين) بالبقاء في القدس،خاصة عندما حاصر صلاح الدين المدينة فزاد الخلاف بين الطوائف المسيحية حتى أن الأرثوذكس نادوا

---

(1) ألبير شاندور،المرجع السابق،ص 230،ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص 192-193،أحمد الشامي،المرجع السابق،ص 136،عاشور،الحركة الصليبية ،ص644،

(2)العماد الأصفهاني،الفتح القسي،ص 71،البنداري،سنا البرق الشامي،ص 310،ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص155،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 134-135،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 3،ص212،ابن واصل، مفرج الكروب،ج 2،ص213-212،رنسيمان،المرجع السابق،ج 3،ص750،حمدي عبد المنعم محمد حسين،المرجع السابق،74،

Grousset, Op, Cit, P189.

(3) ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص155-156،ابن واصل،مفرج الكروب،ج 2،ص213-214، أرنست باكر،الحروب الصليبية،ص 83،أنتوني بردج،تاريخ الحروب الصليبية،ص198،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص230-240،

Grousset, Op, Cit, P. Gibb, Op, Cit, P54-55. , Archer, Op, Cit, P 280.

بأنهم يفضلون الحكم الإسلامي على سيطرة الكاثوليك الغربيين،كما تآمر الأرثوذكس في بيت المقدس مع صلاح الدين ،و إلى أن ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين تعهدوا فيها بفتح أبواب المدينة.[1]

بعد أن تم لصلاح الدين فتح بيت المقدس و تحقيق نصر عسكري كبير على الصليبيين،أدرك ضرورة انتهاز فرصة الصدمة التي حلت بالعالم المسيحي بأجمعه و إكمال الفتوحات الإسلامية ،و قد استطاع هذا القائد الفذ تحقيق أعمال عظيمة في بلاد الشام عامة و الجبهة الجنوبية خاصة في السنوات القليلة الواقعة بين (583-586هـ/1187-1190م) خاصة و أن بقاء بعض مدن و معاقل الجبهة الجنوبية في أيدي الصليبيين سيشكل خطرا على طرق المواصلات بين شطري الدولة الأيوبية في الشمال الشام و الجزيرة و مصر حتى أنه لم يبق من مملكة بيت المقدس إلا مدينة صور التي أخطأ صلاح الدين خطا كبيرا عندما لم يستول عليها بعد عكا ،فتجمعت بها البقايا الصليبية التي خرجت من مختلف مدن و حصون مملكة بيت المقدس،لتمد المدينة بحصانة بشرية إلى جانب حصانتها الطبيعية.

لم يضيع صلاح الدين الوقت بعد سقوط بيت المقدس،واتجه إلى غزو إقليم الجليل ففي أواخر شوال/ديسمبر استولت فرقة من جيشه على قلعة هونين التي تعتبر من أحصن القلاع و أمنعها في الجبهة الجنوبية،فجاء الاستيلاء عليها متمما للاستيلاء على حصن تبنين الذي استسلم بعد حطين في جمادى الأولى/جويلية [2]،هذا في الوقت الذي اتجهت فيه فرقة أخري من الجيش الأيوبي لمهاجمة صفد الواقعة شمالي غرب طبرية و كانت تابعة للداوية،و حصن كوكب المطل على الأردن إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية،و كان تابعا للإسبتارية.و لكن هاتين القلعتين كانتا محصنتين تحصينا قويا فصمدتا و لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما إلا بعد جهد شاق استمر قرابة عام ،فاستسلمت صفد في أواخر عام 584هـ/1188م و كوكب في أوائل عام585هـ/1189م.

و بذلك لم يبق للصليبيين في إقليم الجليل غير حصن الشقيف أرنون المنيع قرب بانياس،و قد احتمى به صاحب صيدا،عقب استيلاء المسلمين على مدينته،فنزل صلاح الدين بانياس ثم اتجه إلى مرجعيون و عسكر هناك لحصار الحصن في حين أتاه صاحبه و عرض عليه تسليم الحصن،غير أن حامية الشقيف رفضت الاستسلام و بقيت تقاوم الحصار ،و لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليها إلا بعد هجوم عنيف في 15 ربيع الأول 586هـ/ أفريل 1190م[3].

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص645.

(2) الأصفهاني،الفتح القسي،ص94،ابن الأثير،الكامل،ج10،ص161.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص181-182، رضا لسيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عاملة، 162-165.

أما إقليم المنخفضات الشرقية الذي يضم حصني الكرك و الشوبك اللذان بقيا لمدة طويلة حجر عثرة في طريق المواصلات بين مصر و الشام ،فبعد سقوط بيت المقدس رتب صلاح الدين الجند لحصار الكرك و تولى قيادتهم الملك العادل الذي لازم حصار القلعة لمدة طويلة حتى قلت مؤنهم و ذخائرهم ،و اضطروا لأكل دوابهم و صبروا حتى لم يبق للصبر مجال،فأرسلوا للعادل يسلمون له القلعة و يطلبون الأمان لأنفسهم و كان ذلك في نهاية 584هـ/1188م ،أما حصن الشوبك فقد استسلم بعد ببضعة أشهر،و به ذا لم يبق بالجبهة الجنوبية غير صور التي تجمعت بها البقايا الصليبية لتشكل قوة كبيرة في وجه صلاح الدين.(1)

تمكن صلاح الدين من تحقيق نجاحات كبيرة و استولى على معاقل كثيرة بساحل و داخل الجبهة ،و هذه تحسب له لان الحرب في تلك الفترة كانت حرب حصار و كان التفوق دائما للمدافع خلف الأسوار،لأن أسلحة الحصار كالكبش و الدبابة و البرج النقاب و غيرها كان يتطلب استخدامها وقتا طويلا و أرضا مستوية تقريبا،غير أن ذلك لم يكن متوفرا في أغلب الأحيان ما جعل لرد صلاح الدين يكون سريعا بعد حطين دون ترك أي فرصة للفرنجة لتجميع قواهم مستغلا النقص العددي للمدافعين في هذه الحصون ،كما أن الوضع الطبوغرافي لم يكن يسمح باستخدام هذا النوع من الأسلحة(2).

إن الانتصارات الكبيرة التي حققها صلاح الدين عقب معركة حطين 583هـ/1187م و استيلائه على بيت المقدس ،كان لها صدى كبيرً ا في الغرب الأوربي الذي أدرك عاقبة استهانته بإستنجادات الشرق اللاتيني طوال الفترة السابقة،و بذلك توالت نداءات البابوية لإرسال حملة صليبية جديدة إلى الأراضي المقدسة لاستعادتها من يد صلاح الدين ،و بالفعل بدأت الجموع الصليبية تتدفق من غرب أوربا حاملة الصليب تحت زعامة أعظم ملوكها و هم الإمبراطور الألماني فريديريك بربروسا Frederick Barbarossa (547-586 هـ/1152-1190م)و ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد Richard Cœur De Lion (585-596هـ/1189-1199م)،و فيليب أوغسطس ملك

(1) العماد الأصفهاني،الفتح القسي،ص 143-144، ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص175،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 3،ص27-28،ابن و اصل،مفرج الكروب،ج2،ص271-272،محمود سعيد عمران،الحروب الصليبية،ص142-143.
(2) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص253.

فرنسا Philippe Augusta (576-620 هـ/ 1180-1223م)،و كان انطلاق هذه الحشود في أواخر 585هـ/1189م[1].

كان وصول الحملة الصليبية الثالثة إلى عكا في سنة 587هـ/1191م ،فحاصروها و استولوا عليها يوم 7 جمادى الثانية /12 جويلية[2]،و لم يلبث فيليب ملك فرنسا بعد ذلك أن عاد إلى بلاده و أصبح رتشارد قلب الأسد الزعيم الأوحد للحملة الصليبية الثالثة ،و القائد المطلوب منه إصلاح أوضاع الصليبيين بالشام بعد ما حل بهم على يد صلاح الدين ،ففكر في استرداد شاطئ فلسطين قبل الاتجاه صوب بيت المقدس[3]،و بالفعل تمكن ريتشارد من الاستيلاء على حيفا و قيسارية و أرسوف التي دارت في سهلها معركة عنيفة كان النصر فيها للصليبيين و ذلك في 17 شعبان /7 سبتمبر[4]،و قد تسببت هذه الهزيمة في انشقاق و عصيان بعض أمراء التركمان و رفضهم حماية عسقلان التي لم يجد صلاح الدين بدا من تخريبها 19 شعبان/9 سبتمبر حتى لا تسقط في أيدي الصليبيين[5].

وفي نهاية شهر رمضان/أكتوبر كانت محاولة ريتشارد لاسترجاع بيت المقدس،غير أن استعدادات صلاح الدين و تحصينه المحكم لها جعل ملك الانجليز يسحب جيشه و يعود عن المدينة خاصة و أنه سمع باختلال الأوضاع و قيام الثورات ضده مستغلين غيابه في الشرق [6]،لذلك لم يجد الطرفان مفرا من عقد الصلح الذي عرف بصلح الرملة 22 شعبان 588هـ/2 سبتمبر 1192م و قد اتفق فيه الطرفان على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية و حيفا و أرسوف،أما عسقلان فتكون للمسلمين في حين تكون اللُّد و الرملة مناصفة بين الجانبين،و قد اشترط صلاح الدين دخول طائفة الحشاشين في الهدنة،و اشترط ريتشارد دخول أنطاكية و طرابلس في الصلح،كما أن

---

(1) عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية،ص68،جيمس ريستون،المرجع السابق،ص147-159،عبد العظيم رمضان،الصراع بين العرب و أوربا ،ص498، Stephen Miller, Christian History, P 17-18.

(2) أبو شامة،كتاب الروضتين،ج3،ص155،ابن الأثير،الكامل،ج10،ص205-206،ابن واصل،مفرج الكروب، ج2 ، ص355-356،المقريزي ، السلوك ،ج1 ،ص215،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص329-330.

(3) رنسيمان،المرجع السابق،ج4،ص103-104، عاشور،الحركة الصليبية،ج2،ص686.

(4) ابن واصل،مفرج الكروب،ج2،ص365-367،رنسيمان،المرجع السابق،ج4،ص109-111، Grousset, Op ,Cit,P206 ,Archer,Op,Cit,P332-333,Gibb, op.cit ,P71.

(5) ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 264، ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص207،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 3،ص162، عاشور،الحركة الصليبية، ج 2 ، ص690 .

(6) ألبير شاندور،المرجع السابق،ص360-361،جيمس ريستون،المرجع السابق،ص437-438.

للنصارى الحق في زيارة أماكنهم المقدسة في القدس دون أن يؤدوا ضرائب للمسلمين و قد كانت مدة الاتفاق ثلاث سنوات و ثلاثة أشهر[1].

(1) ابن شداد،النوادر السلطانية،ص 347-348،ابن الأثير،الكامل،ج 10،ص218،أبو شامة،كتاب الروضتين،ج 3،ص190-191،ابن واصل،مفرج الكروب ، ج2،ص402،ستانلي لين بوول،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس،ص282،رياض مصطفى شاهين،هدنة الرملة و الظروف المحيطة بها،مجلة الجامعة الإسلامية ، المجلد التاسع –العدد الأول،غزة،2001،ص24-25.

المبحث الخامس: أهم القلاع و الحصون في الجبهة الجنوبية و دورها العسكري.

تعتبر التحصينات الحربية من قلاع و حصون من أبرز و أهم الآثار التي خلفها الإنسان زمن العصور الوسطى ،نظرا لكونها مرتبطة بحاجة أساسية من حاجات المجتمع و الدول آنذاك و هي درء الخطر و ضمان العيش في أمن و استقرار،إذ أن الدول لا تعيش في أمان إلا إذا ضمنت جيشا قويا في حصون منيعة يحميها من غارات المغيرين و اعتداءات المعتدين،و قد ظهرت القلاع بصورة لافتة في الجبهة الجنوبية زمن الحروب الصليبية لتوافقها مع حاجة ذلك العصر الذي سادته الصراعات العسكرية العنيفة و الرغبة في التوسع على حساب الآخر.[1]

و قد كانت القلاع مراكز للسلطة في الأقاليم المحيطة بها،فقائد القلعة و حاميتها كان تحت تصرفه بصورة مستمرة من الوسائل ما يواجه به أي تحد لسلطته و أينما قامت الأبنية المحصنة كانت تشكل قاعدة أمكن منها ممارسة السيطرة و أمكن من داخلها حمايتها و الاحتفاظ بها [2]،و القلاع هي تلك المدن التي أقيم حولها أسوار و حصون حفروا حولها الخنادق فجعلوها مدينة حصينة لا يمكن الدخول إليها إلا من المسالك المعلومة بمساعدة حاميتها،أما الحصون فهي ما أقيم على المناطق الجبلية لسد الطرق و المضائق أو شيد في المناطق ذات القيمة الإستراتيجية التي تحتاج إلى الدفاع عنها للحيلولة دون وقوعها بيد الأعداء،و في الغالب تطلق كلمة قلعة على كل موقع محصن يمكن أن يكون له دور عسكري ،و هي تختلف عن الحصن ليس من حيث الدور فحسب بل من حيث الحجم فالحصون تكون ذات أدوار و مساحات أكبر من القلاع[3].

و نظرا للأهمية التي تتمتع بها القلاع و الحصون و الدور العسكري الذي كان لها زمن الصراع بين المسلمين و الصليبيين على الجبهة الجنوبية، فسنحاول إبراز أهمها.

---

(1) مرفت عثمان،التحصينات الحربية،ص133.

(2) رضا السيد حسن،الصليبيون و آثارهم في جبل عامل،ص94.

(3) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص173.

1/ أهم القلاع في المملكة اللاتينية و دورها العسكري.

كان قيام المملكة اللاتينية في الجبهة الجنوبية عام 493هـ/1099م على أساس مبدأ القوة، فظلت طوال فترة استيطانها تسعى لتثبيت أقدامها و تأمين حدودها، لذلك لم تواجه خطر الحملات الإسلامية التي كانت تتربص بها باستمرار و ترغب في استرجاع الأراضي المسلوبة فحسب بل كان الكثير من رعاياها(مسيحيين وطنيين –مسلمين)غير راضين تماما عن حكامهم اللاتين ،و يظهرون في كثير من المناسبات الهامة ولاء مشكوكا بأمره أو عداء ظاهرا و فعالا[1]،لذلك كانت التحصينات الحربية و القلاع تمثل العنصر الإستراتيجي للدفاع عن الحكم[2].

في الحقيقة لقد تعددت دوافع الصليبيين لتشييد القلاع و الحصون في الجبهة الجنوبية غير أنه يمكن تصنيفها إلى مشكلات الموقع الجغرافي للمملكة اللاتينية وكذا مواجهة نقص العنصر البشري في صراعهم مع أعدائهم المسلمين إلى جانب تأمين طرق الحج المسيحي إلى الأماكن المقدسة بفلسطين،و توفير الأمن للأديرة المقامة من جانب الصليبيين ، بالإضافة إلى تمزيق وحدة المسلمين السياسية و إسقاط مدنهم.[3]

بالنسبة للموقع الجغرافي للمملكة فهو محمي بسلاسل الجبال و المرتفعات التي تفصل بين السهل الساحلي و غور الأردن و هذا الحاجز مقسم بجبال و ممرات عريضة تؤمن طرق مواصلات سهلة لعدو يهاجم من الشرق إلى الغرب،و كانت حماية السهل الساحلي تتطلب إدخال تحسينات على البيئة الطبيعية للتخلص من عيوبها بإنشاءات يقوم بها الإنسان ،و لم تكن أهم التحصينات التي أقامها الفرنجة سوى استجابة لتلك الحاجة،فمن الملاحظ أن القلاع الصليبية تكثر خاصة على السهل الساحلي ما بين حيفا و يافا و في قلب مملكة اللاتين، بينما توجد منافذ هامة تؤدي إلى داخل المملكة تكاد تنعدم فيها المعاقل المحصنة.[4]

إن موقع المملكة اللاتينية بين دمشق من الشمال و مصر من الجنوب جعل الصليبيين معرضين على الدوام للتهديد من القوى الإسلامية،كما كان عرض المملكة الضيق يسبب خطورة إذ أنه تراوح بين 80 إلى 110 كم، فلم يستطع الفرنجة طوال فترة استيطانهم للجبهة أن يمدوا سلطتهم إلى الجانب الصحراوي الطويل الذي ظلت فيه دمشق تشكل

---

(1) سميل،المرجع السابق،ص299،أنظر الخريطة رقم (16).

(2) يوشع براور،الاستيطان الصليبي،ص339.

(3)محمد مؤنس عوض،الحروب الصليبية دراسة نقدية،ص74.

(4) سميل،المرجع السابق،ص302،محمد مؤنس عوض،ص73.

خطرا كبيرا على المملكة في كثير من الأحيان خاصة بعد أن استولى عليها نور الدين محمود 549هـ /1154 م فأصبحت بذلك قاعدة خطيرة استطاع المسلمون الانطلاق منها و توجيه الهجمات العنيفة و الضربات المتواصلة لتلك الدولة،و من الطبيعي أن الموقف الحربي العام كان سيتغير تماما لو أن الصليبيين بدلا من اندفاعهم بحذاء الساحل في الطريق إلى بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى،اتجهوا نحو الشرق و استولوا على دمشق قاعدة الشام،فأضاعوا بذلك فرصة السيطرة على الصحراء التي كانت ستكون حدا فاصلا يفصل مملكة بيت المقدس عن هجمات المسلمين من الشرق،و بذلك ظل المسلمون قابلين للحركة باستمرار على الجانب الطويل المكشوف لمملكة اللاتين،الأمر الذي أدى إلى ضرورة قيام نظام دفاعي.[1]

و هناك سبب أبعد و أشد خطورة جعل الصليبيين يبنون القلاع و الحصون الهائلة ،ذلك هو النقص في العنصر البشري، فالصليبيون قد عانوا في الأصل من هذه المشكلة المزمنة التي لازمت تاريخ وجودهم في بلاد الشام ،و يلاحظ أنه بعد نجاح الحملة الفرنجية الأولى 493هـ/1099م في زرع كيانات الصليبيين في الجبهة الجنوبية عاد الكثيرون منهم إلى الغرب الأوربي،كما أن مقدم الحجاج إلى فلسطين لم يكن ليمثل دعما بشريا مستمرا و مضمونا،و في المقابل كانت سهول ووديان و أنهار مصر و الشام والجزيرة تضمن للمسلمين تفوقا عدديا نسبيا بالمقارنة مع أعدائهم،خاصة و أن العنصر البشري في ذلك العصر كان هو الذي يدير آلة الحرب و يستولي على المواقع الحربية،و لم تكن الأسلحة قد تطورت بالصورة التي يمكن أن تقلل دور الجانب البشري و أهميته الحربية[2].

أما تأمين حركة الحج في الأراضي المقدسة، فنعلم أن المركز الدولي لمملكة بيت المقدس الصليبية كان يرتبط ارتباطا وثيقا برعاية الحجاج القادمين إلى فلسطين، من أجل القيام بشعائر الحج ،و قد قدم إلى هناك الآلاف منهم من كافة عالم المسيحية،و كان تأمينهم خلال رحلتهم إلى تلك البقاع بمثابة خير دعاية سياسية للقيادة الصليبية في أوربا ، و لذا عمل الصليبيون على تشييد العديد من القلاع على طرق الحج لتأمين حماية الحجاج من خطر مهاجمة المسلمين لذلك شيدوا سبع معاقل بين يافا و بيت المقدس (الطريق الرئيسي للحج) و أهمها تورون و شقيف أرنون،و نفس الأمر

(1) محمود الحويري،الأوضاع الحضارية في بلاد الشام،ص185.

(2) محمد مؤنس عوض،الحروب الصليبية دراسة نقدية،ص74.

يقال بالنسبة للأديرة التي شيدها الصليبيون إذ عملوا على إقامة قلاع من أجل حماية عناصر الرهبان من خطر العمليات العسكرية في الصراع بينهم و بين المسلمين[1].

لقد أحاطت مملكة بيت المقدس الصليبية نفسها بسلسة من القلاع و الحصون،شيدت في مناطق إستراتيجية هامة بالقرب من المسالك و المنافذ و الدروب المؤدية إلى قلب فلسطين من الشمال،و كذلك من الجنوب و الشرق، أما الساحل فقد كان بمثابة بوابتها الطبيعية على الغرب الأوربي من أجل ضمان الحصول على الرجال و العتاد و الأموال، فانتشرت القلاع من جزيرة فرعون جنوبي خليج العقبة إلى جبال الجليل الأعلى شمالا،و كان بعضها صغيرا – قلاع بارونية– و بعضها هائلا وواسعا مثل الكرك،غير أنه في الحقيقة قد كانت متطلبات الموقف السياسي الراهن الجغرافية و الإستراتيجية و المستوطنات و الطرق و المخاضات و المضايق الجبلية و الأماكن الصالحة لرسو السفن هي التي تفرض شكل و حجم كل موقع و كل قلعة من تلك القلاع[2]،كما يمكن القول أن اختيار أماكن القلاع تمليه المتطلبات الإستراتيجية للحالة المحلية سواء كان الهدف من إقامتها الاحتفاظ بأماكن معينة أو الحصول على مواقع حصينة متقدمة أو استخدام القلاع كملاجئ عند الضرورة[3].

و لكي يحتفظ الصليبيون بموطئ لهم على الشاطئ كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكي يبقوا على الصلات التي تربطهم بمواطنيهم في الغرب لضمان استمرار الإمدادات ،فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية لكي يؤمنوا العمليات البحرية،لذلك فإنهم أقاموا عند مدخل الموانئ البحرية في عكا و صور و صيدا أبراجا عند آخر السور أو الحاجز الذي يمنع الموج ،و هكذا بنوا سلسلة من الأبراج يستخدمونها للمراقبة على طول شاطئ الجبهة لكي يؤمنوا الاتصال بينهما ،و جميع هذه الأبراج تقوم على موقع أبراج قديمة،كذلك بنا الصليبيون قلاعا تحيط بالموانئ من جهة البحر، كما حرص الصليبيون على أن يسيطروا على المضائق و المعابر الإستراتيجية التي تربط الشاطئ الذي كان بحوزتهم بداخلية البلاد لذلك فإنهم أقاموا إلى جانب القلاع و الحصون الساحلية سلسلة أخرى من القلاع على المرتفعات أو عند سفوح الجبال المشرفة على الساحل[4].

---

(1) وليام الصوري،الحروب الصليبية، ج2،ص345،محمد مؤنس عوض،الرحالة الأوروبيون في بيت المقدس،ص79،الجغرافيون و الرحالة المسلمون، ، نبيلة إبراهيم مقامي،فرق الرهبان،ص17،مصطفى الحياري،القدس زمن الفاطميين و الفرنجة،ص55.

(2) محمد مؤنس عوض،الحروب الصليبية دراسة نقدية،ص76،كمال بن مارس،المرجع السابق،ص176.

(3) مرفت عثمان،المرجع السابق،ص135.

(4) الحويري،الأوضاع الحضارية،ص187،رضا السيد حسن،الصليبيون و آثارهم ،ص97.

و قد أدرك الصليبيون الدور الكبير الذي تلعبه القلاع و الحصون في الاحتفاظ بالسيطرة اللاتينية على الجبهة الجنوبية ،حيث كانت كل قلعة تسيطر على المنطقة المجاورة لها و مهما كان موقعها فهي أساسية في تثبيت سلطة اللاتين ،كما لم يكن على القلاع أن تقاوم حصارا إلا بين حين و آخر فهي للدفاع عن الحدود و قد قيل أن القلعة حمت الحدود أو سيطرت على الوادي أو أغلقته ،و في كثير من الأحيان توقفت حياة الجيش الميداني على اتصالاته بمخازن ذخيرته ،و هكذا فإن المدينة المسورة و القلعة كانتا أداتين عسكريتين فعالتين خلال الهجمات الإسلامية المضادة الشديدة على الدول اللاتينية ،فعندما كان الفرنجة هم الغزاة استخدمت القلعة كسلاح هجومي و عندما تعرضوا هم أنفسهم للغزو شكلت القلعة المدافع الأخير عن سلطانهم ،و قد تميزت الحصون الحدودية بأهمية خاصة بسبب قربها من العدو ما جعلها تتعرض للهجوم المباغت و المتكرر،على أنه كان لكل مكان حصين نفس الأهمية الأساسية ،فحيثما و جد كان تجسيدا للقوة و من ثمة المصداق النهائي للاستيطان اللاتيني(1).

كان الصليبيون يعتمدون في وضع قلاعهم على اختيار المواقع المناسبة التي توفر المزايا العسكرية و الدفاعية ،لذلك استخدموا كل منحدر و لو كان صغيرا و بالغوا في زيادة سمك جدران القلاع و بالغوا في ارتفاعها كي تقاوم الهجمات المباشرة و الأسلحة المتنوعة،و كان أهم ما يميز طابع القلاع و الحصون الصليبية في القرن 6هـ/12م استخدام الحصن النورماني المربع على غرار القلاع الفرنسية،و بناء سور تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبيا،كما لم يقيموا منشآت الدفاع الخارجية التي تقام عادة أمام القلعة و ذلك اقتصادا للجند و كانت ساحة القلعة تسمح بحماية قطعان الماشية أثناء غارة العدو، ولم يترك الصليبيون مدينة إلا و شيدوا خارجها أو على الجبل الذي يشرف عليها حصنا منيعا، و بالقرب من نهر الأردن قاومت القلاع مهاجميها أو الذين حاولوا الاقتراب منها كما شيدت الكثير من الأبراج الصغيرة أو الكبيرة في السهول لأغراض المراقبة و الحراسة.(2)

كانت الغاية الأساسية للقلعة في المرحلة الأولى من الغزو الصليبي هي الهجوم على المراكز الإسلامية أولا ثم الدفاع في المرحلة اللاحقة،فقد اتبع الصليبيون أنماطا معينة من القلاع تختلف في أهميتها و قوتها ،فالقلعة ذات الرابية و السور في القرن 5هـ/11م،و ذات الأبراج الحجرية في القرنين 6-7هـ/12-13م،و ينظر إلى كل منهما على أنه نمط

---

(1) سميل،فن الحرب عند الصليبيين،ص،رضا السيد حسن،المرجع السابق،ص96.

(2) الحويري،الأوضاع الحضارية،ص188، كمال بن مارس،الظهير الشامي،ص176-177.

Archer, the crusades 361 ,David Nicolle and Adam hook ,crusader castles in the holy land (1097-1192),osprey publishing oxford, Great Britain,2004,p27

من التحصين أعلى تطورا من سابقه الذي نشأ منه، و قد اكتشف رجال الحملة الصليبية الأولى الذين رأوا و هاجموا و احتلوا الحصون البيزنطية و العربية المحصنة أنها تفوق التي في بلدانهم بغرب أوربا.

تمثلت الميزات الأساسية البارزة للحصن في احتوائه على ركام ترابي كوسيلة دفاع رئيسية مع حاجز خشبي أو سور حجري يسبقه خندق، و قد أبدت مثل هذه المنشآت أمام المحاصر أكثر من مجرد عائق سلبي فمنها قامت الحامية بدفاع نشيط و خلال القرن 6هـ/ 12م أمكن أن يكون السور الحجري منصة قتالية حسنة التجهيز ،فكانت على واجهته الداخلية شرفات جدارية و على قمته ممشى ذو جدار واق ،و من مثل هذه النقاط الممتازة تمكن المدافعون من خلال فتحات شرفات الحصن من إطلاق قذائفهم على العدو ،و تم أيضا تعزيز السور بأبراج موضوعة على طوله و أدت هذه المنشآت عددا من الوظائف النافعة إذ شكلت دعما للسور و وفرت وسائل الراحة و مكنت المدافعين من القتال في ارتفاع أعلى من ممشى السور الذي يحتمي خلف جدار واق و بصورة مماثلة وضعت الأبراج أكثر مواتاة مع السور حيث مكنت رماة الحامية من الرمي على طول واجهتها ،و قد كانت الميزات البارزة في تصميم الحصن هي توفير خطوط دفاعية متعاقبة و التحصين الدقيق للداخل.(1)

على العموم، انتشرت القلاع الصليبية في أغلب أقاليم المملكة،و برزت خاصة زمن الغزو الصليبي و الاستيطان الفرنجي في بلاد الشام و حتى أثناء الهجمات المعاكسة الكبرى التي شنها المسلمون على الدويلات اللاتينية بمظهرها الحربي،فعندما كان الفرنجة هم الغزاة استخدموا القلاع سلاحا هجوميا ،و عندما أصبحوا هم عرضة للغزو أصبحت القلعة الملاذ الأخير لسلطانهم،و كان لمعاقل الحدود (الثغور) أهمية خاصة لأنها كانت تتعرض للهجمات المتكررة و المفاجئة بسبب قربها من أراضي المسلمين،و عندما يواجه المسلمون عند الحدود كانت القلعة الصليبية تستخدم قاعدة و ملجأ للقوات العاملة هناك،و على كل حال،كان لكل معقل أهميته الخاصة ،فهو تجسيد للقوة حيثما وجد ،و هو الرادع و الملاذ الأخير للاستيطان اللاتيني(2).

و لدراسة أهم القلاع و الحصون في المملكة اللاتينية و دورها العسكري الذي لعبته في الصراع بين المسلمين و الصليبيين كان لزاما علينا تقسيم هذه التحصينات حسب موقعها و أهميتها بالنسبة لجبهة الدراسة، و بالنظر إلى

---

(1)رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص99-100.

(2) سميل،المرجع السابق،ص312-313.

الخريطة[1] نجد أن القلاع الصليبية قد قسمت إلى قلاع شمالية (قلاع الجليل) و قلاع شمالية شرقية و قلاع شرقية و قلاع جنوبية و قلاع غربية ساحلية ،تمكنت بفضلها المملكة اللاتينية من تطويق نفسها و الدفاع عن حدودها ضد أي اعتداء.

***/ القلاع الشمالية (قلاع الجليل)**

قلعة تبنين "Toron "

و هي من قلاع الجليل الحصينة،شيدها هيو أف سانت أومر Hugh Of Saint Omer حاكم الجليل لتكون قاعدة يرتكز عليها في شن هجماته على مدينة صور و ناحيتها التي بقيت صامدة و لم تسقط في يد الفرنج لحصانة موقعها الذي تمتع بمناعة طبيعية كبيرة،و قد كان بناء الحصن في خريف 499هـ/1105م،حيث أطلق عليه اسم طورون Toron نسبة إلى ابنه [2]، أما المؤرخ ون العرب[3] فلم يعرفوا المكان الجديد إلا باسم تبنين و لم يدر الاسم الجديد على ألسنتهم لا في ذلك العصر و لا فيما بعده من العصور ،كما شيد هيو في نفس السنة حصن علعال الذي في شمال شرقي طبرية ،غير أن طغتكين صاحب دمشق تمكن من الاستيلاء عليه بعدما أدرك أن وجود مثل هذا الحصن سيهدد أمن بلاده.[4]

لقد كان حصن تبنين على الطريق الذي يربط بين صور و بانياس و دمشق،و على بعد 21 كم إلى شرق صور ، و على 27 كم من بانياس إلى الجنوب الغربي على الطريق الرابط بين دمشق و صور، و ذلك حتى تهيئ أحسن الظروف للقيام بغارات على الأراضي السهلية الواقعة إلى الشرق من بحيرة طبرية ،و لحماية التخوم الشمالية للمملكة ، وقد اختار هيو هذا المكان لبروزه و علوه و إشرافه على ما حوله من سهول في وسط بقعة زراعية تكثر بها الكروم

---

(1) أنظر الخريطة رقم (16).

(2) وليم الصوري،الحروب الصليبية، ج2،ص268،القلقشندي،صبح الأعشى، ج4،ص151-152،رنسيمان،المرجع السابق، ج2،ص154-155،يوشع براور،الاستيطان الصليبي،ص341-342،عاشور،الحركة الصليبية، ج1،ص241،على السيد على،العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبين،ص15.

(3) الأصفهاني،الفتح القسي،ص58،البنداري،سنا البرق الشامي،ص304 ،ابن جبير،الرحلة ،ص،201-211،ابن الأثير،الكامل، ج10،ص151،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص132.

(4) ابن القلانسي،تاريخ دمشق،ص241،رنسيمان،المرجع السابق، ج2،ص155 ،محمود سعيد عمران،تاريخ الحروب الصليبية،ص37.

والغابات،و كان علو أرض الحصن عن البحر 614 متر ،و الحصن عبارة عن هضبة تؤلف شبه دائرة على أقصاها الغربي بناية عربية تحيط بها البساتين.[1]

ثم علا شأن هذه القلعة فصارت مركزا من أعظم المراكز الإدارية و العسكرية حتى أطلق اسمه على الأسرة التي حكمته و منها هنفري أوف طورون Humphrey Of Toron الذي أصبح رئيسا لديوان الملك بلدوين الثالث سنة 549هـ/1154م ،و قبل موته أعطاها للإسبتارية سنة 552هـ/1157م،و قد كانت إمارة تبنين تضم إلى جانب إقطاعها الخاص إقطاع هونين و مارون و الصبيبة و بانياس.[2]

قلعة الشقيف أرنون[3] " Belfort "

قلعة جنوب لبنان على جبال الجليل [4]، تقع بين دمشق و الساحل بالقرب من بانياس، و هي حصينة جدا [5]و تقع فوق جبل شديد الانحدار ارتفاعه 2200 قدم مقابل نهر الليطاني على بعد خمس كيلومترات من النبطية في الجنوب الشرقي منها و على نفس المسافة من قرية أرنون المسماة باسمها،و تقوم بحراسة الممر الجنوبي الذي يربط صيدا و صور بالبقاع و دمشق كما يحرس الممر الذي يخرج منه نهر الليطاني متجها ناحية البحر ،و تتحكم هذه القلعة في المنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصيبة و تنكشف لها قلاع تبنين و هونين و دوبية و شقيف تيرون و بانياس من الجهات الأربع و مرتفعات لبنان و جبل عامل و جبل حرمون و سفوحه و أعالي الجولان و هضاب صفد و وادي الأردن و السواحل الشمالية حتى بيروت و عكا ،و بذلك فقد حازت قلعة الشقيف آرنون على موقع هام إستراتيجي ضمن قلاع الجبهة ما جعلها تلعب دورًا عسكريًا كبيرًا ضد المسلمين ،و خاصة ضد إمارة دمشق التي كانت هذه القلعة تنكشف على أهم أقاليمها.[6]

---

(1) رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عامل، ص101، كمال بن مارس، المرجع السابق، ص181.

(2) محمد مؤنس عوض، الجغرافيون و الرحالة المسلمون، ص152، رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص101-102.

(3)تعرف قلعة الشقيف أرنون عند الغربيين باسم بلفورت Belfort و سماها العرب شقيف عرنون نسبة إلى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون و تقوم هذه القلعة و كأنها عش نسر على جبل شاهق يشرف على نهر الليطاني ،**أنظر**:الحويري،المرجع السابق،ص186،أنظر الخريطة رقم (18).

(4) مرفت عثمان،الرجع السابق،ص182.

(5) ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج3،ص،أبو الفداء،تقويم البلدان،ص245،القلقشندي،صبح الأعشى،ج4،ص154.

(6) محمود الحويري ،الأوضاع الحضارية،ص183-186،رضا السيد حسن،المرجع السابق،ص117-118،مرفت عثمان،المرجع السابق،ص182.

كان حصن الشقيف تحت السيطرة الفاطمية حتى عام 469هـ/1077م عندما استولى عليه السلاجقة بقيادة تتش بن ألب أرسلان ،و ظل تحت الحكم السلجوقي إلى أن استولى الملك فولك الأنجوي على معقل الشقيف عام 534هـ/1139م ، و وهبها إلى صاحب صيدا ،هذا و قد جرت تقوية القلعة بإضافة برج محصن إليها مع سور خارجي متين،و قد ظلت قلعة الشقيف تابعة لإقطاعية صيدا خاصة و أنها كانت من أهم القلاع التي تشرف على مدخل المدينة (1)،و قد ذكر وليام الصوري (2) أنه في عام 575هـ/1179م لجأ إلى قلعة الشقيف الكثير من الفرسان و فلول الجيش الصليبي بعد الهزيمة التي لحقتهم على يد صلاح الدين قرب بانياس، و بعد النصر الذي حققه المسلمون في حطين 583هـ/1187م حاصر الحصن و تسلمه سنة 585هـ/1190م(3).

قلـعة هـونيـــن

تقع قلعة هونين بين حدود مملكة بيت المقدس و مدينة دمشق ،تبعد عن بانياس بحوالي 16كم ،لذلك تمتعت بأهمية إستراتيجية و اقتصادية كبيرة و ذلك لوقوعها على أحد أهم الطرق التجارية الرئيسية في الجبهة الجنوبية كما كانت تتحكم في منابع نهر الأردن و سهوله العليا ،و قد كانت قلعتها مشرفة على بحيرة الحولة في شمالها الغربي و لها خندق عميق محفور في الصخر (4)،و كانت غلة المنطقة المحيطة بها تقتسم بالمناصفة بين المسلمين و الصليبيين و مواشيهم ترعى مختلطة(5)،و هونين محمية من جانب واحد و مكشوفة من الجوانب الأخرى إلا أنها بنيت في موقع شديد الانحدار ما زادها مناعة و صعب أمر حصارها أو الاستيلاء عليها(6)

كانت المنطقة المحيطة بهونين ملكا لأمير الجليل الصليبي هيو أف سانت أومر و ذلك منذ سنة 500 هـ/1107م ،و يبدو أن هذا الأمير قد أنشأ هذا الحصن ليتمكن من السيطرة على طريق دمشق ــ صور كما أنه شيد قلعة تبنين للسيطرة على باقي المنطقة (7) ،و قد كانت الطريق بين تبنين و هونين تمر بواد كثير الأشجار و أكثره شجر

---

(1) ابن القلانسي،تاريخ دمشق،ص175،مرفت عثمان،المرجع السابق،ص182.

(2) تاريخ الحروب الصليبية، ج3،ص115.

(3) الأصفهاني،الفتح القسي،ص 154.

(4) نبيلة إبراهيم مقامي،فرق فرسان الرهبان،ص81،رضا السيد حسن،المرجع السابق،ص130.

(5) ابن جبير،الرحلة ، ص209-210.

(6) كمال بن مارس،المرجع السابق،ص196.

(7) رضا السيد حسن،المرجع السابق،ص130-131.

الرند ،سحيق كأنه خندق لو دخلته الجيوش لغابت فيه ،و الصعود و النزول في هذا الطريق من أشد العقبات لشدة انحداره [1]،ثم تحول الإقطاع كله بما فيه قلعتي تبنين و هونين إلى إقطاعية مستقلة تابعة لصاحب بانياس هنفري دي تورون ،و لكن سرعان ما عجز هذا الإقطاعي عن الدفاع عن أملاكه أمام هجمات نور الدين محمود المتكررة ،فقام ببيع نصف هونين سنة 552هـ /1157م وكذلك نصف إقطاع بانياس لهيئة الإسبتارية التي حصنت القلعة و عملت على حفظها.[2]

كانت المنطقة المحيطة بهونين ملكا لأمير الجليل الصليبي هيو أف سانت أومر و ذلك منذ سنة 500 هـ/1107م ،و يبدو أن هذا الأمير قد أنشأ هذا الحصن ليتمكن من السيطرة على طريق دمشق ــ صور ،كما أنه شيد قلعة تبنين للسيطرة على باقي المنطقة ،و قد كانت الطريق بين تبنين و هونين تمر بواد كثير الأشجار و أكثره شجر الرند ،سحيق كأنه خندق لو دخلته الجيوش لغابت فيه ،و الصعود و النزول في هذا الطريق من أشد العقبات لشدة انحداره ،ثم تحول الإقطاع كله بما فيه قلعتي تبنين و هونين إلى إقطاعية مستقلة تابعة لصاحب بانياس هنفري دي تورون ،و لكن سرعان ما عجز هذا الإقطاعي عن الدفاع عن أملاكة أمام هجمات نور الدين محمود المتكررة ،فقام ببيع نصف هونين سنة 1157م وكذلك نصف إقطاع بانياس لهيئة الإسبتارية التي حصنت القلعة و عملت على حفظها[3].

على أن هجومات نور الدين على هونين لم تتوقف، بسبب موقعه الذي يهدد أمن إمارة دمشق ،فقصدها سنة562 هـ /1167م فانهزم الفرنج عن الحصن و أحرقوه و هدم المسلمون سوره غير أنهم لم يتمكنوا منه ،و قد أعاد الصليبيون في عهد الملك بلدوين الرابع تحصين القلعة سنة 574هـ/1179م ،في نفس الوقت الذي قاموا فيه بإنشاء قلعة بيت الأحزان و بذلك أصبحت القلعتان الجديدتان تتحكمان في روافد الأردن الأعلى و تكونان خطا دفاعيا لحماية مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة دمشق [4]،بعد ذلك سلم هنفري هونين إلى الملك بلدوين الرابع سنة 578هـ/1182م الذي أهداه إلى الكونت جوسلين و بقي بحوزة الصليبيين إلى غاية سنة 583هـ/1187م عندما سيطر عليه صلاح الدين و دخل في أملاك الدولة الأيوبية[5].

---

(1) ابن جبير،الرحلة،ص209-210.
(2) نبيلة إبراهيم مقامي،المرجع السابق82.
(3) ابن جبير،الرحلة،ص210،نبيلة إبراهيم مقامي،المرجع السابق،ص،82.
(4) ابن الأثير،الكامل،ج10،ص95.
(5) رضا السيد حسن، المرجع السابق، ص131-132.

قـلعة كوكـب الهوى [1] Belvoir

تعتبر من أهم القلاع الصليبية في منطقة الجليل، تقع القلعة على ارتفاع 500 م فوق مستوى سطح الأرض ، و تنتصب عند الضفة اليمنى من نهر الأردن،و لها سبعة أبراج لأن سورها الشرقي محمي بسفح نهر شديد الانحدار على وادي الأردن فلا تحتاج بذلك إلى دفاعات إضافية ،كما أنها تطل على نهر الأردن و بحيرة طبرية و الجليل و الجولان عن بعد ،أي أنها تحكمت في جنوب بيسان،و كان الهدف من بناء قلعة كوكب هو حماية الطرق المحلية،كما أنها كانت تتصل بقلعة صفد عن طريق استخدام الإشارات النارية،كان بنا ؤها بين سنتي 527-534هـ/1132-1140م في عهد الملك فولك الأنجوي،و كانت القلعة في البداية عبارة عن مبنى صغير يملكة نبيل فرنسي يسمى ايفوفيلوس lvo velos و باع هذا النبيل القلعة لهيئة الإسبتارية سنة 564هـ/1168م،فقام الإسبتارية ببناء القلعة و توسيع أملاكهم حولها حتى شملت عددا كبيرا من القرى.[2]

و قد شرع صلاح الدين في مهاجمة حصن كوكب في ربيع الأول 578هـ/جويلة 1182م لما لهذا الحصن من أهمية إستراتيجية كبيرة ،خاصة وأنه كان يشرف على إقليم الغور و الطريق المؤدي إلى الناصرة و بذلك شكل تهديدا كبيرا على القوات الإسلامية في منطقة الجليل ، و عند سماع الصليبيين بذلك أسرعوا و هاجموا المسلمين المحاصرين للحصن ،و رغم انتصار صلاح الدين في المعركة إلا أنه آثر أن يحتفظ بقواته سليمة و انسحب إلى دمشق[3]،و بعد الانتصار الذي حققه صلاح الدين في حطين قاد جيشه و اتجه إلى كوكب و تمكن من الدخول إلى الموقع الحصين بعد عدة أيام من المعارك الضارية تحت الأمطار الغزيرة ووابل الرصاص و النيران الإغريقية تقدم جيش صلاح الدين نحو الصور الداخلي عندما عرض عليه المدافعون من الإسبتارية الأمان مقابل حياتهم ،و في ذي القعدة 584هـ/جانفي 1189م و تسلم منهم القلعة.[4]

---

(1) أنظر الخريطة رقم (17).

(2) سميل،فن الحرب، ص334-335،نبيلة إبراهيم مقامي،المرجع السابق،ص79.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10،ص112،ابن واصل،مفرج الكروب، ج2،ص115،عاشور،الحركة الصليبية، ج2،ص609.

(4) ألبير شاندور،المرجع السابق،ص250-251،جوناثان ريلي سميث،الإسبتارية،ص119-120.

القلاع الشمالية الشرقية:

قلعة صفد

تقع قلعة صفد شمال بحيرة طبرية على بعد 13 كم منها،و تسيطر على المنطقة الواقعة بين وادي الحولة و نهر الجليل حيث يجري الطريق بين دمشق و طبرية، كما كانت واقعة بين مدينة عكا على الساحل الفلسطيني و دمشق ،و قد هيأ لها هذا الموقع أهمية إستراتيجية كبيرة مكنتها من الإشراف على كافة الأراضي الواقعة في منطقة الجليل بشمال فلسطين،و قد كان الهدف من إنشاء قلعة صفد هو الدفاع عن الأراضي الصليبية ضد غارات المسلمين من ناحية دمشق. (1)

و قد أنشأ قلعة صفد أمير الجليل الصليبي هيو ،ثم انتقلت ملكية القلعة إلى الملك فولك الذي باعها بدوره إلى هيئة الداوية سنة 563هـ/1168م،و في رمضان 584هـ/أكتوبر 1188م حاصر صلاح الدين قلعة صفد و نصب عليها المجانيق، غير أنها صمدت شهرا كاملا لمناعتها حيث تقاطعت حولها الأودية من كل جانب فاضطر صلاح الدين أن يستثير الشجاعة المتراخية لدى رجاله،و أسهم بنفسه في الأعمال التي تطلبتها إقامة الدبابات و المجانيق و قاذفات الحجارة و الأبراج الخشبية المتحركة و انتهى الأمر باستسلام القلعة و من فيها من الداوية يوم 14 شوال/6 ديسمبر. (2)

قلعة الفولة "la fève"

تقع على الطرق التي تصل بيت المقدس بنابلس و طبرية،تاريخ بنائها غير معروف،كانت تابعة لهيئة الداوية وقد مثلت مثلث قاعدة صليبية هامة في المعارك التي دارت بين صلاح الدين و الصليبيين،خاصة المعركة التي دارت عندها سنة 579هـ/1183م،و قد هزم صلاح الدين حامية الفولة و من بها من الداوية هزيمة منكرة في 20 صفر 583هـ/ 1ماي 1187م،كما أنه استولى على القلعة بعد نصر حطين مباشرة و أمر بتدميرها. (3)

---

(1) نبيلة إبراهيم مقامي، المرجع السابق، ص87، محمد مؤنس عوض، الجغرافيون و الرحالة المسلمون، ص153-154.

(2) الأصفهاني،الفتح القسي،ص165،ابن شداد،النوادر السلطانية،ص148،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص250.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص75، نبيلة إبراهيم مقامي، المرجع السابق، ص 96.

القــلاع الجـنوبيـة الشـرقيـة:

قلعة الكــرك[1]

و هي مدينة و قلعة حصينة جدا [2] في جنوب الأردن فوق مرتفع صخري،تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك ،و إلى الجنوب من المدينة تنتصب القلعة و هي عبارة عن نتوء صخري مستطيل الشكل ،و لقد شيدت القلعة فوق مصطبتين تفصلهما عن المدينة قناة عميقة ،كذلك كانت المدينة محاطة بسور يحيط بها و يتماشى مع حواف الصخور ،و تمتاز القلعة بموقع حصين إذ تحيط بها الأودية من كل جانب ،فهناك إلى الغرب و الجنوب وادي الكرك و إلى الشمال مدينة الكرك التي يفصلها عن القلعة خندق عميق قطع في الصخر و تم تحصينه في الجهة الشرقية ،و قد جعل هذا الموقع قلعة الكرك من أخطر مناطق الشرق الأدنى من الوجهة الإستراتيجية ما انعكس على مدى حصانة القلعة.[3]

برزت الأهمية التجارية الكبيرة لحصن الكرك بالنسبة للمملكة اللاتينية فيما يسمى بالرسوم أو ضريبة العبور التي اعتبرت المصدر الأساسي لثروتها ،و قد مكن هذا الحصن بموقعه الإستراتيجي وسط صحراء البتراء الصليبيين من السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر و غربي بلاد العرب إلى بلاد الشام فضلا على أنه لم يكن بعيدا عن مخاضات نهر الأردن [4]،و على الأرجح أن استيلاء الفرنج عليه كان أثناء حملاتهم الأولى في عهد الملك بلدوين الأول الذي قام بإعادة بناء القلعة سنة 509هـ/1115م،و حسن تحصينات المدينة ، و قد كانت سنة 537هـ/1142م تاريخ بناء و تجديد القلعة و إدخال دفاعات جديدة للمدينة و توسيعها حتى أصبحت من أهم الحصون و أشهرها على الإطلاق في العصور الوسطى.[5]

و قد وجه المسلمون حملات عديدة على قلعة الكرك قبل معركة حطين [6] 583هـ/1187م و التي لم يكن الهدف منها سوى السماح بمرور القوافل التجارية أو الحجاج بسلام من خلال الطريق الرابط بين الشام و الحجاز

---

(1) أنظر الخريطة رقم (18).

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص453.

(3) أبو الفداء ،تقويم البلدان،ص247،سميل،المرجع السابق،ص318،الحويري،الأوضاع الحضارية،ص191،مرفت عثمان،المرجع السابق،ص165-166.

(4) رنسيمان،المرجع السابق، ج2،ص370-371،ألبير شاندور،المرجع السابق،ص178،علي السيد علي،المرجع السابق،ص16.

(4) Ronnie Ellenblum ,crusader castles,p 63-64 ,

مرفت عثمان،المرجع السابق،ص166.

(5) أنظر حملات نور الدين و صلاح الدين على المنخفضات الشرقية.

و مصر،و بذلك فقد كان الهدف من هذه الحملات خلال الأعوام (565،568،579،580 / 1170 ، 1171،1183، 1184) وقائيا و لم يكن ، بغرض الاستيلاء على الحصن لأنه لم يكن للمسلمين من القوة ما يمكنهم من ذلك لاسيما مع حصانة الحصن ووجود هيئة الإسبتارية به ثم تولي أرناط أمر الحصن فقطع الطريق أمام القوافل و هدد الطرق التي يمر بها الحصن إلى مصر و الحجاز[1].

و بعد الانتصار الذي حققه صلاح الدين في حطين و تخلصه من صاحبه أرناط،أرسل جيشا بقيادة سعد الدين كمشبه لمساندة أخيه العادل في حصار الحصن، و قد دام الحصار أكثر من ثمانية أشهر فنيت خلالها أزواد المحاصرين من الفرنج فراسلوا الملك العادل بالتسليم و طلب الأمان،و كان ذلك في رمضان 584هـ/ أكتوبر 1188م [2]

قلـعة الشـوبـك

أطلق الفرنج على قلعة الشوبك اسم جبل الملك أو المونتريال Le Krak De Montréal [3]،وهي قلعة حصينة شمالي العقبة [4] بنيت على قمة التل المرتفع الذي يشرف على بلدة الشوبك الحالية و تحيط بها ثلاثة أسوار ، و يبلغ ارتفاع هذا التل ما يقارب 1330م عن سطح البحر، و إلى الجنوب منها تقع مدينة عمان التي تبعد عنها بحوالي 342 كم ،و القلعة ذات موقع شديدة المناعة بفضل موقعها الطبيعي و ما امتازت به من وسائل دفاعية زودتها بها الطبيعة،إضافة إلى تزويدها بوسائل دفاعية محدثة حيث وضعت بها حامية من الفرسان و المشاة و أقطعوا الأراضي الشاسعة بالإقليم ،كما كان المكان محصنا بالأسوار و الأبراج و بخندق عميق [5].

شيد حصن الشوبك من طرف الملك الصليبي بلدوين الأول سنة 509هـ/ 1115م ،حتى يكون مقرا للصليبيين يمكنهم من السيطرة على وادي عربة بأجمعه و يكون عينا لهم على شبه جزيرة سيناء المدخل الشرقي،كما شيد في تلك المنطقة حتى يشرف على الطريق الصحراوي المار من الأردن و الواصل بين دمشق و مصر و الحجاز و العراق

---

(1) كمال بن مارس، المرجع السابق، ص،

(2) العماد الأصفهاني،الفتح القسي في الفتح القدسي،ص 117،ابن الأثير،الكامل،ج10،ص 175-176، ابن واصل،مفرج الكروب،ج2،ص271-272 ، محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك، ص9.

(3) فوشيه الشارتري،تاريخ الحملة إلى القدس،ص 157-158،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج2،ص317.

(4) ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج3،ص370،ابن سعيد،الجغرافيا،ص49.

(5) مرفت عثمان،المرجع السابق،ص170-171.

هذا من جهة و من جهة أخرى لحماية الحد الشرقي لمناطق نفوذهم من أية محاولة لهجوم عدائي ضد المملكة من جهة الشرق من جهة ثالثة.[1].

لقد ظهرت أهمية قلعة الشوبك عندما حدث الصراع بين شاور و ضرغام و تدخل نور الدين لإنقاذ مصر من الصليبيين فبعث بقائد جيشه أسد الدين شيركوه مع ابن أخيه صلاح الدين صحبة الجيش إلى البلاد المصرية، و كان الجيش النوري قد سلك طريقا بمحاذاة حصن الشوبك سنة 563هـ/ 1167م فتعرضت لهم حامية القلعة و أرادت قطع الطريق على الجيوش الإسلامية،غير أن خبرة شيركوه و مهارته مكنت الجيش من الفرار و عبور صحراء الأردن بأمان،بعد ذلك استمرت حملات صلاح الدين متوالية على الصحن لما له من أهمية في قطع الطريق بين بلاد الشام و مصر و كانت تلك الحملات في سنوات 566-568هـ/1171-1173م[2] ،غير أن هذه الهجمات لم تحقق ما كان يراد منها لاضطراب العلاقة بين صلاح الدين و سيده نور الدين فوقف ذلك حائلا دون التعاون الكامل بينهما للاستيلاء على الشوبك[3] .

و عندما تولى صلاح الدين الحكم كان عليه أن يتردد ما بين مصر و الشام لتفقد أحوال رعيته و ملكه،و تأمين الاتصال بين شطري دولته من خلال الطريق البري الوحيد عبر الشوبك التي لم ترتدع حاميتها من التعرض للقوافل التجارية و قوافل الحجاج و الجيوش الإسلامية خاصة بعد أصبحت الشوبك ضمن أملاك الإقطاعي المتهور أرناط،و لما حان وقت المعركة الفاصلة التي قامت على سهل حطين سنة 583هـ/ 1187م أبقى جزء من جيشه بقيادة أخيه العادل لمحاصرة حصن الشوبك ،و لما تحقق النصر في حطين استسلمت القلعة في عام 584-585هـ/ 1189م و بسقوطها انتهى الوجود الصليبي في الأردن[4].

---

(1) عاشور،الحركة الصليبية،ج 2، ص 257، يوشع براور، الاستيطان الصليبي، 36،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص 65،تيسير بن موسى،غزوات الإفرنج،ص94.

(2) أنظر تفاصيل الحملتين المبحث الثالث من هذا الفصل .

(3) ستانلي لين بوول ،صلاح الدين و سقوط بيت المقدس،ص117،مرفت عثمان ،المرجع السابق،ص171-172.

(4) العماد الأصفهاني،الفتح القسي،ص117،ابن الأثير،الكامل ،ج 10،ص175-176،ابن واصل ،مفرج الكروب،ج2،ص271-272.

حصن عجلون

تقع هذه القلعة في شمال غرب الأردن على جبل مطل على الغور عرف في العصور الوسطى بجبل عوف،و هو حصن منيع مشهور شرقي بيسان يشرف على غور الأردن من الغرب و صحراء البلقاء من الشرق، و هو على بعد حوالي 48 كيلومتر غرب عمان،في الشعاب البعيدة للكتلة الجبلية المتاخمة لوادي نهر الأردن من جهة الشرق،و يبلغ ارتفاعه حوالي تسعمائة متر فوق سطح البحر،و تطل القلعة على منظر يشمل وادي الأردن بأكمله و السفوح الجبلية المقابلة.(1)

بني هذا الحصن زمن حكم صلاح الدين ،حيث أمر أحد أكبر قواده و هو عز الدين أسامة بن منقذ ببنائه سنة 580هـ/ 1184م ،و ذلك لحماية الجناح الغربي لدمشق و كذا طريق المواصلات الحيوي بين دمشق و القاهرة و الحجاز (درب الحج) الذي كان ضعيف الحماية حتى العقد الثامن من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي،و قد كان الغرض الأساسي لبناء هذا الحصن هو خلق طريق جديد يمر بهذا الحصن يمكن صلاح الدين من الحفاظ على خطوط المواصلات بين دمشق و ساحة العمليات الحربية ببيت المقدس مجتنبا في نفس الوقت المرور بالقلاع الصليبية القابعة في منطقة المنخفضات الشرقية (الكرك و الشوبك) ،كما سعى صلاح الدين من خلال هذا الحصن إلى الحفاظ على طريق المواصلات (أرض السواد) و قطع دابر حركات العصيان و التمرد لاسيما تلك التي كان يتزعمها بنو عوف في عجلون على عهد الدولة الأيوبية. (2)

و قد كانت من أهم الأسباب التي دعت صلاح الدين لبناء حصن عجلون في ذلك الموقع هو مراقبة تحركات الصليبيين في الجزء الشمالي من الجبهة الجنوبية،خاصة بعد أن قاموا ببناء قلعة كوكب الهوى الصليبية بين بيسان و طبرية الذي سمح لهم بالسيطرة على تلك المنطقة و التوسع فيها ،و بذلك أعتبرت عجلون كثل موازي لقلعة كوكب (3).

---

(1) أبو الفداء ،تقويم البلدان،ص245،ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج6،ص 306،القلقشندي،صبح الأعشى، ج4،ص86-105

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية،ص86،مرفت عثمان،المرجع السابق،ص152-153، كمال بن مارس،المرجع السابق،ص206.

(3) مرفت عثمان،المرجع السابق،ص152.

قلعة أيلة

و هي قلعة حصينة بنيت في مدينة أيلة التي تعتبر من أقدم المدن المشهورة على رأس خليج العقبة الذراع الشرقي للبحر الأحمر (بحر القلزم)[1] ،و قيل هي آخر الحجاز و أول الشام و عليها طريق حجاج مصر كما كان حجاج جنوب الشام يأتونها بدرب غزة فيجتمعون فيها مع حجاج مصر [2]، اتجه إليها الملك بلدوين الأول عام 510هـ/1116م فقطع نهر الأردن و بنى بها القلعة لتكون مركز دفاع عن المدينة[3].

في الحقيقة لا يعلم بالضبط متى تم بناء قلعة أيلة و هل كانت موجودة قبل استيلاء الفرنج على المدينة أم هم من أقامها لأول مرة بعد ضمهم للمدينة ،غير أن المرجح أن مدينة أيلة مدينة حدود و لا بد و أن تكون بها قلعة قبل استيلاء الفرنج عليها هذا من ناحية و من ناحية أخرى فإن ضراوة الحروب الصليبية بين المسلمين و الصليبيين في منطقة متغلغلة في صحراء بعيدة عن ساحل بحر الروم و عن مركز تجمع الفرنج في بيت المقدس لم يكن يسمح للصليبيين بإقامة قلعة في منطقة كمدينة أيلة و لكن لا يستبعد أن يكون الصليبيون قد أضافوا إليها بعض المباني و التحصينات التي تتفق و أسلوبهم الحربي[4].

و بعد أن اتجه الصراع الإسلامي- الصليبي إلى الجبهة الجنوبية (بيت المقدس- مصر) و تمكن القوى الإسلامية في الشام من ضم مصر التي أصبحت جزء من الدولة النورية فشكلت بذلك قلعة أيلة حجر عثرة في الطريق بين شطري الدولة ،و الظاهر أن فكرة استرداد هذه القلعة قد تولدت عند صلاح الدين عقب غزواته بجنوب فلسطين إذ أدرك بعد ذلك صعوبة توغله بين القلاع اللاتينية في صحراء النقب و استحالة وصل الطريق بين دمشق و مصر طالما ظلت هذه القلعة في حوزة الصليبيين[5].

---

(1) ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج 1،ص292،ابن سعيد،الجغرافيا،ص 49،القزويني،أثار البلاد و أخبار العباد،ص 153،أرنست باكر،الحروب الصليبية ، ص45،أمين واصف بك،معجم الخريطة،ص83.

(2) المقدسي،أحسن التقاسيم،ص178،أبو الفداء،تقويم البلدان،ص87،أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص169.

(3) وليام الصوري ،الحروب الصليبية ،ج2،ص226.

(4) أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص168.

(5) ستانلي لين بوول،المرجع السابق،ص106.

وفي سنة 566هـ/1170م أنشأ صلاح الدين مراكب مفصلة و حملها على الجمال سالكا درب الشعوي [1] و على مقربة من قلعة أيلة تم تركيب المراكب و شحنها بالمقاتلة ثم زحف بها صلاح الدين على القلعة برا و بحرا في ربيع الثاني/ ديسمبر و مازال كذلك حتى استولى عليها و أفنى حاميتها الصليبية و أسكن بها جماعة من ثقاته و قواهم بما يحتاجون إليه من سلاح[2]،غير أنه و بتولي أرناط شؤون إمارة الكرك لاحظ أن استيلاء صلاح الدين على أيلة كان يمكنه من تهديد الشوبك و الأراضي الصليبية في وادي عربة فأنفذ في خريف 578هـ/1182م قواته باتجاه خليج العقبة و استولى على أيلة ،و لحسن الحظ أن الملك العادل الذي كان نائبا في مصر قد سمع عن محاولة أرناط فبعث بالحاجب حسام الدين لؤلؤ بجيش عظيم تمكن من إلحاق خسائر كبيرة بالجيش الصليبي و عادت بذلك القلعة ثانية إلى حضن الدولة الإسلامية[3].

قلعة جزيرة فرعون:(**Ile De Gray**)

تقع قبالة أيلة في خليج العقبة عند رأس الخليج على 13كم من مدينة العقبة بحرا ،و هي جزيرة صغيرة محيطها نحو ألف متر و هي مؤلفة من أكمتين (تلتين صغيرتين) بينهما فرجة ضيقة و بينهما و بين بر سيناء نحو 250 متر و يحيط بها سور منيع من جهة سيناء [4]،استولى عليها الملك الصليبي بلدوين الأول بعد أن شيد قلعة أيلة سنة 510هـ/1116م و ترك بها حامية عسكرية[5]،غير أن صلاح الدين قد تمكن من الاستيلاء عليها إلى جانب قلعة أيلة أيلة سنة 566هـ /1170 م و أنشأ على قمة التلين قلعة حصينة عرفت بقلعة صلاح الدين أو قلعة فرعون ،و قد حاول أرناط أمير الكرك الاستيلاء عليها سنة 578هـ/1182 م فحاصرها مدة و لكنه تركها عندما علم بمقدم جيوش صلاح الدين إليها [6].

بنى صلاح الدين هذه القلعة لتكون نقطة حصينة لحماية الطرق البرية و البحرية بين مصر و الشام و الحجاز و قاعدة بحرية متقدمة لتأمين خليج العقبة و البحر الأحمر من الغزوات الصليبية ،و قد استمرت قلعة فرعون أو قلعة

---

(1) أنظر الخريطة رقم(16)

(2) ابن واصل،مفرج الكروب،ج1،ص199،مرفت عثمان،المرجع السابق،ص128.

(3) أبو شامة،كتاب الروضتين،ج3،ص88-89، المقريزي،السلوك،ج1،ص79-88،الحريري،الأخبار السنية،ص187.

(4) أحمد رمضان أحمد،شبه جزيرة سيناء،ص166.

(5) وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج2،ص226.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص117، ابن واصل، مفرج الكروب،ج1،ص199.

صلاح الدين بهذه الجزيرة طوال هذا العصر تمثل دورا مهما في الصراع الإسلامي-الصليبي كأهم نقطة إنذار متقدمة وواحدة من القلاع القليلة التي دخلت ضد الصليبيين في حرب بشكل مباشر[1].

تتكون قلعة فرعون من قلعتين منفصلتين تستطيع كل منهما العمل بمفردها إذا ما حوصرت الأخرى أو استولي عليها، وفقد أقيمت بها مجموعة من الغرف و الحجرات و بني حول كل قلعة سور سميك تتخلله عدة أبراج للمراقبة كما فتحت في السور و الأبراج فتحات لرمي السهام ، و زيادة في المناعة و التحصين فقد أحاط صلاح الدين القلعتين بسور متين مبني من الحجر المصقول بابه الرئيسي إلى جهة سيناء[2].

القلاع الجنوبية الغربيـة:

ـقلعة غــــزة Gaza:

كانت غزة منذ أقدم العصور هي المفتاح المؤدي إلى مصر،و آخر المدن القوية على الحدود المصرية من جهة سيناء فهي تقع على طريق الساحل المؤدي إلى مصر [3]،كانت بها قلعة قوية و حصينة و باستيلاء الصليبيين على الشام أصبحت غزة بمثابة نقطة انطلاق للمصريين إلى قاعدتهم الهامة بعسقلان و لم يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على غزة إلا سنة 544هـ/1149م و ذلك بعد أن أحاطوها بسلسلة من القلاع القوية و هي بيت جبرين و تل الصافية و يبنى (أسدود)[4].

و كان الهدف من إقامة قلعة غزة هو إيقاف الغارات الموجهة إليها و فرض الرقابة على جنوب المملكة اللاتينية،ثم استكمال إحاطة قاعدة عسقلان المصرية بقلاع صليبية و شن الهجمات انطلاقا من قلعة غزة للإبقاء على حالة الحرب المستمرة تمهيدا للاستيلاء على عسقلان،و على هذا النحو فإن القلاع الموجودة في جنوب فلسطين لم تنشأ لغايات الدفاع عن الحدود بشكل عام إذ لم يكن الوضع السياسي لمصر خلال الفترة التي أسست فيها تلك القلاع

---

(1) مرفت عثمان،التحصينات الحربية،ص121.

(2) أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص166، عبد الرحمان زكي، الجيش المصري في العهد الإسلامي، ص110-111.

(3) أبو الفداء،تقويم البلدان،ص239،القلقشندي،صبح الأعشى، ج4،ص98،أمين واصف بيك،معجم الخريطة التاريخية،ص85.

(4) يوشع براور،الإستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس ،ص341، نبيلة ابراهيم مقامي،فرق نبيلة ابراهيم مقامي،ص86.

ينطوي على خطر تجديد الفاطميين لغزواتهم السابقة و الحقيقة أن القلاع شيدت هناك لغرض معين هو كبح جماح الغارات المفاجئة التي تشنها عسقلان،و تمكين القوات الفرنجية من شن هجماتها ضدها[1].

بعد أن استرجع الصليبيون قلعة غزة من الفاطميين الذين قاموا بتدميرها قبل مغادرتها، قام الملك عموري الأول سنة 544هـ/1149م بإعادة تحصينها و ذلك بأن أنشأ قلعة على تل عال وسط المدينة و تم تسليم هذه القلعة إلى الداوية ،و قد لعبت قلعة غزة دورا هاما في سقوط عسقلان في أيدي الصليبيين سنة 548هـ/1153م فقد عملت حامية غزة على تعطيل وصول الإمدادات للحامية المصرية بعسقلان خاصة و أنها تقع على 20كم فقط منها.

و بعد 548هـ/1153م تغيرت وظيفة قلعة غزة و أصبحت تمثل قاعدة صليبية متقدمة انطلق منها الصليبيون لمهاجمة مصر و قد هاجمها صلاح الدين مرات عديدة منها سنة 573هـ/1177م فاضطر لرفع الحصار عنها نتيجة لمقاومة فرسان الداوية بها ثم شن هجوما موحدا سنة 578هـ/1182م من الشمال لمهاجمة بيروت و من الجنوب لمهاجمة غزة غير أن الداوية صمدوا هذه المرة كذلك ،و في سنة 583هـ/1187م أمر جيرار ريدفورت مقدم الداوية الذي كان وقتذاك أسيرا لدى صلاح الدين بعد معركة حطين حامية غزة بالتسليم و ذلك في مقابل إطلاق سراحه، و بالفعل سلمت الحامية للمسلمين الذين دمروا قلعة غزة سنة 587هـ/1191م و ذلك لحرمان الصليبيين من قاعدة لهم في هذه المنطقة الهامة،و لكن ريتشارد قلب الأسد وصل بعد بضعة أشهر من تدمير القلعة فأمر بإصلاحها و سلمها مرة أخرى للداوية للدفاع عنها ،و لكن وفقا لصلح الرملة بين صلاح الدين و ريتشارد سنة 588هـ/1192م كانت غزة خارج نطاق سلطة الصليبيين حتى أن ريتشارد تعهد بتدمير أسوارها[2].

قلعة بيت جبرين Beit Gibrin :

تقع قلعة بيت جبرين أو بيت جبريل على تقاطع الطرق المؤدية إلى بيت المقدس و الخليل(حبرون) و غزة و عسقلان و هي على بعد حوالي 22 كم من هذه الأخيرة ، أحيط بها سور منيع و زود بالأبراج و التحصينات و حفر

---

(1) سميل ،فن الحرب عند الصليبيين ،ص310.

David Nicoll And Adam Ham Hook, Crusader Castles In The Holy Land, P13 .

Ronnie Ellenblum ,Crusader Castales And Modern Historie , p113.

(2) نبيلة إبراهيم مقامي،المرجع السابق،ص86-87،

Grousset, op, cit, p196.

حولها خندق عميق ، أنشأها الملك فولك سنة 530هـ/1136م لإكمال تحصين تلك المنطقة التي كانت منذ بداية عهد الصليبيين بالشام مهددة من جانب حامية عسقلان المصرية و قد كانت قلعة بيت نوبة هي أول تلك القلاع حيث تم بناؤها في أواخر 527هـ/1133م ثم قلعة بيت جبرين ثم أنشأ بعدها قلعة تل الصافية (Blanche Garde) و قلعة يبنى (Ibelin) ثم قلعة غزة ،و قد شكلت هذه القلاع سلسلة من التحصينات لحماية جنوب و جنوب غرب المملكة من أي هجوم مفاجئ من حامية عسقلان[1].

كانت قلعة بيت جبرين مخفرا بحريا منيعا بأبراج محصنة تولى أمره فرسان الإسبتارية منذ عام 530هـ/1136م فأغرت بذلك المستوطنين اللاتين على الاستقرار في نواحيها التي كانت الاسبتارية قد جعلتها مناطق زراعية،كما كانت تشرف على ممتلكات كبيرة و واسعة امتدت بين عسقلان و الخليل و أصبحت بذلك بيت جبرين مركزا نشطا لإعمال الإستيلاء التي كان يقوم بها المستوطنون اللاتين ،خاصة و أنها كانت تشرف على ممر هام للقوافل التجارية و فتأخذ منها الرسوم مقابل مرورها ،و قد استولى صلاح الدين على قلعة بيت جبرين بدون قتال سنة 583هـ/ 1187م ثم أمر بعد ذلك بتدميرها بعد أربع سنوات[2].

قلعة تل الصافية Blanche Garde :

شيدها الملك فولك سنة 536هـ/1142م ضمن سلسلة القلاع التي أنشأها هذا الملك بهدف إحاطة حامية عسقلان من كل جانب تمهيدا للاستيلاء عليها حيث كانت هذه القلعة لا تبعد سوى 12 كم فقط عنها – مدينة عسقلان المصرية— و قد أقيمت هذه القلعة على جبل عال بالمقارنة بالأرض الأكثر استواء المجاورة له في عمق المنطقة

(1) أبو الفداء ،تقويم البلدان،ص241،وليام الصوري،الحروب الصليبية،ج3،ص130-132، نبيلة إبراهيم مقامي،المرجع السابق،ص77،محمد مؤنس عوض،الحروب الصليبية دراسة نقدية و تاريخية،تقديم:سعيد عبد الله البيشاوي، دار الشروق،ط1،عمان،1999،ص77-79.
(2) جوناثان ريلي سميث ،الإسبتارية ،ص 55-56-427، سميل،فن الحرب عند الصليبيين،ص310-333، الأصفهاني،الفتح القسي في الفتح القدسي ،ص65،

David nicoll and adam ham hook ,op,cit ,p13

الساحلية فأكسبتها بذلك حصانة طبيعية ،و هي بالضبط في نواحي الرملة على ارتفاع 300م فوق سطح هضبة مستديرة صخرية في الشعاب الجبلية الجنوبية في موقع جيد يضمن الاتصال بالنظر مع جميع القلاع المجاورة[1].

كانت قلعة تل الصافية ملكا للملك فولك ثم انتقلت إلى كونت عسقلان الذي سلمها إلى عموري الأول ملك بيت المقدس سنة 561هـ/1166م، و تقوم هذه القلعة بحراسة الطريق من عسقلان إلى بيت المقدس عند التل الذي أقيمت عليه فقد كانت لهذه القلعة أربع أبراج متساوية [2] و يذكر وليام الصوري[3] أن معنى تل الصافي بالعربية هو التل أو الجبل الجلي الواضح و في اللغة الدارجة تعني برج المراقبة الأبيض ،استولى صلاح الدين على هذه القلعة سنة 583هـ/1187م و أمر بتدميرها و لكن الصليبيين استردوها سنة 588هـ/1192م و في نفس السنة عادت إلى حوزة المسلمين بموجب صلح الرملة[4].

قلعة يُبنى Ibelin:

أقيمت قلعة يُبنى في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة الرملة على 16كم إلى الجنوب الغربي من اللُّد ،أنشأها الملك الصليبي فولك سنة 535هـ/1141م و قد استفاد من ميزات الموقع المرتفع في المنطقة حيث وجدت هناك هضبة مرتفعة فوق السهل الساحلي ،كما كانت هذه القلعة تتحكم في مفترق طريقين هامين تمتدان من عسقلان إلى يافا و إلى الرملة و ذلك لاحتوائها على مخفر بأربعة أبراج ،و كان هدف بناء قلعة يبنى لا يختلف عن بناء قلعة غزة و تل الصافية و بيت جبرين و هو إعاقة حامية عسقلان من القيام بحملات خطيرة على الحدود الجنوبية للمملكة[5].

---

(1) وليام الصوي ،الحروب الصليبية،ج3،ص 210 ،نبيلة إبراهيم مقامي ،المرجع السابق،ص 89،كمال بن مارس، المرجع السابق،ص185، محمد مؤنس عوض ،الحروب الصليبية دراسة نقدية و تاريخية ،ص 83.

Ronnie Ellenblum ,op ,cit,p 156.

(2) سميل،المرجع السابق،ص333،

(3) الحروب الصليبية،ج3،ص210.

(4) ابن الأثير،الكامل،ج10،ص 154-155، نبيلة إبراهيم مقامي،المرجع السابق،ص90.

(5) وليام الصوري ،الحروب الصليبية،ج3،ص209-210،سميل،المرجع السابق،ص333،

David nicol and Adam Ham hook, op, cit, p13

و ما يمكن تقريره في الأخير أن قلاع جنوب فلسطين (غزة_ بيت جبرين _ يبنى _تل الصافية) [1]لم تنشأ بغرض الدفاع عن الحدود فقوة الفاطميين كانت في التلاشي بل أنشأت بغرض كبح جماح الغارات التي كانت تشنها حامية عسقلان ،ثم الاندفاع في هجوم معاكس على هذه المدينة الفاطمية ،غير أن هذه الاستحكامات لم تكن لتقف في وجه الحملات الفاطمية من عسقلان ففي عام 535هـ/1141م شن الفاطميون من عسقلان غارة أوقعت الهزيمة بقوة فرنجية عند سهل زرعين و لكن هذه الحملات استطاعت أن تقف في وجه الحملات الموجهة من الجنوب صوب بيت المقدس،و قد تغيرت وظيفة هذه القلاع بعد سيطرة صلاح الدين على مصر و أضحت تقوم بوظائف قلاع الحدود حيث صمدت في رد هجومين لصلاح الدين سنة 566 _ 573هـ/1170_1177م و أرغم الملك عموري القادم من بيت المقدس صلاح الدين على الارتداد[2].

2/ أهم القلاع في شبه جزيرة سيناء

شهدت شبه جزيرة سيناء طوال عصورها التاريخية و خاصة زمن الحروب الصليبية حملات عسكرية كثيرة ضد مصر و اتخذت مصر نفسها سيناء طريقا لتوسعها الخارجي كلما امتد نفوذها على بلاد الشام و قي كلتا الحالتين و الضرورة تقضي بإنشاء قلاع و حصون لصاحب الأرض و المعتدي على حد سواء و إذا أضفنا إلى ما تقدم طرق القوافل و الحجيج و ما تحتاجه من قصور و منازل و خانات للحماية أيضا و الراحة ثانية ،ليتبين لنا أن شبه جزيرة سيناء لابد و أن يكون قد أقيم بها آلاف من الاستحكامات الحربية و لكن الزمن أتى عليها جميعا و لم يبق منها إلى الآن سوى قليل من الحصون المتفرقة هنا و هناك.

قلعة الفرما:

تقع الفرما شرق مصر ببلاد العريش و تبعد عن ساحل بحر الشام بقدر ثلاثة كيلومترات،و هي على شط بحيرة تنيس يصل إليها فرع من النيل الذي يزودها بالماء ،بنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر سنة 239هـ/م لأنها كانت آخر حصون الدفاع المهمة بالنسبة لمصر من الجهة الشرقية، في سنة 509هـ/م وصل الملك الصليبي بلدوين الأول

---

(1) بالنسبة لقلعة الداروم (دير البلح) فقد ذكرناها سابقا في المبحث الثالث في هذا الفصل "صلاح الدين و الصليبيون" ص212.

(2) كمال بن مارس،المرجع السابق،ص185-186،

Ronnie Ellenblum ,op ,cit,p101-113.

إلى أعمال الفرما فقام بتخريب القلعة و هدمها كما أحرق المسجد و جميع البلد ،و في الأحداث التي وقعت إبان الخلاف بين شاور و ضرغام سنة 545هـ/ م نزل الفرنج على الفرما في جمع كبير و أحرقوا حصنها و نهبوا أهلها[1].

في الحقيقة كان بمدينة الفرما عدد من الحصون و القلاع منذ العصر القديم و استمر إلى الوسيط و حتى الحروب الصليبية على أن الباقي الذي لا يزال قائما حتى اليوم عبارة عن خرائب مدينة متسعة و قلعة عظيمة كانت تحتوي على سور كبير أستعمل في بنائه الأعمدة كدعائم ثابتة للجدران المرتفعة و الكبيرة المساحة كما كانت القلعة تحتوي على العديد من الغرف و مخازن السلاح و المؤن .[2]

قلعة مبعــوق:

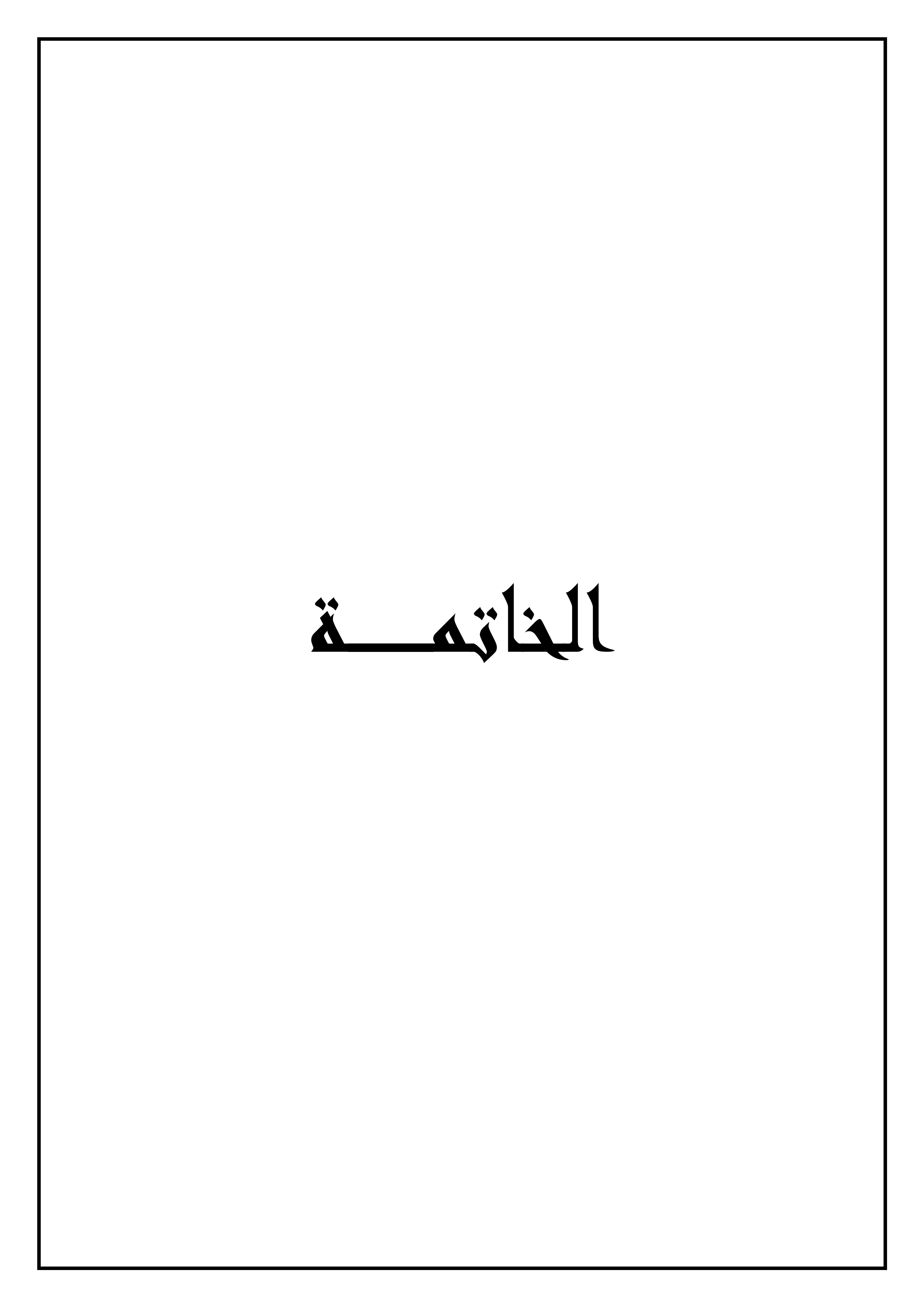
تقع هذه القلعة في بلاد التيه ، و قد عرفت باسم مبعوق نسبة إلى بئر مبعوق الذي يقع في وادي الراحا الذي يمتد من جبال الراحا شرقا و ينتهي تجاه السويس غربا و هو يتسع اتساعا عظيما عند مصبه حتى يمتد بمسافة خمسة كيلومترات ، و عند هذه البئر و على الجانب الأيسر للوادي توجد قلعة مبعوق و هي قلعة قديمة بنيت بالحجر المنحوت مربعة الشكل تقريبا يبلغ طول ضلعها حوالي 16 متر و سمك حائطها حوالي ثلاث أمتار،تنسب هذه القلعة إلى السلطان صلاح الدين و غالب الظن أنه قد ابتناها على طريق الشعوي لتزود جيوشه المارة بهاذا الطريق و المجتنبة للطريق الشمالي الخطير بالماء و الزاد و كذا لحراسة الطريق من أي اعتداء.[3]

---

(1)الإصطخري،المسالك و الممالك ،ص26،أبو الفداء،تقويم البلدان،ص106،المقريزي،الخطط،ج1،ص591،أمين واصف بك ،معجم الخريطة التاريخية ،ص88.

(2) أحمد رمضان أحمد ،شبه جزيرة سيناء،ص141-142.

(3) نفسه ، ص161.



الخاتمـــة

لقد احتدم الصراع بين المسلمين و الصليبيين للسيطرة على الجبهة الجنوبية (بيت المقدس – مصر) في الفترة الممتدة بين (559-589هـ/1164-1193م) ، ذلك أن أيدي المقاومة الإسلامية التي كانت مشغولة بالجهاد في الشمال (حلب-أنطاكية- طرابلس) لم تصل إلى حدود الجبهة الجنوبية فعليا منذ سيطرة الصليبيين عليها سنة 492هـ /1099م إلى بعد معركة حارم سنة 559هـ/1164م،و قد حاولنا من خلال هذه الدراسة ابراز أهمية الجبهة الجنوبية في الصراع الإسلامي- الصليبي و أدوار ذلك الصراع و قد توصلت إلى جملة من النتائج لعل أهمها:

أن الجبهة الجنوبية التي تحميها جبال الجليل من الشمال و تمتد على طرفها الشرقي صحراء البلقاء الواسعة التي تشكل حاجزا طبيعيا ضد أي اعتداء من الشرق،كما تقف صحراء سيناء المقفرة في جنوبها الغربي لتمنع تقدم الجيوش القادمة من الغرب لأن هذه الصحراء الواسعة التي تكاد تكون خالية من الزاد و الماء قد أعطت حصانة طبيعية للمملكة اللاتينية التي كانت تسيطر على أغلب مساحة الجبهة الجنوبية.

كما مثلت سواحل الجبهة الانكسارية التي ينقطع امتداد السهل الساحلي فيها في بعض النقاط فيصل الجبل بالبحر ميزة عظيمة و هامة لسكانها حيث شكل ذلك مانعا طبيعيا أمام القوات المعادية السالكة لها السهل.

حظيت الجبهة الجنوبية و خاصة منطقة فلسطين و سيناء بأهمية دينية كبيرة على امتداد العصور، فقامت بها اليهودية و النصرانية و انبعث من أرجائها مجد الإسلام، فكانت قبلة المسيحيين و مجاز حجاج المسلمين للأماكن الطاهرة الحجازية ،و قد زادت تلك الأهمية زمن العصور الوسطى (الحروب الصليبية) التي تحول فيها الصراع بين الشرق و الغرب من صراع حضاري إلى صراع ديني.

رغم الستار الديني الذي سعى من خلاله رجال الدين إلى تبرير غزواتهم نحو الشرق إلا أن أهمية العامل الاقتصادي قد برزت منذ الوهلة الأولى في توجيه جموع الفرنج نحو بلاد الشام،و يمكن اعتبار المدن الإيطالية خاصة جنوة و بيزا و البندقية أهم عنصر صليبي سعى للكسب المادي في هذه الحملات التي شنها الغرب الأوروبي على الشرق الإسلامي.

باستقرار الصليبيين في الجبهة الجنوبية و تأسيس المملكة اللاتينية (494هـ/1100م)، اكتشفوا وجود العديد من المحاصيل الزراعية التي لم يكونوا يعرفون عنها شيئا فتعلموا أساليب زراعتها و نقلوها إلى مواطنهم الأصلية في قارة أوربا و منها: الذرة، الأرز، السمسم، و قصب السكر و غيرها.

لقد حظيت الجبهة الجنوبية بأهمية تجارية بالغة فموقعها المتوسط لقارتي آسيا و إفريقيا جعل طرق التجارة العالمية تمر بها إضافة إلى امتداد شريطها الساحلي المطل على البحر الشامي من بيروت حتى شواطئ سيناء ما فتح لها أبواب التجارة مع مصر و المغرب الإسلامي من جهة و قارة أوربا من جهة أخرى دون أن ننسى تجارة بحر القلزم (البحر الأحمر) القادمة من مراكز التجارة الكبرى في آسيا.

و نتيجة للموقع المتوسط للجبهة الجنوبية فقد جعلها ذلك مقصدا للكثير من الهجرات عبر التاريخ كانت أولها قبائل تعرق "بالعمو" ورد ذكرها في الآثار المصرية كما سكن بلاد الشام بقايا الآراميين و الأنباط ثم توالت هجرات القبائل العربية،و قبل الغزو الصليبي للمنطقة كانت الجبهة الجنوبية تضم عناصر مختلفة منها : اليونان و الرومان و العرب و الفرس و الأتراك و الأكراد و الأرمن و غيرهم من الطوائف و الأجناس.

و مع بداية استقرار الصليبيين في المنطقة لعبت هذه العناصر السكانية أدوارا مختلفة خلال فترة الدراسة فمنهم من وقف في وجه العدو (الفرنج) منذ الوهلة الأولى و اعتبره عنصرا معتديا يجب اقتلاعه و على رأسهم الأتراك و الأكراد و بعض القبائل العربية،و قد انضمت الطوائف المسيحية من أرمن و موارنة و سوريان إلى جانب الصليبيين و عملوا لديهم كأدلاء و مرشدين و جنود مرتزقة، فمكنوهم و هم الغرباء عن البلاد من معرفة أهم الطرق و المسالك الإستراتيجية في بلاد الشام كما انضمت قوة منهم إلى الجيش الصليبي فنالوا بذلك حظوة عندهم و احتلوا في الممالك التي شيدها الصليبيون المكانة الأولى بعدهم، واستمرت علاقات الود و المصالح المشتركة وثيقة بينهم طوال فترة وجود الصليبيين في الشرق.

أما العناصر الأوروبية المتباينة من فرنسيين و نورمان و بلغار و فلمنك و جنوة و غيرهم و التي وفدت إلى بلاد الشام و أسست مملكة بيت المقدس و الإمارات الصليبية الأخرى فقد ظلت تمثل أقلية سكانية في الجبهة الجنوبية بالنسبة للعنصر المحلي الذي ظل هو الغالب على مناطق النفوذ الصليبية ،و نتيجة هذا النقص عمدوا إلى استدعاء عناصر جديدة من الغرب أو الاستنجاد بعناصر محلية مناوئة للحكم الإسلامي.

أما في ما يخص شبه جزيرة سيناء فلم يسكن بها منذ القديم إلا عددا محدودا من القبائل البدوية دأبهم هو الإغارة على بعضهم البعض و يبدو أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو الظروف الطبيعية القاسية و التي لا تتلاءم إلا مع طبيعتهم.

لقد احتوت الجبهة الجنوبية خلال فترة الحروب الصليبية على العديد من الطرق التجارية و العسكرية منها الداخلية التي تربط بين أطرافها ومنها الممتدة إلى أقاليم و حواضر مجاورة ، و قد تفاوتت هذه الطرق من حيث الأهمية و الاستعمال ، فقد سلكتها إما جيوش صليبية أو إسلامية أو قوافل تجارية أو حتى أفواج الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس،و من أهم هذه الطرق طريق دمشق- مصر،و طريق بيت المقدس-يافا و درب الشعوي بسيناء.

غير أن دور الطرق و المسالك في الجبهة الجنوبية قد انقلب رأسا على عقب بعد توحيد صلاح الدين للمقاومة الإسلامية، و بذلك غدت دولة ذات شطرين كبيرين شطر في شمال الشام و شطر في وادي النيل و بين هذين الشطرين تقف الجبهة الجنوبية (مملكة بيت المقدس- سيناء) ،و لم يلبث صلاح الدين بمهارته الفذة أن حول طرق شبه جزيرة سيناء إلى سلاح قوي و فعال في يده،خاصة مجموعة الطرق الوسطى فضيق بذلك الخناق على الصليبيين بالربط بين قواته في مصر و الشام.

ومن خلال هذه الدراسة توصلنا إلى أن الحملة الصليبية الأولى التي جاءت من أوربا بأعداد ضخمة و بفعل دعوات البابا أوربان الثاني لتحرير بيت المقدس من يد المسلمين لم تتمكن من السيطرة فعليا سوى على الشريط الساحلي الضيق في الجبهة الجنوبية و الممتدة من بيروت شمالا إلى غزة جنوبا باستثناء مدينتي صور و عسقلان اللتان بقيتا بيد المسلمين (الفاطميين) تهددان التواجد الصليبي بالجبهة حتى استولى الفرنج على صور عام 518هـ - /1124م ،أما عسقلان فقد بقيت تمثل الخط الهجومي الأول للدولة الفاطمية حتى تمكن منها الفرنج عام 548هـ/1153م.

و من النتائج التي توصلت إليها أن سيطرة الصليبيين على ساحل الجبهة الجنوبية و امتلاك الثغور على الساحل الشامي مسألة حياة أو موت بالنسبة للمملكة الصليبية لأن الساحل وحده يضمن لها الاتصال بالغرب الأوروبي الذي تأتيها منه المعونات البشرية و المالية الضرورية لبقائها ، و قد تفطن صلاح الدين بعد انتصاره في معركة حطين سنة 583هـ/1187م إلى أهمية الساحل بالنسبة للفرنج فاتجه إليه مباشرة عكس ما كان متوقعا أن الجيش الأيوبي سيتجه إلى بيت المقدس و قد فعل ذلك لحرمانهم من أي مساعدة قد تصلهم عبر البحر.

كما يمكن القول أن السيطرة الفرنجية على سواحل بلاد الشام لا يرجع الفضل فيها للقادة و الجيوش الصليبية فقط بل إلى المساعدة الدائمة من جانب الأساطيل الإيطالية (جنوة بيزا و البندقية) كذلك ،و التي كان لها دور كبير في الحصار البحري لمدن الساحل و كذا تثبيت سلطة الفرنج على الجبهة الجنوبية.

بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس 492هـ/1099م جرت مذبحة مروعة في أهالي المدينة من مسلمين و يهود تحدث عنها مؤرخ الفرنجة فوشيه الشارتري أحد معاصري الحملة الصليبية الأولى بكل فخر،ما يظهر لنا مدى الحقد الصليبي الكامن في قلوب الفرنج تجاه المسلمين ،لذلك فقد هاجر أغلب المسلمين و اليهود إلى المناطق الداخلية التي لا تزال تحت السلطة الإسلامية.

و قد كانت غارات الصليبيين على إقليم الجليل و السواد في عمومها لغرض النهب و الغنائم حيث عرفت هذه المناطق بوفرة مزروعاتها و غالبا ما كانت هذه الغارات قبيل موسم الحصاد أو جني الغلال ، أما حملات المسلمين بدمشق على هذين الإقليمين فكانت للدفاع عن حدود دمشق أولا و حماية الحجاج ثانيا حيث تمتد الطريق إلى مكة عبر هذه المناطق و أخيرا لحماية طرق التجارة و التي كانت تأخذ طريقها إلى مصر مع طريق الحج حتى آيلة جنوبا.

كما كانت لممتلكات الفرنج في شرقي الأردن أهمية إستراتيجية و تجارية كبيرة عادت بفائدة عظيمة على الصليبيين ،تمثلت الأولى في سيطرتهم على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر و غربي بلاد العرب إلى بلاد الشام، فمكنتهم بذلك من الإفادة من حركات التنقل الطبيعية التي سلكها التجار و الحجيج و البدو و المسافرين، أما الأهمية التجارية فقد برزت فيما سمي بالرسوم أو ضريبة العبور التي اعتبرت المصدر الأساسي لعيش المملكة اللاتينية و ثرائها .

كانت منطقة المنخفضات الشرقية تمثل الحدود الآمنة للدولة اللاتينية و التي كانت أساس كل سياسة دفاعية عن مملكة بيت المقدس فقد كانت حصون الشوبك و الكرك و آيلة هي دعائم تلك السياسة لذلك كان على الملوك اللاتين أن لا يفرطوا بحال من الأحوال فيها ،كما و أن المسلمين لاسيما في عهدي نور الدين و صلاح الدين قد وعوا بأهمية هذه المنطقة في أي عملية استرداد أو هجوم على مملكة بيت المقدس لذلك كانت حملاتهم مستمرة على هذه الحصون و ظلت جيوشهم في حالة الجاهزية لمراقبة أي تحرك صليبي في هذه المنطقة لضمان سلامة قوافلهم و جيوشهم.

و من بين النتائج التي استخلصت في الدراسة أن طبيعة شبه جزيرة سيناء المقفرة لم يؤهلها طوال فترات التاريخ لأن تقوم بها دولة أو تسكنها أمة ،و لم تُقم بها سوى بعض القبائل البدوية التي تركزت في واحات بلاد العريش ،كما عمل هؤلاء البدو كأدلاء و مرشدين في طرق التجارة المارة خاصة ببلاد التيه .

لقد كان لتلك الهجمات المتتالية التي شنتها حامية عسقلان على الحدود الجنوبية للمملكة اللاتينية إضافة إلى ضعف الخلافة الفاطمية و سيطرة وزرائها على أمور الحكم في مصر دور كبير في تحفيز الصليبيين و التفكير في مهاجمة مصر و إرسال حملات برية عبر سيناء لإخضاعها للسلطة الصليبية،غير أن كل المحاولات التي قام بها الصليبيون لغزو مصر منذ عهد الملك بلدوين الأول و بلدوين الثالث و عموري الأول (511-569هـ/1118-1169م) كان مصيرها الفشل رغم ما كانت تعانيه الخلافة الفاطمية من ضعف.

رغم المحاولات المتفرقة التي شنها مودود صاحب الموصل و حامية عسقلان على مملكة بيت المقدس إلا أن الصراع الإسلامي- الصليبي لم يوجه إلى الجبهة الجنوبية فعليا إلا بعد معركة حارم سنة 559هـ/1164م،حيث تمكن نور الدين محمود بعد انتصاره في هذه المعركة على القوة الصليبية البيزنطية المتحالفة من إحكام سيطرته على الجبهة الشمالية خاصة بعد أن ضم دمشق سنة 549هـ/1154م فخلق بذلك جبهة شمالية يمكن من خلالها الضغط العسكري على المملكة اللاتينية ، و من ثمة نقل الصراع إلى الجبهة الجنوبية التي لم تدرك القوة الإسلامية أهميتها مبكرا و مدى تأثيرها في قلب موازين القوى لصالح الطرف الإسلامي.

بعد أن تسنى لنور الدين توحيد الجبهة الشمالية و ضم دمشق التي ظلت لزمن طويل تمثل حاجزا بينه و بين مهاجمة المملكة اللاتينية بدأ في التفكير في ضم مصر إلى دولته ليتحقق له تطويق المملكة اللاتينية برا و فتح المجال لإيجاد أسطول لمحاصرتها بحرا،و كذلك حتى لا تقع في أيدي الصليبيين الذين قد سعوا منذ عهد مبكر (بلدوين الأول) لتوجيه حملات صليبية بغرض السيطرة على مصر.

لم تكن غاية نور الدين من حملاته العسكرية التي وجهها إلى مملكة بيت المقدس إسقاطها أو الاجتماع معها في معركة فاصلة ،كما حدث في حملاته على مصر و التي انتهت بسقوط الخلافة الفاطمية و ضمها إلى أملاك الدولة النورية ،بل كان هدف نور الدين من ذلك أن يستمر الطريق مفتوحا على مصر خاصة و أن الصليبيين قد أكثروا من تشييد القلاع في إقليم المنخفضات الشرقية لقطع الاتصال بين بلاد الشام و مصر و ذلك لإدراكهم أن أي علاقة وحدة بينهما كفيلة بإنهاء الوجود الصليبي في الجبهة الجنوبية.

أمام رغبة الصليبيين في استدراك الموقف و إيقاف المد الإسلامي الذي أحاط بهم من الطرفين الشمالي و الجنوبي كان الوضع مثالي بالنسبة لصلاح الدين الذي أدرك أنه صار لزاما عليه مواصلة السياسة التي بدأها عماد

الدين زنكي و جرى عليها نور الدين و التي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين و اقتلاع الصليبيين من الجبهة الجنوبية خاصة و بلاد الشام عامة.

و قد توجت جهود صلاح الدين و حملاته على بيت المقدس و الجليل و حتى المنخفضات الشرقية و التي لم تزد عن كونها مناوشات بين الطرفين الإسلامي و الصليبي بمعركة تصادمية فاصلة و مكشوفة "معركة حطين" 583هـ/1187م كان ينتظرها الطرفان لحسم الصراع الذي طال أمده و لكي يقضي فيها جيش مداني على الآخر.

و من النتائج المتوصل إليها كذلك أن معركة حطين تمثلت فيها ظروف المعركة المكشوفة لأنها حققت انحسار الوجود الصليبي في الجبهة الجنوبية و استرداد الكثير من المناطق و المعاقل و الحصون ،على عكس المعارك السابقة التي نشبت بين المسلمين و الصليبيين خلال زمن الصراع الإسلامي- الصليبي (زمن الدراسة) منها (معركة حارم 559هـ/1164م ،تل الجزر 573هـ/1177م) و التي لم ترق إلى مصاف المعارك المكشوفة التي تكون نتائجها واضحة و تغير في المعالم الجغرافية للنفوذ لدى الطرفين .

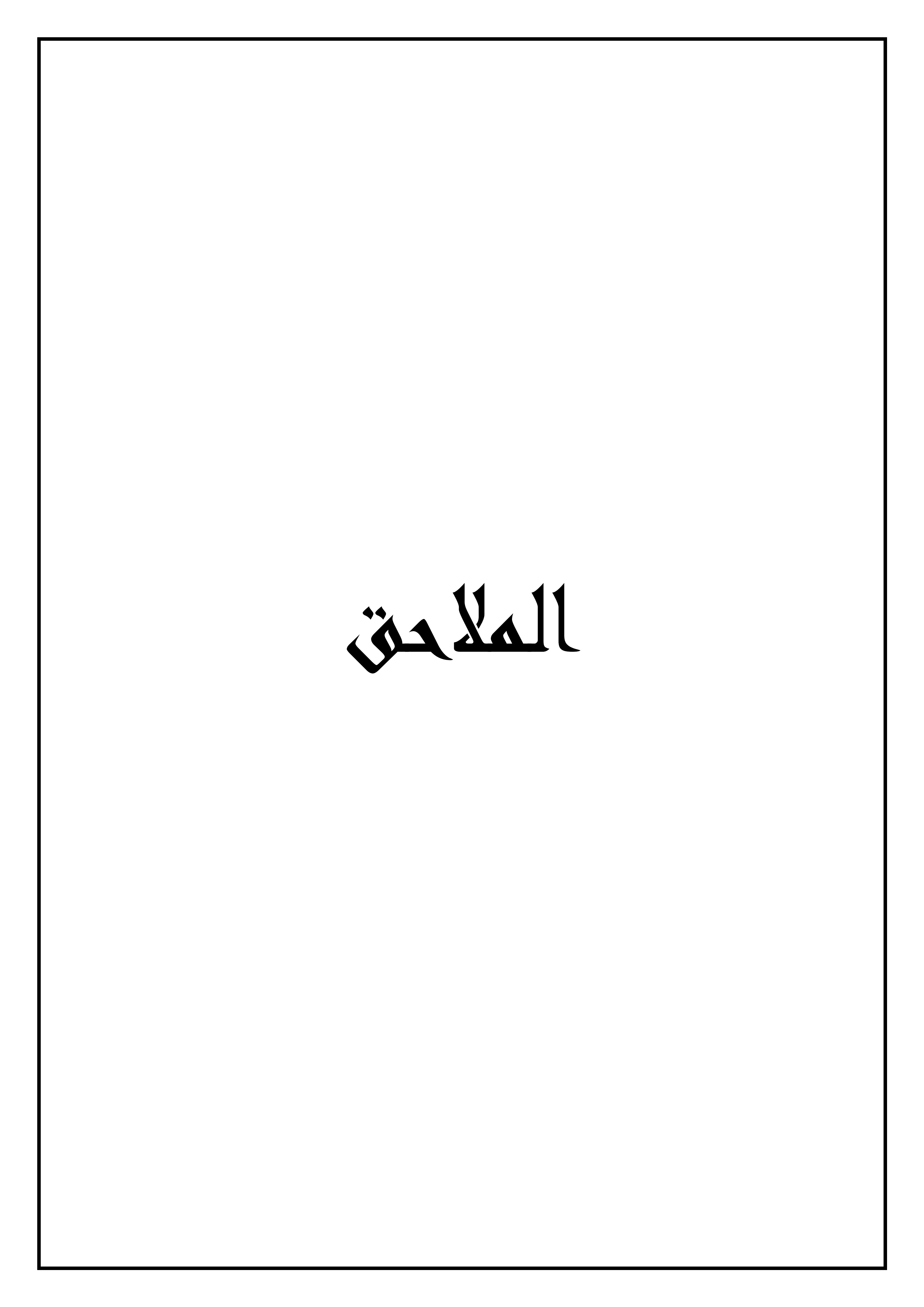
لقد كان موقع الجبهة الجنوبية في قلب العالم الإسلامي و نقص العنصر البشري في المملكة اللاتينية من أهم الدوافع التي اضطرت الصليبيين لتشييد القلاع و الحصون فقد أحاطت مملكة بيت المقدس نفسها بسلسلة من القلاع شيدت في مناطق إستراتيجية هامة بالقرب من المسالك و المنافذ و الدروب المؤدية إلى قلب فلسطين.

و قد كانت أكثر المناطق خطورة على الجبهة ، في الجنوب (مصر) و في الشرق (دمشق) ما جعل الصليبيين يلجأون إلى وضع منظومة دفاعية لسد الثغرات حيث امتدت القلاع في خط حقيقي من الحصون من الشمال إلى الجنوب من شقيف آرنون إلى قلاع المنخفضات الشرقية مرورا بكوكب الهوى و بيسان و صفد ،أما في الجنوب فقد قامت قلاع بيت جبرين و يبنى و تل الصافية و الداروم لحماية المناطق الحدودية للمملكة جهة الجنوب ،كما استخدمت في تحصيل الرسوم الجمركية على القوافل التجارية .

لقد كانت الغاية الأساسية للقلاع في المرحلة الأولى من الغزو الصليبي هي الهجوم على المراكز الإسلامية أولا ثم الدفاع في المرحلة الثانية حيث أن القلاع أسست أساسا لتحقيق أغراض هجومية بهدف الاحتلال ،و بعد التقهقر الصليبي صارت تؤدي مهاما دفاعية .

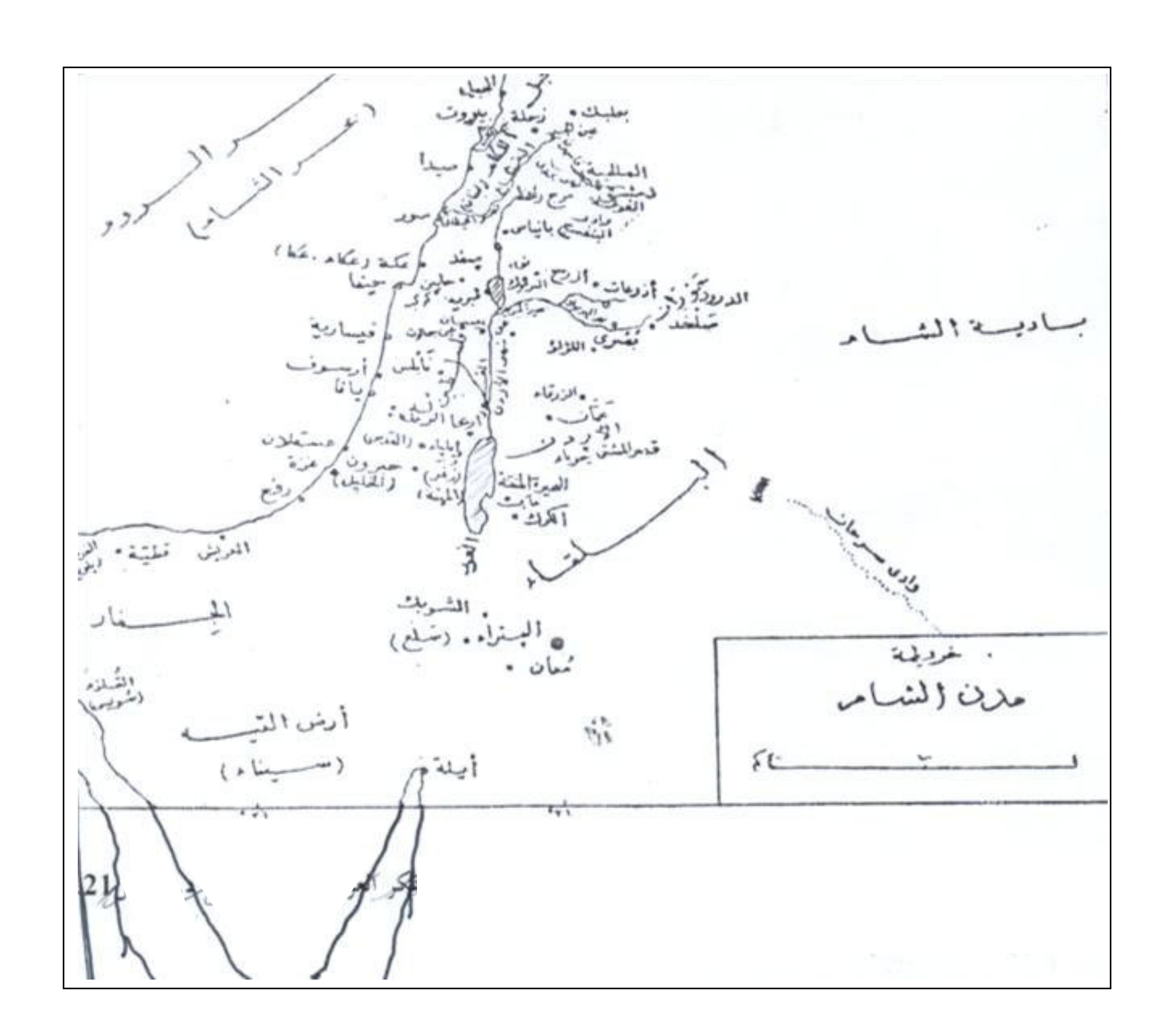
و بالرغم من اعتبار شبه جزيرة سيناء بوابة الطريق البري لمصر و المدخل الشرقي لها إلا أن عدم اهتمام المصريين

الكبير بتشييد القلاع و الحصون زمن العصور الوسطى عكس بلاد الشام قد جعل البلاد المصرية عرضة لأي حملة قادمة من الشرق ،و قد لاحظ صلاح الدين الأيوبي ذلك فعمد إلى تشييد العديد من الحصون في سيناء كما أقام قلعة للقاهرة لا تزال أسوارها شامخة تدل على براعته.



الملاحق

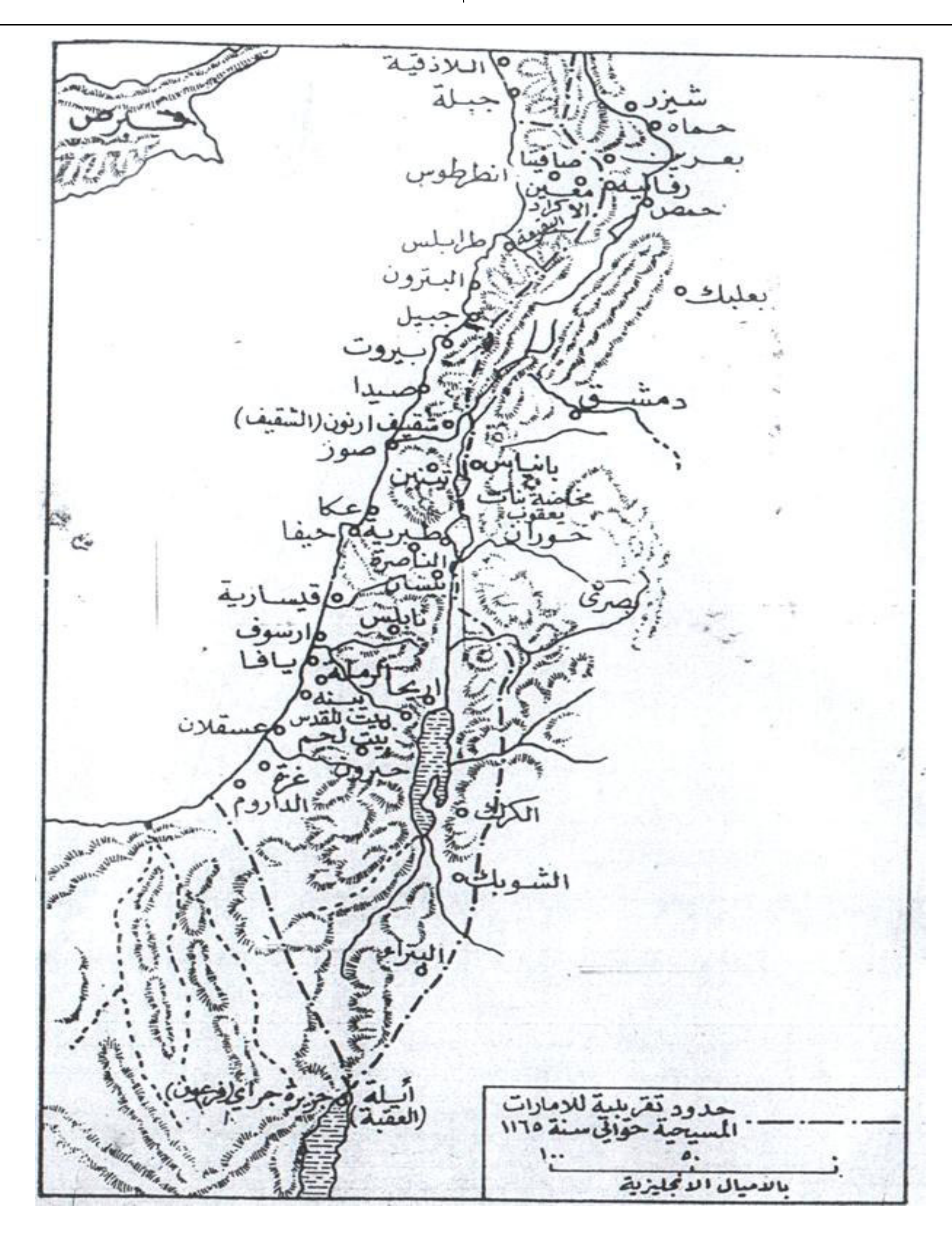
ملحق رقم (01)



الجبهة الجنوبية (بيت المقدس سيناء)

نقلا عن : عبد المنعم البنا، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، ط3، (د.م.ن)، (د.ت)، ص21.

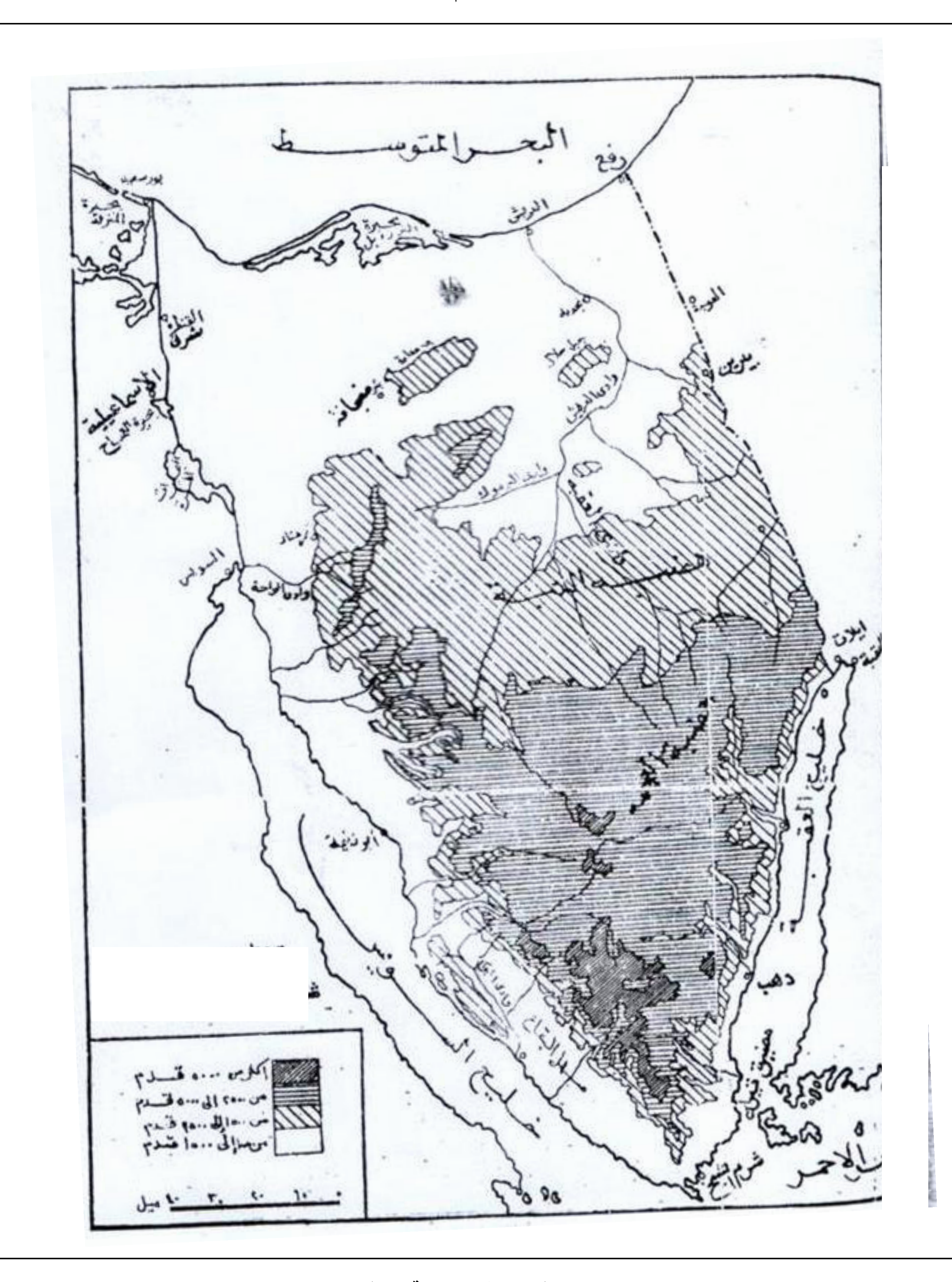
ملحق رقم (02)



جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

نقلا عن : ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص241.

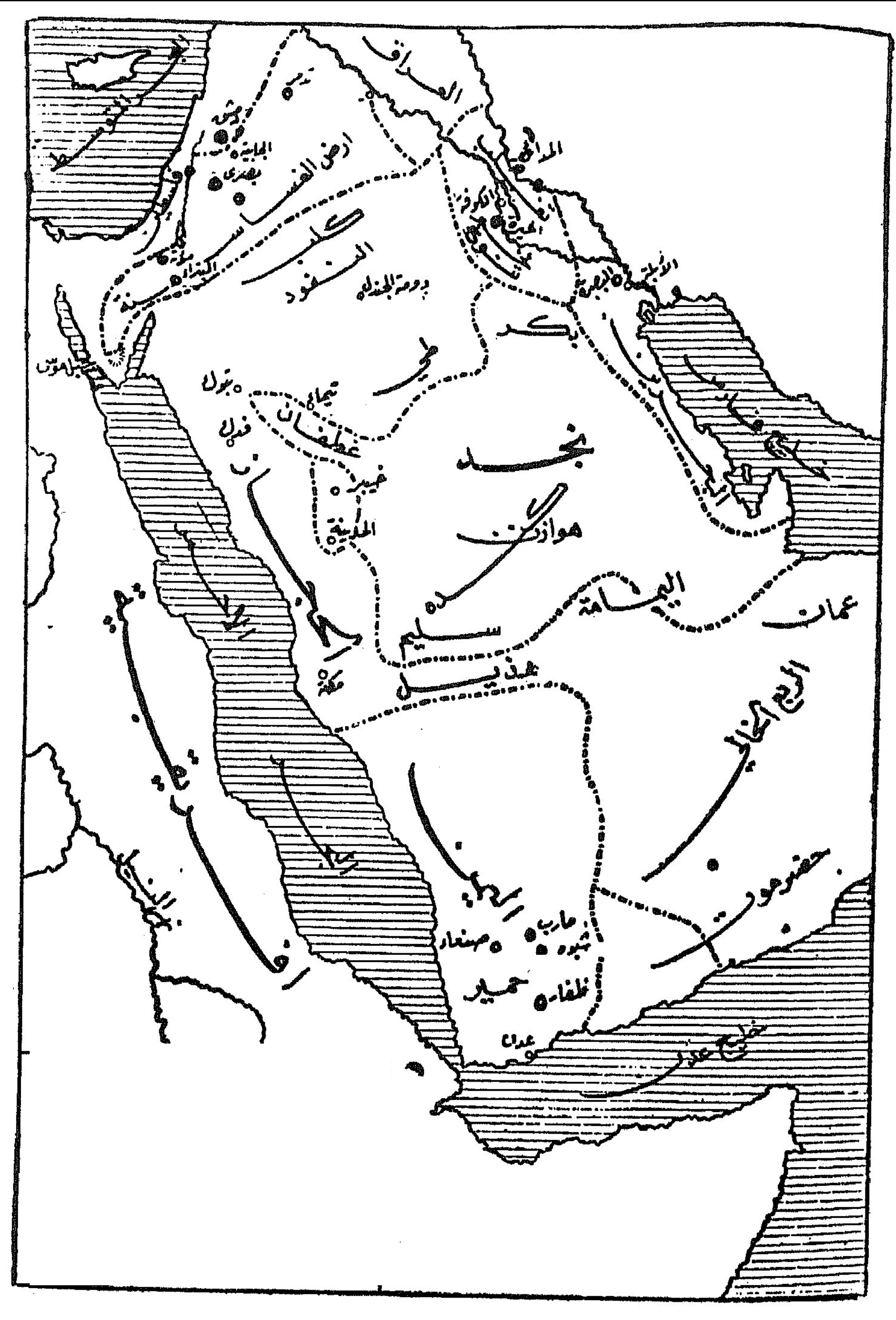
ملحق رقم (03)



تضاريس شبه جزيرة سيناء

نقلا عن : أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء ص263.

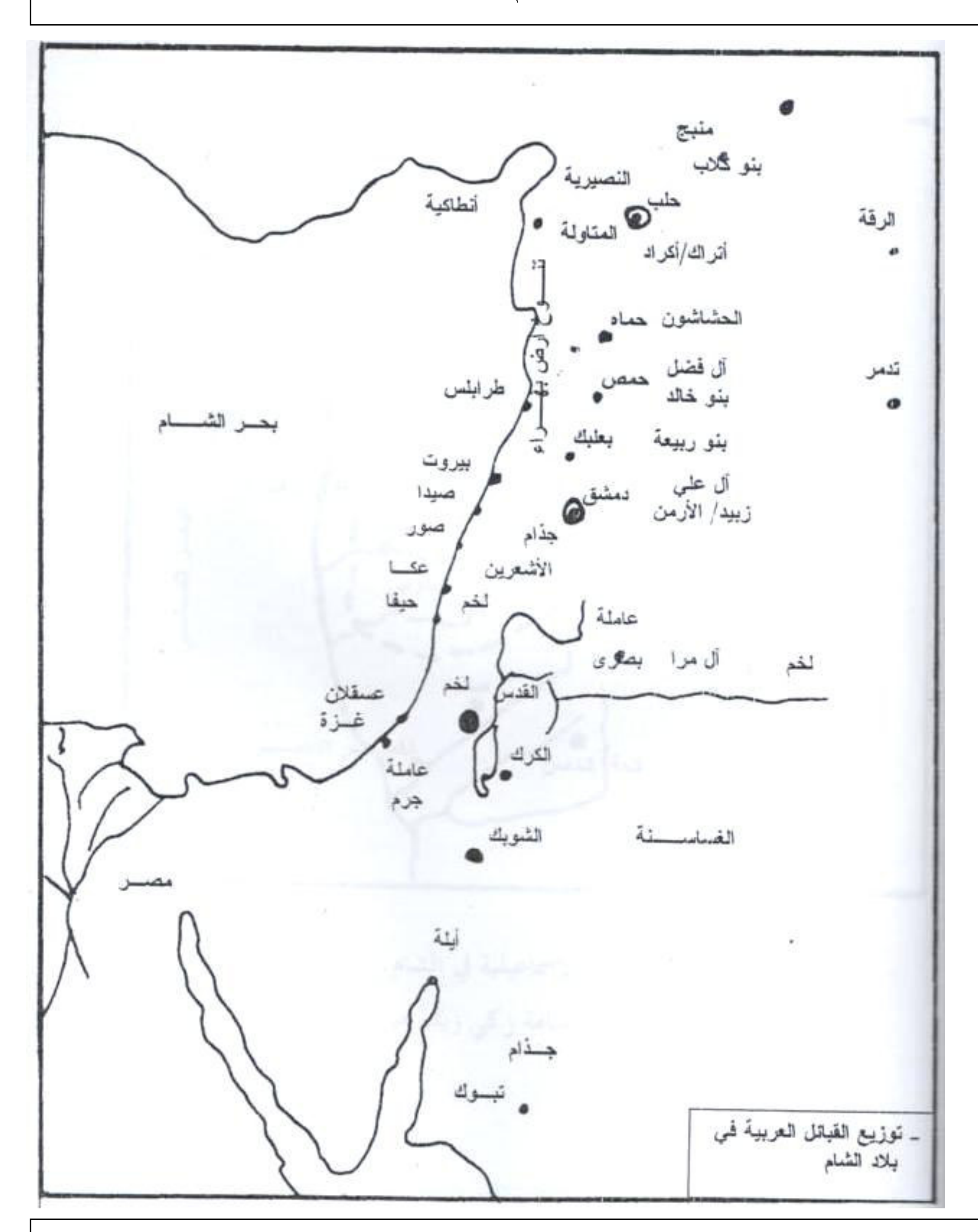
ملحق رقم (04)



الدول العربية الشمالية قبل الإسلام

نقلا عن : مصطفى أبو ضيف أحمد، دراسات في تاريخ الدولة العربية، ص 89.

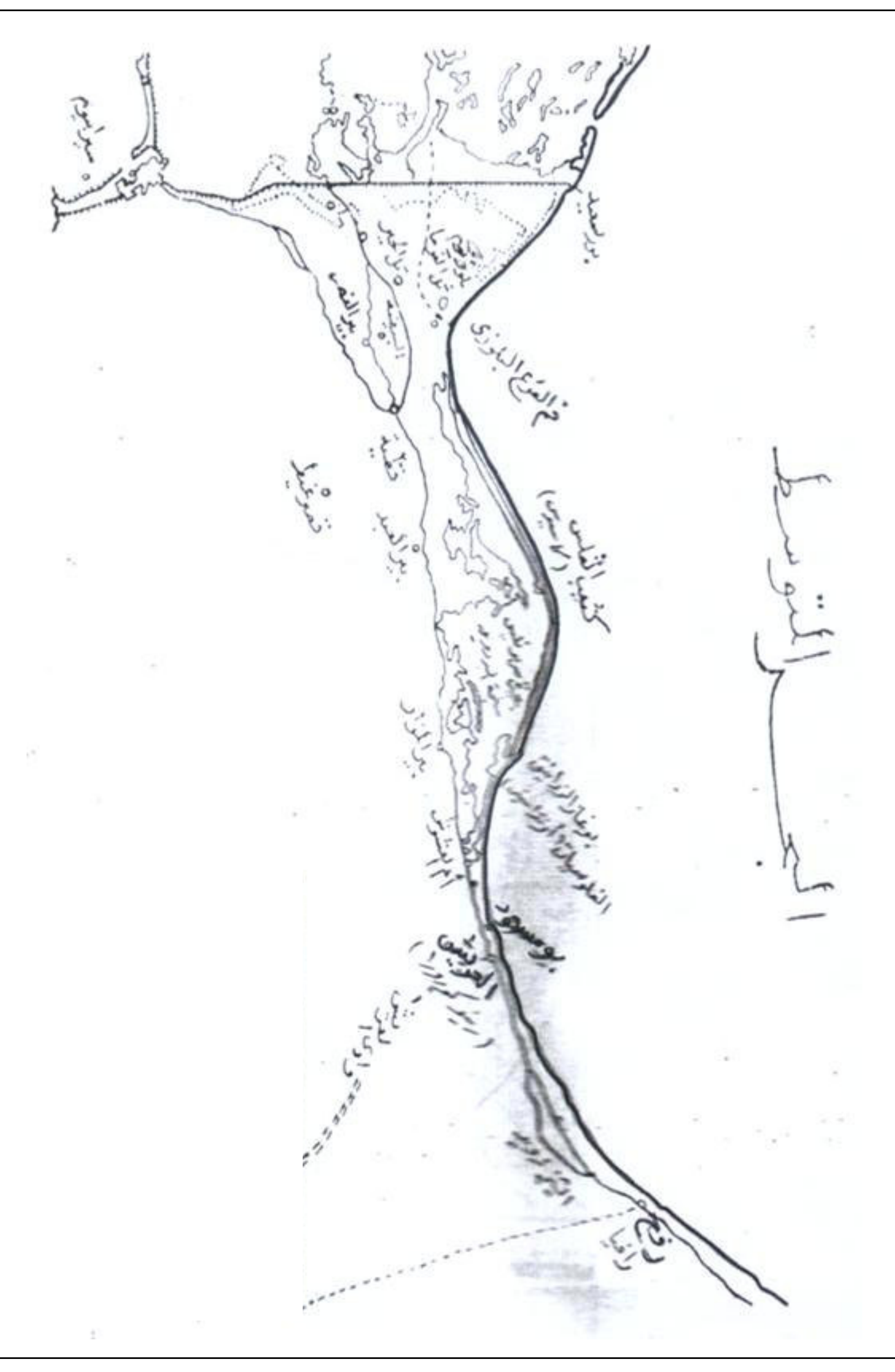
ملحق رقم (05)



توزيع القبائل العربية في بلاد الشام

نقلا عن : عبد المنعم البنا، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، ط3، (د.م.ن)، (د.ت)، ص21.

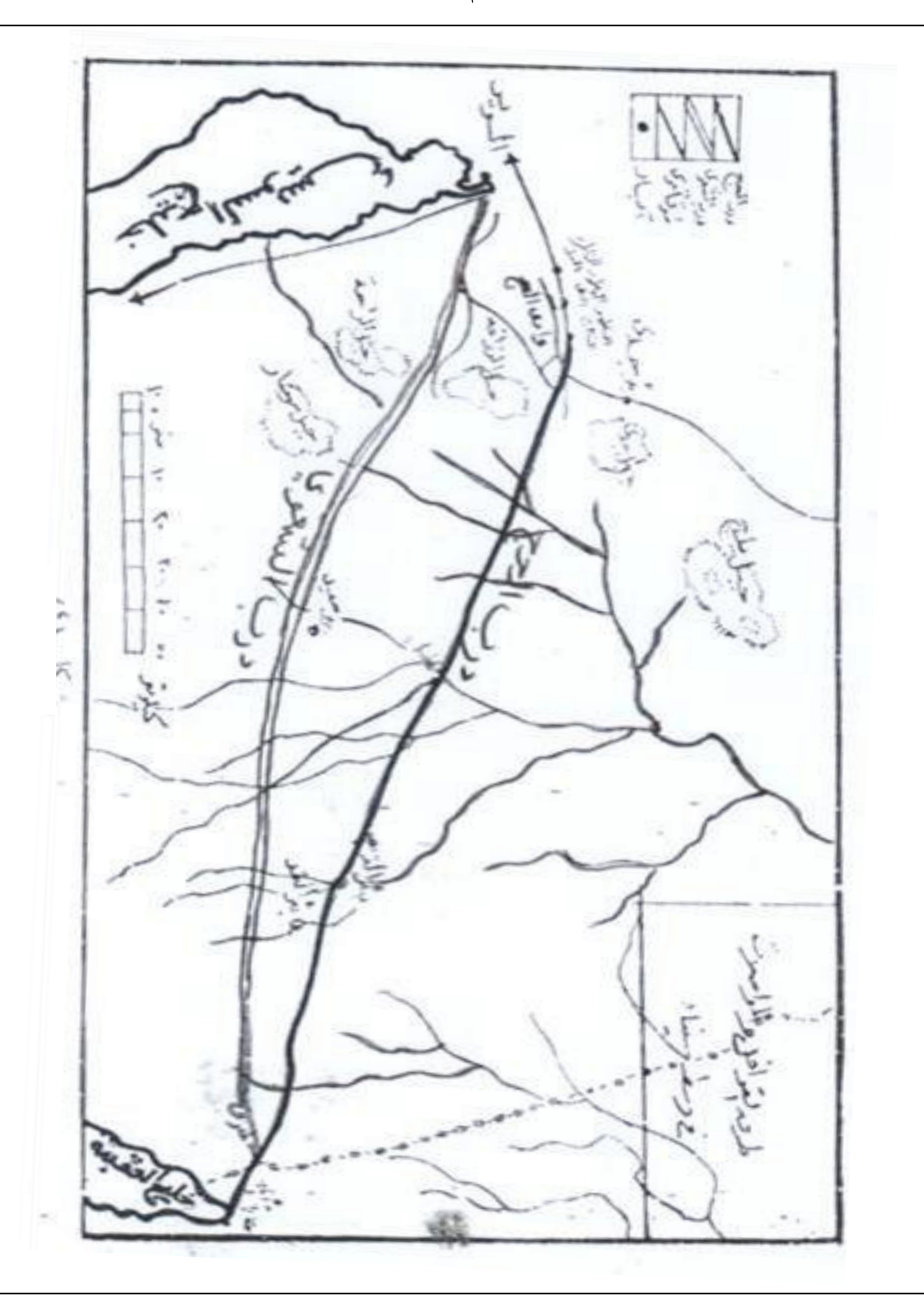
ملحق رقم (06)



الطريق الساحلي (الحربي) في شمال سيناء

نقلا عن : أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص265.

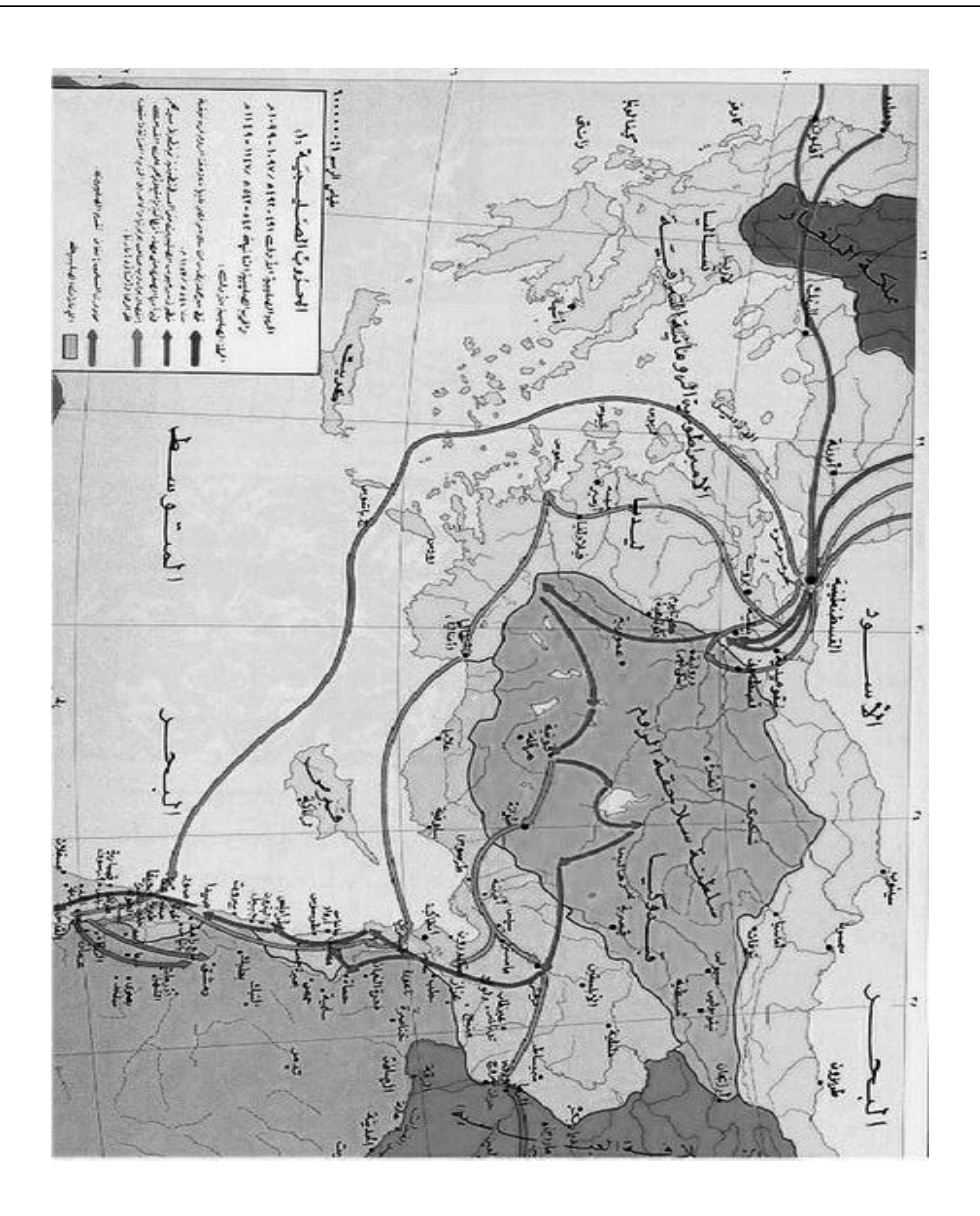
ملحق رقم (07)



طرق القوافل و المواصلات في وسط سيناء

نقلا عن : أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء ص266.

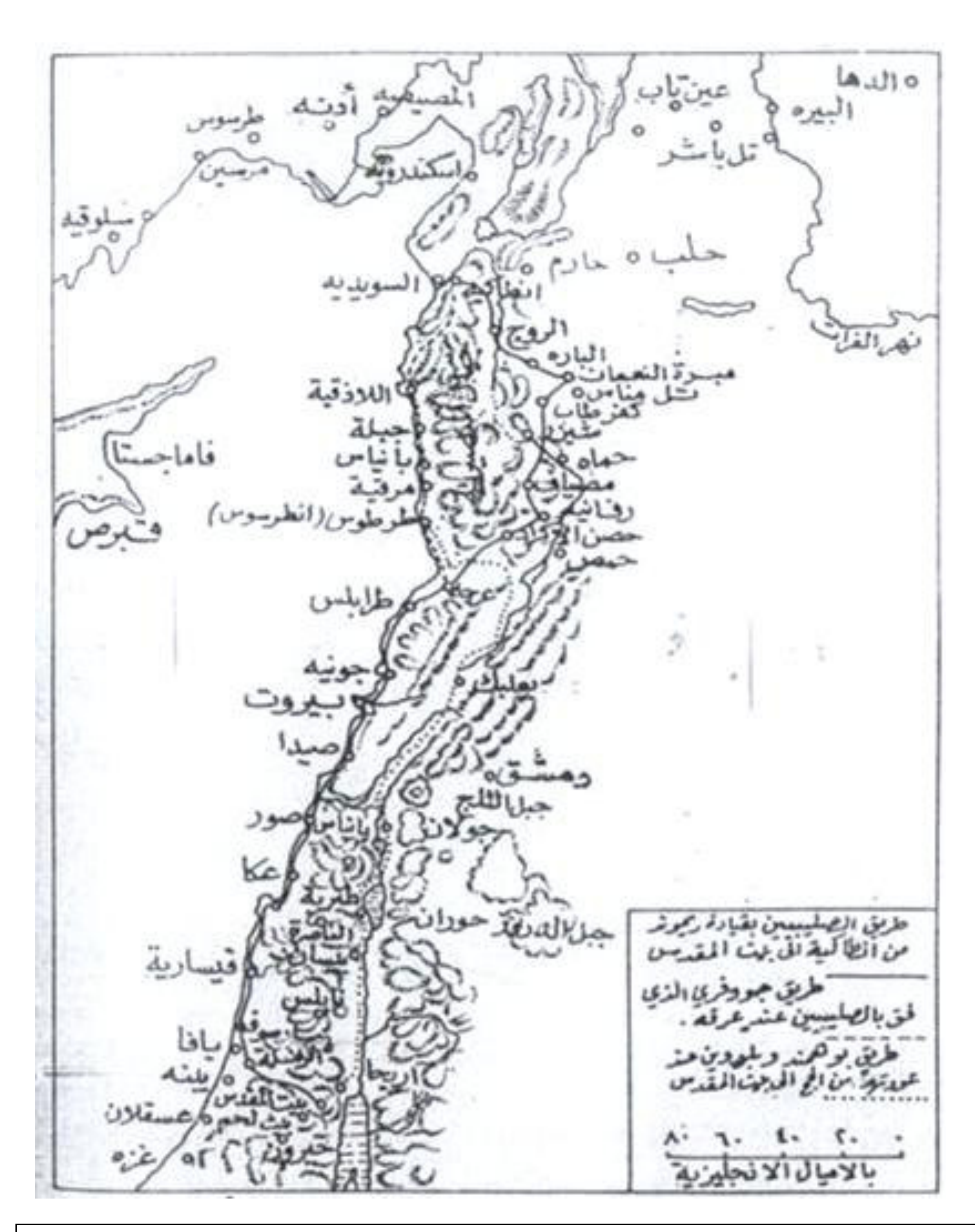
ملحق رقم (08)



الحملات الصليبية في بلاد الشام

نقلا عن :حسين مؤنس،أطلس تاريخ الإسلام،الزهراء للإعلام العربي،ط1،القاهرة،1987،ص262.

ملحق رقم (09)



بلاد الشام زمن الحملة الصليبية الأولى

نقلا عن : رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص227.

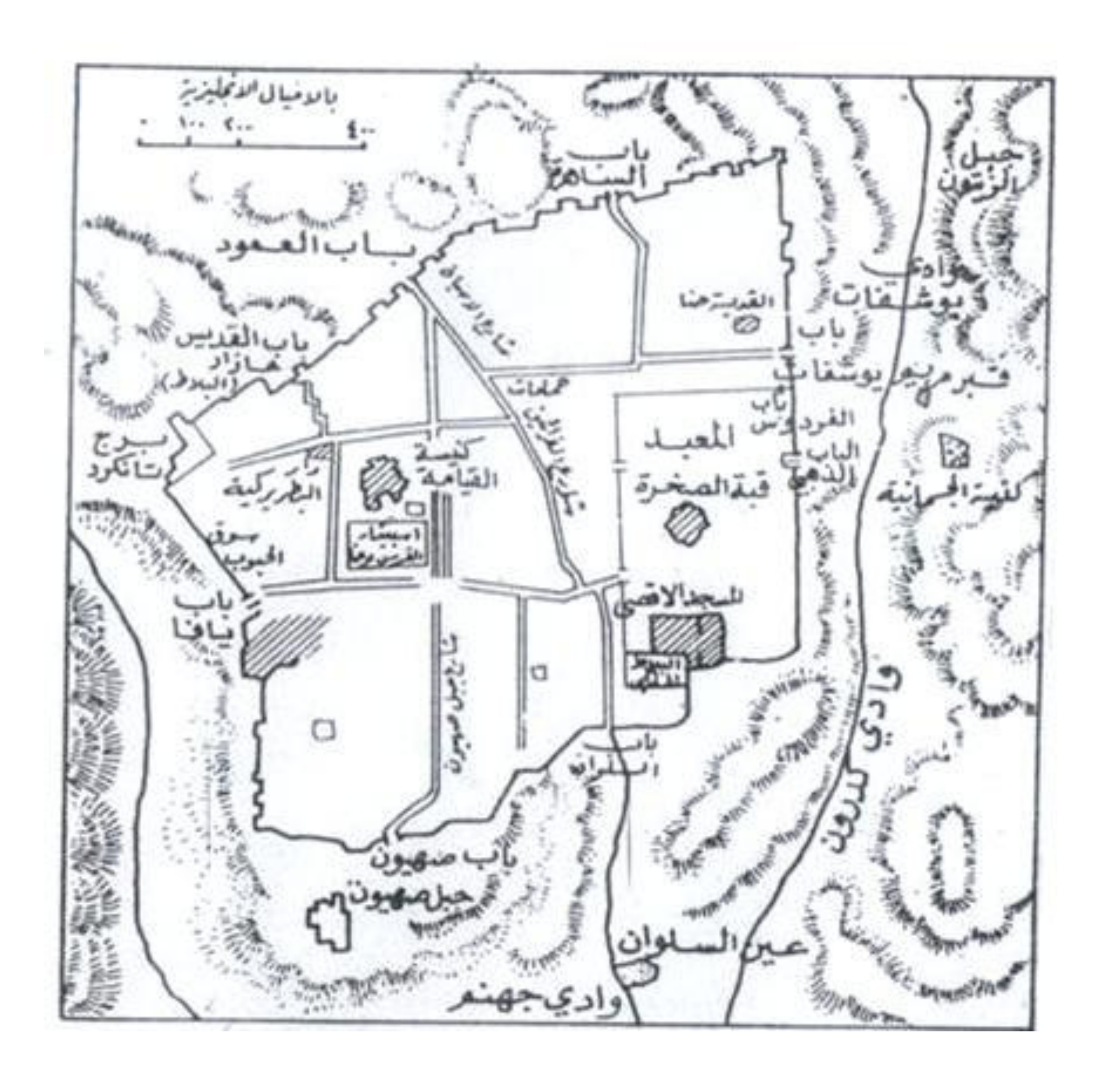
ملحق رقم (10)



مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

نقلا عن : رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص305.

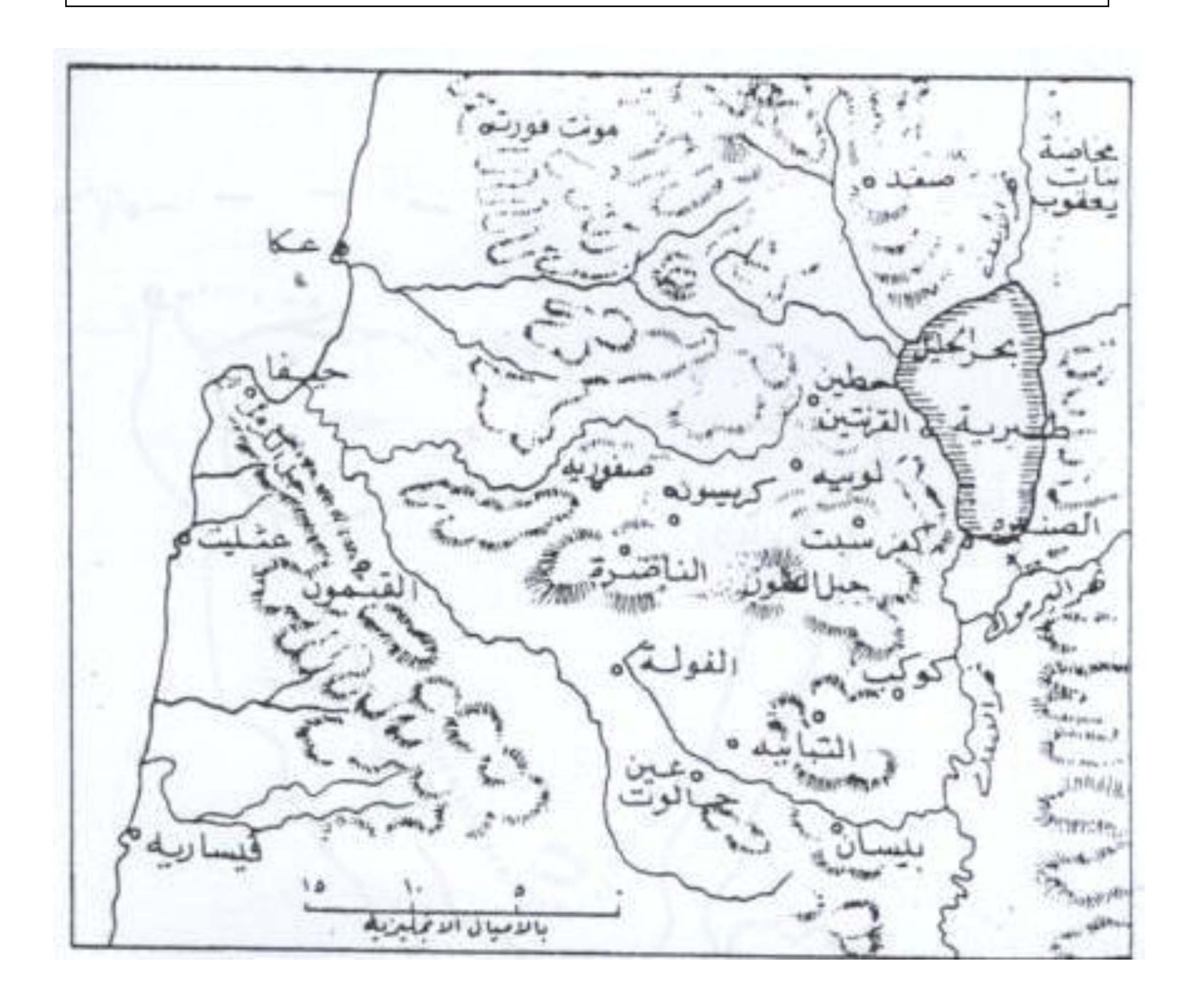
ملحق رقم (11)



بيت المقدس زمن ملوك اللاتين

نقلا عن : رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص481.

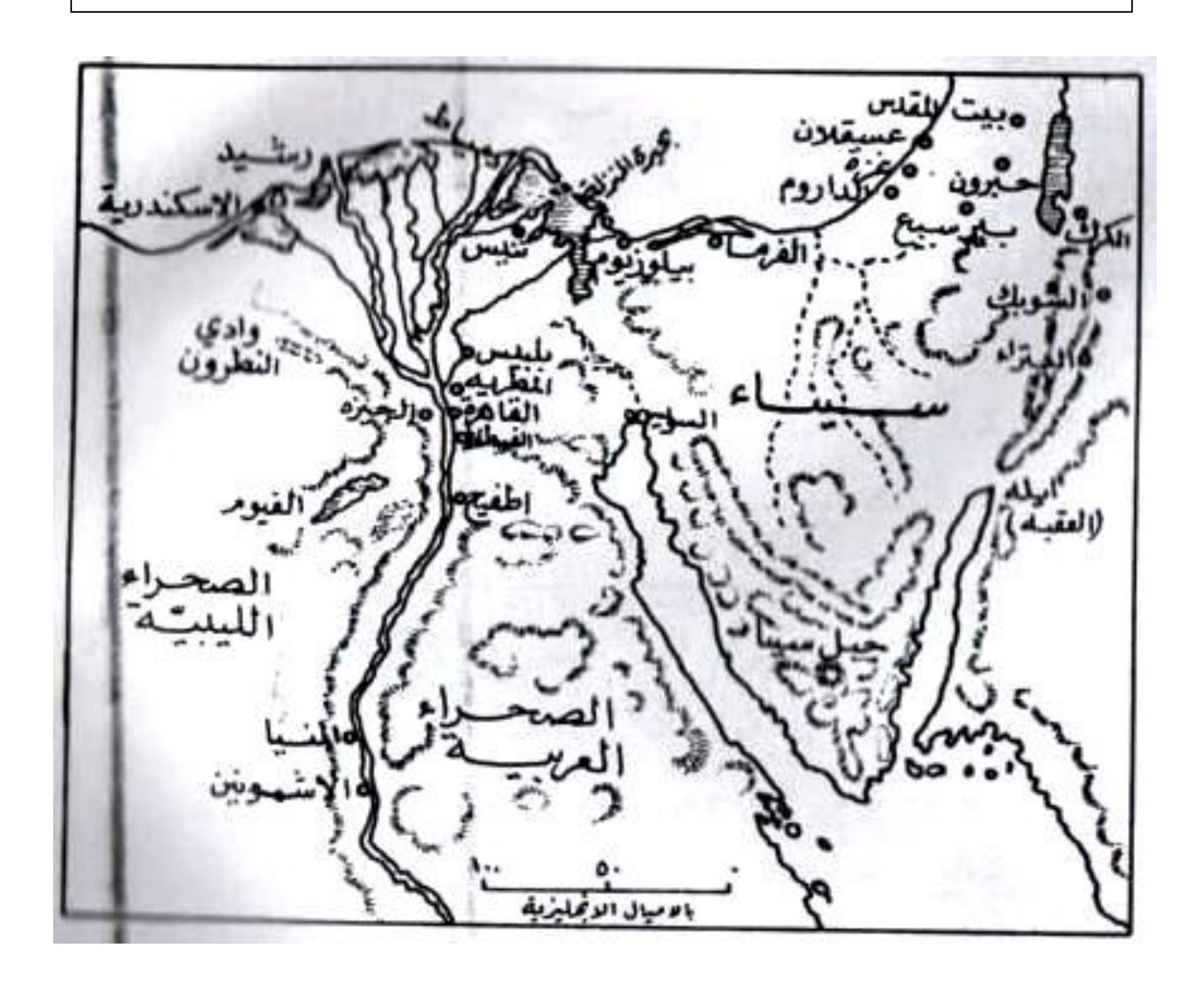
ملحق رقم (12)



إقليم الجليل

نقلا عن : رنسيمان، الحروب الصليبية، ج2، ص21.

ملحق رقم (13)



مصر في القرن الثاني عشر

نقلا عن : ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص593.

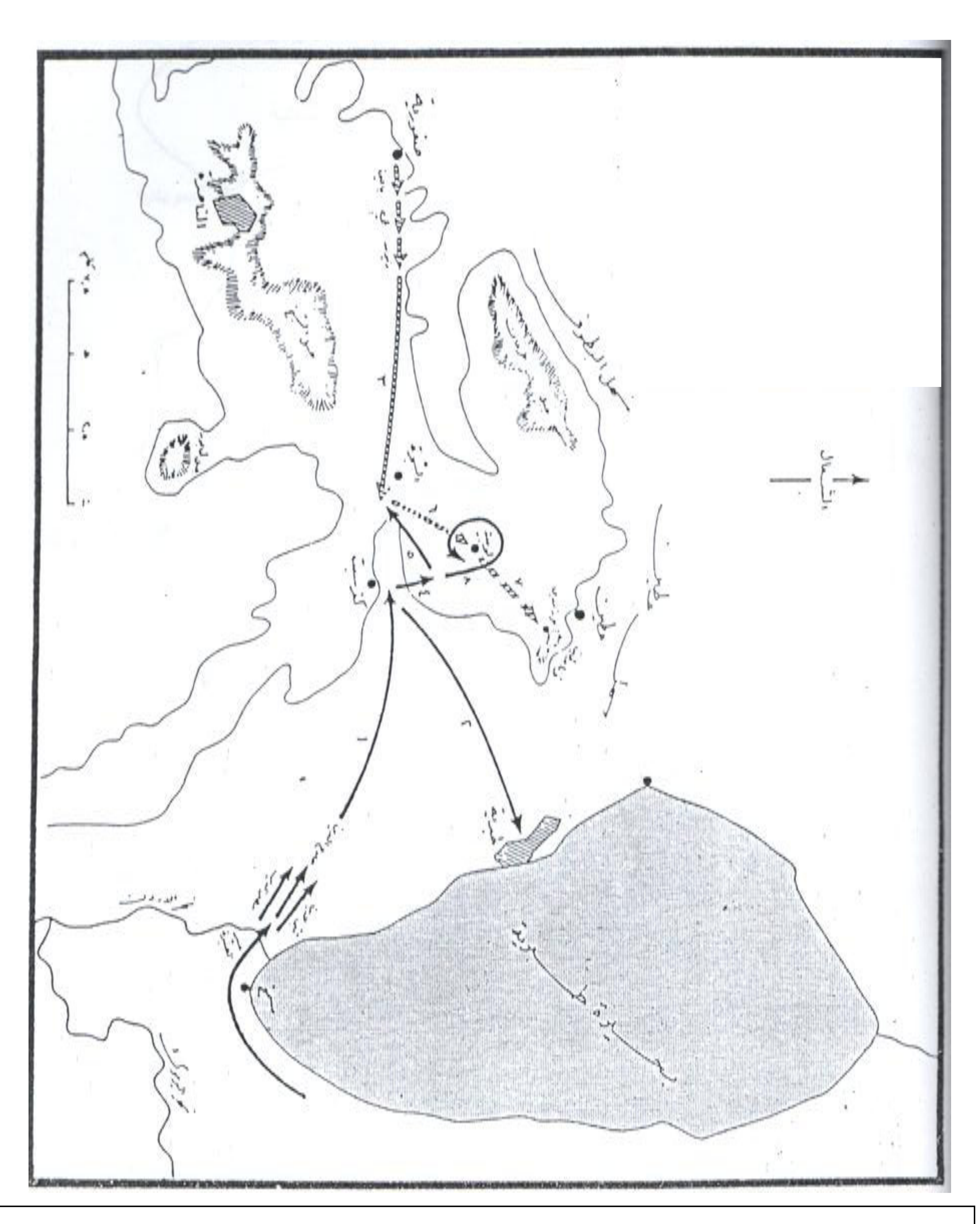
ملحق رقم (14)



موقع معركة حطين

نقلا عن : السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص83.

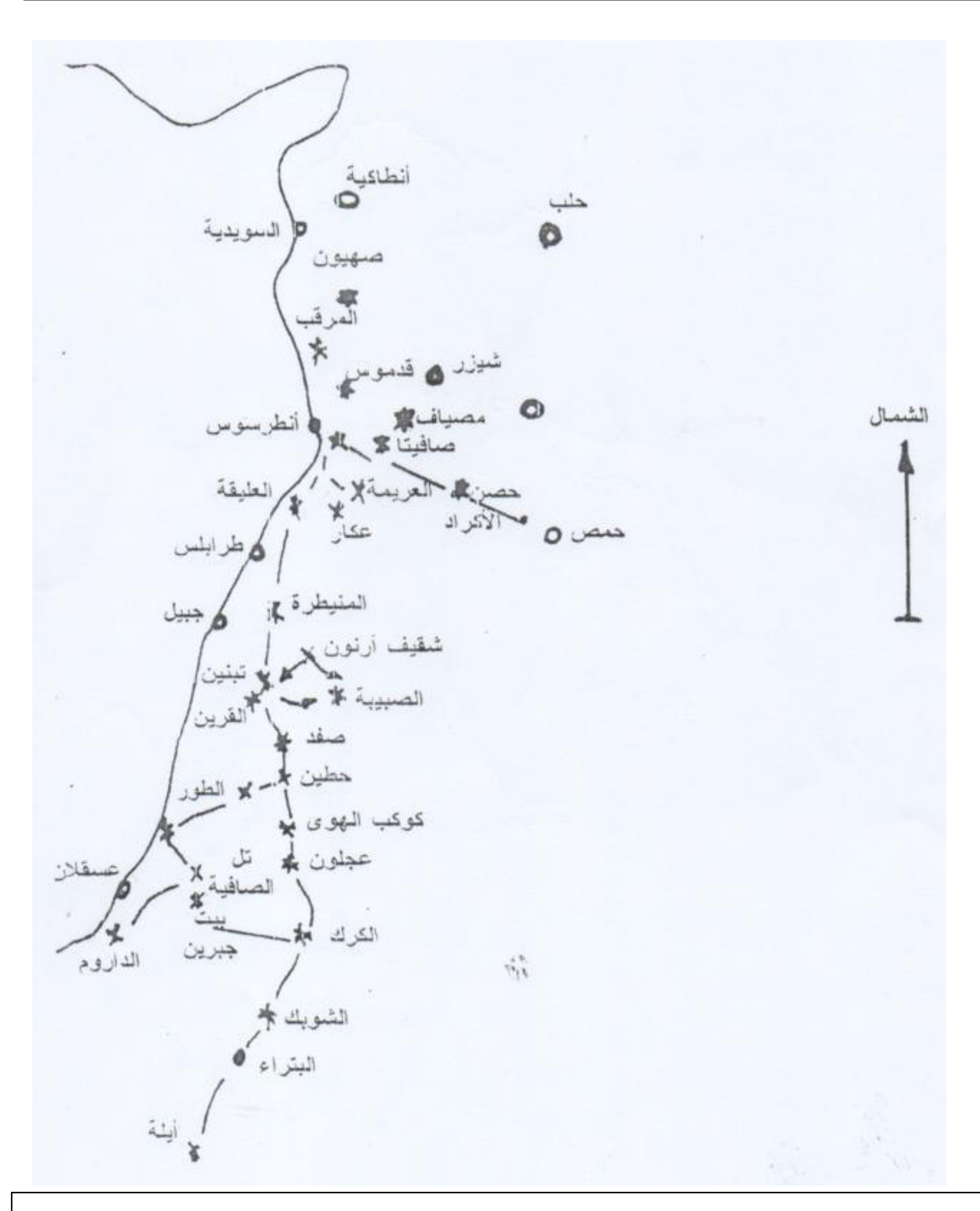
ملحق رقم (15)



معركة حطين

نقلا عن : كمال بن مارس، المرجع السابق، ص293.

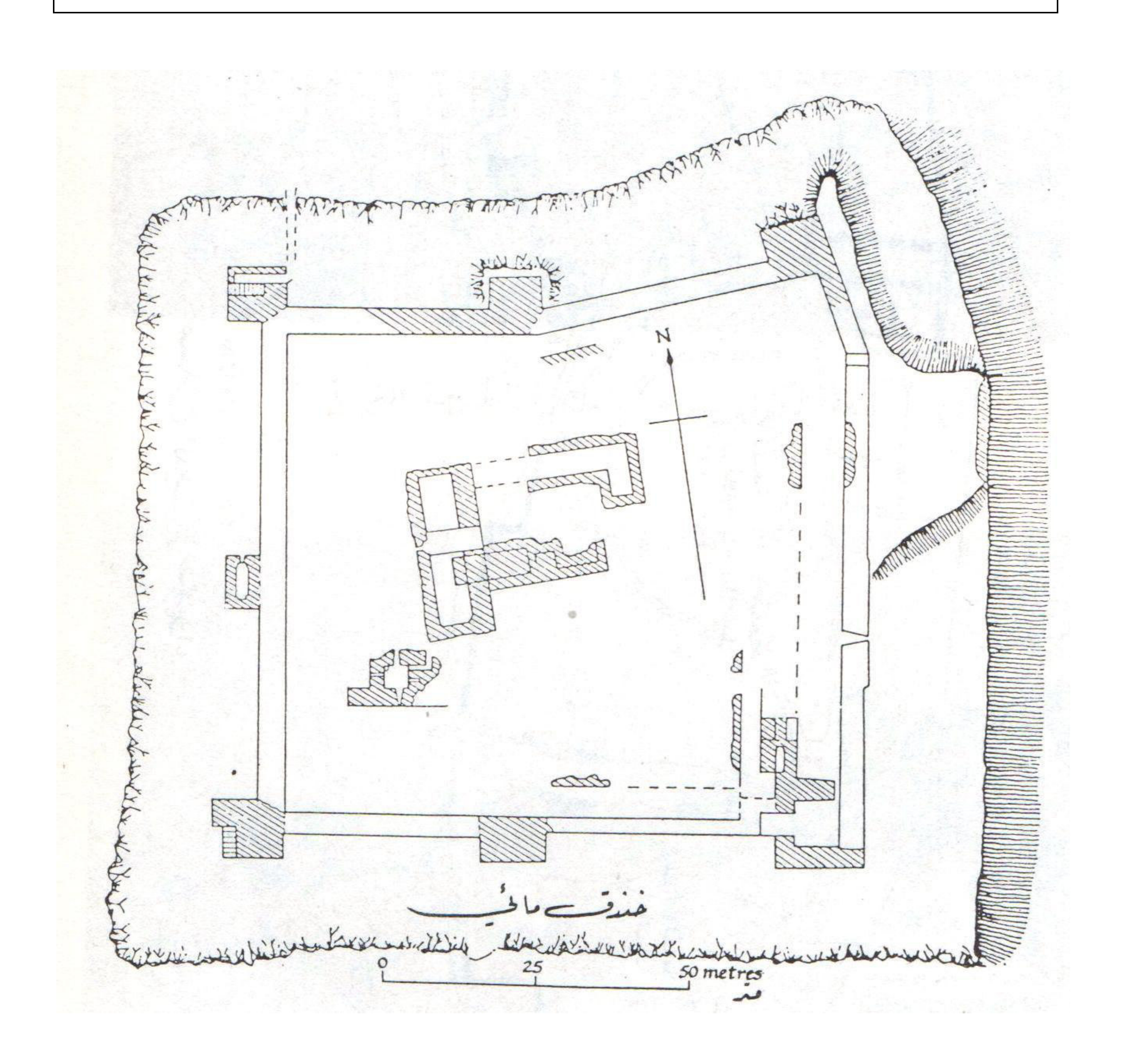
ملحق رقم (16)



القلاع الصليبية في بلاد الشام

نقلا عن : كمال بن مارس، المرجع السابق، ص230-231.

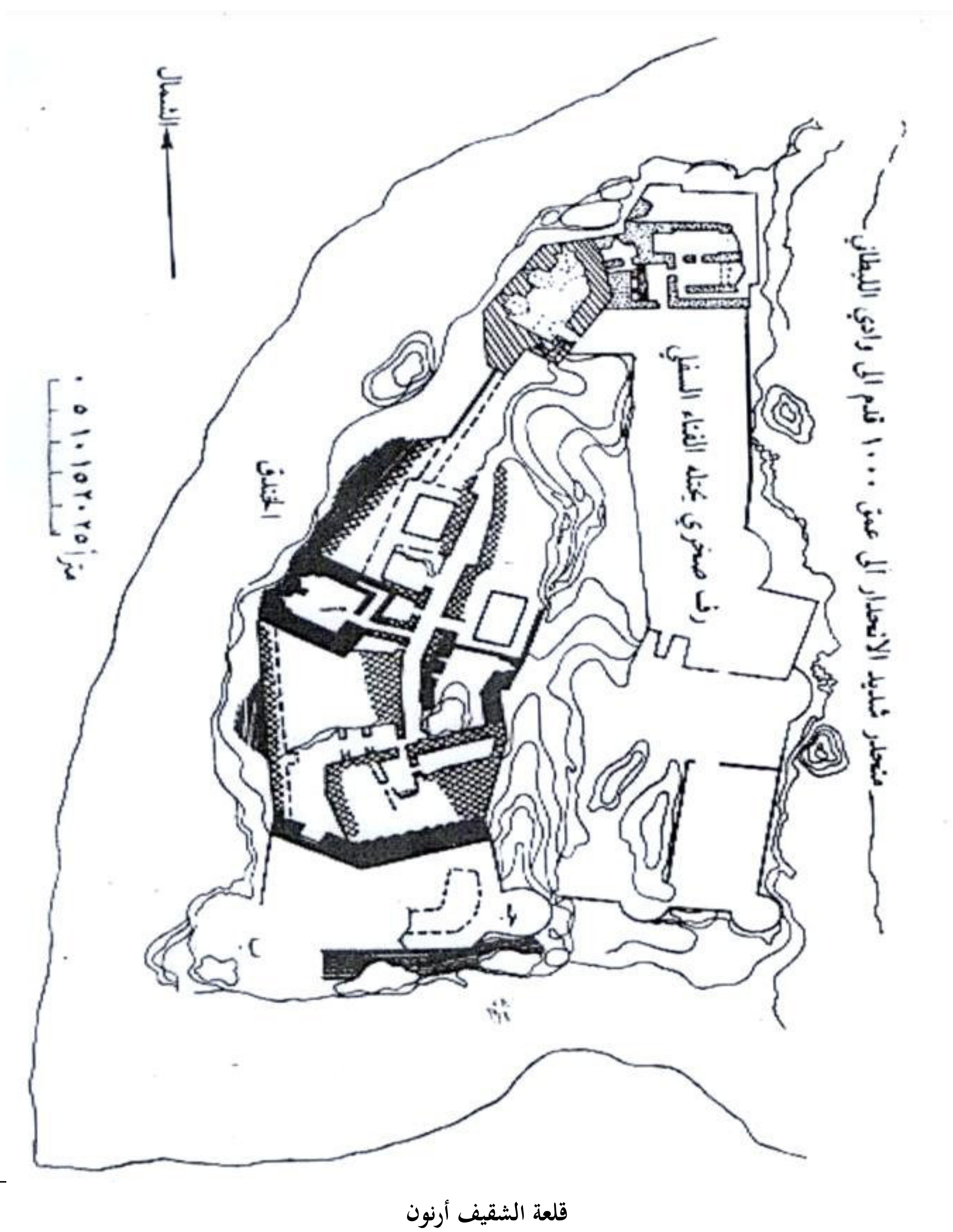
ملحق رقم (17)



قلعة كوكب الهوى

نقلا عن : سميل، فن الحرب، ص335.

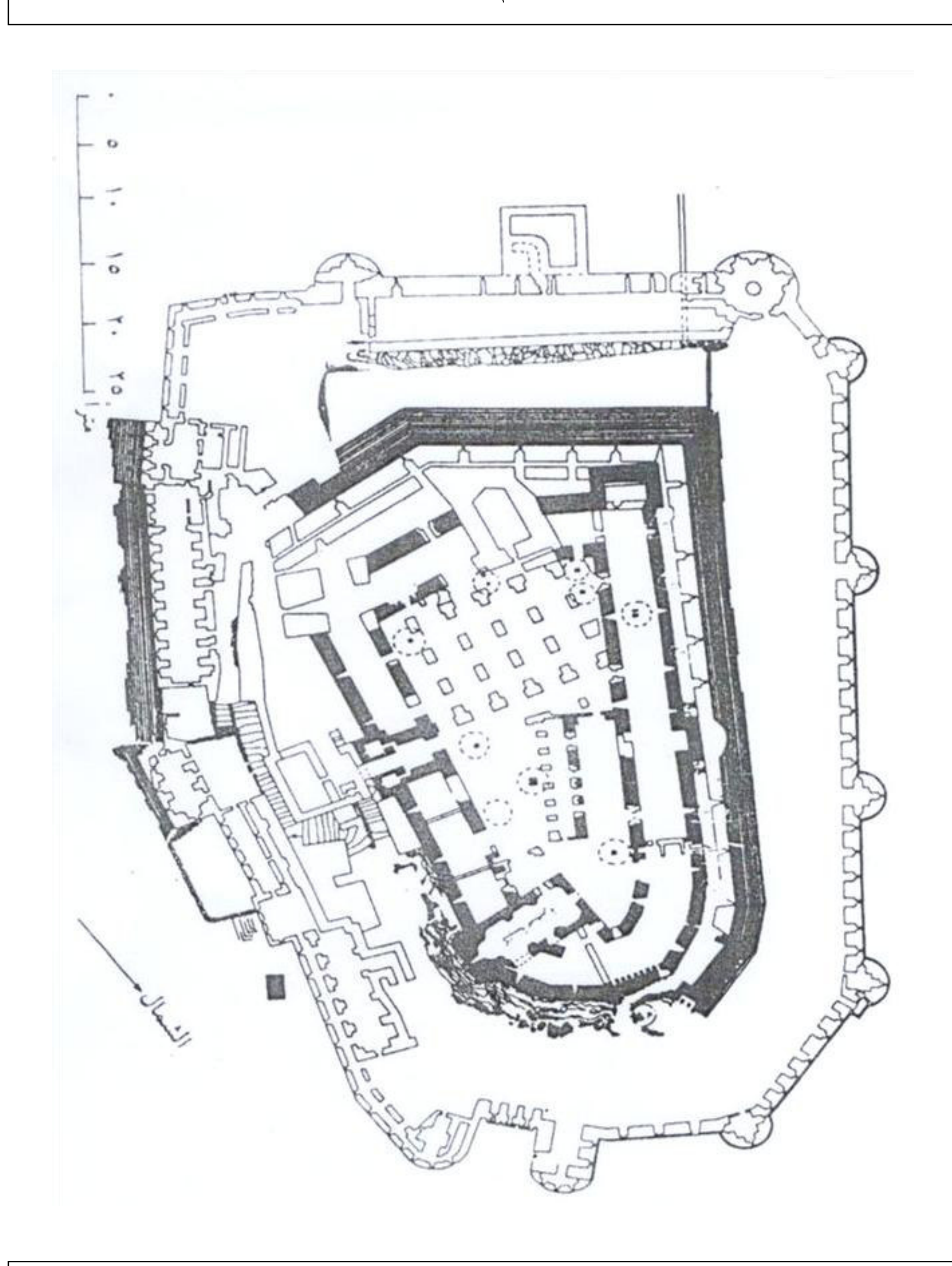
ملحق رقم (18)



قلعة الشقيف أرنون

نقلا عن : سميل، فن الحرب عند الصليبيين، ص352.

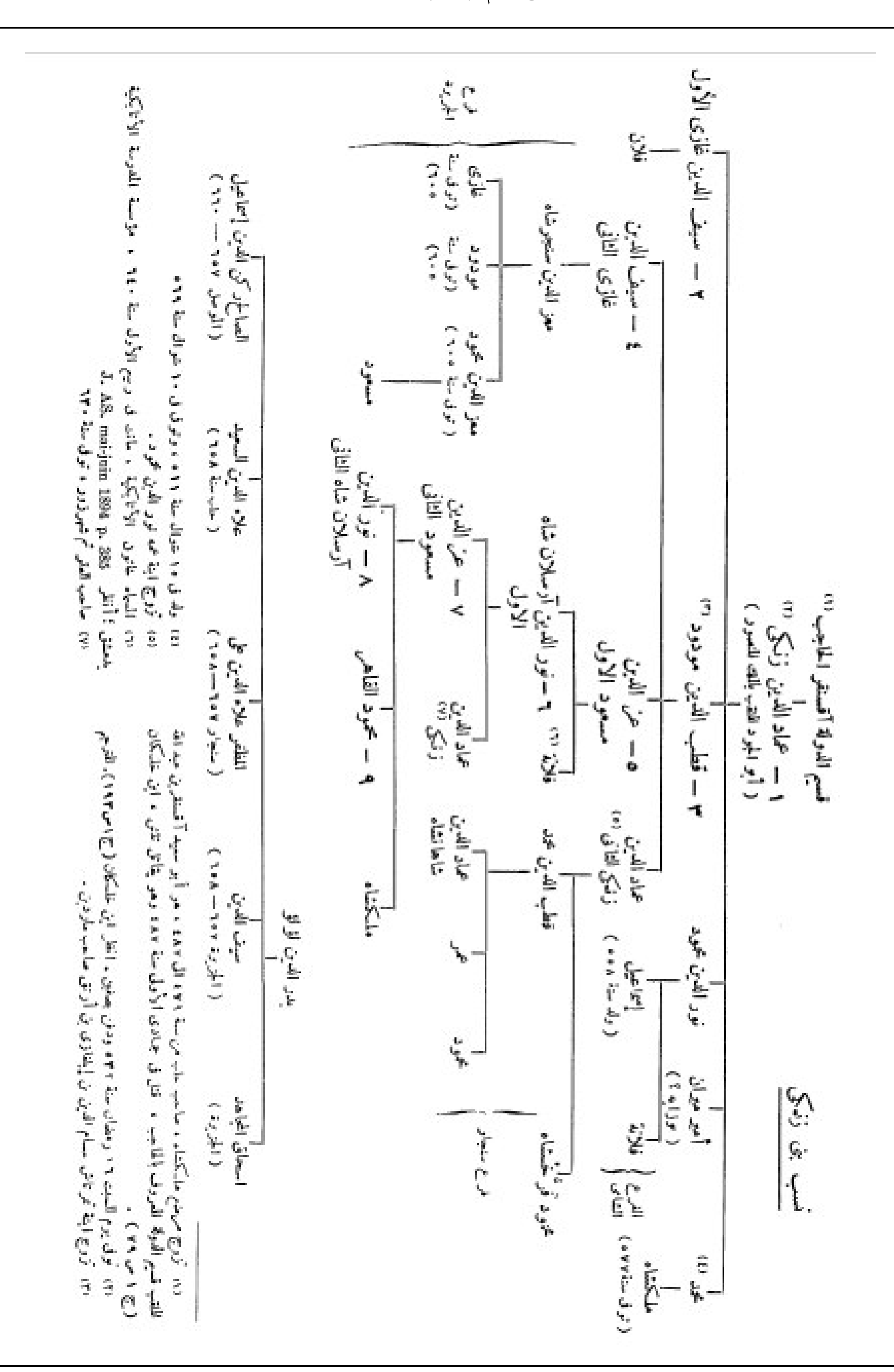
ملحق رقم (19)



قلعة الكرك

نقلا عن : سميل، المرجع السابق، ص351.

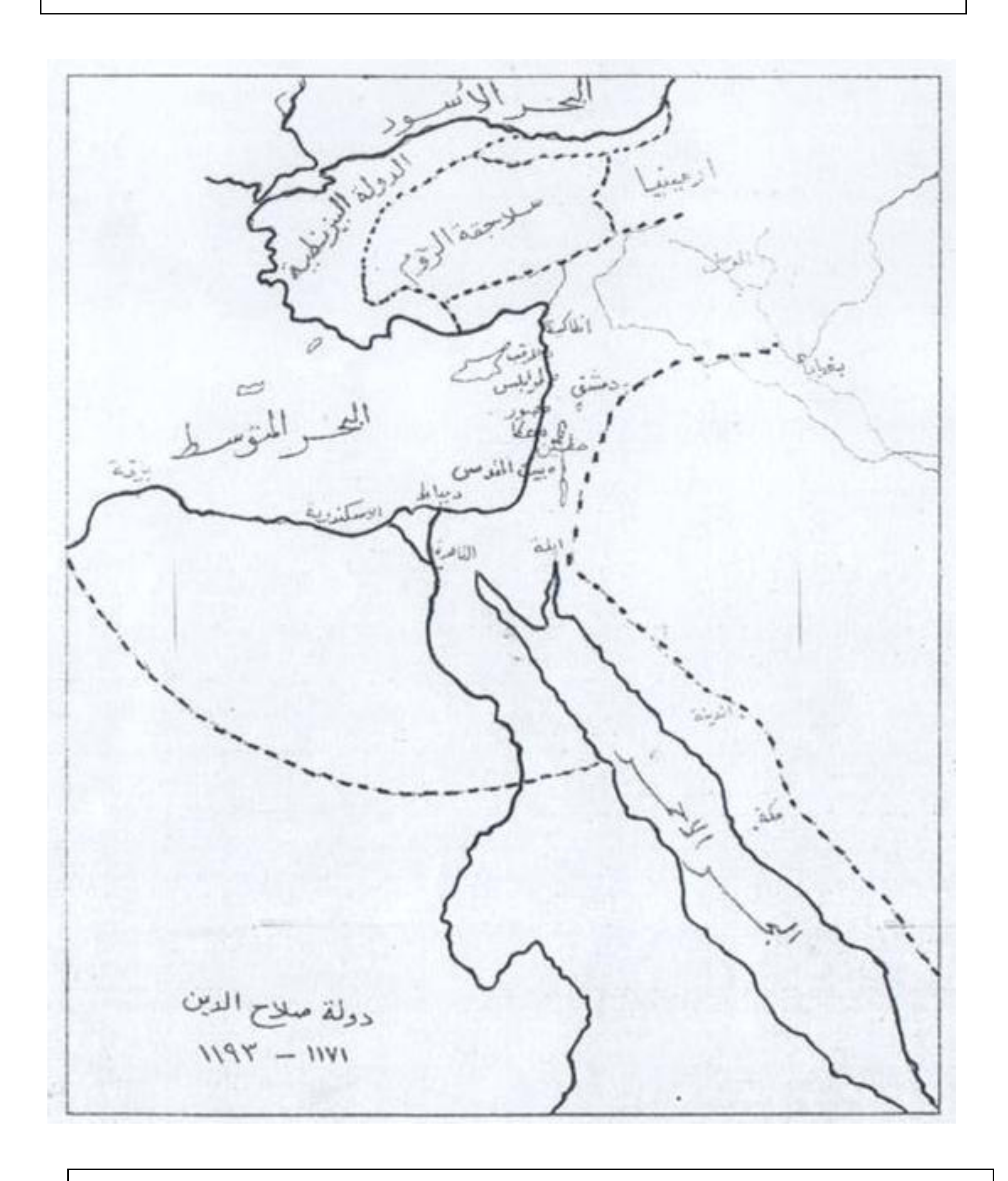
ملحق رقم (20)



شجرة العائلة الزنكية

نقلا عن: زامباور، معجم الانساب و الأسرات الحاكمة، أخرجه : زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مكتبة جامعة فؤاد الأول، القاهر، 1951، ص333.

ملحق رقم (21)



دولة صلاح الدين

نقلا عن: السيد الباز العريني، مرجع سابق، ص281.



الفهارس العامة

فهرس الموضوعات

-أ -

-ب -

–ت –

ـثـ

ـجـ

ـحـ

ـدـ

ـرـ

ـف ـ

ـق ـ

- ن -

- هـ -

- و -

ـي –

ـأ ـ

ـب –

ـت ـ

– ث –

– ج –

-ح-

-خ-

-س -

-ش -

-ص -

–غ –

–ف –

ـق –

ـك –

ـن –

قائمة المصادر
والمراجع

1/ قائمة المصادر العربية :

1- ابن الأثير،عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت: 630هـ / 1232م)،الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق:عبد القادر أحمد طليمات،دار الكتب الحديثة،القاهرة ، 1963 .

2 ـــــــــ،الكامل في التاريخ ،الجزءان 9-10،مراجعة و تصحيح:محمد يوسف الدقاق،دار الكتب العلمية،ط4 ، بيروت،2003.

3- ابن أيبك الداوداري،أبي بكر بن عبد الله،(ت:732هـ/1331م)،كنز الدرر و جامع الغرر،ج6،تحقيق :صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961 .

4- ابن بطوطة،محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ،(ت: 779هـ/1377م) ،تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار،دار الفكر، بيروت،1968 .

5- ابن تغري بردي،جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي،(ت: 874هـ/1469م)،النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، ج5،تقديم:محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،1992.

6- ابن جبير، محمد بن أحمد،(ت: 616هـ/1219م)، الرحلة، تقديم:محمد مصطفى زيادة،مركز ودود للمخطوطات،(د.ت).

7- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد،(ت: 597هـ/1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، ج17،تحقيق:محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة: نعيم زوزو،دار الكتب العلمية ،ط 1 ، بيروت،1992.

8- ابن حزم ،أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ،(ت: 456هـ/1063م)،جمهرة أنساب العرب ، تحقيق و تعليق:عبد السلام محمد هارون،دار المعارف،ط5،القاهرة،(د.ت).

9.ـــــــــ،الفصل في الملل و الأهواء و النحل،ج1،تحقيق:محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة، دار الجيل ، بيروت،(د.ت).

10- ابن حوقل،أبو القاسم محمد بن علي الموصلي،(ت:356هـ/966م) ،المسالك و الممالك،مطبعة بريل،ليدن ، 1872.

11- ابن خرداذبة،أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله،(ت: 300هـ/912م)،المسالك و الممالك،مطبعة بريل،ليدن ، 1889.

12- ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي،(ت: 808هـ/1405م)،ديوان المبتدأ و الخبر،في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج 2، مراجعة : سهيل زكار و خليل شحادة ،دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ،بيروت،2000.

13- ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ،(ت: 681هـ/1282م)،وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان،الجزء 7،تحقيق:إحسان عباس،دار صادر، بيروت ،(د.ت).

14- ابن شاهنشاه ، محمد بن تقي الدين عمر، (ت: 617هـ/1220م) ، مضمار الحقائق و سر الخلائق ، تحقيق:حسن حبشي،عالم الكتب للنشر و التوزيع،القاهرة، (د.ت).

15- ابن شداد،بهاء الدين،(ت:632هـ/1234م)، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ، تحقيق:جمال الدين الشيال ،مكتبة الخانجي ،ط2،القاهرة،1994

16- ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم،(ت: 684هـ/1285م) ،الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، ج2، تحقيق:يحي عبارة،دار صادر،بيروت،(د.ت).

17- ابن الطقطقا،محمد بن علي بن الطباطبا ،(ت: 646هـ/1258م)، بالفخري في الآداب السلطانية،دار صادر، بيروت،(د.ت).

18- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهون المالطي،(ت: 660هـ/1262م)،تاريخ مختصر الدول، تصحيح : الأب أنطوان صالحي،الرائد اللبناني للنشر،ط2،لبنان،1994.

19- ابن العديم ،كمال الدين أبي القاسم عمر ابن أحمد بن هبة الله ، (ت: 660هـ/1261م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب،جزآن 2،1،تحقيق: سهيل زكار،دار الكتاب العربي،ط1،دمشق ،1997.

20- ابن عساكر،أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله،(ت: 571هـ/1175م)، تاريخ مدينة دمشق، الجزء 57،تحقيق:محب الدين أبي سعيد و عمر بن غرامة العمروي،دار الفكر للنشر و التوزيع،بيروت، 1995.

21- ابن العماد،شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد، الحنبلي،(ت: 1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب،المجلد5،تحقيق:عبد القادر أرناؤوط،دار ابن كثير،ط1 ، بيروت،1989.

22-ابن القلانسي،حمزة بن أسد بن علي بن محمد،(ت: 555هـ/1160م)،تاريخ دمشق،تحقيق:سهيل زكار،دار حسان للطباعة و النشر،ط1،دمشق،1983.

23-ابن قاضي شهبة،بدر الدين أبي الفضل محمد بن تقي الدين (ت: 874هـ/1469م)، الكواكب الدرية في السيرة النورية،مكتبة المصطفى،(د.ت).

24- ابن كثير،إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي،(ت: 774هـ/1373م)،البداية و النهاية،الأجزاء 1، 7،5، تحقيق،جودة محمد جودة و حسيني الشعراوي، دار ابن الهيثم ، ط1،القاهرة،2006.

25- ابن واصل،جمال الدين محمد بن سالم (ت: 697هـ/1298م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،الجزآن 1، 2،تحقيق:جمال الدين الشيال،(د.ت).

26-أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود، (ت:732هـ/1331م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت).

27 ـــــــ،المختصر في أخبار البشر، الأجزاء 1، 2، 3، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، القاهرة، (د.ت).

28- أبو شامة،الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي،(ت: 665هـ/1267م) ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية،الأجزاء 1، 2، 3، 4،تعليق:إبراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية،بيروت،(د.ت).

29- أسامة بن منقذ بن مرشد بن علي ،(ت: 584هـ/1185م)،كتاب الإعتبار،تحرير:فيليب حتي ، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،(د.ت).

30- الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين،(ت: 613هـ/1216م)،أخبار الدول المنقطعة ،تحقيق : عصام مصطفى هزايمية و محمد عبد الكريم محافظة و آخرون ، دار الكندي للنشر و التوزيع ، ط1،الأردن ،1990.

31- إسحاق بن حسين المنجم،أكام المرجان في ذكر المدائن في كل مكان،مكتبة المصطفى،(د.ت).

32- الإصطخري،أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ،(ت: 350هـ/960م)، المسالك و الممالك،مطبعة بريل، ليدن،1879.

33- الأصفهاني،العماد الكاتب، (ت: 597هـ/1200م)،تاريخ دولة آل سلجوق،تحقيق:لجنة إحياء التراث العربي،دار الآفاق الجديدة، ط3،بيروت،1980.

34 ــــ،الفتح القسي في الفتح القدسي،دار المنار،ط1، 2004.

35- بطرس توديبور،تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس،ترجمة:حسين محمد عطية،تقديم:جوزيف نسيم يوسف،دار المعرفة الجامعية،القاهرة ،2001.

36- البغدادي،عبد اللطيف يوسف،(ت: 629هـ/1231م)،المراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، المجلد 1، تحقيق و تعليق:علي محمد البجاوي،دار الجيل،ط1،بيروت،1992.

37- البنداري، الفتح بن علي،(ت: 622هـ/1225م)،سنا البرق الشامي،تحقيق:فتحية النبراوي،مكتبة الخانجي، القاهرة،1959.

38- بنيامين التطيلي، الرحلـة (561- 569هـ/ 1165-1173م)،ترجمة: عزرا حداد،دار الوراق للنشر،ط 1، بغداد،2011.

39- بيبرس المنصوري الداواداري،(ت: 725هـ/1325م)،مختار الأخبار في تاريخ الدولة الأيوبية و دولة المماليك حتى سنة 702هـ،تحقيق:عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط1،(د.ت).

40- حبيب أبو جعفر محمد،مختلف القبائل و مؤتلفها،تحقيق:إبراهيم الأبياري،دار الكتاب المصري،القاهرة،(د.ت).

41- الحسيني،صدر الدين علي بن ناصر،أخبار الأمراء و الملوك السلجوقية،تحقيق:محمد نور الدين،دار اقرأ، ط1،بيروت،1985.

42- الذهبي،الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز أبو عبد الله، (ت: 748هـ/1347م)، تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام ، الجزء 35،تحقيق:عمر عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي،ط 1، 1994.

43ـــــــ،العبر في خبر من غبر،ج 3،تحقيق:أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول،دار الكتب العلمية ، بيروت،(د.ت).

44- ريموندا جيل،تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس،ترجمة:حسين محمد عطية،دار المعرفة،الإسكندرية،2000.

45- السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن ،(ت:911هـ/1505م)،تاريخ الخلفاء،دار الفكر،بيروت،(د.ت).

46 ـــــــ،إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى،جزآن 1، 2،دار الكتب و الوثائق القومية،القاهرة 2005.

47- الصفدي،صلاح الدين خليل بن أيبك،(ت: 764هـ/1070م)،الوافي بالوفيات،الجزء 10،تحقيق:أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى ،دار إحياء التراث العربي، ط1،بيروت،2000.

48- الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، (224هـ/310م)، تاريخ الرسل و الملوك، الجزء 3، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، القاهرة، (د.ت)

49- العمري، شهاب الدين بن فضل الله(ت: 749هـ/1348م)، مسالك الأبصار و ممالك الأمصار (المسالك و الآثار و الأقاليم)،الجزء 1،تحقيق:عبد الله بن يحي السريحي، دار الكتب الوطنية ،أبو ظبي ،2003.

50- فوشيه الشارتري،تاريخ الحملة إلى القدس،ترجمة:زياد العسلي،دار الشروق للنشر و التوزيع ط1،عمان،1990.

51- القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود ،(ت: 682هـ/1283م)،آثار البلاد و أخبار العباد،دار صادر، بيروت، (د.ت).

52- القلقشندي،أحمد بن علي (ت: 821هـ/1418م)،صبح الأعشى في صناعة الإنشا،الجزآن 1، 4،دار الكتب المصرية،القاهرة،1922.

53- ماركو بولو،(ولد حوالي 643-724هـ/1245-1324م)،رحلات ماركو بولو،الجزء 1،ترجمة:عبد العزيز جاويد،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2 ،القاهرة ،1995.

54- مؤلف مجهول،تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، مراجعة:سليم حسن هشي،منشورات دار لحد خاطر،ط2،بيروت،1984.

55- المسعودي،أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، بالتنبيه و الإشراف،مطبعة بريل،ليدن،1893.

56- المقدسي،شمس الدين أبي عبد اه محمد بن أحمد ،(ت 387هـ/997م)،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل،ط2،ليدن،1909.

57- المقريزي ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، (ت: 845هـ/1441م)، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الجزء 3،تحقيق:محمد زينهم و مديحة الشرقاوي ، مكتبة مدبولي،ط 1، القاهرة ، 1997.

58ـ ـــــ،البيان و الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب،طبعة ليدن،(د.ت).

59 ـــــ، السلوك لمعرفة دول الملوك،الجزء 1،تحقيق:محمد عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية،ط 1،بيروت، 1997،

60- ناصر خسرو ،(ت:480هـ/1087م)، سفر نامة، مكتبة المصطفى،(د.ت).

61- النويري،شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ،(ت: 733هـ/1332م)،نهاية الأرب في فنون الأدب،الجزء 19، تحقيق:عبد الحميد ترجاني و عماد علي حمزة،دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،2004.

62- الواقدي،محمد بن عمر،(ت: 207هـ/826م)،فتوح الشام،دار الجيل،بيروت،(د.ت).

63- وليم الصوري،الحروب الصليبية،الأجزاء: 2، 3، 4، و ذيل وليام الصوري،ترجمة:حسن حبشي،الهيئة العامة للكتاب،القاهرة،1992.

64- اليافعي،أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ،(ت: 768هـ/ 1366م)،مرآة الجنان و عبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،الجزء 3،مراجعة :خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت،1997 .

65- اليعقوبي،أحمد بن أبي يعقوب جعفر بن دهب بن واضح ،(ت: 284هـ/ 879م)، البلدان،دار صادر،بيروت، (د.ت).

66-ياقوت الحموي،شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله،(ت: 626هـ/1228م)،معجم البلدان 5 أجزاء ، دار صادر،بيروت ،1977.

2/ المـــراجع العربـية و المعـربة:

1- أحمد أمين ،فجر الإسلام،دار الكتاب العربي،ط10،بيروت،1969.

2- أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي و الفاطمي،دار النهضة العربية ،بيروت،(د.ت).

3- أحمد الشامي، صلاح الدين الأيوبي و الصليبيون (تاريخ الدولة الأيوبية)، مكتبة النهضة العربية ،ط 1 ،القاهرة ،1991.

4ـــــ،تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى،دار النهضةالعربية،ط1،القاهرة،1985.

5- أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية،مؤسسة روزاليوسف ، القاهرة، 1977.

6 ـــــ،شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى،1977.

7 ــــ ،الرحلة و الرحالة المسلمون،دار البيان العربي للطباعة و النشر،جدة،(د.ت).

8- أرشيبالد.ر.لويس، القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م)،ترجمة:أحمد محمد عيسى ، مراجعة:محمد سفيق غربال،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،(د.ت).

9-أرنست باكر،الحروب الصليبية،ترجمة:السيد الباز العريني،دار النهضة العربية،ط2،بيروت،(د.ت).

10- أشرف صالح محمد السيد،حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع القرن الحادي عشر الميلادي ،الفسطاط التاريخية ،القاهرة،2007.

11- ألبير شاندور،صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام،،ترجمة:سعيد أبو الحسن ،مراجعة و تحقيق:نديم مرعشلي، عين للدراسات،دمشق،1988.

12- أنتوني بردج،تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة:أحمد غسان سبانو و نبيل الجيرودي،مراجعة:سهيل زكار،دار قتيبة ، دمشق ،1985.

13- أيمن فؤاد السيد،الدولة الفاطمية تفسير جديد،الدار المصرية اللبنانية،ط1،القاهرة،1992.

14- إبراهيم سعيد فهيم محمود،يافا و دورها في الصراع الإسلامي الصليبي،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007.

15- إسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة و مسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية،دار المعارف،القاهرة، 2001.

16 ـــــــ،الدولة الأيوبية و الصليبيون،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، 1990.

17-إفرام عيسى يوسف،الحملات الصليبية كما يرويها المؤرخون السريان،ترجمة: فخري العباسي،دار الطليعة للنشر و التوزيع،ط1،بيروت،2010.

18- باسيل نيكتين ، الكرد،تقديم و مراجعة: صلاح برواري،منشورات مجلة (د.م.ن)، 1993.

19- بطرس مراياتي و آخرون ،دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة (الكنائس الشرقية الكاثوليكية)،م 2،دار المشرق ، بيروت،(د.ت).

20- تيسير بن موسى ،نظرة عربية على الغزوات الإفرنجية من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين ،دار العربية للكتاب ،(د.ت).

21- جوناثان رايلي سميث،الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس و قبرص (1050-1310م) ترجمة: صبحي الجابي، دار طلاس، ط1،دمشق،1999.

22 ـــــ،الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية،ترجمة:محمد فتحي الشاعر،الهيئة العامة للكتاب،القاهرة، 1999 .

23- جيمس ريستون، مقاتلون في سبيل الله (صلاح الدين الأيوبي و ريتشارد قلب الأسد) و الحملة الصليبية الثالثة،ترجمة :رضوان السيد،مكتبة العبيكان،ط1،الرياض،2002.

24- حاتم عبد الرحمان الطحاوي،الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام ،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، ط1،القاهرة،(د.ت).

25- حامد زيان غانم زيان،الصراع السياسي و العسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية،دار الثقافة للنشر ،ط1،القاهرة ،1983.

26- حسن عبد الوهاب حسين،مقالات و بحوث في التاريخ الاجتماعي للحرب الصليبية،دار المعرفة الجامعية، (د.م.ن)،1997.

27- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي- الديني- الثقافي- الاجتماعي، ج 1، دار النهضة العربية، القاهرة، 2001.

28- حسنين محمد ربيع ،دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية،دار النهضة العربية، القاهرة،1983.

29- حسن العويدات،العرب النصارى (عرض تاريخي)،الأهلي للطباعة و النشر و التوزيع ،ط1،دمشق،1992.

30- حسين مؤنس،نور الدين بن زنكي،فجر الحروب الصليبية،الزهراء للإعلام العربي،ط2،جدة ، 1984 .

31- حمدي عبد المنعم،محمد حسنين،دراسات في تاريخ الأيوبيين و المماليك،دار المعرفة الجامعية ،القاهرة، 2000 .

32- ر.سي.سميل،فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر(1079-1193م)،ترجمة:محمد وليد الجلاد ،دار طلاس،ط1،دمشق،1985.

33- رأفت محمد النبراوي ، النقود الصليبية في الشام و مصر،مكتبة القاهرة،2004.

34- رضا السيد حسن، الصليبيون و آثارهم في جبل عامل، دار مصباح الفكر،بيروت،(د.ت).

35- زامباور ،معجم الأنساب و الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ،ترجمة:إسماعيل كاشف و آخرون، أخرجه: زكي محمد حسن بك و حسن أحمد محمود،دار الرائد العربي،لبنان،1980.

36- زبيدة عطا ،بلاد الترك في في العصور الوسطى (بيزنطة و سلاجقة الروم و العثمانيون)،دار الفكر العربي ، (د.ت).

37- زينب عبد القوي، الإنجليز و الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،ط 1، القاهرة،1996.

38- سالم محمد حميدة، الحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر، ج 2، دار الشؤون الثقافية العامة، ط 1 ،بغداد ، 1990 .

39- ستانلي لين بوول، صلاح الدين و سقوط مملكة بيت المقدس،ترجمة:فاروق سعد أبو جابر،الأهرام للتوزيع ،ط1،القاهرة،1995.

40- ستيفن رنسيمان،تاريخ الحروب الصليبية، أربعة أجزاء،ترجمة:السيد الباز العريني، دار الثقافة،بيروت،1997.

41-سحر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،2009 .

42- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ج2،مكتبة الأنجلو المصرية ،ط4، القاهرة،1986 .

43ــــــ ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة، 1964 .

44ــــــ،تاريخ أوربا في العصور الوسطى،(النظم و الحضارة)، ج2،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،1959.

45- سيد أمير علي،مختصر تاريخ العرب،ترجمة:عفيف البعلبكي،دار العلم للملايين،ط2،بيروت،1967 .

46- السيد الباز العريني،الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيين)،دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت،1167 .

47- سيد علي الحريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، ط3، القاهرة، 1985.

48- شاكر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد و الملك الزاهد المفترى عليه، دار القلم، ط1، دمشق، 1998.

49- صابر محمد دياب،سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط،عالم الكتب،ط 1، القاهرة، 1973.

50- صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر و الحجاز زمن الفاطميين و الأيوبيين، العربي للنشر و التوزيع، القاهرة، (د.ت).

51- عبد الحافظ عبد الخالق، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، القاهرة، 2007.

52- عبد الرحمن حميدة،جغرافية الوطن العربي،دار الفكر،ط2،دمشق،1997.

53- عبد الرحمن زكي،الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة،مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة،(د.ت).

54- عبد اللطيف عبد الهادي السيد،الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث (1143-1163م)،المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية،2006.

55- عبد الله خورشيد البري،القبائل العربية في مصرفي القرون الثلاثة للهجرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،1992 .

56- عبد الله ناصح علوان،صلاح الدين الأيوبي بطل حطين و محرر القدس من الصليبيين (532_589هـ)،دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع،ط1،(د.ت).

57- عبد المجيد همو،الفرق و المذاهب اليهودية منذ البدايات،مراجعة: إسماعيل الكردي،الأوائل للنشر و التوزيع ، ط2 ،دمشق،2004.

58- عبد المنعم محمد حسنين،سلاجقة إيران و العراق،مكتبة النهضة،المصرية،ط2،القاهرة،1970.

59- عزيز سوريال عطية،الحروب الصليبية و تأثيرها على العلاقات بين الشرق و الغرب،ترجمة:فيليب صابر حمد سيف،مراجعة:أحمد خاكي، دار الثقافة ،ط2،القاهرة،(د.ت).

60- علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الصليبيين،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ،ط1،القاهرة،1996.

61- علية عبد السميع الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، 2001.

62- فاروق عمر فوزي و محسن محمد حسين،الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط (13هـ-923هـ/634-1517م)،دار الشروق،ط1،الأردن،1999.

63- فيليب حتي،تاريخ سورية و لبنان و فلسطين،ترجمة :جورج حداد و عبد الكريم رافق،مراجعة:جبرائيل جبور،دار الثقافة،ط3،بيروت،(د.ت).

64 ـــــ ، العرب تاريخ موجز،دار العلم للملايين ،بيروت، 1991 .

65- ف.ويستنفلد،جدول السنين الهجرية بلياليها و شهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها و شهورها ، ترجمة:عبد المنعم ماجد و عبد المحسن رمضان، ،مكتبة الأنجلو المصرية،ط1،القاهرة،1980.

66- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإنسانية، القاهرة، 1993.

67- قدري قلعجي،صلاح الدين الأيوبي و قصة الصراع بين الشرق و الغرب خلال القرنين الثالث عشر و الرابع عشر للميلاد،شركة المطبوعات للتوزيع و النشر،ط1،بيروت،1992.

68- كامل سعفان، اليهود تاريخ و عقيدة،،دار الاعتصام،القاهرة،(د.ت).

69- كلود كاهن ،الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية،ترجمة:أحمد الشيخ،سينا للنشر ،ط1،القاهرة،1995.

70- ل.ج.شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة:مجد الدين حفنة ناصف، مراجعة:علي آدم، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).

71- محمد أحمد محمود حسين،اليهودية التبشيرية في الكتب المقدسة و إلى اليوم، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة، (د.ت).

72- محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة،(د.ت).

73- محمد فتحي الشاعر، الأكراد في عهد عماد الدين زنكي(521-541هـ/1127-1146م)، دار المعارف ، (د.م.ن)،1991.

74- محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي و عصره،دار الكتب المصرية،القاهرة، 1927.

75- محمد سهيل طقوش،تاريخ السلاجقة في بلاد الشام،دار النفائس،ط3،بيروت،(د.ت).

76- محمد صالح منصور، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1996.

77- محمد عدنان البخيت،مملكة الكرك في العهد المملوكي،مكتبة الجامعة الأردنية،ط1،الأردن،1976 .

78- محمد كرد علي،خطط الشام،أربعة أجزاء،المطبعة الحديثة،دمشق، 1925 .

79- محمد مؤنس عوض،في الصراع الإسلامي الصليبي (السياسة الخارجية للدولة النورية) (541-569هـ /1146-1174م)،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،القاهرة،1988.

80 ـــــ،الحروب الصليبية،دراسة نقدية و تاريخية ،تقديم:سعيد عبد الله البيشاوي،دار الشروق ، ط 1،عمان، 1999 .

81 ـــــ،الجغرافيون و الرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،ط1،القاهرة،1995.

82 ـــــ،الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187م)،مكتبة مدبولي،ط 1،القاهرة، 1992.

83 ـــــ،الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية، ط1،القاهرة،2000.

84-محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،2000.

85- محمود محمد الحويري ، الأوضاع الحضارية لبلاد الشام في القرن الثاني عشر و الثالث عشر ميلادي ،دار المعارف،القاهرة،1979.

86 ـــــ ،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة و أثرها في التصدي للصليبيين،دار المعارف،ط 1 ، القاهرة،1992 .

87- مرفت عثمان ، التحصينات الحربية و أدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر و الشام زمن الحروب الصليبية،دار العالم العربي،ط1،القاهرة،2010.

88- مسفر بن سالم عريج الغامدي ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر (491-569هـ/1097-1173م) دار المطبوعات الحديثة،ط1،جدة،1986.

89- مصطفى حنين أحمد، دراسات في تاريخ الدولة العربية، دار النشر المغربية، ط1، الدار البيضاء، 1986.

90- مصطفى الحياري،القدس زمن الفاطميين و الفرنجة،مكتبة عمان،عمان، 1998 .

91- مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، مكتبة الإيمان، ط1، المنصورة، 1997.

92- منى محمد بهجت ، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية و المملوكية في مصر ،ج1،مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،(د.ت).

93- مهدي سعيد عمران، معركة حارم التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين محمود زنكي(1164م -559هـ)،(د.م.ن).

94- ميخائيل زابوروف،الصليبيون في الشرق،ترجمة:إلياس شاهين،دار التقدم ،موسكو،(د.ت).

95- ناجي علوش،الوطن العربي الجغرافية الطبيعية و التجارية، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت،1986.

96- نعوم شقير،تاريخ سيناء القديم و الحديث و جغرافيتها ،تقديم:محمد إبراهيم أبو سليم ،دار الجيل ،ط 1، بيروت،1991.

97- نعيم فرح ،الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ،منشورات جامعة دمشق،ط2،دمشق،(د.ت).

98- نواف عبد العزيز الحجة،رحالة الغرب الإسلامي و صورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12-14هـ)،الأهلية للنشر، ط1،عمان، 2008.

99- نورمان.ف.كانتور، التاريخ الوسيط قصة الحضارة البداية و النهاية،ترجمة:قاسم عبده قاسم،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية،ط5،القاهرة،1997.

100- هانس ابراهارد ماير،تاريخ الحروب الصليبية،ترجمة:عماد الدين غانم (د.م.ن)،1985.

101- هايد،تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى،ج 1،ترجمة:أحمد محمد رضا ،مراجعة و تقديم:عز الدين فودة،ج1،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د.ت)،1985.

102- ويلتر، الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع المسيحية،ترجمة:جمال سالم،دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع بيروت،2007.

103- يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين،مملكة بيت المقدس،ترجمة:عبد الحافظ البنا،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية،ط1،القاهرة،2001.

104 ـــــ،عالم الصليبيين،ترجمة و تحقيق:قاسم عبده قاسم و محمد ليفة حسن،دار المعارف،ط 1 ، القاهرة، 1981.

3/ المـــراجع الأجـــنبية:

The Story Of The "Archer And Chales .L. Kinsford,The Crusades 1-
Don,194,171."Latin Kingdom of Jerusaleme G.P Putnaméssons , Lond
2- C.W.C Oman ; B.A, the art of war in the middle ages (378-1515)
oxford B.H. Blackwell, London, 1885,

3- Club du millénaire, zénith et nadir du royaume de Jérusalem ;
.Baudouin et saladin
4- Nicolle and Adam hook, crusader castles in the holy land (1097-
.1192), osprey publshing oxford,great britain,2004

4- Hamilton Gibb, the life of Saladin from the Works of Imad ad-din and
.clarendon press Baha ad-din, oxford at. The
5- Paul Brandily, Louis- Marie Bureau et des autres, le royaume de
Jérusalem de la terre sainte au syncretisme religieux, club du millénaire.

6- René Grousset, l'épopée des croisades, librairie Académique Perrin,
.Paris, 1995
Ronni Ellenblum, crusader castles and Modern History, Cambridge 7-
.University press, new York, 2007
.8- Stephen Miller, Christian History

4/ الرسـائل الجامعـية:

1/ عبد الرحيم حسين سعد الدين أبو عون، إقطاعية حيفا و دورها في الصراع الإسلامي الإفرنجي (493-690ه /1100-1291م)،جامعة النجاح الوطنية، رسالة ماجستير غير منشورة،نابلس،2004.

2/ عودة سعيد عودة الكرد، فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (246-492هـ/877-1099م)،رسالة ماجستير غير منشورة،الجامعة الإسلامية،غزة،2008.

3/كمال بن مارس، الظهير الشامي في عصر الحروب الصليبية (من الحملة الصليبية الأولى إلى الحملة الصليبية الثالثة) (491-588هـ/1096-1192م) رسالة دكتوراه غير منشورة،جامعة الأمير عبد القادر،قسنطينة،2004.

4/محمد سامي أمطير،الحياة الاقتصادية في بيت المقدس و جوارها في الحروب الصليبية (492-583هـ/1099-1187م)،ماجستير غير منشورة،نابلس،2004.

5 /الـدوريـــــات:

1- جلال حسين سلامة، التهجير القصري للسكان فلسطين في العهد الصليبي في الفترة الواقعة بين (492 -551هـ/1099-1156م)،مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث و الدراسات،العدد الثالث عشر،2008.

2- رياض مصطفى شاهين،هدنة الرملة و الظروف المحيطة بها،مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد التاسع ،العدد الأول، غزة،2001.

3- سهيل زكار،الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية،دمشق،ج16، 1995.

4- علي محمد محمد الصلابي، موسوعة تاريخ العصور الوسطى ،الغزو الصليبي في عصر الدولة الزنكية،دار الكتاب الحديث،ط1،القاهرة،2012.

5- محمد سليما ن الطيب،موسوعة القبائل العربية،بحوث ميدانية و تاريخية ،ج 1،دار الفكر العربي ،ط 2 ،القاهرة، 1997.

6/ الموسـوعـات و المعــاجم :

1-أمين واصف بك ،معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية،تحقيق:أحمد زكي باشا،مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت).

2- خير الدين الزركلي،الأعلام (قاموس تراجم الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين، ج 5،دار العلم للملايين،ط15،بيروت،(د.ت).